المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا



الأسرار البلاغية للتقديم والتأخير في سورة البقرة

« دراسة تطبيقية »

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها
تخصص البلاغة والنقد

إعداد
الطالب / خالد بن محمد بن إبراهيم العثيم

إشراف
الدكتور / صالح بن سعيد الزهراني

١٤١٨هـ - ١٩٩٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : خالد بن محمد بن إبراهيم العثيم كلية : اللغة العربية قسم : الدراسات العليا

الأطروحة مقدمة لنيل درجة : الماجستير في تخصص : البلاغة والنقد

عنوان الأطروحة : ((الأسرار البلاغية للتقديم والتأخير في سورة البقرة دراسة تطبيقية))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فبناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه _ والتي تمت مناقشتها بتاريخ ١٦/ ٢/ ١٤١٩هـ _ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف	المناقش الداخلي	المناقش ~~الخارجي~~ الداخلي
الاسم : د/ صالح بن سعيد الزهراني	الاسم : أ.د/ محمد محمد أبو موسى	الاسم : د/ دخيل الله بن محمد الصحفي
التوقيع : [توقيع]	التوقيع : [توقيع]	التوقيع : [توقيع]

يعتمد

رئيس قسم الدراسات العليا

الاسم : أ.د/ محسن بن سالم بن رشيد العميري

التوقيع : [توقيع]

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة.

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص رسالة ماجستير

عنوان الرسالة « الأسرار البلاغية للتقديم والتأخير في سورة البقرة - دراسة تطبيقية »

انتظم البحث في مقدمة وأربعة فصول وخاتمة .

وفي المقدمة أشار الباحث إلى تميز البيان القرآني على البيان البشري ، وأثره البيّن في تكوين وتقوية الملكة اللغوية لدى الباحثين ، وألمح إلى أن البلاغة القرآنية لاتزال بكرا في حاجة إلى جهود الباحثين للكشف عن خصائص نظم القرآن وأساليبه البليغة .

وكان الفصل الأول عن تقديم المسند إليه وينتظم مبحثين :

المبحث الأول : تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي .

المبحث الثاني تقديم المسند إليه على الخبر المشتق .

وأبان الباحث فيهما ما للسياق القرآني من أثر في توجيه السر البلاغي .

أما الفصل الثاني فكان عن تقديم المسند وينتظم ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تقديم المسند المفرد .

المبحث الثاني : تقديم المسند الجملة .

المبحث الثالث تقديم المسند شبه الجملة .

والفصل الثالث عن تقديم المتعلقات وينتظم مبحثين :

المبحث الأول : تقديم المتعلق على عامله .

المبحث الثاني : تقديم بعض المتعلقات على بعض .

والفصل الرابع : تقديم بعض المعاني على بعض ، وكشف البحث فيه عن عشرة أسباب لتقديم المعاني واحتمال غيرها ، وجاء الفصل في مبحثين :

المبحث الأول : تقديم المفرد .

المبحث الثاني : تقديم الجملة .

ثم الخاتمة ، وفيها أبرز النتائج التي كشف عنها البحث ومن أهمها :

أولاً : أن الأسلوب القرآني أجلّ من أن يحكم بقاعدة مطردة ، فقد رأينا ما للسياق من تحديد لدلالة الاختصاص أو عدمه ، فالتركيب بذاته لا يفيد التخصيص ، وإنّما يستفاد من بعض مواقعه معنى التخصيص بالقرائن .

ثانياً : أن تراث العربية واحد ، وجهود العلماء تتكامل ولا تتفاضل ، والوعي بعبقرية هذه اللغة وإدراك أسرارها لايمكن الوقوف عليه إلاّ من خلال رؤية شاملة تعتدُّ بكل جهد تناول الدرس اللغوي

الباحث	المشرف	عميد الكلية
خالد بن محمد العثيم	د/ صالح بن سعيد الزهراني	أ . د . حسن بن محمد باجودة

- المقدمة :

إنّ أفضل ما يفتتح به الكلام حمد الله ، وأحق ما يمسك به الأنام دين الله وأحرى ما يزجى في تفهمه الأيام كتاب اللّه ، فالحمد للّه الذي هدانا للإيمان،وفهمنا علم القرآن،وجنبنا عبادة الأوثان . والصلاة والسلام على نجيّ خطابه ، وسفير كتابه، محمد وآله وأصحابه[1] والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ... أما بعد ...

فالبيان القرآني يمتازعلى البيان البشري ، وله سلطان عجيب على القلوب ليس لكلام آخر،حتى ليبلغ أحيانا أن يؤثر بتلاوته المجردة على الذين لا يعرفون من العربية حرفا[2] إن هذا القرآن يخاطب الكينونة البشرية بجملتها ، فلا يخاطب ذهنها المجردة مرة ، وقلبها الشاعر مرة،وحسها المتوفز مرة،ولكنه يخاطبها جملة ، ويخاطبها من أقصر طريق ، ويطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرة واحدة كلما خاطبها .. وينشيء فيها بهذا الخطاب تصورات وتأثرات وانطباعات لحقائق الوجود كلها لا تملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تاريخهم كله أن تنشئها بهذا العمق وبهذا الشمول ، وبهذه الدقة وهذا الوضوح ، وبهذه الطريقة وهذا الأسلوب أيضاً[3] .

لقد كان القرآن معجزاً وسيبقى الإجماع على إعجازه منعقداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

---

١ - انظر المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى لأبي النصر السمرقندي المعروف بالحدادي ، ت / صفوان عدنان داوودي (بيروت : دار القلم ، ط / ١ ، ١٤٠٨هـ) صـ ٥١ .

٢ - انظر في ظلال القرآن ، لسيد قطب (بيروت : دار الشروق ، ط / ١٣ ، ١٤٠٧هـ) ٣ / ١٧٨٦ .

٣ - انظر المرجع نفسه ٣ / ١٧٨٥ - ١٧٨٨ .

تذوق العرب القرآن بفطرتهم،ودهشوا لبلاغته حتى قال قائلهم:« إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه »[1] .

حتى الجنّ انقادت إليه،وأذعنت لسلطانه ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۞ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾[2] .

وكتاب بهذه المنزلة حريٌ بطالب اللغة شحذ همته بدراسته،والوقوف على شيء من أسراره،ففيه أفضل الأوقات تنفق ، والنفس تجهد ، والذهن يكد وأكرم بذلك ، فهو القمة في البيان ، ألفاظه غاية في السبك،ومعانيه غاية في الإحكام ، ولهما أثر فاعل في تكوين وتقوية الملكة اللغوية لدى الباحث ، ولابد لمن أراد التصدي لدراسة الإعجاز البلاغي،أن يكون ذا ثقافة عميقة وواسعة في آنٍ واحد،مع حسّ فنّي مرهف يعرف به طبقات الكلام ودرجاته في البلاغة ، قال ابو هلال العسكري :

(وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم البلاغة ، وأخلّ بمعرفة الفصاحة ، لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التأليف ، وبراعة التركيب وما شحنه به من الإيجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمّنه من الحلاوة وجلّله من رونق الطّلاوة ، مع سهولة كلمه وجزالتها ، وعذوبتها وسلاستها)[3] .

---

١ - أخرج القصة البيهقي في دلائل النبوة من طريق ابن عباس في باب اعتراف مشركي قريش بما في كتاب الله من الإعجاز ٢ / ١٩٨ - ١٩٩ ، وانظر السيرة النبوية لابن كثير ، ت/ د. مصطفى عبدالواحد (بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٢هـ) ١ / ٤٩٩ .

٢ - الجن الآيات ١ - ٢ .

٣ - كتاب الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري ، ت / علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت : المكتبة العصرية ، ١٤٠٦هـ) صـ ١ .

ومن هذا المنطلق عمد الباحث بعد استشارة أساتذته ومشايخه إلى موضوع في بلاغة القرآن وهو :

«الأسرار البلاغية للتقديم والتأخير في سورة البقرة دارسة تطبيقية»

وقد تعددت دوافع اختيار هذا الموضوع وكان من أهمها ما يلي :

أولاً : أهمية القرآن الكريم في الدراسات اللغوية والبلاغية ، فهو الأصل الأول من أصول العربية ، لما فيه من جلال المعاني وجمال المباني .

ثانياً : مكانة سورة البقرة من القرآن فهي كما يقول الرسول ﷺ:«فسطاط القرآن»[1] أي مدينته الجامعة[2] . وقال ﷺ:«إنّ لكل شيء سناما وإنّ سنام القرآن سورة البقرة»[3] .

ثالثا : دراسة أساليب القرآن والكشف عن أسرارها مبحث شائق،وفيها يكمن الإعجاز،واسلوب التقديم والتأخير واحد منها .

رابعا : حداثة مثل هذه الدراسات البلاغية وقلتها ، إذ درج الكثير من العلماء في كلامهم عن إعجاز القرآن أن يتكلموا عن ذلك مجملا ، فكانت الحاجة إلى أن يفصَّل في مثل ذلك .

---

١ - جزء من حديث أخرجه الدارمي في سننه في كتاب فضائل القرآن ، باب في فضل سورة البقرة برقم ٣٣٧٦ .

٢ - انظر أساس البلاغة للزمخشري مادة فسط ، ولسان العرب لابن منظور ، مادة فسط .

٣ - أخرجه الدرامي في سننه في كتاب فضائل القرآن ، باب فضل سورة البقرة برقم ٣٣٧٧ ، والترمذي في سننه في كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء في فضل سورة البقرة وآية الكرسي برقم ٢٨٧٦ ، والحاكم في مستدركه في كتاب التفسير برقم ٣٠٢٦ وقال : هذا صحيح الاسناد ولم يخرجاه .

خامساً : الأسرار البلاغية التي يقف عليها الباحث،وأثرها في الكشف عن الإعجاز البلاغي للقرآن .

سادسا : الكشف عن خصوبة ظاهرة من الظواهر اللغوية في اللغة القرآنية .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هذه الظاهرة قد تناول جزءاً منها بعض الدارسين والباحثين في مؤلفاتهم،أذكر منهم الدكتور محمود السيد شيخون في «أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم» والدكتورة ابتسام أحمد حمدان في «الحذف والتقديم والتأخير في ديوان النابغة الذبياني» والأستاذ علي النملة في «الأحكام النحوية للتقديم والتأخير دراسة نظرية تطبيقية» لكنّ هذه الدراسات تختلف عمّا ذهبت إليه في هذا البحث ، فهي إما نحوية صرف ، وإما دراسات بلاغية تعرض للقضية عرضاً سريعاً فلا تتعمق فيها .

ويتكون البحث من مقدمة وتمهيد وأربعة فصول وخاتمة .

أ - المقدمة : وقد أبنت فيها روعة البيان القرآني ، وتأثيره على السامعين ، وأسباب اختياري للموضوع ، وبيان الخطة التي سار عليها البحث ، وملامح المنهج الذي سلكته في كتابة هذا البحث ، وبعض الصعوبات التي واجهتُها .

ب - التمهيد : وقد أوضحت فيه طرفا من إعجاز القرآن ، وأهمية التقديم والتأخير من خلال المباحث التالية :

المبحث الأول : إعجاز القرآن ، وتحدثت فيه عن تعريف للمعجزة،ونشأة مصطلح الإعجاز ، وأوجه الإعجاز ، والراجح منها .

المبحث الثاني : التقديم والتأخير ، تعريفه ، والاهتمام به عند النحويين والبلاغيين ، وتحدثت فيه عن شجاعة العربية ، والتقديم والتأخير عند كل من

سيبويه وعبدالقاهر الجرجاني ، ثمّ موازنة بين الدراسة النحوية والدراسة البلاغية لهذه الظاهرة .

ج – **الفصل الأول :** وعنوانه «تقديم المسند إليه» وفيه مدخل ومبحثان .

١ – المدخل : أبنت فيه عن أقسام الجملة العربية ، والمسند إليه وأغراض تقديمه ، والتراكيب التي يمتنع فيها التقديم .

٢ – المبحثان وهما :

المبحث الأول : تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي .

المبحث الثاني : تقديم المسند إليه على الخبر المشتق .

وتحت كل مبحث عدة مطالب ، كلّ مطلب يمثل قسما من أقسام المعرفة حسب توافر الشواهد ، فالمطلب الأول : تقديم المسند إليه العلم ، والمطلب الثاني تقديم المسند إليه الضمير ، وهكذا دواليك ، وقد رتبتها حسب ترتيب سيبويه للمعارف ، إلاّ أنّي قدمت العلم على الضمير ، لوجود شاهد فيه لفظ الجلالة ، وهو أعرف المعارف سبحانه .

د – **الفصل الثاني :** تقديم المسند وفيه مدخل وثلاثة مباحث .

١ – المدخل : وفيه أبنت عن المسند وأغراض تقديمه ، وإيضاح أنه لم يأت من مواضع المسند مقدما إلا خبر المبتدأ أو خبر النواسخ ،و(٩٠٪) تقريبا من هذه المواضع أتت مجرورة كان القدح المعلى فيها لحرف اللام ، فكان الحديث عن أنواع الخبر ، واللام الجارة معانيها ودلالالتها ، وعلاقتها بغيرها من الحروف .

٢ – المباحث : وتحمل أسماؤها أقسام الخبر الثلاثة وهي :

المبحث الأول : تقديم المسند المفرد وفي سورة البقرة موضعان .

المبحث الثاني : تقديم المسند الجملة ، وهو موضع واحد خاص بالجملة الإسمية أمّا الفعلية فقد سبق الإشارة اليه في الفصل الأول ، ولو تقدمت لفقدت وصف الخبرية .

المبحث الثالث : تقديم المسند شبه الجملة وتحته مطلبان .

المطلب الأول : تقديم الجار والمجرور .

المطلب الثاني : تقديم الظرف ، وينتظمان عدة مباحث .

هـ - **الفصل الثالث :** تقديم المتعلقات وفيه مدخل ومبحثان

١ - المدخل : أوضحت فيه المتعلقات ، وأغراض تقديم المتعلق على عامله ، وأغراض تقديم بعض المتعلقات على بعض .

٢ - المبحثان وهما :

المبحث الأول : تقديم المتعلّق على عامله وهو قسمان :

القسم الأول : تقديم المفعول على عامله وتحته مطالب .

القسم الثاني : تقديم الجار والمجرور على عامله وتحته مطالب .

المبحث الثاني : تقديم بعض المتعلقات على بعض وهو قسمان أيضا :

القسم الأول : المنصوبات ، وتحته مطالب .

القسم الثاني : المجرورات ، وتحته مطالب .

و - **الفصل الرابع :** تقديم بعض المعاني على بعض وفيه مدخل ومبحثان .

١ - المدخل : ذكرت فيه عشرة أسباب لتقديم المعاني ، وأشرت فيه إلى أنّه يحتمل غير هذه الأسباب ، ونبهت على تداخل هذه الأسباب بأسباب تقديم المتعلقات عند بعض الأساتذة الأجلاء،وممن لهم باع في دراسة بلاغة القرآن ، وتحدثت

عن التقديم الخفي ، ورجحت خلو القرآن منه .

٢ - المبحثان وهما :

المبحث الأول : تقديم المفرد ، وهو قسمان :

القسم الأول : المفرد المعرفة .

القسم الثاني : المفرد النكرة .

المبحث الثاني : تقديم الجمل وهو قسمان أيضا :

القسم الأول : تقديم الجملة الإسمية .

القسم الثاني : تقديم الجملة الفعلية .

ز - الخاتمة : وتحدثت فيها عن أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث

ثـم وضـــعت بعد ذلك فهـــارس تعين القاريء على بغيته وهي كما يلي :

١ - فهرس الآيات القرآنية .

٢ - فهرس الأحاديث الشريفة .

٣ - فهرس الأبيات الشعرية .

٤ - فهرس الأعلام .

٥ - ثبت المصادر والمراجع .

٦ - فهرس تفصيلي للموضوعات .

هذا وقد سلكت للوصول إلى الهدف المنشود من هذا البحث المنهج التالي :

١ - جمع المادة العلمية عن طريق الاستقراء المباشر ، وذلك بقراءة السورة من المصحف ، أو بواسطة كتب التفسير وإعراب القرآن .

٢ - تصنيف المادة العلمية وذلك بإلحاق كل موضع من مواضع التقديم بالفصل الذي ينتظمه .

٣ - حلّلت الآيات التي وردت فيها الشواهد ، ولم آل جهداً في الحديث عن مايرد حولها من نكت بلاغية .

٤ - لم أكتف بجمع الآراء وتنسيق الأقوال ، بل بذلت ما استطعت من بحث وتحقيق وتمحيص ، وكنت أطيل التأمل في كلام العلماء ، وحسبي أنني ناقشت ما يحتاج إلى ذلك ، وأدليت برأيي متأدبا،ومحترما رأي غيري .

٥ - عزوت الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ورقم الآية .

٦ - خرجت الأحاديث ، وعزوتها إلى مظانها ، ذاكراً اسم الكتاب ، والباب الذي ورد فيه الحديث ، ورقمه إن كان الحديث مرقماً .

٧ - نسبت الشواهد الشعرية إلى قائليها - ما أمكنني ذلك - بعزوها إلى ديوان الشاعر - إن وجد - أو تخريجها من مصادر اللغة،وأمهات الكتب التي ورد فيها البيت .

٨ - استعملت في الحاشية الرموز التالية :

ت = تحقيق .

ط = الطبعة .

د،ت = دون تاريخ وذلك في الكتب التي لم يدون عليها تاريخ الطباعة .

ص = الصفحة .

وثمّة صعوبات واجهها الباحث لعل من أبرزها :

أولاً : أنّ التعامل مع نصٍّ قرآني ، وكان السلف يتحرجون من القول في القرآن فكان أبو بكر يقول : «أي أرض تقلني ، وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم»[١] ، وجاء طلق بن حبيب إلى جندب بن عبدالله ، فسأله عن آية من القرآن فقال له : «أحرج عليك إن كنت مسلما لما قمت عني» أو قال «أن تجالسني»[٢] وقال عبدالله بن شوذب حدثني يزيد بن أبي يزيد قال : «كنا نسأل سعيد بن المسيب عن الحلال والحرام ، وكان أعلم الناس ، فإذا سألناه عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع»[٣] .

وعن مسروق قال : «اتقوا التفسير فإنّما هو الرواية عن الله»[٤] .

وبالاستقراء المباشر أرصد مواضع لهذه الظاهرة ، فإذا رجعت إلى كتب التفسير والإعراب مسترشدا لبيان السر البلاغي في التقديم لم أجد شيئاً ، فتحدثني النفس بتركه ، لولا أنّها اطمأنت لتعليق شيخ الإسلام على هذا الحرج قال:« فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف ، محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأمّا من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعا فلا حرج عليه»[٥] فكنت أقرأ تحليل الآية في مصادر كثيرة ، ثم أعيد القراءة ثانية وثالثة

---

١ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (مصر:مطبعة مصطفى البابي الحلبي) د.ت ، ١ / ٣٥ .

٢ - المصدر نفسه ١ / ٣٨ .

٣ - المصدر نفسه ١ / ٣٨ .

٤ - اصول التفسير ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ت/فريال علوان (بيروت : دار الفكر اللبناني ، ط / ١ ، ١٩٩٢م) صـ ٧٤ .

٥ - انظر المصدر السابق صـ ٧٤ ، والتبيان في آداب حملة القرآن للنووي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٣م) صـ ٩٥ - ٩٦ .

إلى أن يشرح الله الصدر ، فأقوم بكتابة ما فهمت بعد قراءة متأنية متعمقة .

ثانياً : صعوبة دون الأولى ، تختص بهيكلة كل فصل ، ومحاولة ملآمة ما بين المباحث في الفصل الواحد ، فلم أعثر على بحث تطرق لدراسة تطبيقية لظاهرة التقديم والتأخير على سورة من سور القرآن ، فكنت أطرح عدة خيارات ، وأقرأ حولها مسترشدا بتوجيهات مشرفي وفقه الله ، ومن ثمّ الأخذ بما يخدم البحث أولاً ، وبما يتناسب مع المباحث الأخرى ثانيا .

ولا يسعني في ختام هذه المقدمة ، إلاّ أن أشكر مولاي الذي أعانني على تمام هذه الدراسة فالحمد له حمداً حمداً والشكر له شكراً شكراً ، فنعم المولى ونعم المعين ، وأشكر والديّ الكريمين والذي كان لدعائهما أكبر الأثر وأحسنه ، فجزاهما ربي عني خير الجزاء،ومدّ في عمرهما على عمل صالح .

وأني بعد شكر الله والوالدين أشكر كل من ساعدني في هذا البحث منذ كان وليداً حتى يفع واشتد ، وأخص بالشكر كلاً من : الأستاذ الدكتور / سليمان بن إبراهيم العائد رئيس قسم الدراسات العليا العربية في كلية اللغة العربية ، فقد ذلّل وفقه الله صعابا اعترضتني في سنيّ الدراسة ، والدكتور / عبداللطيف خليف المشرف السابق على هذا البحث ، والدكتور / صالح بن سعيد الزهراني على تفضله عليّ بالإشراف والتوجيه ، وتواضعه وأريحيته ، وحرصه الشديد على تنمية قدرات الباحث العلمية والفكرية ، وإنّ من حقه عليّ الدعاء له أن يبارك الله في عمله وجهده آمين .

كما أتوجه بالشكر للأستاذين الفاضلين ، عضوي لجنة المناقشة على تفضلهما بقبول قراءة الرسالة ، والتفضل بتقويمها وإصلاح عيوبها ومناقشة كاتبها ورحم الله

من أهدى إلى عيـوبي ، وأشكر كليـة الملك خـالد العسـكرية ممثلة بقسم العلوم الإنسانية ، فقد هيأت لي وقتا صالحاً للبحث والدراسة .

كما أتقدم بالشكر لعمادة كلية اللغة العربية في جامعة أم القرى ممثلة بعميدها ووكيله على ما قدموه من تسهيلات .

ولا يفوتني أن أشكر الأستاذ الفاضل / إبراهيم بن حمد المحيميد المحاضر في جامعة الإمام بالقصيم فقد أفدت منه كثيراً ، والأستاذ / يوسف بن صالح العثيم فقد سهل عليّ كثيراً من عناء طباعة الرسالة وسرعة انجازها .

وأُمّ البنين فشكري لها   وأكرم بشكر على صبرها

فقد تحملت عنائي مدة دراستي .

والله أسأل أن يلهمنا رشدنا،ويعيذنا من شرور أنفسنا،ويرزقنا العلم النافع والعمل الصالح ، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه آجمعين .

التمهيد

- المبحث الأول : إعجاز القرآن .

- المبحث الثاني : التقديم والتأخير ، تعريفه ، والاهتمام به عند النحويين والبلاغيين .

المبحث الأول

إعجاز القرآن

المطلب الأول : تعريف المعجزة .

المطلب الثاني : نشأة مصطلح الإعجاز .

المطلب الثالث :أوجه الإعجاز .

مدخل :

القرآن الكريم حجة الله على عباده ، تنزل به الأمين على الأمين ، في عصر بلغت العربية فيه أوج مجدها وقوتها ... وهذا التنزيل أبرز للقوم من أسرار النظم وجمال التعبير مالا عهد لهم به ، جمال أخذ على القوم مسامعهم ، وهزّ كياناتهم فكانوا فريقين :

فريق راعهم ما يسمعون ، وأشربته قلوبهم فعلموا أنّه الحق فآمنوا وصدقوا ، وفريق آخر ضلوا على علم وأضلوا ، وهم يدركون تماما أنه ليس من عند محمد ﷺ وما هو بقول شاعر أو نفث ساحر ، لكنّهم أعرضوا وكفروا عناداً وطغياناً ، وهؤلاء وأولئك أحسوا بإعجاز القرآن عند سماعهم له ، وإن اختلفت مواقفهم منه ، وتباينت فيه ، لقد كان شعورهم بإعجاز القرآن فطريا وتذوقهم لجماله سهلا قريبا ...(ذكر أبو عبيد أنّ أعرابيا سمع رجلا يقرأ قوله تعالى : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] فسجد وقال سجدت لبلاغته .

وأنّ آخر سمع رجلا يقرأ قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾[2] فقال أشهد أنّ مخلوقا لا يقدر على مثل هذا)[3] .

---

١ - الحجر الآية ٩٤ .

٢ - يوسف جزء من الآية ٨٠ .

٣ - لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضيّة ، للسفاريني (دمشق : مؤسسة الخافقين ، ط / ٢ ، ١٤٠٢هـ) ١ / ١٧٩ .

فلم يرو لنا التاريخ رواية واحدة تفيد أنّ واحداً منهم عارض القرآن ليأتي بمثله مع أن القرآن تحداهم ، وأفسح لهم في المدة ، وطالبهم بخلع آلهتهم ونبذ مألوف عاداتهم، وسفه أحلامهم ، واستباح أموالهم ودماءهم ، وكل ذلك كان يمكن أن ينتهي لو جاءوا بمثل ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [١] أو بمثل ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾[٢] ولكنهم عجزوا عن ذلك وهو أهون سعيهم ، ومألوف أمرهم ، ودفعوا إلى المخاطرة بأنفسهم،وقطع أرحامهم وسفك دمائهم[٣] ، أما هرطقات مسيلمة فلم يعدُ ما صح منها حماقات غذتها عصبية (لكذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر) وإلاّ فهو وهم يعرفونه معرفة عمرو بن العاص عندما سأله عمه عن مسيلمة فقال : «والله إنك لتعلم أني أعلم أنه كاذب» بل (لم يرو التاريخ رواية واحدة تفيد أن واحداً منهم طاشت منه كلمة تقدح في بلاغة القرآن ، مع كثرة مارموا من أكاذيب)[٤] وكان البيان في أنفسهم كما يقول الأستاذ / محمود شاكر:(أجل من أن يخونوا الأمانة فيه ، ولما طالبهم الحق أن يأتوا بمثله ، لم ينصب لهم حكما ، بل خلّى بينهم وبين الحكم على ما يأتون به معارضين له ثقة بإنصافهم في الحكم على البيان فهذه التخلية مرتبة من الإنصاف لا تدانيها مرتبة)[٥](وفي هذه التخلية دليل ساطع

---

١ - المسد الآية ١ .
٢ - الكوثر الآية ١ .

٣ - انظر اعجاز القرآن للباقلاني (بيروت : عالم الكتب ، ط / ١ ، ١٤٠٨هـ) صـ ٣٥ - ٣٦ ، والاعجاز البلاغي للدكتور / محمد محمد ابو موسى (مصر : مكتبة وهبة ، ط / ١ ، ١٤٠٥هـ) صـ ١٨١ .

٤ - الإعجاز البلاغي صـ ١٨ .

٥ - الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي ، ترجمة / عبدالصبور شاهين (دمشق : دار الفكر ، ١٤٠٢هـ) صـ ٣٢ من مقدمة الشيخ محمود شاكر .

على أنّ القرآن عوّل على قدرتهم في تمييز طبقات الكلام ، وهذه شهادة من الله لهم بالتفوق في هذا الباب .. وبقيت هذه القدرة الناقدة ، والمغروسة في طباعهم تعينهم على تمييز طبقات الكلام يحذقون بها نقده ، ويحكمون بها عيارة ، وهم في غنية عن النظريات والأصول المدروسة التي يتأسس عليها نقد الكلام ، تماما كما كانوا في غنية بصحة طباعهم وسلامة ألسنتهم عن المعرفة النحوية والصرفية ، ولهذا لم يتكلموا في وجه الإعجاز ولم يلتفتوا إليه ، لأنّ برهانه كان قائما في نفوسهم ... ومضى الأمر على ذلك حتى تبدلت أحوال العرب ولانت جلودهم ، ونجم في مجتمع المسلمين أهل التشكيك وجاهروا بالزيغ ، وكثر القول في القرآن وإعجازه)[1] .

وسيكشف الباحث في مطالب ثلاثة ، من مطالب هذا المدخل ، عن تعريف المعجزة، ونشأة مصطلح الإعجاز ، ووجوه الإعجاز ، والراجح منها عند الباحث .

---

١ - الإعجاز البلاغي للدكتور محمد محمد أبو موسى صـ ١٨ - ٢٠ .

المطلب الأول : المعجزة والتعريف بها :

المعجزة اسم فاعل من أعجز ، وهي واحدة معجزات،جاء في المعجم الوسيط المعجزة :(أمر خارق للعادة يظهره الله على يدي نبي تأييداً لنبوته وما يعجز البشر عن مثله)(١) .

وقال السيوطي : (المعجزة في لسان الشرع أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة)(٢) .

وقوله مقرون بالتحدي ، قيد يخص به القرآن دون ما سواه من المعجزات التي حدثت للرسول ﷺ ، كحنين الجذع ، وبكاء الناقة وشكواها ، ونبع الماء من بين أصبعيه ، فهذه غير مقرونة بالتحدي كالقرآن قال تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾(٣) فتحدى الخلق بالإتيان بمثله ، فلما عجزوا تحداهم بعشر سور فقال : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾(٤) وبالغ في التحدي : ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾(٥)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :(وهذا التحدي كان بمكة ، فإنّ هذه السور مكية سورة يونس ، وهود ، ثم أعاد التحدي في المدينة بعد

---

١ – انظر مادة عجز .

٢ – الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (بيروت : دار المعرفة ، ط / ٤ ، ١٣٩٨هـ) ٢ / ١٤٨ .

٣ – الإسراء الآية ٨٨ .

٤ – هود جزء من الآية ١٣ .

٥ – يونس جزء من الآية ٣٨ .

الهجـــرة فقـــال في البقـــرة وهي سورة مدنيـة ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1] ثم قـال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[2] فذكر أمرين :

أحدهما : قوله : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ يقول : إذا لم تـفعلوا فـقـد علمتم أنّه حق ، فـخافـوا الله أن تكذبوه ، فـيـحيق بكم العذاب الذي وعـد به المكذبين ، هذا دعـاء إلى سـبـيل ربه بالموعـظة الحسنة بعـد أن دعـاهم بـالحكمـة وهو جدالهم بالتي هي أحسن .

والثاني : قـوله : ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾ ولن لنفي المستقبل ، فثبت للخبر أنّهم فـيمـا يستقبل من الزمان لا يأتون بسورة من مثله ، كما أخبر قبـل ذلك وأمره أن يقول في سورة «سبحان» وهي مكيـة:﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[3] فـعم* بأمره له أن يخبـر بـالخبر جميع الخلق معجزا لهم ، قاطعاً بأنّهم إذا اجتمعوا كلهم لا يأتون بمثل هذا القرآن ولو تظاهروا وتعـاونـوا على ذلك ، وهذا التحدي والدعـاء هو لجـمـيـع الخلق ، وقـد سـمـعـه كل من سمع القرآن وعرفـه الخاص والعـام ، وعلم مع ذلك أنّهـم لم يعارضـوه ولا أتوا بسـورة مثله ، ومن حين بعـث وإلى اليـوم الأمـر على ذلك ، مع مـاعلم مـن أنّ الخلق كلهم كـانوا كفـار قبل أن يبعث ، ولما بعث إنما تبعه قليل ، وكـان الكفار من أحرص الناس على إبطال قوله ، مجتهدين بكل طريق يمكن)[4] .

---

١ - البقرة الآية ٢٣ .

٢ - البقرة الآية ٢٤ .

٣ - الإسراء الآية ٨٨ .

* لعل الصواب فعلم .

٤ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية ، مطابع المجد التجارية ، د.ت ، ٤ / ٧٢-٧٤ .

(والمعجزات إمّا حسية وإمّا عقلية ، وأكثر معجزات بني اسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم وتعنتهم ، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم ، ولأنّ هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة ، خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر)[1] كما قال ﷺ:« ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ،فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا »[2] قيل في معناه:(إنّ المعجزات الواضحة الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح وعصا موسى ومعجزات القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعه لأجلها أكثر ، لأنّ الذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده ، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً)[3] .

(واختلاف المعجزات في أجيال الناس ، هو مما اقتضه دواعي الحكمة التي جاءت المعجزات من أجلها ، وذلك أنّ النّاس يختلفون باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم وإذا كانت غاية المعجزة أن يرى الناس فيها صدق الرسول ، وقيام الدليل على صحة دعواه ، فكان لابد أن تكون هذه المعجزة جارية مع تفكير من تلقاهم وتتحداهم آخذة بعقولهم وقلوبهم،لتقوم بها الحجة كاملة)[4] .

---

١ – الاتقان ١ / ١٤٨ – ١٤٩ .

٢ – خرجه البخاري من حديث الليث عن سعيد عن أبيه في كتاب الاعتصام باب قول النبي ﷺ «بعثت بجوامع الكلم» برقم ٧٢٧٤ ، ومسلم في كتاب الإيمان باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد إلى جميع الناس ونسخ الملل بملته برقم ٢٣٩ .

٣ – انظر فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ، ت / عبدالعزيز بن باز (بيروت : دار الكتب العلمية . ط / ١ ، ١٤١٠هـ) ٩ / ٨ .

٤ – الاعجاز في دراسات السابقين ، عبدالكريم الخطيب (بيروت : دار الفكر ، ط / ١ ، ١٩٧٤م) صـ ٨٩ .

المطلب الثاني : نشأة مصطلح الإعجاز* :

لم يبرز مصطلح الإعجاز على الساحة العلمية إلاَّ بعد أن تجرأ الجعد بن درهم المتوفى ١٢٤هـ ، وكان شيطانا خبيث المذهب ، تلقى مذهبه عن أبان بن سمعان عن رجل من أبناء اليهود يقال له «طالوت» حتى قال : إنّ الله لم يتخذ إبراهيم خليلا ولم يكلم موسى تكليما[١] . وهذا الكلام خطير جداً،وفيه ردٌ وتكذيب لآيات نصَّت على ذلك قال تعالى : ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[٢] وقال سبحانه : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٣] ومَنْ هذا اعتقاده ليس بمستغرب عليه أن يقول : (إن فصاحة القرآن غير معجزة وإن الناس قادرون على مثلها وأحسن منها)[٤] .

وإلاَّ بعد أن نقل عن واصل بن عطاء منشيء المذهب الاعتزالي المتوفى سنة ١٣١هـ[٥] قوله : إن إعجاز القرآن ليس بشيء ذاتي فيه ، وإنما هو بصرف الله تفكير الناس عن معارضته ، وهو القول الذي تبناه فيما بعد النظّام المتوفي سنة ٢٣١هـ[٦] أحد شيوخ المعتزلة في البصرة ، وعرف هذا القول فيما بعد «بالصرفة»

---

* أثبت تاريخ الوفاة في هذا المطلب دون غيره لأهمية التسلسل التاريخي فيه .

١ - انظر البداية والنهاية لابن كثير ، ت / د. أحمد أبو ملحم ، د. علي نجيب عطوي ، فواز السيّد ، مهدي ناصر الدين ، علي عبدالساتر (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ٣ ، ١٤٠٧هـ) ٩ / ٣٦٤ . وسير أعلام النبلاء للذهبي ، ت / شعيب الأرنؤوط (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط / ١٠ ، ١٤١٤هـ) ٥ / ٤٣٣ .

٢ - النساء جزء من الآية ١٦٤ .   ٣ - النساء جزء من الآية ١٢٥ .

٤ - انظر الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي في مقدمة محمود شاكر، صـ ٤٢ .

٥ - انظر الملل والنحل للشهرستاني ، ت / محمد سيد كيلاني (بيروت : دار المعرفة ، د.ت) ١ / ٤٦ . وميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ، ت / علي محمد البجاوي (بيروت : دار المعرفة ، د.ت) ٤ / ٣٢٩ . والإعلام لخير الدين الزركلي (بيروت : دار العلوم للملايين ، ط / ٣) ٩ / ١٢١ - ١٢٢ .

٦ - انظر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) ٦/ ٩٧ ، ولسان الميزان لابن حجر العسقلاني ، ١ / ٦٧ .

عند ذلك بدأ العلماء يتعرضون في كتبهم لوجه الإعجاز ، ويتحدثون عن إعجاز القرآن[١] . (وأول من عرف أنّه تصدى للكلام في الإعجاز في نظم القرآن هو الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥هـ[٢] ، تلميذ النظام الذي أنكر عليه قوله ، وعاب منهجه الذي أدى به أن يظن الظنّ ، ثم يجعله أصلا يجري عليه القياس مصححا لقياسه بالمنطق، والعيب في أصل القول الذي بنى عليه ، لا في الأقيسة التي أجرى بها مشابهاته)[٣] . والجاحظ إلى جانب تناوله موضوع إعجاز القرآن في إشارات مقتضبة في بعض كتبه كالحيوان ، والبيان والتبين ، فإنّه يفيد أنّ له كتابا سماه «نظم القرآن» يقول عنه:(ولي كتاب جمعت فيه آيات من القرآن ليعرف بها ما بين الايجاز والحذف ، وبين الزوائد والفضول والاستعارات، فإذا قرأتها رأيت فضلها في الإيجاز والجمع للمعاني الكثيرة، والألفاظ القليلة فمنها قوله تعالى حين وصف خمر أهل الجنة:﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾[٤] وهاتان الكلمتان جمعتا جميع عيوب خمر أهل الدنيا)[٥] وهذا الكتاب لم يصل إلينا[٦]، ولكنه يدل على أن الجاحظ كان يتعرض لأسرار الإعجاز فيه من خلال الإشارة إليه في كتاباته ، ومما يثبت تأليفه لهذا الكتاب،إشارة بعضهم إليه من خلال كتاباتهم كالباقلاني[٧]وغيره[٨] .

---

١ – انظر مباحث في إعجاز القرآن د. مصطفى مسلم (جدة : دار المنارة ، ط / ١ ، ١٤٠٨هـ) صـ٤٠ .

٢ – انظر وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ، ت/د. إحسان عباس (بيروت : دار صادر ، د.ت)٣/١٤٠ .

٣ – انظر المعجزة الكبرى القرآن ، لمحمد ابو زهرة (مصر : دار الفكر العربي ، د.ت) صـ ٧٥ .

٤ – الواقعة الآية ١٩ . ٥ – نقله محمد أبو زهرة في كتابه المعجزة الكبرى القرآن صـ ٧٦ . ولم أعثر عليه .

٦ – انظر الجاحظ في حياته وأدبه وفكره ، للدكتور / جميل جبر (بيروت : الشركة العالمية للكتاب ، د.ت) صـ ٦٩ ، والاعجاز في دراسات السابقين صـ ١٨١ .

٧ – ذكره في موضعين من كتابه اعجاز القرآن : أ – قال : وقد صنف الجاحظ في نظم القرآن كتابا ، انظر صـ٢١ ب – وقال في موضع آخر : فانظر في كتبه في «نظم القرآن» انظر صـ ٢٢٧ .

٨ – انظر كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٣هـ) ٢ / ١٩٦٤ ، والكشاف للزمخشري ، ت / محمد عبدالسلام شاهين (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/١، ١٤١٥هـ) ١ / ٧ ، والفهرست لابن النديم ، ت/ الدكتور علي يوسف طويل (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤١٦هـ) صـ٢٩٤ .

(وكل ما قيل في الإعجاز من «النظّام» أو «الجاحظ» لا يمثل دراسة موضوعية للإعجاز ، وإنما هو أشبه بالخطرات العارضة لا يقف عندها أصحابها وقوفا طويلا ولا يتوفرون عليها زمنا يتاح لهم فيه الإحاطة بها من جميع جهاتها)[1] .

وجاء بعد الجاحظ محمد بن يزيد الواسطي المتوفى ٣٠٦هـ[2] ليؤلف كتابه (إعجاز القرآن) ويعتبر أول كتاب مستقل يؤلف في الإعجاز ، وهذا الكتاب يعد أصلا بُني عليه ، فقد شرحه عبدالقاهر الجرجاني المتوفي سنة ٤٧١هـ[3] شرحا مطولاً وأودع ذلك الشرح كتابا سمّاه المعتضد ، وله شرح آخر أصغر منه[4] . إلا أن هذين الشرحين مع الكتاب المشروح لم يصل إلينا منها شيء[5] ، وثمّة كتاب رائع ذائع لعبد القاهر الجرجاني أسماه بـ«دلائل الإعجاز» استفاد فيه من الواسطي والجاحظ ونهج في كتابته نهجا فريداً لم يسبق إليه ، وذلك حين (وجّه عبدالقاهر إلى قصور دراسات السابقين في توضيح طريقة العرب في فهم البيان القرآني ، ولذا لم يرتض الوسائل التي جعلوها من وجوه الإعجاز القرآني ، إذ تتخلف في ناحية من القرآن وتصدق في أخرى ، ولذا حاول جاهداً أن يقدم طريقة تتمثل في القرآن كله ، وجعل هذه الطريقة باسم «النظم» ولكنه يطبقها في البيان القرآني ، وإنما جل همّه أن يقدم وسيلة وطريقة تحتذى)[6] .

وفي كتابه أورد عبدالقاهر مائة وست وستين آية في خمس وأربعين سورة ، ولم يغفل عبدالقاهر في «الرسالة الشافية» و «أسرار البلاغة» منهجه السابق فقد تحدث

---

١ - الإعجاز في دراسات السابقين صـ ١٨١ .   ٢ - انظر كشف الظنون ١ / ١٢٠ .

٣ - انظر فوات الوفيات للكتبي ، ت/د. احسان عباس (بيروت : دار صادر ، د.ت) ٢ / ٣٦٩-٣٧٠ .

٤ - انظر كشف الظنون ١ / ١٢٠ .   ٥ - انظر مباحث في إعجاز القرآن صـ ٤٢ .

٦ - معالم المنهج البلاغي عند القاهر الجرجاني ، للدكتور / محمد بركات حمدي أبوعلي (عمان : دار الفكر ، ط / ١ ، ١٤٠٥هـ) صـ ١٤ .

في «الرسالة الشافية» عن ثمان آيات من خمس سور ، وفي «الأسرار» تحدث عن تسع وثلاثين آية من خمس وعشرين سورة،وكلها يتضح فيها تفسيره للوسيلة والاهتمام بها[1] .

ولعل الزمخشري خير من ترجم كلام عبدالقاهر ، وجسد نظراته وأفكاره البلاغية عملاً فذاً اعتال عليه كثير ممن كتبوا بعده ، وتوالت في عصر عبدالقاهر وقبله بقليل مؤلفات خاصة بإعجاز القرآن وبسط وجوه الإعجاز فيه ، ولعل أول رسالة خاصة بإعجاز القرآن من أحد متكلمي المعتزلة هي «رسالة النكت في إعجاز القرآن»[2] لأبي الحسن الرماني المتوفي سنة ٣٨٤هـ[3] ، ويرى الخطيب أنّ أول رسالة هي «بيان إعجاز القرآن»[4] للخطابي المتوفي سنة ٣٨٨هـ[5] .

وألف بعدهما أبو بكر الباقلاني المتوفي سنة ٤٠٣هـ[6] كتابا سمّاه «إعجاز القرآن» ويعتبر من أوسع الكتب المؤلفة في هذا الباب ، وقد حداه إلى تأليفه (خوض الملحدين في أصول الدين وتشكيكهم أهل الضعف في كل يقين)[7] قال : (وذكر لي عن بعض جهالهم أنه جعل يعدله - أي القرآن - ببعض الأشعار ، ويوازن بينه وبين

---

١ - انظر المرجع السابق صـ ١٥ - ١٨ .

٢ - انظر مباحث في اعجاز القرآن صـ ٤٣ .

٣ - انظر العبر في خبر من غبر ، ت/ محمد السيد بن بسيوني زغلول (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤٠٥هـ) ٢ / ١٦٤ .

٤ - انظر الاعجاز في دراسات السابقين صـ ١٨٢ .

٥ - انظر شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) ٣ / ١٢٨ ، والعبر في خبر من غبر ٢ / ١٧٤ .

٦ - انظر العبر في خبر من غبر ٢ / ٢٠٧ .

٧ - اعجاز القرآن ، صـ ٢٠ .

غيره من الكلام ، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه ، وليس هذا ببديع من ملحدة هذا العصر ، وقد سبقهم إلى ما يقولونه إخوانهم من ملحدة قريش وغيرهم ... وسألنا سائل أن نذكر جملة من القول جامعة ، تسقط الشبهات ، وتزيل الشكوك التي تعرض للجهال ، وتنتهي إلى ما يخطر لهم ، ويعرض لأفهامهم من الطعن في وجه المعجزة ، فأجبناه إلى ذلك متقربين إلى الله عز وجل ومتوكلين عليه وعلى حسن توفيقه ومعونته)[1] .

وألف القاضي عبدالجبار المتوفي سنة ٤١٥هـ[2] المغني في أبواب التوحيد والعدل ، وجعل الجزء السادس عشر خاصا بإعجاز القرآن .

---

١ - المصدر السابق صـ ٢٠ - ٢١ .

٢ - انظر معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د.ت) ٥/٧٨ .

المطلب الثالث : وجـوه إعجـاز القـرآن :

أكثر الباحثون في التنقيب عن وجوه الإعجاز ومازالوا .. ومع الإجماع على أن القرآن هو معجزة الرسول ﷺ وأنّ الإعجاز وقع به ، وتسليم قريش والعرب جميعاً بالعجز في حينه ، فإنّ الوقوف على الجهة التي كان منها الإعجاز القرآني لم تلتق عندها الآراء ، وكانت محل اختلاف كبير بين الباحثين والناظرين في وجوه الإعجاز في كل زمان ومكان ، فهناك أكثر من رأي ، وأكثر من مذهب في الجهة أو الجهات التي كان بها القرآن معجزا ... فقد ذكر الخطابي أربعة أوجه هي :

موقف العرب السلبي من التحدي ، وسماه الرماني ترك المعارضة والصرفة ، وقد رد عليها برد جميل وسيأتي قريبا ، وتضمنه للأخبار الغيبية ، ومن جهة بلاغته وأطال النفس في هذا الوجه[1] . وقال الرماني : (وجوه إعجاز القرآن تظهر من سبع جهات : ترك المعارضة مع توفر الدواعي ، وشدة الحاجة ، والتحدي للكافة ، والصرفة والبلاغة ، والأخبار الصادقة عن الأمور المستقبلة ، ونقض العادة وقياسه بكل مشكلة)[2] .

وقال الباقلاني : (ذكر أصحابنا وغيرهم في ذلك ثلاثة أوجه من الإعجاز ، وهي تضمنه الإخبار عن الغيوب ، والإخبار عن الأحوال الماضية من لدن آدم حتى

---

١ - انظر ثلاث رسائل في اعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني ، ت / محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام (مصر : دار المعارف ، د.ت) صـ ١٩ - ٢١ .

٢ - المصدر نفسه صـ ٦٩ .

مبعثه مع أميته ﷺ ، والوجه الثالث : أنه بديع النظم وعجيب التأليف ، متناه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه)[١] .

وأجملها القرطبي في مقدمة تفسيره فقال :

(وجوه الإعجاز عشرة منها النظم البديع المخالف لكل نظم معهود في لسان العرب وفي غيرها ، ومنها الأسلوب المخالف لجميع الأساليب ، ومنها الجزالة التي لا تصح من مخلوق بحال ، ومنها التصرف في لسان العرب على وجه لا يستقل به عربي حتى يقع الاتفاق من جميعهم على إصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه ، ومنها الإخبار عن الأمور التي تقدمت في أول الدنيا إلى وقت نزوله من أمي ماكان يتلو من قبله من كتاب ، ومنها الوفاء بالوعد المدرك بالحس والعيان في كل ما وعد الله سبحانه ، ومنها الإخبار بالغيبيات التي لا يطلع عليها إلا بالوحي ، ومنها ما تضمنه القرآن من العلم الذي هو قوام جميع الأنام في الحلال والحرام ، ومنها الحكم البالغة التي لم تجر العادة بأن تصدر في كثرتها وشرفها عن أدمي ، ومنها التناسب في جميع ما تضمنه ظاهراً وباطنا من غير اختلاف قال تعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[٢]

وبعد ذكره لهذه العشرة قال :

(قلت فهذه عشرة أوجه ذكرها علماؤنا رحمة الله تعالى عليهم ووجه حادي

١ - انظر اعجاز القرآن للباقلاني ، صـ ٥١ - ٥٣ .

٢ - النساء ، جزء من الآية ٨٢ .

عشر قاله النظام وبعض القدرية:أنّ وجه الإعجاز هو المنع من معارضته ، والصرف عند التحدي بمثله ، وأنّ المنع والصرفة هو المعجزة ، دون ذات القرآن ، وهذا فاسد لأنّ إجماع الأمة قبل حدوث المخالف أنّ القرآن هو المعجز)[1] .

ونضيف على ماذكره القرطبي ممن قالوا بالصرفة والرد عليهم ، إذ لا يكفي وصفنا للشيء بالفساد أنّنا أبطلناه أو رددنا عليه .. فقد قال به الرماني،والشريف المرتضى،وابن سنان الخفاجي ، ويُردُّ عليهم بكلام جميل للخطابي ، وعبدالقاهر الجرجاني في تعليق لهم حول قوله تعالى : ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾[2]

قال الخطابي : (فأشار في ذلك إلى أمر طريقه التكلف والاجتهاد ، وسبيله التأهب والاحتشاد ، والمعنى في الصرفة التي وصفوها لا يلائم هذه الصفة ، فدل على أنّ المراد غيرها والله اعلم)[3] (وهذه روح علمية ناضجة . وقد رد على الصرفة رداً لا يقبل الجدل ، لأنّ الله لو كان قد سلبهم القوى لما ذكر تساندهم ، وتعاونهم وتظاهرهم ، لأنّ المفرغين من الطاقة المؤثرة لا يكون لاجتماعهم أثر ، وألف أعمى لا يهدون أعمى ، وألف ميت لا يعينون ميتا ، وهذا الوجه لقوته تناقله أهل العلم ، وشاع في الكتب ، ولم أقرأ من فطن إلى دفع الصرفة بهذا الوجه قبل الخطابي)[4] .

---

١ - انظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٣هـ) ١ / ٥٢-٥٤ .

٢ - الإسراء الآية ٨٨ .

٣ - ثلاث رسائل في اعجاز القرآن صـ ٢١ .

٤ - الاعجاز البلاغي ، صـ ٣٦٦ .

واستخرج عبدالقاهر من هذه الآية شيئا آخر يضاف إلى ما استخرجه الخطابي (وهو أنّ الكلام إنما يُرمي به في وجه من لم يستطع هذا النظم في الذي مضى ، ولن يستطيعه في الذي هو آت ، وأنه لا يقال لمن كان يستطيعه فيما مضى ، ثم صار لا يستطيعه ، والقول بذلك خروج بالكلام عن معانيه ، وإنما يقال فيمن كان يقدر على الشيء ثم عاد لا يقدر عليه)[1] (إني أعطيت أن أحول بينكم وبين كلام كنتم تستطيعونه وأمنعكم إياه ، وأن أفحمكم عن القول البليغ وأعدمكم اللفظ الشريف وما شاكل هذا)[2] .

وبهذا يتبين بطلان القول بالصرفة على هذا الوجه ، وهو كما قال شيخ الإسلام (إنّ من أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام : إنّه معجز بصرف الدواعي مع قيام الموجب لها ، أو بسلب القدرة الجازمة ، وهو أنّ الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضى التام، أو سلبهم القدرة المعتادة في مثله سلبا عاما)[3].

فالقرطبي ذكر عشرة أوجه لإعجاز القرآن ولكي يكون استقراؤه كاملا أتى بالصرفة وعدها وجها من الوجوه مع حكمه عليه بالفساد ، وعندما ننعم النظر في هذه الوجوه العشرة فإننا نراها ترجع إلى معلمين رئيسين :

(أولا : ما يتعلق بالمنهاج البياني ، وهذا النوع من الإعجاز أول من يخاطب به العرب ، لأنهّم بثقافتهم اللسانية،وعنايتهم بلغتهم كانوا أكثر الناس إدراكا لمعنى

---

١ - الاعجاز البلاغي صـ ٣٨٩ .

٢ - الرسالة الشافية لعبدالقاهر من ثلاث رسائل صـ ١٣٦ .

٣ - الجواب الصحيح ٤ / ٧٥ .

الإعجاز في القرآن من ناحية بيانه ونغمه وجزالته ، وكذلك كان الأمر منهم ، وكانوا هم المخاطبين أولاً به ، وبعجزهم قام البرهان الأول .

ثانياً : الإعجاز بما اشتمل عليه من ذكر لأخبار السابقين ، ولأخبار مستقبلة ، وقعت كما ذكر ، واشتماله على علوم كونيه وحقائق لم تكن معروفة في عصر محمد ﷺ ، وقد أتى بها القرآن وتقررت حقائقها من بعد ، وكذلك ما اشتمل عليه من شرائع أثبت الوجود الإنساني أنها أصلح من غيرها ، وأنها وحدها العادلة ، وأنّ هذا النوع معجزة للأجيال كلها)[1] .

والنفس بعد ورودها على منابع ثرة تستشرف أن يكون لها رأي في هذه المسألة رغم ترددها في ذلك ... والذي تطمئن إليه النفس أنّ الإعجاز من جهة لفظه ومعناه[2] أو نظم القرآن كما يحلو لعبدالقاهر الجرجاني أن يسميه وذلك للأسباب الآتية :

أولاً : حتى يكون التحدي معتبراً وذا فائدة لابد أن يكون الطرف الآخر قد أوتي الأسباب التي تمكنه من الإتيان بمثل تلك المعجزة ، وإلا لم يكن تحديا وكان مبررا للعجز ، ومعلوم أنّ العرب لم يكن لديهم قوة كقوة البيان ، ولا براعة كبراعة التأليف .

---

١ - انظر المعجزة الكبرى القرآن ، صـ ٨٤ .

٢ - انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ، ت / د. عبدالله التركي ، شعيب الأرنؤوط (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط / ٢ ، ١٤١٣هـ) صـ ٢٠٥ . والظاهرة القرآنية مقدمة محمود شاكر صـ ٢٥ .

ثانياً : أن رسول الله ﷺ عندما سمع أول آيات تنزلت تتلى عليه ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1] رجع بها يرجف فؤاده ، ودخل على خديجة بنت خويلد ، فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع[2] (وذلك أنه قد أتاه أمر لا قبل له به ، وسمع مقالاً لا عهد له بمثله ، وكان رجلا من العرب ، يعرف من كلامها ما تعرف ، وينكر منه ما تنكر ، كان هذا الروع الذي أخذه بأبي هو وأمي ، أول إحساس في تاريخ البشر بمباينة هذا الذي سمع ، للذي كان يسمع من كلام قومه ، وللذي كان يعرف من كلام نفسه)[3] .

ثالثاً : (تحيرت العرب فيما تسمع من كلام يتلوه عليهم رجل منهم تجده من جنس كلامها ، لأنه نزل بلسانهم ، لسان عربي مبين ، ثم تجده مباينا لكلامها ، فما تدري ما تقول فيه من طغيان اللدد والخصومة أيقولون شاعر، أو كاهن، أو مجنون؟

فهذا التحير المظلم الذي غشاهم،وأخذ منهم بالكظم ، والذي نعته الوليد فاستجاد النعت «والله إن لقوله الذي يقوله حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته»[4] . كان تحيرا لما يسمعون من نظمه وبيانه ، لا لما يدركون من دقائق التشريع ، وخفي

---

١ - العلق الآيات ١ - ٥ .

٢ - انظر السيرة النبوية ، ١ / ٣٨٦ .

٣ - الظاهرة القرآنية مقدمة محمود شاكر صـ ٢٧ .

٤ - سبق تخريجه انظر صـ٢ .

الدلالات ، وما لا يؤمنون به من الغيب ، ومالا يعرفون من أنباء القرون التي خلت من قبل)[1] .

رابعاً : أنّ السور التي نزلت في بداية عهد النبوة وبها بدأ التحدي ، لم يكن فيها شيء من الإخبار بالغيب ، وليس فيها تشريع ، وهذا منفذ لأن يقال إن السور الأولى كانت ناقصة الإعجاز ، لأنّها خلت من بعض أوجه الإعجاز .

خامساً : أنّ الأمة مجتمعة على أنّ قليل القرآن وكثيره معجز ، وأنّ الإعجاز يقع بأقصر سورة في القرآن ، وكثير من آيات القرآن وسوره وخاصة المكي منها تخلو من أكثر وجوه الإعجاز التي ذكرت ، عدا النظم والبيان فإنه في كل آية في القرآن .

وأخيراً «فكل ما ذكره العلماء من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه ، ولا يناقض ذلك بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له»[2] .

وحري بالدارسين المحدثين ألا يكرروا ما أنشأه المتقدمون ، بل عليهم أن يجسدوا الإعجاز واقعا بالتحليل والتعليل والاستنباط ، إذ الإعجاز في محاكاته والإتيان بمثله ، لا بتأمله وتدبره والتفكر به وإخراج مكنوناته ، بل إنّ القرآن ندب إلى ذلك في آيات عدة :

---

١ - انظر الظاهرة القرآنية مقدمة محمود شاكر صـ ٢٩ .

٢ - دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية ، ت/الدكتور محمد السيد الجليد (دمشق : مؤسسة علوم القرآن ، ط / ٢، ١٤٠٤هـ) ١ / ١٥٥ .

قال تعالى : ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(١)

وقال سبحانه : ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾(٢)

وقال تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣)

وقال سبحانه : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٤)

(إنّ حقيقة الإعجاز تقف بين موضوع باهر قاهر ، وإنسان عاجز قاصر والذين طوّفوا بإعجاز القرآن قديما وحديثا ، كانت هذه الحقيقة لمحاتهم ، ومكتشفاتهم وفي الحق ينبغي أن نشتق من وحي هذه الحقيقه منهجاً في دراسة الإعجاز دراسة موضوعية محيطة ، فإنّ الاتجاهات الفكرية التحليلية،والمناهج التطبيقية في هذا العصر لن يقنعها العجز وحده بحقيقة الإعجاز ، ولن ترضى إلاّ بالتعرف على العناصر والطريقة ، التي جعلت كتاب الله معجزاً حقا ، في جانبي الحقائق والصياغة معا ، فلابد للباحثين في إعجاز القرآن من انتهاج مناهج التحليل والتعليل والاستنباط للظفر بحقائق موضوعية في هذا الباب غير مدافعة تستمد صحتها وجدارتها من واقع الدراسة والتحليل ، وفي هذا النهج تدعيم لقضية الإعجاز ، فإنّنا إذا اكتشفنا منها ما تسمح به ملكاتنا وإمكاناتنا ، فلن نزداد إلاّ إيمانا بتلك الحقيقة وتسليما)(٥) وتحقيقا لهذا الغرض كان اختياري لموضع من مواضع الإعجاز في هذا الكتاب العظيم وهو دراسة تطبيقية للتقديم والتأخير في سورة البقرة .

---

١ - محمد الآية ٢٤ .
٢ - ص جزء من الآية ٢٩ .
٣ - النحل الآية ٤٤ .
٤ - الرعد جزء من الآية ٣ .
٥ - في إعجاز القرآن دراسة تحليلية لسورة الانفال ، للدكتور/ أحمد مختار البزرة ادمشق : دار المأمون للتراث، ط / ١ ، ١٤٠٨هـ) ص ١٠ .

المبحث الثاني

التقديم والتأخير

تعريفه ، والاهتمام به عند النحويين والبلاغيين

المطلب الأول : شجاعة العربية .

المطلب الثاني : التقديم والتأخير عند سيبويه .

المطلب الثالث : التقديم والتأخير عند عبدالقاهر الجرجاني .

المطلب الرابع : الموازنة بين الدراسة النحوية والدراسة البلاغية لهذه الظاهرة .

المطلب الأول : شجاعة العربيـة .

تنبّه القدماء إلى الحرية التي تتيحها ظاهرة الإعراب في اللغة العربية للكلمة وتعدد المواقع التي يمكن أن يحتلها كلّ جزء من أجزاء الجملة[1] ، فصرّح الزجاجي بأنّ السبب في لجوئهم إلى الاعراب هو (أن الاسماء لمّا كانت تعتورها المعاني وتكون فاعلة ومفعولة ومضافة إليها ، ولم يكن في صورها وأبنيتها أدلة على هذه المعاني، جعلت حركات الإعراب فيها تنبيء عن هذه المعاني فقالوا : «ضرب زيدٌ عمرا» فدلّوا برفع زيد على أن الفعل له ، وبنصب عمرو على أن الفعل واقع به وكذلك سائر المعاني جعلوا هذه الحركات دلائل عليها ليتسعوا في كلامهم،ويقدموا الفاعل إذا أرادوا ذلك،أو المفعول عند الحاجة إلى تقديمه،وتكون الحركات دالة على المعاني)[2].

ويتضح لنا من خلال كلام الزجاجي أن الذي حفظ للعربية هذا المسلك هو الإعراب إذ تتحرك الكلمة داخل السياق اللغوي مع احتفاظها برتبتها ، فالمفعول به يتقدم على الفاعل في الجملة الفعلية ويظلّ مفعولا به ، والجملة العربية رغم أهمية الرتب المحفوظة فيها ، إلاّ أنّ ذلك لا يمثل حتمية يلتزم بها المنشيء، سواء كان شاعراً أو ناثراً ، بل العدول عن هذه الرتب يمثل نوعاً من الخروج عن اللغة النفعية إلى اللغة الابداعية ، واللغة النفعية إذا دخلت في عالم الأدب اكتسبت خاصية جديدة تفرضها

---

١ - انظر نظرية اللغة في النقد العربي للدكتور عبدالحكيم راضي (مصر : مكتبة الخانجي د.ت) صـ ٢١٢ .

٢ - انظر الإيضاح في علل النحو للزجاجي ، ت/الدكتور مازن المبارك (بيروت : دار النفائس ، ط / ٥ ، ١٤٠٦هـ) صـ ٦٩ - ٧٠ ، وانظر الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤٠٥هـ) ١ / ٩٠ .

عليها طبيعة الأدب ، إذ لم يعد المراد إيصال المعنى ، وإنّما الإيصال والامتاع معا ، بحيث تصبح اللغة وسيلة من وسائل الجمال .

وصور العدول عن النظام المألوف في بناء الجمله في العربية كثيرة منها الحذف والزيادة والتقديم والتأخير ، ووضع المضمر موضع المظهر ، ووضع المظهر موضع المضمر ، والقلب والالتفات وغيرها[1] .

وكل نوع من هذه الأنواع حظى ببحث مستقل في كتب اللغة ، وحديثهم عن تقديم المسند إليه أو المسند أو المتعلقات (يوضح عدم اكتراثهم بمسألة الرتبة هذه ، بالعكس فنحن نراهم أكثر انجذابا في اتجاه الرتبة المحفوظة بغية تخطيها والانحراف عنها ، وهذا ما تؤكده تفرقتهم في تقديم المسند إليه وأسبابه وأغراضه، بين ما كان المسند معه اسما،وما كان المسند معه فعلا ، ففي الحالة الأولى حين يكون المسند اسما نكون أمام تركيب شبه عادي تركيب يجري على الأصل بحكم أنّه لايوجد ما يشير إلى أنّ ثمّة انحرافاً قد حدث عن أصل آخر كانت عليه العبارة من قبل ، ومن هنا تتواضع المزايا المترتبة على هذه الصورة من صور التقديم ليصبح الأمر متروكا لمزيج من العوامل النفسية لدى المتكلم كالرغبة في تمكين الخبر في ذهن السامع،أو تشويقه إلى الخبر ... الخ

أمّا حين يكون المسند فعلا فإنّهم يرون في هذا التركيب انحرافاً عن صورة

١ - انظر الخصائص لابن جني ، ت / محمد علي النجار ، نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية ٢ / ٣٦٠ ، وانظر شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان للسيوطي (مصر : مطبعة دار إحياء الكتب العربية) صـ ٢٧ ومابعدها .

أخرى كان الفعل فيها هو المقدَّم بحكم قانون الرتبة ، الذي ينص على أنّ الفاعل لا يجوز أن يسبق الفعل ، لأنّ الفعل عامل والفاعل مرفوع به ، ولا يصح أن يؤخر عامل على مرفوعه . بعبارة أخرى يعد تأخير المسند إليه في هذه الحالة هو الأصل ليصبح تقديمه انحرافاً عن هذا الأصل وهو انحراف صريح ، ولهذا السبب تناط بهذه الصورة من صور التقديم للمسند إليه وظائف أكبر كتقوية الحكم وتأكيده ، وكذلك تخصيص المسند إليه بالمسند)[1] .

وسيأتي حديث لكشف بعض هذه الوظائف في تقديم المسند إليه والمسند والمتعلقات في مباحث قادمة إن شاء اللّه .

وقبل الحديث عن قيمة هذا الأسلوب ، وكشف بعض وظائفه وأسراره البلاغية في سورة البقرة ، يحسن بنا أن نقف على ماهيته ، ونوضح موقف النحاة والبلاغيين منه،وفلسفتهم له .

قال الراغب : القدم : قدم الرجل قال تعالى:﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾[2] وقدمت فلانا أقدمه إذا تقدمته قال تعالى : ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾[3] وقال تعالى:﴿لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[4] أي لا يزيدون تقّدما،ولا تأخرا[5] .

وقال الفيروز أبادي : القدم محركة : السابقة في الأمر[6] .

---

١ - نظرية اللغة في النقد العربي صـ ٢١٥ - ٢١٦ .

٢ - الانفال جزء من الآية ١١ .

٣ - هود جزء من الآية ٩٨ .

٤ - الاعراف جزء من الآية ٣٤ .

٥ - انظر المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، ت / محمد سيّد كيلاني (بيروت دار المعرفة ، د.ت) صـ ٣٩٧ .

٦ - القاموس المحيط ، مادة قدم .

وقال ابن منظور : (قدّم بمعنى تقدم ومنه قولهم المقدمة

قال لبيد في قدّم بمعنى تقدم :

قَدِّمــوا إذ قيــل قيسٌ قَدِّموا   واحفظوا المجد بأطراف الأسل[١]

أراد : يا قيس)[٢] .

والتأخير مقابل التقديم[٣] قال تعالى : ﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾[٤] وقال تعالى : ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[٥] .

والتقديم والتأخير اصطلاح أطلق على أحد أساليب العرب في كلامهم، ومظهره زوال اللفظ عن مكانه ، فيتقدم أو يتأخر ، وهذا التعريف من حيث هو أسلوب في لغة العرب ، أمّا إذا أردنا تعريفه من حيث هو أسلوب قرآني ، فإنّه حينئذ يكون أوسع من التعريف السابق فقد أطلق التقديم والتأخير في القرآن الكريم على القار في مكانه ، كما أطلق على المزال[٦]، فاتسعت بذلك دائرة التقديم والتأخير في القرآن الكريم[٧] .

---

١ - البيت للبيد بن ربيعة من قصيدة مطلعها :

إن تقوى ربنا خير نفل   وباذن الله ريثي وعَجَلْ

انظر ديوان لبيد بن ربيعة ، شرح الطوسي ، ت / الدكتور حنا نصر الحتي (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط / ١، ١٤١٤هـ) صـ ١٣٠ .

٢ - انظر لسان العرب مادة قدم .

٣ - انظر المفردات في غريب القرآن صـ ١٣ .

٤ - القيامة جزء من الآية ١٣ .

٥ - الفتح جزء من الآية ٢ .

٦ - انظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور / محمد ابو موسى (مصر : دار الفكر العربي ، د.ت) صـ ٢٧٠ .

٧ - لم أجد تعريفا في الاصطلاح للتقديم والتأخير فيما رجعت إليه من كتب المعاجم اللغوية وكتب البلاغة التي تحدثت عن هذه الظاهرة .

المطلب الثاني : أهميته عند النحويين : «سيبويه» توفي ١٨٠هـ[١]

يعد سيبويه من أوائل النحاة الذين أدركوا بلاغة التقديم،فكشفوا عنها في كتابه الكتاب الذي قال عنه المبرد :

(إنّه لم يعمل كتاب في علم من العلوم مثل كتاب سيبويه ، وذلك أنّ الكتب المصنفه في العلوم مضطرة إلى غيرها ، وكتاب سيبويه لا يحتاج من فهمه إلى غيره)[٢] .

وقال عنه المازني : (من أراد أن يعمل كتابا كبيراً في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي مما أقدم عليه)[٣] .

وهو في كتابه لايكاد يغفل موضعا يدخل فيه التقديم والتأخير،فكان من أوائل النحاة الذين استوقفهم هذا النشاط اللغوي،يقول عبدالقادر حسين:(هذه القضية الكبرى التي تناولها علماء النحو والبلاغة واللغة ، ومازلنا نقرأ عنها حتى يومنا هذا في النحو والنقد والبلاغة ، هي في أساسها من صنع سيبويه فهو أول من أشار إليها ، وطرق بابها،ولاشك أنّ هذا فضل ينسب إليه بالفخار)[٥] .

---

١ - انظر طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم (مصر : دار المعارف ، ط / ٢ ، د.ت) صـ ٧٢ .

٢ - خزانة الأدب لعبدالقادر البغدادي ، ت / عبدالسلام هارون (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ط / ٣ ، ١٤٠٩هـ) ١ / ٣٧١ .

٣ - المصدر نفسه ١ / ٣٧١ .

٤ - الخصائص ٣ / ٣١٢ .

٥ - أثر النحاة في البحث البلاغي . للدكتور عبدالقادر حسين (قطر : دار قطري بن الفجاءة ، ط / ٢ ، د.ت) صـ ٩٦ .

تحدث سيبويه في كتابه عن التقديم والتأخير بكلام هو أبوعذره ، وصاحب الريادة فيه ، وهو أول من كشف سر هذااللون البلاغي من العلماء فيما نعلم ، (فنحن نلحظ أن العلماء قبله كانوا يعرفون التقديم والتأخير ، ولكنّهم لم يقفوا على أسراره البلاغية ، فهذا يونس بن حبيب الذي روى عنه سيبويه كثيراً من مسائل الكتاب يعرف التقديم ويذكره حين يعرض لجواب الشرط بعد الاستفهام فيقول : (أإن تأتيني آتيك بالرفع ، ويقول : هو في نية التقديم ويقدره أآتيك إن تأتني) ولا يزيد ، ، أما سيبويه حين يعالج التقديم والتأخير في الكلام فإنه يلفت النظر إلى سر بلاغي هام ، تلقفه علماء النحو والبلاغة فناقشوه مؤيدين ومعارضين)(١) .

يقول سيبويه : (هذا باب الفاعل الذي يتعداه فعله إلى مفعول وذلك قولك : ضرب عبدالله زيداً ، فعبدالله ارتفع ههنا كما ارتفع في ذهب ، وشغلت ضرب به كما شغلت به ذهب ، وانتصب زيد لأنه مفعول تعدى إليه فعل الفاعل ، فإن قدمت المفعول وأخرت الفاعل جرى اللفظ كما جرى في الأول ، وذلك قولك : ضرب زيداً عبدُالله ، لأنّك إنّما أردت به مؤخراً ما أردت به مقدما ، ولم ترد أن تشغل الفعل بأول منه ، وإن كان مؤخراً في اللفظ ، فمن ثمَّ كان حد اللفظ أن يكون فيه مقدما وهو عربي جيد كثير ، كأنّهم إنما يقدمون الذي بيانه أهمُّ لهم وهم ببيانه أعنى ، وإن كانا جميعا يهمّانهم ويعنيانهم)(٢) .

---

١ - أثر النحاة في البحث البلاغي صـ ٨٩ .

٢ - الكتاب لسيبويه ، ت / عبدالسلام هارون (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ٣ ، ١٤٠٨هـ) ١ / ٣٤ .

فالأصل في ترتيب الجملة العربية أن يتأخر المفعول عن الفاعل ، لكن قد يتقدم لعلة قصدها المتكلم ، وهي العناية والاهتمام بشأنه كما قال سيبويه ، سواء قدم المفعول على الفاعل أو على الفعل ، إذ أن تقديمه على الفعل يكون للعناية والاهتمام كسابقه ، قال سيبويه : (هذا باب ما يكون فيه الاسم مبنيا على الفعل قدِّم أو أخر ، وما يكون فيه الفعل مبنيا على الاسم ، فإذا بنيت الاسم عليه قلت ضربت زيداً وهو الحد ، لأنّك تريد أن تعمله وتحمل عليه الاسم كما كان الحد ضرب زيدٌ عمرا ، حيث كان زيد أوّل ما تشغل به الفعل وكذلك هذا إذا كان يعمل فيه ، وإن قدمت الاسم فهو عربي جيد ، كما كان ذلك عربيّا جيداً ، وذلك قولك زيداً ضربت والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواء ، مثله في ضرب زيدٌ عمرا وضرب عمراً زيدٌ)(١) .

وهذه اللفتة التي ذكرها سيبويه لم ترق لبعض العلماء فقد ردها ابن جني مدعيا أنه ليس ثمّة تقديم في نحو قولك ضرب زيداً عمرو .

قال في الخطائص :

(وذلك أنّ المفعول قد شاع عن العرب ، واطّرد في مذاهبهم كثرة تقديمه على الفاعل حتى دعا أبا علي أن يقول : إن تقديم المفعول على الفاعل قسم قائم برأسه كما أنّ تقديم الفاعل قسم قائم برأسه أيضاً ، وإن كان تقديم الفاعل أكثر وقد جاء

١ - المصدر السابق ١ / ٨٠ - ٨١ .

به الاستعمال مجيئا واسعا نحو قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾(١) وقوله سبحانه : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾(٢) وفي كثير من شعر العرب .. والأمر في كثرة تقديم المفعول على الفاعل في القرآن وفصيح الكلام متعالم غير مستنكر ، فلما كثر وشاع تقديم المفعول كان الوضع له ، حتى أنّه إذا أخر فموضعه التقديم ، ولا تستنكر هذا الذي صورته لك ، ولا يخفى عليك ، فإنّه مما تقبله اللغة ولا تعافه)(٣) . لكن ابن جنّي لم يلبث زمنا حتى رأيناه يقرر كلام سيبويه في تقديم المفعول ويحتفل به .

يقول في المحتسب :(ينبغي أن يعلم ما أذكره هنا ، وذلك أنّ أصل وضع المفعول أن يكون فضلة ، وبعد الفاعل ، كضرب زيد عمرا ، فإذا عناهم ذكر المفعول قدموه على الفاعل فقالوا: ضرب عمراً زيد ، فإذا زادت عنايتهم به قدموه على الفعل الناصبة فقالوا : عمراً ضرب زيد . وهذا كله يدل على شدة عنايتهم بالفضلة .. وهذه صورة انتصاب الفضلة مقدمة لتدل على قوة العناية به)(٤) .

وثمّة علة أخرى يشير إليها سيبويه غير العناية والاهتمام ، يقول في باب ظنّ: (فإن الغيتَ قلت : عبدالله أظن ذاهب ، وهذا إخال أخوك ، وفيها أرى أبوك ، وكلما أردت الإلغاء فالتأخير أقوى ، وإنّما كان التأخير أقوى لأنّه إنّما يجيء بالشك

١ - فاطر جزء من الآية ٢٨ .　　٢ - التكاثر الآية ١ .

٣ - انظر الخصائص ١ / ٢٩٥ - ٢٩٧ بتصرف .

٤ - انظر المحتسب لابن جني ، ت/ علي النجدي ناصف ، د/عبدالحليم النجار ، د/ عبدالفاتاح اسماعيل شلبي (استامبول : دار سزكين ، ط / ٢ ، ١٤٠٦هـ) ١ / ٦٥ .

بعدما يمضي كلامه على اليقين ، أو بعدمايبتدىء ، وهو يريد اليقين ثم يدركه الشك)[1] .

فالتقديم هنا ليس للعناية والإهتمام كما في تقديم المفعول على الفاعل أو الفعل (وإنّما التقديم هنا لغرض بلاغي آخر ، ولعامل نفسي طرأ على المتكلم أثناء كلامه وحوّل يقينه إلى شك ، فالزمه تغيُّر وضع الألفاظ عما كان ينبغي أن تكون عليه)[2] .

وسيبويه لايكاد يمر على موضع من مواضع التقديم والتأخير إلا ويشير إليه يقول : (والتقديم والتأخير فيما يكون ظرفا ، أو يكون اسما في العناية والاهتمام مثله فيما ذكرت لك في باب الفاعل والمفعول)[3] .

وفي باب إنّ يقول : (واعلم أنّ التقديم والتأخير والعناية والاهتمام ها هنا مثله في باب كان ...)[4] .

ويلحظ القاريء في النصين الآخيرين أنّ سيبويه لم يزد على أن أحال في السر للتقديم والتأخير إلى مواضع سابقة وإثباتي لها الهدف منه أنّ سيبويه أولى هذا الموضع اهتمامه ، فهو لا يكاد يمر بموضع من مواضعه إلا بّين السر فيه ، وإن كان مثيلا لشيء سبق ، فإنّه لا يغفله بل يحيل إليه تنبيها عليه كما مر آنفا .

ولم يقتصر سيبويه على العناية والاهتمام بل ذكر أن التقديم يأتي لتنبيه السامع يقول : «وإذا بنيت الفعل على الاسم قلت : زيد ضربته فلزمته الهاء ، وإنّما

١ - انظر الكتاب ١ / ١١٩ - ١٢٠ .
٢ - أثر النحاة في البحث البلاغي صـ ٩٠ .
٣ - الكتاب ١ / ٥٦ .
٤ - المصدر نفسه ٢ / ١٤٣ .

تريد بقولك مبني عليه الفعل ، أنّه في موضع منطلق إذا قلت عبدالله منطلق ، فهو في موضع هذا الذي بني على الأول وارتفع به ، فإنّما قلت عبدالله فنبهته ، ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء)[1] .

وهو مع هذه اللفتات البلاغية التي أثرت هذا الأسلوب ، وأبانت بعض خصائصه لا يغفل عن الإشارة إلى مواضع يقبح فيها التقديم وإن كان الكلام مستقيما فيقول :

(ويحتملون قبح الكلام حتى يضعوه في غير موضعه ، لأنّه مستقيم ليس فيه نقص فمن ذلك قوله :

صَددتِ فَأطْوَلْتِ الصُّدُودَ وَقَلّمَا ... وِصَالٌ على طُولِ الصُّدوْدِ يَدُوْمُ[2]

وإنّما الكلام : وقلّما يدوم وصال)[3] .

(فالتقديم والتأخير عند سيبويه كثيراً ما يأتي للعناية والاهتمام وأحيانا يأتي للتأكيد والتنبيه ، وأحيانا يكون لغير علة بلاغية بل ربما كان سببا في قبح الكلام وسوء التركيب)[4] .

---

١ - الكتاب ١ / ٨١ .

٢ - البيت لعمر بن أبي ربيعة ، انظر شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة شرحه عبدأ علي مهنا (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤٠٦هـ) صـ ٣٧٦ ونسبه البغداي إلى المرار الفقعسي وقبله :

صَرمتَ ولم تصرم وأنت صروم ... وكيف تصابي من يقال حليم ، انظر خزانة الأدب ١٠ / ٢٣١

٣ - الكتاب ١ / ٣١ .

٤ - أثر النحاة في البحث البلاغي صـ ٩٢ .

المطلب الثالث : أهميته عند البلاغيين : «عبدالقاهر الجرجاني» توفي ٤٧١هـ[١]

التقديم والتأخير من أهم مباحث علم المعاني والذي يشكل أحد علوم البلاغة ، ويعدُّ التقديم والتأخير من أهم الظواهر اللغوية التي أكسبت اللغة مرونتها وطواعيتها ، فهو يسمح للمتكلم أن يتحرك بحرية متخطيا الرتب المحفوظة، فيختار من التراكيب ما يمنح موقفه الفكري والوجداني خصوصيته وتفرده ، ولما أدرك البلاغيون أهمية هذه الظاهرة أولوها عنايتهم ، ومحصوا كلام النحويين فيها واستفادوا منه،وسعوا في تطويره ، ومن أبرز العلماء الذين أولوها اهتمامهم وكشفوا عن كثير من أسرارها البلاغية الإمام عبدالقاهر الجرجاني رحمه الله ، ولا غرو فهو صاحب* نظرية النظم وقد عرف النظم بأنّه:(توخي معاني النحو في معاني الكلم)[٢] (ويرتب عبدالقاهر على هذا أن المزايا في النظم ، إنما تكون بحسب توخي المعاني والأغراض ، وباب التقديم والتأخير كله يقوم على هذا الأساس)[٣] .

واهتمامه بالتقديم والتأخير وغيره من الأبواب التي تناولها بالدراسة والتحليل كالحذف والتكرار والفصل والوصل ، إنما الباعث له أنّها وسيلة من وسائل الإعجاز القرآني (وليت شعري إن كانت هذه أموراً هينة ، وكان المدى فيها قريبا،والجدى يسيرا ، ومن أين كان نظم أشرف من نظم ؟ وبم عظم التفاوت واشتد التباين وترقى

---

١ - انظر فوات الوفيات ٢ / ٣٦٩ - ٣٧٠ .

* ليس عبدالقاهر أوّل من تحدث عن النظم فقد سبقه إلي ذلك الجاحظ والخطابي والباقلاني ، والقاضي عبدالجبار، ولكنه هو الذي اتسع في القضيّة ، وجعل منها نظرية مكتملة الجوانب .

٢ - دلائل الإعجاز للجرجاني ، ت/ محمود محمد شاكر (القاهرة : مكتبة الخانجي، ط/ ٢ ، ١٤١٠هـ)صـ٣٦١ .

٣ - البيان العربي للدكتور بدوي طبانه (جدة: دار المنارة ، الرياض: دار الرفاعي ط / ٧ ، ١٤٠٨هـ) صـ٢٠٨ .

الأمر إلي الاعجاز ، وإلى أن يقهر أعناق الجبابرة)[١] .

وكان الدارسون قبل عبدالقاهر يكتفي أكثرهم بالإشارة إلى موضع التقديم وبيان أصل العبارة،ومن ذلك قول ابن قتيبه:(ومن المقدم والمؤخر قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾[٢] أراد أنزل الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا ، ومنه قوله سبحانه : ﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ﴾[٣] أي بشرناها باسحاق فضحكت)[٤] .

أما عبدالقاهر فقد أفرد له فصلا في كتابه «دلائل الإعجاز» وفصل القول فيه في إحدى وأربعين صفحة فهو عنده (باب كثير الفوائد جم المحاسن واسع التصرف بعيد الغاية ، لا يزال يفترُّ لك عن بديعه ويفضي بك إلي لطيفة ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك أن قدِّم فيه شيء ، وحوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان)[٥] .

ودرس عبدالقاهر في هذا الفصل ظاهرة التقديم والتأخير في سياق الاستفهام ، والنفي ، والإثبات .

وقد أفاد فيه من سيبويه الذي أدرك هذه الظاهرة وأحسن عبدالقاهر تعليلها وكشف عن بلاغتها ، وتجاوز ما وقف عنده سيبويه، وفي ذلك يقول : (وقد وقع في ظنون الناس أنّه يكفي أن يقال : «إنّه قدم للعناية ، ولأنّ ذكره أهم» من غير أن يذكر ، من أين كانت تلك العناية ؟ وبم كان أهم ، ولتخيّلهم ذلك قد صغر أمر التقديم والتأخير في نفوسهم، وهونوا الخطب فيه، حتى إنّك لترى أكثرهم يرى تتبعه

---

١ - دلائل الاعجاز صـ ١٠٩ .
٢ - الكهف الآية ١ .
٣ - هود جزء م الآية ٧١ .
٤ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبه ، ت/أحمد صقر ، المكتبة العلمية ، د.ت ، صـ ٢٠٥ - ٢٠٦ .
٥ - دلائل الاعجاز صـ ١٠٦ .

والنظر فيه ضربا من التكلف ، ولم تر ظنّاً أزرى على صاحبه من هذا وشبهه)[1] .

والتقديم عنده علي وجهين :

أ – تقديم على نية التأخير ويحتفظ فيه المقدم بحكمه الإعرابي الذي كان عليه كتقديم الخبر على المبتدأ،أو المفعول على الفاعل كقولك:« منطلق زيد » و « ضرب عمراً زيدٌ »

ب – تقديم لا على نية التأخير فيه تنقل الشيء عن حكمه الإعرابي إلي حكم آخر نحو:« زيد المنطلق » و « المنطلق زيد » فكلاٍ من زيد والمنطلق يتغير إعرابه بتغير التركيب ، وأظهر منه:« ضربت زيداً » عندما تقدم زيداً فإنّك تنقله من المفعولية إلى الابتداء[2] .

وبيّن أنّه يكون لفائدة في كل حال (وأنّ من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره قسمين ، فيجعل مفيداً في بعض الكلام وغير مفيد في بعض)[3] وقد درس التقديم والتأخير في السياقات التالية : الاستفهام ، النفي ، الخبر المثبت.

١ – التقديم والتأخير في سياق الاستفهام .

تحدث الشيخ عبدالقاهر فيه عن تقديم الفعل بقسميه الماضي والمضارع على الاسم ، وكذا العكس ، فإنّ كان الفعل ماضيا وبدأت به فقلت « أفعلت » كان الشك في الفعل نفسه ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده ، وإذا قلت : « أأنت فعلت؟ » فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو ، وكان التردُّدُ فيه[4] .

---

١ – دلائل الاعجاز صـ ١٠٨ .

٢ – انظر المصدر نفسه ١٠٦ – ١٠٧ .

٣ – انظر المصدر نفسه صـ ١١٠ .

٤ – انظر المصدر نفسه صـ ١١١ .

وما يقال في الهمزة إذا كانت للاستفهام بمعناه الحقيقي ، يقال فيها إذا كانت للتقرير ، ومنه قوله سبحانه : ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾[1] (لا شبهة في أنّهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام وهم يريدون أن يقرّ لهم بأنّ كسر الأصنام قد كان ، ولكن أن يقرّ بأنّه منه كان ، وكيف ؟ وقد أشاروا له إلى الفعل في قولهم: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا﴾ وقال هو عليه السلام في الجواب:﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[2] ولو كان التقرير بالفعل لكان الجواب : «فعلت» أو «لم أفعل»)[3] .

وأمّا إن كان الفعل مضارعا لم يخل من أن تريد الحال أو الاستقبال فإن أردت الحال كان المعنى شبيها بما مضى في الماضي[4] .

(وإن أردت بـ«تفعل» المستقبل كان المعنى إذا بدأت بالفعل على أنك تعمد بالإنكار إلى الفعل نفسه ، وتزعم أنه لا يكون ، أو أنّه لا ينبغي أن يكون ، فمثال الأول :

أَيَقْتُلُني والمشرَ فيُّ مُضَاجعي ومَسْنُونةٌ زرقٌ كأنْيَابِ أغْوَالِ[5]

فهذا تكذيب منه لإنسان تهدّده بالقتل ، وإنكارٌ أن يقدر على ذلك ويستطيعه ، ومثله أن يطمع طامع في أمر لا يكون مثله ، فتجهِّله في طمعه فتقول : «أيرضى عنك فلان وأنت مقيم على ما يكره ؟» .

ومثال الثاني ، قولك لرجل يركب الخطر:«أتخرج في هذا الوقت؟ أتذهب في غير الطريق ؟ أتغرر بنفسك ؟» وقولك للرجل يضيع الحق:«أتنسى قديم إحسان فلان ؟)[6] .

---

١ – الأنبيا ، الآية ٦٢ .
٢ – الأنبيا ، جزء من الآية ٦٣ .
٣ – دلائل الاعجاز صـ ١١٣ .
٤ – المصدر السابق صـ ١١٦ .
٥ – البيت لأمريء القيس من قصيدة مطلعها :

ألا عِم صباحا أيها الطّلل البالي وهل يعمن من كان في العصر الخالي

انظر ديوان امريء القيس ، ت/ مصطفى عبدالشافي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤٠٣هـ) صـ ١٢٥ .
٦ – دلائل الاعجاز صـ ١١٦ – ١١٧ .

وجملة الأمر أنك تنحو بالإنكار نحو الفعل ، فإن بدأت بالاسم فقلت: «أأنت تفعل؟» كنت وجهت الإنكار إلى نفس المذكور ، وأبيت أن تكون بموضع أن يجيء منه الفعل ، إمّا لأنّه عاجز عن القيام به وأنّه ليس في وسعه كقولك: «أأنت تمنعني؟» «أأنت تأخذ على يدي؟» فكأنك تقول له غيرك يستطيع ذلك ، أمّا أنت فلا ولست بذاك ، وإمّا لأنه لا يختاره ولا يرتضيه ، وأنّ نفسه تأباه وتكرهه، ومثاله «أهو يمنع الناس حقوقهم ؟ هو أكرم من ذاك»

وإمّا لصغر قدره وقصر همته ، وأنّ نفسه نفس لا تسمو وذلك قولك «أهو يسمح بمثل هذا؟» أهو يرتاح للجميل ؟ هو أقصر همة من ذلك ، وأقل رغبة في الخير مما تظن»[1] .

٢ - التقديم والتأخير في سياق النفي :

حال التقديم مع النفي كحاله مع الاستفهام (فإذا قلت : «مافعلت» كنت نفيت عنك فعلاً لم يثبت أنّه مفعول ، وإذا قلت : «ما أنا فعلت» كنت نفيت عنك فعلا يثبت أنّه مفعول[2] .

(ومما هو مثال بيّن في أن تقديم الاسم يقتضي وجود الفعل قوله :

وما أنا أسْقَمْتُ جِسمي بِهِ وَلاَ أنَا أضْرَمْتُ في القَلْبِ نَارا[3]

المعنى على أنّ السقم ثابت موجود ، وليس القصد بالنفي إليه ، ولكن إلى أن يكون هو الجالب له ، ويكون قد جرّه إلى نفسه ، ومثله في الوضوح قوله :

---

١ - انظر دلائل الاعجاز صـ ١١٧ - ١١٨ . ٢ - المصدر السابق صـ ١٢٤

٣ - قاله المتنبي في قصيدة مطلعها :

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل السلام اختصارا

انظر ديوان المتنبي (بيروت : دار صادر ، د.ت) صـ ٣٦٥ .

وَمَـا أنَـا وَحْـدي قُلْـتُ ذَا الشِّـعرَ كُلَّه[1]

«الشعر» مقول على القطع ، والنفي لأن يكون هو وحده القائل له)[2] .

ويقرر الشيخ عبدالقاهر أن النفي يكون عاما في حال تقديم الفعل فيصلح قول القائل :«ما قلت شعراً قط» و «ما أكلت اليوم شيئا» أما تقديم الاسم منفيا فلا يعطي دلالة العموم والشمول التي اكتسبها الفعل بتقديمه،فلا يصلح أن يقال : «ما أنا قلت شعراً قط ، وما أنا أكلت اليوم شيئا» لأن هذا يقتضي المحال وهو أن يكون هناك إنسان قال كل شعر في الدنيا ، وأكل كل شيء يؤكل[3] .

ويبرهن على صحة ما ذهب إليه بأمثلة مركبة فيقول :

يصح لك أن تقول : «ماقلت هذا،ولا قاله أحد من الناس» ولا يصح ذلك في الوجه الآخر ، فلو قلت : «ما أنا قلت هذا ولا قاله أحد من الناس» كان خلفا من القول ، لأنك أثبت كلاما مقولا في بداية حديثك،ثم تقول بعد ذلك:«ولا قاله أحد من الناس» فتناقض ما بدأت به[4] .

٣ - التقديم والتأخير في سياق الخبر المثبت* :

يقسم عبدالقاهر رحمه الله تقديم الاسم على الفعل في سياق الخبر المثبت إلى قسمين وفيهما يقول : (فإذا عمدت إلى الذي أردت أن تحدث عنه بفعل فقدمت

---

١ - هذا صدر بيت للمتنبي وعجزه **وَلَكِنْ لشِعْرِيْ فيك من نفْسِه شِعْرُ**

من قصيدة يمدح بها علي بن أحمد الأنطاكي ومطلعها :

أطاعن خيلا من فوارسها الدهر وحيداً وما قولي كذا ومعي الصبر انظر ديوانه صـ ١٩٢ .

٢ - دلائل الاعجاز صـ ١٢٥ . ٣ - انظر المصدر السابق صـ ١٢٤ .

٤ - انظر المصدر نفسه صـ ١٢٥ .

* الملاحظ أن شواهده القرآنية والشعرية تقدم المسند إليه فيها على الخبر الفعلي ، ولذا سيأتي التفصيل فيه في مدخل الفصل الأول في تقديم المسند إليه ، انظر صـ ٦٥-٦٨ .

ذكره ، ثم بنيت الفعل عليه فقلت:« زيد قد فعل » و « أنا فعلت » و « أنت فعلت » اقتضى ذلك أن يكون القصد إلى الفاعل ، إلاّ أنّ المعنى في هذا القصد ينقسم قسمين :

أحدهما جليٌّ لا يشكل : وهو أن يكون الفعل فعلا قد أردت أن تنص فيه على واحد فتجعله له ، وتزعم أنّه فاعله دون واحد آخر ، أو دون كل أحد نحو : « أنا كتبت في معنى فلان ، وأنا شفعت في بابه » تريد أن تدعي الانفراد بذلك والاستبداد ، ومنه قولهم في المثل : « أتعلمني بضب أنا حرشته »[1] ، فلم يحرشه أحد سواي وهذا القسم يفيد تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي .

والقسم الثاني : أن لا يكون القصد إلى الفاعل على هذا المعنى ، ولكن على أنك أردت أن تحقق على السامع أنّه قد فعل ، وتمنعه من الشك فأنت لذلك تبدأ بذكره ، وتوقعه أولاً في نفسه لكي تباعده بذلك من الشبهة ، وتمنعه من الإنكار ، ومثاله قولك : « هو يعطي الجزيل » فأنت لا تريد أن تزعم أنّه ليس هنا من يعطي الجزيل غيره ، ولا أن تعرّض بإنسان وتحطّه عنه ، ولكن تريد أن تحقّق على السامع أنّ إعطاء الجزيل دأبه ، وأن تمكّن ذلك في نفسه[2] .

ويكشف لنا عبدالقاهر عن سر هذه التقوية ، وعلة هذا التوكيد بقوله : (وذلك أنّه لا يؤتى بالاسم معرًّى من العوامل إلاّ لحديث قد نوى إسناده إليه ، وإذا كان كذلك ، فإذا قلت : « عبدالله » فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلا:« قام » أو قلت:« خرج » أو قلت:« قدم » فقد علم ما جئت به ، وقد وطّأت له ، وقدمت الإعلام فيه ، فدخل على القلب دخول المانوس به، وقبله قبول المهيّأ له والمطمئن إليه ، وذلك لا محالة أشد لثبوته ، وأنفى للشبهة ،

---

١ – انظر دلائل الاعجاز صـ ١٢٨ .

٢ – انظر المصدر نفسه صـ ١٢٨ – ١٢٩ .

وأمنع للشك وأدخل في التحقيق)[1] ويُلمح عبدالقاهر بحسه الجمالي إلى الجانب الوجداني في التقديم،وأثره على المتلقي ، متخطيا ومتجاوزاً الجانب النحوي الذي يحتمه السياق ، على حين نرى القزويني يوقفه على الجانب النحوي ، ويقصره عليه ، ويرى أنّ سبب التقوية هو تكرار الإسناد ، فإذا قلت:«هو يعطي الجزيل» فأنت ذكرت المسند أولاً ثم أعدته بالضمير ثانياً[2] .

رابعاً : مثل وغير :

وهما مما يلزم تقديمه في التراكيب البليغة ، إذ أنّه مركوز في الطباع وجار في عادة كل قوم،ومنه قول المتنبي :

مِثْلُكَ يَثْني الحزن عَنْ صَوْبِه
وَيَستردُّ الدَمْعَ عَنْ غَرْبِهِ[3]

وقول أبي تمام :

وغَيْرِي يَأكُلُ المَعْرُوفَ سُحْتَا
وَتَشْحُبُ عِنْدَه بِيْضُ الأَيَادِيْ[4]

فهو لا يريد أن يعرّض بشاعر سواه، وإنّما أراد أن ينفي عن نفسه أنه ممن يكفر النعمة ويلؤم[5] .

---

١ - دلائل الاعجاز صـ ١٣٢ .

٢ - انظر التلخيص في علوم البلاغة للقزويني، ت/ عبدالرحمن البرقوقي (بيروت: دار الكتاب العربي، د.ت) صـ٧٩ .

٣ - قاله المتنبي في قصيدة يرثي فيها عمة عضد الدولة ، ويعزيه بها ، ومطلعها :

آخرُ ما الملكُ معزّى به   هذا الذي أثّر في قلبه   انظر ديوانه صـ ٥٥٧ .

٤ - قاله أبو تمام في قصيدة يمدح بها أحمد بن أبي داؤد ومطلعها :

سقى عهد الحمى سبل الهاد   وروّض حاضر منه وباد

انظر ديوان إبي تمام . ت/شاهين عطية (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) صـ ٨١ .

٥ - انظر دلائل الاعجاز صـ ١٣٨ - ١٣٩ .

فإن أخرتهما وقلت:« يثني الحزن عن صوبه مثلك » و« يأكل غيري المعروف سحتا » رأيت كلاما مقلوباً عن جهته ومغيراً عن صورته ، ورأيت اللفظ قد نبا عن معناه،ورأيت الطبع يأبى أن يرضاه[1] .

خامساً : تقديم النكرة على الفعل :

وفيه يختم عبدالقاهر فصل التقديم والتأخير ، ويتحدث فيه عن تقديم النكرة على الفعل في الاستفهام ، وفي الخبر المثبت .

(فإذا قلت:« أجاءك رجل؟ » فأنت تريد أن تسأله ، هل كان مجيء أحد من الرجال إليه؟ فإن قدمت الاسم فقلت:أرجل جاءك؟ فأنت تسأله عن جنس من جاءه أرجل هو أم امرأة ؟ ويكون هذا منك إذا كنت علمت أنه قد أتاه آت ، ولكنك لم تعلم جنس ذلك الآتي ، فسبيلك في ذلك سبيلك إذا أردت أن تعرف عين الآتي فقلت : « أزيد جاءك أم عمرو؟ »[2] ، وتقديم النكرة في الخبر مثلها في الاستفهام ، فأنت (إذا قلت : « رجل جاءني » لم يصلح حتى تريد أن تعلمه أنّ الذي جاءك رجل لا امرأة ، ويكون كلام مع من قد عرف أن قد أتاك آت ، فإن لم ترد ذاك ، كان الواجب أن تقول : « جاءني رجل » فتقدم الفعل .

ومنه قولهم : « شرٌّ أهرَّ ذا ناب » قُدِّم فيه « شرٌّ » لأنّ المراد أن يعلم أن الذي أهرّ ذا الناب هو من جنس الشر لا جنس الخير ، فجرى مجرى أن تقول:« رجلٌ جاءني » تريد أنّه رجل لا امرأة[3] .

(هذا والذي يشعر به كلام عبدالقاهر أنّه لا فرق بين المعرفة والنكرة في أنّ بناءها على الفعل قد يكون للتخصيص،وقد يكون للتقوّي)[4] .

---

١ - انظر المصدر السابق ص ١٤٠ .

٢ - انظر المصدر نفسه ص ١٤٢ .

٣ - انظر المصدر نفسه ص ١٤٣ .

٤ - انظر مختصر السعد في شروح التلخيص ١ / ٤٠٥

المطلب الرابع : الموازنة بين الدراسة النحوية والدراسة البلاغية لهذه الظاهرة :

ليس ثمة تناكر بين هذين العلمين ، فنحن نرى سيبويه النحوي يشير إلى الأسرار البلاغية خلال عرضه لموضوعات الكتاب[١] .

ويقرر عبدالقاهر أنّ البلاغة حاجتها إلى علم النحو ماسة وضرورية حيث (أنّ الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها،وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها ، وأنّه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجحانه حتى يعرض عليه ، والمقياس الذي لا يعرف صحيح من سقيم حتى يُرجَع إليه)[٢] .

ويقول : (فلستَ بواجد شيئاً يرجع صوابه إن كان صوابا ، وخطؤه إن كان خطأ إلى «النظم» ويدخل تحت هذا الاسم ، إلاّ وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه ، ووضع في حقه ، أو عومل بخلاف هذه المعاملة فأزيل عن موضعه ، واستعمل في غير ما ينبغي له ، فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده ، أو وصف بمزية وفضل فيه ، إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة ، وذلك الفساد وتلك المزية ، وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ووجدته يدخل في أصل من أصوله ، ويتصل بباب من أبوابه)[٣] .

(هذا التقارب نتيجة حتمية لنشوء علم المعاني في أحضان النحو ، إذ قام صرح البلاغة على أساس من جهود أوائل النحاة واللغويين الذين تناولوا اللغة من خلال منهج شمولي ، فتعاملوا معها على أنها بناء دلالي تركيبي متكامل)[٤] .

---

١ - سبق عرض شيء منها في المطلب الثاني من هذا المبحث .

٢ - انظر دلائل الاعجاز صـ ٢٨ .

٣ - انظر المصدر نفسه صـ ٨٢ - ٨٣ .

٤ - انظر مناهج بلاغية للدكتور أحمد مطلوب (الكويت : وكالة المطبوعات ، ط / ١ ، ١٩٧٣) صـ٩٩ - ١٠٠ .

وبرغم هذا التقارب ، وتصريح عبدالقاهر وتأكيده على علم النحو ، وكونه أساساً متيناً يقوم عليه البناء البلاغي ، إلا أنك تلحظ فروقا تمليها طبيعة الدراسة في كل فن للظواهر اللغوية المختلفة .

فعلما النحو والمعاني كلاهما يتناول الجملة إلاّ أنّ الأول تحليلي يبدأ بالجملة للوصول إلى المعنى ، والآخر تركيبي يبدأ بالجملة ويتخطاها إلى علاقاتها بالجمل الأخرى في السياق العام ، هذا الترابط الوثيق بين العلمين قديم يرجع بأصوله إلى بدايات الدرس البلاغي ، عندما أخذ العلماء عن النحويين أهم أصولهم فقبلوا قبول التسليم «أصل الوضع» إلاّ أنّهم اختاروا أصولاً أخر معنوية الطابع ، وهي ألصق بمادة دراساتهم وأضافوا إليها ما يناسب غاياتهم[١] .

ويوضح ابن كمال باشا[٢] العلاقة بين علمي النحو والمعاني فيما نقله عنه الاستاذ حسين أحمد الدراويش بقوله:(يشارك النحوي صاحب المعاني في البحث عن المركبات ، إلا أن النحوي يبحث عنها من جهة هيآتها التركيبية صحة وفسادا ، ودلالة تلك الهيئات على معانيها الوضعية على وجه السداد ، وصاحب المعاني يبحث عنها من جهة حسن النظم المعبر عنه بالفصاحة في التركيب وقبحه) وهذا يعني أنّ ما يبحث عنه في علم النحو من جهة الفساد يبحث عنه في علم المعاني من جهة الحسن والقبح ، والذي يظهر أنّ نظرة البلاغيين لهذا الموضوع كانت نظرة تتسم

---

١ – انظر الاصول للدكتور تمام حسان (بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، د.ت) صـ ٣٤٦-٣٥٠ .

٢ – في رسالة له مخطوطة بعنوان «رسالة فيما بين اللغوي وصاحب المعاني» دار الكتب المصرية صـ ١٩٨، انظر النظم القرآني في سورة البقرة ، رسالة دكتوراه مقدمة من حسين أحمد علي الدراويش ، الجامعة الأردنية ١٩٨٦ ، مخطوط صـ ٣٤ .

بالبحث عن أغراض كل أسلوب ، فدراستهم تبدأ بالجملة وتنتهي إلى النص لمعرفة أثر ذلك التقديم،أو ذاك التأخير على جمال النص ، وإبراز المقصود إلى الملتقي ، في حين كان النحويون ينظرون إلى هذا الموضوع من حيث صحة الجملة العربية إفراداً وتركيبا ، وعلى هذا (فالنحو يجعل نقطة البداية هي المباني ، وينطلق منها للوصول إلى غايته من المعاني ... أما علم المعاني فربما اتجه اتجاها معاكسا لاتجاه النحو ، فبدأ من منطلق المعنى باحثا له عن المبني ، ولأمر ما قال البلاغيون : لكل مقام مقال ، فالمعنى هو الذي يقتضي الذكر أو الحذف ، والإظهار أو الإضمار ، والتقديم أو التأخير ، والفصل أو الوصل)(١) .

ولا يعني هذا أنّ اتجاه كل علم مختلف عن اتجاه العلم الآخر ، ومن ثمّ فالعلمان وإن اختلفا في المسلك فإنّهما متكاملان بحيث لا يستغنى أحدهما عن الآخر فأحدهما ينظر إلى الناحية الشكلية والتعبير عن المعنى بطرق معينة ، والآخر ينظر إلى الناحية المعنوية والتعرف على أسرار التعبير ، ومعرفة أسرار حسنه وأسباب قبحه ، ولذا يحسن كما يرى الدكتور تمام حسان - أن يكون علم المعاني قمة الدراسة النحوية ، إذ أشاد بدراسة عبدالقاهر الجرجاني قائلاً : (لقد كانت مبادرة العلامة عبدالقاهر رحمه الله بدراسة النظم ومايتصل به من بناء وترتيب وتعليق ، من أكبر الجهود التي بذلتها الثقافة العربية في سبيل إيضاح المعنى الوظيفي في السياق،أو التركيب)(٢) .

---

١ - الاصول لتمام حسان صـ ١٤٩ .

٢ - اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط/ ٢، ١٩٧٩، صـ١٨ .

(ولم يقف الجرجاني بالتقديم والتأخير عند الحدود التي وقف عندها النحويون بل تتبع المعنى في التراكيب المختلفة لرصد أدق الفروق والأغراض البلاغية ، التي لم ينتبه إليها النحاة ، ولم يهتموا بها ، فالتقديم عندهم لا يعني سوى العناية والاهتمام ، لا يبالون من أين كانت تلك العناية ولم كان الاهتمام ، إلاّ أنّ سيبويه كان قد أشار إلى غرض آخر ، وهو تنبيه المخاطب أخذه عنه الجرجاني)[1] .

(ومع ذلك لم يستطع النحويون تتبع دقائق المعنى كما فعل الجرجاني ، إذ أنّهم لم يدركوا الدلالات الإضافية التي ترتبط بظروف المقام ، وبسياقات معنية ، وبتوترات نفسية خاصة بالمتكلم والمخاطب بينما كانت هذه الجوانب عند الجرجاني ومن نحا نحوه عناصر هامة وبارزة من عناصر الموقف اللغوي)[2] .

وخلاصة القول هو أنه إذا كان النحاة قد بحثوا هذا الأسلوب في حدود الصحة والخطأ أو الجمال أحيانا ، فإن البلاغيين كشفوا عن كثير من قيم الجمال فيه ، وتراث العربية واحد ، جهود علمائه تتكامل ولا تتفاضل ، والوعي بعبقرية هذه اللغة وإدراك أسرارها لا يمكن الوقوف عليه ، إلا من خلال رؤية شاملة تعتدُّ بكل جهد تناول الدرس اللغوي ، وتجاوز بالبحث في حدود الصحة والخطأ إلى تلمس القيم الجمالية ، والكشف عنها .

---

١ - الحذف والتقديم والتأخير في ديوان النابغة الذبياني ، لابتسام أحمد حمدان (دمشق : دار طلاس ، ط / ١ ، ١٩٩٢م)صـ ٥٣ .

٢ - المرجع السابق صـ ٥٤ .

الفصل الأول

تقديم المسند إليه

- مدخل

- المبحث الأول : تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي

- المبحث الثاني : تقديم المسند إليه على الخبر المشتق

مدخــل

- المطلب الأول : الجملة العربية .
- المطلب الثاني : التعريف بالمسند إليه وأغراض تقديمه .
- المطلب الثالث : مايقبح فيه التقديم ويمتنع .

- المطلب الأول : الجملة العربية

اختلف النحويون في عدد أنواع الجمل في العربية ، فإذا كان المألوف أن الجملة قسمان اسمية وفعلية ، فإنّ بعض النحاة يذهب إلى القول بوجود قسم ثالث هو الجملة الظرفية،والتي يكون ركنها المتقدم ظرفاً أو جاراً ومجروراً ، وفريق آخر يقرر وجود نوع رابع هو الجملة الشرطية[1] ، وعندما ننعم النظر في تلك التقسيمات نجدها لاتخرج عن الاسمية الفعلية (لأن الشرطية في التحقيق مركبة من جملتين فعليتين الشرط فعل وفاعل ، والجزاء فعل وفاعل ، والظرف في الحقيقة للخبر الذي هو استقر وهو فعل وفاعل)[2] .

وسيكشف البحث عن تعريف الاسمية والفعلية

قال ابن هشام : (فالاسمية هي : التي صدرها اسم كزيد قائم ، وهيهات العقيق ، وقائم الزيدان ، عند من جوزه وهو الأخفش والكوفيون .

والفعلية هي : التي صدرها فعل ، كقام زيد ، وضُرب اللص وكان زيد قائماً ، ويقوم زيد ، وقم ، ومرادنا بصدر الجملة المسند والمسند إليه ، فلا عبرة بما تقدم عليهما من الحروف ، فالجملة من نحو:«أقائم الزيدان» «أزيد أخوك» «لعل أباك منطلق» «ومازيد قائما» اسمية ، ومن نحو «أقام زيد ، وإن قام زيد ، وقد قام زيد ، وهلاّ قمت» فعلية .

---

١ - انظر شرح المفصل لابن يعيش النحوي ، (بيروت ، د. ت)١/٨٨ ، ومغني اللبيب لابن هشام ، ت/ محمد محيي الدين عبدالحميد(دار احياء التراث العربي) د.ت ، ٢/٣٧٦ ، ومعجم القواعد العربية لعبدالغني الدقر (دمشق : دار القلم ، ط / ٢ ، ١٤١٤هـ) صـ ٢١٣-٢١٤ ، وإعراب الجمل وأشباه الجمل للدكتور / فخرالدين قباوة (بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ط / ٣ ، ١٤٠١هـ) صـ١٨-٢٠ .

٢ - شرح المفصل ١/٨٨ .

والمعتبر أيضاً ماهو صدر في الأصل ، فالجملة من نحو:« كيف جاء زيد » ومن نحو : ﴿ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾[1] ومن نحو:﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[2] ﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ ﴾[3] فعلية ، لأنّ هذه الأسماء في نية التأخير،وكذا الجملة في نحو: « ياعبدالله »، ونحو:﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾[4] ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾[5] ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾[6] فعلية ، لأنّ صدورها في الأصل أفعال والتقدير: أدعو زيداً وإن استجارك أحد ، وخلق الأنعام ، وأقسم والليل)[7] .

وإن كان ثمّة فرق في الحد،فهناك فرق في الاستعمال .

فالاسمية (تفيد بأصل وضعها ثبوت الحكم فحسب بلا نظر إلى تجدد ولا استمرار ، فلايستفاد من قولنا : علي مسافر سوى ثبوت السفر فعلا لعلي دون نظر إلى تجدد ولاحدوث ، فالمعنى فيه شبيه بالمعنى في قولنا محمد طويل ومحمود قصير، فكما لايقصد هنا إلى أن يجعل الطول والقصر يتجدد ويحدث بل إيجابهما وثبوتهما فقط ، كذلك لايفيد قولنا:علي مسافر أكثر من إثبات السفر فعلا لعلي ، ولكن قد تحف بها قرائن أخرى تستفاد من سياق الكلام ، كأن تكون في معرض مدح أو ذم أو حكمة أو نحو ذلك ، فتفيد الدوام والاستمرار حينئذ ، وعليه قول النضر بن جؤية يتمدح بالغنى والكرم :

لا يألفُ الدر همُ المضروبُ صرّتَنَا ... لكنْ يَمُــرُّ عَلَيْهَــا وَهُــو مُنْطَلِقُ[8]

١ - غافر جزء من الآية ٨١ .
٢ - البقرة جزء من الآية ٨٧ .
٣ - القمر جزء من الآية ٧ .
٤ - التوبة جزء من الآية ٦ .
٥ - النحل جزء من الآية ٥ .
٦ - الليل الآية ١ .
٧ - انظر مغني اللبيب ٣٧٦/٢ .
٨ - البيت للنضر بن جؤية انظر معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي ، ت محمد محيي الدين عبدالحميد (بيروت عالم الكتب ١٣٦٧هـ)٢٠٧/١ ، ودلائل الاعجاز ص ١٧٤ وفيه خرقتنا بدل صرتنا .

فهو يريد أنّ دراهمهم دائمة الانطلاق،تمرق من الكيس مروق السهام من قسيها لتوزع على المعوزين وارباب الحاجات .

ونظيره قوله تعالى:﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [1] فسياق الحديث في معرض المدح،و« أل » على إفادة الاستمرار والدوام .

والفعلية : تدل بأصل وضعها على التجدد في زمن معين مع الاختصار ، فلا يستفاد من نحو طلعت الشمس إلا إثبات الطلوع فعلا للشمس في زمن مضى ، تفسير هذا أنّ الفعل يدل على أحد الأزمنة الثلاثة بذاته لابقرينة خارجية عنه ، وهذا الزمن الذي هو أحد مدلوليه (مدلوله الثاني الحدث) لاتجمع أجزاؤه في الخارج بل تتصرم وتنقضي شيئاً فشيئاً ، ومن ثمّ كان الفعل مع إفادته الزمن يفيد أيضاً تجدد الحدث وحصوله بعد أن لم يكن،بخلاف الاسم فإنّه إنما يدل على الزمن المعين بقرينة أخرى كأن يقال :

أمس أو الآن أو غداً) [2] .

ومن بديع مايلتمس من فرق في الاستعمال تعليق ابن الأثير على قوله تعالى﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾[3] قال : (فإنهم إنّما خاطبوا المؤمنين بالجملة بالفعلية ، وشياطينهم بالجملة الأسمية المحققة بأنّ المشدّدة ، لأنهم في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر ، والبعد من أن يزلّوا عنه على صدق ورغبة ووفور نشاط ، فكان ذلك

---

١ - القلم الآية ٤ .

٢ - انظر الايضاح من شروح التلخيص ١٩/٢ - ٣٠ ، وعلوم البلاغة ، أحمد مصطفى المراغي (بيروت : دار القلم ، د.ت) صـ ٥٥ - ٥٦

٣ - البقرة جزء من الآية ١٤ .

متقبلاً منهم ، ورائجا عند إخوانهم وأمّا الذي خاطبوا به المؤمنين فإنما قالوه تكلفاً وإظهاراً للإيمان خوفا ومداجاة ، وكانوا يعلمون أنّهم لو قالوه بأوكد لفظ وأسدّه لما راج لهم عند المؤمنين إلا رواجاً ظاهراً لا باطناً ، ولأنهم ليس لهم في عقائدهم باعث قويّ على النطق في خطاب المؤمنين بمثل ماخاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة ، فلذلك قالوا في خطاب المؤمنين : « آمنا » وفي خطاب إخوانهم : « إنّا معكم »)[1] .

وتقوم بنية الجملة في العربية على ركنين يعدان الدعامة الأصلية في الجملة ، وقد سمّاها سيبويه المسند والمسند إليه وعرفهما بأنّهما (مالا يغني واحدٌ منهما عن الآخر ، ولايجد المتكلم منه بدا ، فمن ذلك الاسم المبتدأ أو المبنيُّ عليه وهو قولك عبدالله أخوك ، وهذا أخوك ، ومثل ذلك : (يذهب عبدالله) فلابد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بدٌ من الآخر في الابتداء ، ومما يكون بمنزلة الابتداء قولك : كان عبدالله منطلقا ، وليت زيداً منطلق ، لأنّ هذا يحتاج إلى مابعده كاحتياج المبتدأ إلى مابعده)[2] .

إذاً فالجملة العربية تنعقد من هذين العنصرين الأساسيين، وماسواهما في الجملة من التوابع والمفاعيل تسمى مكملات الجملة تجيء لتؤدي وظائف نحوية معينة وتؤثر في المعنى ، فقد يحتاج المتكلم إلى طول الجملة فيأتي بعناصر غير اسنادية،

---

١ - المثل السائر ابن الأثير ، ت / الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوي طبانة (الرياض : دار الرفاعي ، ط الثانية ١٤٠٣ هـ) ٢/٢٦٩ - ٢٧٠ . (وهذا الكلام قريب من كلام الزمخشري في الكشاف ١ / ٧٣-٧٤ ، حول هذه الآية ، ولعل ابن الأثير نقله بتصرف يسير ، ونقلت كلام ابن الأثير لأنه فيما بدا لي أوضح وأشمل .

٢ - الكتاب لسيبويه ١/٢٣ .

فتفيد زمان الفعل أو مكانه أو تصف كلمة ، وما إلى ذلك مما يحتاج إليه المتكلم ، وللجملة العربية خاصية عظمى تؤثر في أحكامها وإبراز خصائص اللغة وأسرار التركيب ، وهذه الخاصيّة هي ظاهرة التقديم والتأخير ، وتعتبر من أهم الظواهر اللغوية التي أكسبت اللغة مرونتها وطواعيتها ، وهي لون من ألوان حرية الجملة العربية ، ولأهميتها في التركيب اللغوي،تطرق لها كثير من النحويين والبلاغيين وعرضوا لما يجوز فيه التقديم ومايمتنع (وبحث التقديم يشمله لونان :

١ - التقديم بين جزئي الجملة .

٢ - التقديم في المتعلقات) [١] .

والمراد بجزئي الجملة المسند إليه والمسند .

ونقف مع المسند إليه للتعريف به وإيضاح مايفيده من قيم بلاغية في حال العدول عن الأصل من خلال أسلوب التقديم،ونزيد ماذهب إليه سيبويه توضيحا وبياناً ، وسوف يأتي حديث إن شاء اللّه عن المسند والمتعلقات للتعريف بهما وأغراض تقديمها .

---

١ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري ، صـ ٢٧٠

– المطلب الثاني : التعريف بالمسند إليه وأغراض تقديمه .

أولا : المسند إليه :

(ويسمى المحكوم عليه أو المتحدث عنه وله ستة مواضع :

١ – الفاعل للفعل التام .

٢ – وأسماء النواسخ : كان وأخواتها ، وإنّ وأخواتها .

٣ – والمبتدأ الذي له خبر .

٤ – والمفعول الأول لظنّ وأخواتها .

٥ – والمفعول الثاني لأرى وأخواتها .

٦ – ونائب الفاعل)[١] .

– ثانياً : تقديم المسند إليه :

ويكون التقديم للأهمية لأحد الأسباب الآتية :

أ – (لأن تقديمه هو الأصل ولا مقتضي للعدول عنه،إذ هو المحكوم عليه ، ولابد من تحققه قبل الحكم) [٢] .

ب – (وإما ليتمكن الخبر في ذهن السامع لأنّ في المبتدأ تشويقاً إليه كقوله :

وَالّذيْ حَارَتْ البَرِيّةُ فِيهِ حيوانٌ مُسْتَحْدَثٌ مِنْ جَمَادِ[٣]

فكون المسند إليه موصوفا بحيرة البرية فيه يوجب الاشتياق إلى أنّ الخبر عنه ماهو؟ وقوله حيوان مستحدث من جماد خبر مسوق بعد التشويق إليه فيتمكن في ذهن السامع ، والحال اقتضى مزيد اهتمام لتمكينه في أذهان السامعين ليحترز المحترز عن الضلال فيه ويزداد المهتدي فيه هدى)[٤]

---

١ – معجم البلاغة العربية للدكتور بدوي طبانة (جدة : دار المنار ، ط الثالثة ، ١٤٠٨هـ) صـ ٢٨٣ .

٢ – انظر مختصر السعد في شروح التلخيص ١/ ٣٩٠ – ٣٩١

٣ – لأبي العلاء المعري من قصيدة يرثي بها فقيهاً حنفياً ومطلعها :

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نوح باك ولاترنم شادي .

انظر ديوانه سقط الزند شرح : أحمد شمس الدين ، بيروت دار الكتب العلمية ط ١ ، ١٤١٠ هـ ، ص٢٠٤

٤ – انظر مواهب الفتاح للمغربي في شروح التلخيص ١/٣٩١ – ٣٩٢

ج - (وإمّا التعجيل المسّرة أو المساءة ، لكونه صالحا للتفاؤل أو التطير نحو سعد في دارك والسفاح في دار صديقك)[1] .

د - (وإمّا لإيهام أنّه لايزول عن الخاطر لكونه مطلوباً كقولك : العدو أولى ما يسر بقتله ، أو إيهام أنّه يستلذ به لكونه محبوبا كقولك : ليلى أشهى ذكرا)[2] (وإمّا لنحو ذلك مثل إظهار تعظيمه أو تحقيره)[3] .

هـ - تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي، أو تقوية الحكم وتقريره في ذهن السامع ، ونبسط الحديث في هذه الجزئية لأنّ لها القدح المعلّى في بحث البلاغيين،فقد اهتم عبدالقاهر وجمهور البلاغيين بتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي (وهذا التركيب كما يقول البلاغيون صالح لأن يفيد أمرين :

الأول : تقوية الحكم فقولنا : محمد يقول الشعر أو كد في بيان أنّه يقول الشعر من قولنا: «يقول محمد الشعر » ومثله:«هو يعطي» أوكد في الدلالة من قولنا: يعطي،ولذلك تجري هذه الصياغة في المقامات التي تدعو إلى التوكيد والتقرير مثل مواجهة الشك في نفس المخاطب والرغبة في إقناعه، ومثل رد الدعوى التي يدعيها المخاطب، ومثل أن يكون المتكلم معنيا بكلامه مقتنعا به، فهو يريد أن يثبته في القلوب مقررا كما هو مقرر في نفسه، وغير ذلك من مقامات التقوية والتقرير)[4].

---

١ - الإيضاح للقزويني ضمن شروح التلخيص ١/٣٩٣ - ٣٩٤

٢ - انظر مفتاح العلوم للسكاكي ، ت / نعيم زرزور (بيروت : دار الكتب العلمية ط / ٢ ، ١٤٠٧هـ) صـ ١٩٥ ومواهب الفتاح للمغربي ضمن شروح التلخيص ١/٣٩٤

٣ - مختصر السعد ضمن شروح التلخيص ١/٣٩٤

٤ - خصائص التراكيب ، للدكتور محمد محمد أبو موسى (مصر : مكتبة وهبة ، ط الثالثة ، د.ت) ، ص ١٧٠ .

قال عبدالقاهر في مثل هذا الاسلوب:(ومما يحسن ذلك فيه ويكثر الوعد والضمان كقولك:« أنا أكفيك ، أنا أقوم بهذا الأمر » وذلك أنّ من شأن من تعدهُ وتضمن له ، أن يعترضه الشك في تمام الوعد وفي الوفاء به ، فهو من أحوج شيء إلى التأكيد ، وكذلك يكثر في المدح كقولك : « أنت تعطي الجزيل) وكقول الآخر[1] :   نَحْنُ في المَشْتَاةِ نَدْعُوْ الجَفَلَى)[2]

الثاني : (الاختصاص أي أنّ الفعل خاص بالمسند إليه لايتعداه إلى غيره،وذلك يكون إذا ساعد السياق على ذلك)[3] (فإذا قلت : أنا فعلت كذا كان الكلام صالحاً لإفادة الاختصاص ، وكأنّك تقوله لمن اعتقد أن غيرك فعله ، أو أنك فعلته مع غيرك ، وتقول في الأول:« لاغيري » وفي الثاني:« وحدي » ومن البين في ذلك قولهم في المثل « إتعلمني بضب أنا حرشته » أي ماحرشه إلا أنا)[4].

وهذا الكلام إذا كان المسند إليه معرفة (أما إذا بني الفعل على منكر أفاد التقديم تخصيص الجنس أو الواحد به - أي بالفعل - نحو رجل جاءني أي لا امرأة) فيكون تخصيص جنس (أو لارجلان) فيكون تخصيص واحد ، والذي يشعر به كلام الشيخ في دلائل الإعجاز أنّه لافرق بين المعرفة والنكرة في أن البناء عليه قد يكون للتخصيص وقد يكون للتقوي)[5] .

---

١ - البيت لطرفة بن العبد وعجزه « لاترى الآدب فينا ينتقر » انظر ديوان طرفة بن العبد(بيروت : دار صادر ، د.ت) صـ ٥٥ .

٢ - انظر دلائل الإعجاز ص ١٣٤ - ١٣٥ .

٣ - خصائص التراكيب ص ١٧٦

٤ - انظر دلائل الإعجاز ص ١٢٨ .

٥ - انظر مختصر السعد في شروح التلخيص ١/٤٠٣ - ٤٠٥ .

(ومعنى الاختصاص والتقوية لايتعارضان ، فما يفيد التخصيص يفيد التقوية، لأنّ الاختصاص كما قالوا تأكيد على تأكيد ، نعم قد يكون التركيب مفيداً للتقوية فقط،ولاتصلح معه دلالة الاختصاص)[1] كما مر معنا قريبا في قول طرفة : نحن في المشتاة ندعو الجفلى ، فليست هنا دعوى تفرد واختصاص وإنّما المراد أنّ ذلك سجية من سجاياهم .

و - وماسبق إذا كان المسند إليه غير مسبوق بنفي كما مر معنا (أمّا إذا سبق بنفي فإن القول فيه يختلف ، فعبدالقاهر وجمهور البلاغيين يرون أنّه يفيد الاختصاص قطعا ، ولعل الذي أغرى عبدالقاهر بالقطع بأنّ مثل ماأنا فعلت يفيد الاختصاص هو مالحظه من تسلط النفي على الفاعل ، ففهم من ذلك أنّ النفي خاص بالفاعل وأنّ الفعل غير منفي ، وإذا كان الفعل غير منفي، وقد نفى فاعل معين فقد وجب أنّ يكون هذا الفعل مسندا إلى فاعل آخر ، وهذا هو معنى الاختصاص)[2] .

(هذا وإن كان واضحا أنّ خصوصية هذا التركيب تفيد القصر فليس فيه دلالة على لزومه)[3] وذلك كقوله تعالى : ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلا عَن ظُهُورِهِمْ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ۝ بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[4] فقوله:«ولاهم ينصرون» «ولاهم ينظرون » قدم فيه المسند إليه على الخبر الفعلي ، وهو مسبوق بحرف النفي ومع هذا يفيد التقوية فقط ، لأنّ الاختصاص يعني أن غيرهم ينصر من عذاب الله وينظر حين تأتيه الساعة وذلك لايكون)[5] خلافا للشيخ عبدالقاهر الذي يرى في هذا الأسلوب وأمثاله إفادته

١ - خصائص التراكيب ص ١٧١ .
٢ - انظر المرجع السابق ص ١٧٧ - ١٧٩ .
٣ - دلالات التراكيب د. محمد محمد أبو موسى (مصر : مكتبة وهبة ، ط الثانية،١٤٠٨هـ) صـ١٨١ .
٤ - الأنبياء الآيات ٣٩ ، ٤٠ .
٥ - خصائص التراكيب ١٧٩ .

للتخصيص قطعا ، وقد(عارض السكاكي فيها عبدالقاهر ورفض القول بلزوم الاختصاص فيها ، متكئاً في ذلك علي مقولات نظرية لم يقتنع بها أحد من الدارسين ، وظلت تمثل رأيه وحده في تقديم المسند إليه ، ولو أنّ السكاكي لجأ إلى الاستعمالات ، ورأى منها كما بينا مايدفع قول عبدالقاهر بلزوم الاختصاص لما كان هناك وجه لدفع ماذهب إليه من معارضته كلام الشيخ)[1] .

ز - (أما تقديم المسند إليه المسبوق بالنفي على الخبر المشتق فلم يتعرض له عبدالقاهر والقول فيه عندنا كالقول في الخبر الفعلي أي أنّه يدل علي الاختصاص في مواقع كثيرة ليست مطردة ، خذ قوله تعالى:﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾[2] تجد فيه معنى الاختصاص وأنّك أنت خصوصا لست قادراً على ذلك ، وإنما القادر عليه هو الله ويبين ذلك قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ﴾[3]

ومن الشواهد التي لاوجه للقصر فيها قوله تعالى :﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾[4] المراد تأكيد نفي هذا الزيف الذي زعموه ، والقصر هنا لايلائم السياق لأنه ليس المراد وصف أحد بهذه الصفة ، وإنما المراد التشديد في نفيها)[5] والذي يحدد دلالته على الاختصاص أو عدمه السياق فهو بذاته لايفيد التخصيص وإنما يستفاد من بعض مواقعه معنى التخصيص بالقرائن .

---

١ - دلالات التراكيب ص ١٨٠ .

٢ - فاطر الآية ٢٢ .

٣ - فاطر الآية ٢٢ .

٤ - القلم الآية ٣ .

٥ - انظر دلالات التراكيب ص ١٨٠ - ١٨١ .

- المطلب الثالث : مايقبح فيه التقديم ويمتنع

التقديم كغيره من أبواب علم المعاني له سنن يسير عليها لايتخطاها إلى غيرها ، وليس كل تركيب لغوي يمكننا أن نستعمل فيه التقديم ، لأن بعض التراكيب يؤثر التقديم فيها سلباً ، ويختل المعنى بذلك ويضطرب ، وهو مايطلق عليه ابن الأثير المعاظلة المعنوية (وهو أن يقدم ما الأولى به التأخير كتقديم الصفة أو مايتعلق بها على الموصوف ومنه قول بعضهم[1] :

فَقَدِ والشَّكُ بَيَّنَ لي عناءً ... بِوَشْكِ فِراقهم صُرَدٌ يصيحُ

فإنه قدم قوله:« بوشك فراقهم » وهو معمول « يصيح » « ويصيح » صفة لصرد على « صرد »،وذلك قبيح ألا ترى أنّه لايجوز أن يقال : هذا من موضع كذا رجل ورد اليوم ، وإنما يجوز وقوع المعمول بحيث يجوز وقوع العامل ؟ فكما لايجوز تقديم الصفة على الموصوف ، فكذلك لايجوز تقديم مااتصل بها على موصوفها ومن هذا النحو قول الآخر[2] :

فأصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا ... كأنَّ قفراً رُسُومَهَا قَلَما

فإنه قدم خبر كان عليها ، وهو قوله:« خط » وهذا وأمثاله مما لايجوز قياس عليه ، والأصل في هذا البيت : فأصبحت بعد بهجتها قفراً ، كأنّ قلما خطّ رسومها ، إلا أنه على تلك الحالة الأولى في الشعر مختل مضطرب .

---

١ - الشاهد ورد بلا نسبة ، انظر الخصائص ، ١ / ٣٣٠ ، ٢ / ٣٩٠ ، وانظر مغني اللبيب ١ / ١٧١ .

٢ - البيت لذي الرمة ، انظر ديوانه ، ت/عبدالقدوس أبوصالح (بيروت : مؤسسة الإيمان ، ط / ٢ ، ١٤٠٢هـ) ٣ / ١٩٠٩ .

والمعاظلة في هذا الباب تتفاوت درجاتها في القبح ، وهذا البيت من أقبحها لأنّ معانيه قد تداخلت وركب بعضها بعضا ، ومما يجري هذا المجرى قول الفرزدق :

إِلَى مَلِكٍ مَا أُمُّهُ مِنْ مُحَارِبٍ   أبوه وَلاَ كَانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهُ[1]

وهو يريد إلى ملك أبوه ما أمه من محارب ، وهذا أقبح من الأول وأكثر اختلالاً).[2]

كما لايجوز تقديم الصلة ولاشيء منها على الموصول، ولا المبدل على المبدل منه ولاعطف البيان على المعطوف عليه ، ولاالعطف الذي هو نسق على المعطوف عليه إلا في الواو وحدها ، وعلى قلته أيضا نحو : قام وعمر زيد ، وأسهل منه ضربت وعمرا زيدا ، لأنّ الفعل في هذا قد استقلّ بفاعله وفي قولك : قام وعمرو زيد ، اتسعت في الكلام قبل الاستقلال والتمام، ولايجوز تقديم المضاف إليه على المضاف ولاشيء مما اتصل به، ولا المجرور على ماأنجر به ، ولايجوز تقديم المستثنى على الفعل الناصب له ، لو قلت : إلا زيداً قام القوم لم يجز لمضارعة الاستثناء البدل ، ألا تراك تقول : «ماقام أحد إلا زيداً وإلا زيدٌ» والمعنى واحد فلما جارى الاستثناءُ البدلَ امتنع تقديمه ، ولايجوز تقديم المفعول معه على الفعل ، نحو قولك : (والطيالسةَ جاء البَرْدُ) من حيث كانت صورة هذه الواو صورة العاطفة،ألا تراك لاتستعملها إلا في الموضع الذي لو شئت لاستعملت العاطفة فيه ، نحو جاء البرد والطيالســـة ولو شئت لرفعت الطيالســـة عطفا على البرد[3]

---

١ - قاله الفرزدق في قصيدة يمدح بها الوليد بن عبدالملك مطلعها :

كم من مناد والشريفان دونه   إلى الله تُشْكَي والوليد مفاقره

انظر ديوان الفرزدق شرحه علي فاعور (بيروت : دار الكتب العلمية ،ط / ١ ، ١٤٠٧ هـ) صـ٢٢٢ .

٢ - المثل السائر ٢ / ٢٤٩-٢٥٠ .

٣ - انظر الخصائص لابن جني بتصرف ٢ / ٢٨٢ - ٢٨٨ .

وبعد هذا العرض الموجز للجملة العربية ، وتعريف المسند إليه ، وأغراض تقديمه، وما يقبح فيه التقديم ويمتنع ، ينتقل البحث إلى دراسة تطبيقية على سورة البقرة ليكشف عن تحليل لآيات تقدم فيها المسند إليه ، وثمّة توطئة للسورة أقدمها بين يدي هذه الدراسة .

أولاً : بين يدي السورة . ثانياً : فضائلها .

ثالثاً : مناسبتها لما قبلها .

أولاً : بين يدي السورة .

سورة البقرة من السور المدنية (نزلت في مدد شتى،وقيل هي أول سورة نزلت في المدينة إلا قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾[1] فإنّها آخر آية نزلت من السماء ، ونزلت يوم النحر في حجة الوداع بمنى ، وآيات الربا أيضا من أواخر مانزل من القرآن)[2] وهي أطول سور القرآن على الإطلاق،(وآياتها مائتان وثمانون وسبع آيات وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان وإحدى وعشرون كلمة وحروفها خمسة وعشرون ألفا وخمسمائة حرف والله أعلم)[3]. وشأنها كشأن سائر السور المدنية التي تعالج النظم والقوانين التشريعية للدولة الإسلامية الجديدة . فقد اشتملت هذه السورة الكريمة على معظم الأحكام التشريعية في العبادات والمعاملات والأخلاق ، وفي أمور النكاح ، والعدة والطلاق ، وسائر الأحكام الشرعية من صلاة وصيام وحج وزكاة ، لأنّ المسلمين كانوا في بداية تكوين « الدولة الإسلامية » وهم في أمسِّ الحاجة إلى التشريع الآلهي الذي يسيرون عليه في حياتهم الدنيوية سواءً منها ماكان في العبادات أو المعاملات .

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٨١ .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ، ١ / ١٥٢ .

٣ - تفسير ابن كثير،ت/حسين بن إبراهيم زهران (بيروت:دار الكتب العلمية ،ط١، ١٤٠٦هـ)١/٥٦-٥٧ .

وسميت بهذا الاسم؛إحياء لذكرى تلك المعجزة التي ظهرت في زمن موسى ، حيث قتل شخص من بني اسرائيل ولم يعرفوا قاتله ، فأوحى الله إليه أن يأمرهم بذبح بقرة وأن يضربوا الميت بجزء منها فيحيا بإذن الله ويخبرهم عن القاتل ، وتكون برهانا على قدرة الله جلا وعلا في إحياء الخلق بعد الممات .

ثانياً : فضائل السورة

وردت أحاديث عدة في فضل هذه السورة ، وهذه الأحاديث منها مايذكر فضل السورة إجمالاً ومنها ماهو خاص بآيات معينة .

أ - ماورد في فضلها بوجه عام .

روى مسلم في صحيحه[١]، والترمذي في سننه[٢] عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لاتجعلوا بيوتكم مقابر ، إنّ الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة »[٣] وعند مسلم أيضا عن أبي أمامة الباهلي قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرأوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان ، أو كأنهما فرقان من طير صواف ، تحاجان عن أصحابهما ، اقرأوا سورة البقرة ، فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولايستطيعها البطلة »[٤] .

(قال أهل اللغة : الغمامة والغياية كل شيء أظل الإنسان فوق رأسه من سحابة وغبرة وغيرها ، قال العلماء : المراد أن ثوابهما يأتي كغمامتين)[٥].

---

١ - انظر : كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب استحباب صلاة النافلة في بيته ، برقم ٧٨٠ .

٢ - رواه في كتاب فضائل القرآن برقم / ٢٨٧٧ ، باب ماجاء في سورة البقرة ، برقم / ٢٨٧٧ .

٣ - هذا لفظ مسلم ولفظ الترمذي (وإن البيت الذي تقرأ فيه البقرة لايدخله الشيطان »

٤ - انظر : كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة ، برقم ٨٠٤ .

٥ - شرح صحيح مسلم للنووي ، مؤسسة قرطبة ، ط / ٢ ، ١٤١٤هـ ، ٦/ ١٣٠ .

ب – ماورد في فضل آيات منها :

١ – فضل آية الكرسي : روى مسلم عن أبي بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : «يا أبا المنذر أتدري أيُ آيةٍ من كتاب الله معك أعظم ؟ »قال قلت : الله ورسوله أعلم قال: يا أبا المنذر أتدري أي آية في كتاب الله معك أعظم ، قال: قلت : الله لا إله إلا هو الحي القيوم قال : فضرب في صدري وقال:« والله ليهنك العلم أبا المنذر»[١] .

٢ – فضل خواتيم سورة البقرة : روى البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : «من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه»[٢] .

ثالثاً : مناسبة السورة لما قبلها :

قال البقاعي : لما أخبر سبحانه وتعالى أنّ عباده المخلصين سألوا في الفاتحة هداية الصراط المستقيم الذي هو غير طريق الهالكين ، أرشدهم في أول السورة التي تليها إلى أنّ الهدى المسؤل إنما هو في هذا الكتاب ، وبين لهم صفات الفريقين الممنوحين بالهداية حثا على التخلق بها ، والممنوعين منها زجراً عن قربها ، فكان ذلك من أعظم المناسبات لتعقيب الفاتحة بالبقرة ، لأنها سيقت لنفي الريب عن هذا الكتاب ولأنه هدى للمتقين ولوصف المتقين وما يجازون به بما في الآيات الثلاث ، ولو صف الكافرين الذين لايؤمنون لما وقع من الختم على حواسهم ، والختم لعقابهم ليعلم أن ما اتّصف به المتقون هو الصراط المستقيم فيلزم ، وما اتصف به من عداهم هو طريق الهالكين فيترك)[٣] .

---

١ – انظر صحيح مسلم ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي ، برقم ٨٠٩ ورواه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب ماجاء في آية الكرسي برقم ١٤٦٠

٢ – انظر صحيح البخاري ، كتاب فضائل القرآن ، باب فضل سورة البقرة ، برقم ٥٠٠٩

٣ – نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لأبي الحسن البقاعي (القاهرة : دار الكتاب الإسلامي ، ط٢ ، ١٤١٣هـ) ١ / ٧٧-٧٨ .

المبحث الأول

تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي

- المطلب الأول : تقديم العلم[1] .
- المطلب الثاني : تقديم المضمرات .
- المطلب الثالث : تقديم اسم الإشارة .
- المطلب الرابع : تقديم الموصول .
- المطلب الخامس : تقديم المحلى بأل .

١ - الأصل في الترتيب أنه الثاني وسيأتي سبب تقديمه .

تنبيه :

الترتيب الذي سيقوم عليه البحث في مطالب هذين البحثين موافق للترتيب الذي يراه سيبويه وابن هشام في ترتيب المعارف ، وقد أجمع النحاة على أنّ أعرف المعارف هو لفظ الجلالة { الله } تعالى سبحانه وتقدس ، واختلفوا في ترتيب مايأتي بعده ، إلاّ أنّ أكثر النحاة يرى الترتيب الذي ارتآه سيبويه وتابعه عليه ابن هشام وغيره وهو كالآتي :

١ - (المضمر .

٢ - العلم .

٣ - اسم الاشارة وقدمه الفراء على المضمر والعلم .

٤ - الموصول وأغفله بعض النحويين من هذا الترتيب .

٥ - ماعرّف بالألف واللام .

٦ - المضاف لواحد منها) [1]

---

١ - انظر الجمل في النحو لأبي القاسم الزجاجي ، ت / د. علي توفيق الحمد (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط الخامسة ، ١٤١٧هـ) صـ ١٧٨ . وأوضح المسالك لابن هشام (بيروت : دار الفكر ، د.ت) ٨٣/١ ، والكافية في النحو لابن الحاجب ، ت/ الدكتور: طارق نجم عبدالله (جدة :دار الوفاء ، ط / الأولى ١٤٠٧هـ) صـ١٦٥-١٦٦ .

- المطلب الأول : العلم

ترتيب العلم بين المعارف في المرتبة الثانية بعد المضمر،ولكن لشرف ماسيتضمنه هذا المطلب من بحث عن تقديم لفظ الجلالة قدم العلم تبعا للفظ الجلالة وأكرم بها من تبعية .

أ - العلم في لغة العرب

والعلم:(هو اللفظ الذي يدل على تعيين مسماه تعييناً مطلقاً » أي غير مقيد بقرينة تكلم ، أو خطاب ، أو غيبة أو إشارة حسية أو معنوية ، أو زيادة لفظية كالصلة .. أو غير ذلك من القرائن اللفظية أو المعنوية التي توضح مدلوله ، وتحدد المراد منه ، فهو غني بنفسه عن القرينة)[1] وقد عرفه النحاة بقولهم:هو (ماوضع لشيء بعينه غير متناول غيره بوضع واحد ، وقوله بوضع واحد ليندفع وهم من يتوهم أن زيداً إذا سمي به رجل ثم سمي به آخر ، فهو متناول غيره فلا يكون جامعاً ، فإذا قيل بوضع واحد خرج ذلك لأنّه لايكون إلا بوضع آخر)[2]

وقد فرع بعض النحاة العلم باعتبار الخصوص والعموم فقالوا ، هو قسمان :

١ - العلم الشخصي : هو الذي يحدد المقصود منه بذاته،فلا يتناول غيره من أفراد جنسه نحو:« زيد » وقد سبق .

٢ - العلم الجنسي : وهو الذي يتناول الجنس كله دون تخصيص لواحد بعينه نحو: أسامة علامة للأسد وأم عمرو للضبع ، ويقسم أيضا باعتبار لفظه إلى قسمين:

١ - العلم المفرد : وهو الذي يتكون من كلمة واحدة نحو زيد .

٢ - العلم المركب : وهو الذي يتألف من كلمتين أو أكثر وهو أقسام :

---

١ - النحو الوافي لعباس حسن (مصر : دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، د.ت) ٢٨٧/١ .

٢ - انظر الكافية لابن الحاجب ص ١٦٥

أ - المركب الاسنادي : وهو العلم المكون من جملة فعلية نحو:« قدم جاد الحق » .

ب - المركب الأضافي : وهو ماتكون من مضاف ومضاف إليه نحو عبدالله .

ج - المركب المزجي : وهو الذي يتكون من كلمتين امتزجتا حتى صارتا كلمة واحدة نحو:« بعلبك » و « سيبويه »[١] .

ب - العلم في سورة البقرة :

وقد ورد في سورة البقرة من أنواع التعريف بالعلمية ثمانية أنواع من الأعلام هي :

- النوع الأول : لفظ الجلالة « الله » قال النيسابوري:وهذا « يجري مجرى اسم العلم في حقه سبحانه »[٢] .

- النوع الثاني : أعلام الرسل عليهم الصلاة والسلام كآدم،وابراهيم،واسحاق واسماعيل ...

- النوع الثالث : أعلام الملائكة وهم ميكال،وجبريل،وهاروت،وماروت .

- النوع الرابع : علما إبليس وهما إبليس،والشيطان

- النوع الخامس : أعلام أخرى منها طالوت،وجالوت .

- النوع السادس : أعلام الأمم والقبائل ومنهم (آل فرعون وآل هارون ، وبنو اسرائيل ، والنصارى .

- النوع السابع : أعلام الأمكنة ومنها بابل،والصفا والمروة،وعرفات .

---

١ - انظر المعجم المفصل في علوم اللغة ، للدكتور محمد التونجي ، والأستاذ راجي الأسمر(بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ الأولى ، ١٤١٤هـ) ١/ ٤٢٢ -٤٣١ بتصرف .

٢ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري ، ت / ابراهيم عطوة عوض (مصر : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط / ١ ، ١٣٨١هـ) ١ / ٦٢ .

- النوع الثامن : أعلام الأزمنة وورد منها رمضان،والحج[١].

وسنعرض لنوعين من هذه الأنواع نستجلي أسرارهما في دراستنا التطبيقية لظاهرة التقديم لدخولهما تحت هذا الباب .

أولا - لفظ الجلالة :

أ - لفظ الجلالة في لغة العرب :

تكلم الناس فيه قديماً وحديثاً «وللعلماء في هذا الاسم الشريف أقوال تقارب ثلاثين قولا . ومنهم من أمسك عن القول تورعاً»[٢] تكلموا في اشتقاقه أهو مشتق أم لا ؟ وإذا كان مشتقاً فما هي مادته؟ وكثر في ذلك النزاع، وتباينت الأقوال وتكلموا في الهمزة أهي للوصل أم للقطع ، وفي اللام تفخيما وترقيقا،وفي الألف واللام أهي للتعريف أم للتعظيم (وسبحان من أحتجب بنور العظمة حتى تحيرت الأفهام في اللفظ الدال عليه، إذا انعكست له من تلك الأنوار أشعة بهرت أعين المستبصرين فلم يستطيعوا أن يمنعوا النظر فيه وإليه ، والقصور في المقابل لا في الفاعل :

توهمت قدما أن ليلى تبرقعت   وأن حجابا دونها يمنع اللثما

فلاحت فلا والله ماثمَّ حاجب   سوى أن طرفي كان عن حسنها أعمى)[٣]

والباحث يثبت خلاصة كلام القوم والراجح فيه أجامد أم مشتق ؟

قال ابن كثير (وهو اسم لم يسم به غيره تبارك وتعالى ولهذا الا يعرف في كلام العرب له اشتقاق من فعل يفعل ، فذهب من ذهب من النحاة إلى أنّه اسم جامد

١ - انظر النظم القرآني في سورة البقرة ، صـ ٦٣ .

٢ - بصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي ، ت/محمد علي النجار (بيروت : المكتبة العلمية ، د.ت) ١٢/٢

٣ - روح المعاني للالوسي ، ت/علي عبدالباري عطية (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / الأولى ، ١٤١٥هـ) ١٦/١ ولم أجد قائل هذين البيتين .

لااشتقاق له)[1] وقال الفيروز أبادي : (وقال الأكثرون علم مرتجل غير مشتق ، وعزي للأكثرين من الفقهاء والأصوليين وغيرهم، ومنهم الشافعي والخطابي وإمام الحرمين والإمام الرازي والخليل بن أحمد وسيبويه،وهو اختيار مشايخنا)[2] .

(وروي عن الخليل وسيبويه أن الألف واللام فيه لازمه قال الخطابي : ألا ترى أنك تقول يا الله ولاتقول يا الرحمن،فلولا أنه من أصل الكلمة لما جاز إدخال حرف النداء على الألف واللام)[3]

وقال آخرون إنّه مشتق،ومن ثمّ اختلفوا في مادته فقيل إنّها :

١ - (ال ي هـ) من لاه يليه إذا ارتفع لارتفاعه تعالى عن مشابهة المثليات .

٢ - وقيل (أ ل هـ) من لاه إليه يأله كسمع يسمع - إذا فزع إليه لأنه يفزع إليه في المهمات .

٣ - وقيل (ل و هـ) من لاه يلوه إذا احتجب ، لاحتجابه تعالى عن العقول والعيون.

٤ - وقيل (و ل هـ) من وَلِه إذا طرب،وسمي بذلك لطرب العقول والقلوب عند ذكره)[4]

والذي تطمئن إليه النفس أن لفظ الجلالة علم مرتجل لسببين رئيسين :

الأول : لأنه قول الأكثرية[5]، والأخذ به أولى وأسلم من ترجيح قول اختلف في مادته .

الثاني : القول بالاشتقاق تعارضت في مادته الأقوال ، ولكل صاحب قول شاهد يعضد به قوله،وكل يدعي وصلا بليلي ، وإذا تعارضت لم يكن بعضها أولى من

---

١ - تفسير ابن كثير ١ / ٣٢ .

٢ - بصائر ذوي التمييز ١٢/٢ .

٣ - تفسير ابن كثير ٣٢/١

٤ - انظر بصائر ذوي التمييز ١٣/٢ - ١٤

٥ - حكى الأكثرية الفيروز أبادي في البصائر ١٢/٢ ، وأبو حيان في البحر المحيط ١٢٤/١ ، واختاره الرازي في تفسيره ١٣١/١ وابن العربي وتابعه السهيلي في نتائج الفكر صـ ٥١ .

بعض إلا بدلالة قطعية ولادلالة هنا ، بل إنّ تعارض الأقوال في المادة الاشتقاقية ينتج عنه ، إما نقض الآخر ، أو تضعيفه ، وضعف الفرع ينبيء عن ضعف الأصل .

ب - لفظ الجلالة في سورة البقرة :

ورد لفظ الجلالة في سورة البقرة مائتين وثمانين مرة،ولاتكاد تخلو آية من لفظ الجلالة ، وتكراره بهذا العدد فيه تأكيد العبودية له سبحانه وحده،فليس ثمة معبود بحق سواه . وثمّة دلالات أخر منها :

تربية الخوف والمهابة في نفوس السامعين لهذا الإله العظيم،فيراقبونه فيما يأتون ويذرون في أمور دينهم ودنياهم ، وقد ذُيلت إحدى وسبعون آية منها بلفظ الجلالة ولاعجب فهو الأول والآخر والظاهر والباطن عالم السر والعلن ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[1] ﴿والله مخرج ماكنتم تكتمون﴾[2] ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[3] ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[4] .

لايعزب عنه شيء فحركات العباد وسكناتهم في كتاب لايضل ربي ولاينسى ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[5] ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾[6] ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[7] ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[8] ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[9] واسع الفضل يداه ملآء لا تغيضهما النفقة ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[10] ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾[11] ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[12] ﴿ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾[13]

يتحبب إلى عباده،فيرغبهم إليه،وهو الغني عنهم ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[14]

---

١ - البقرة جزء من الآية ١٩ .
٢ - البقرة جزء من الآية ٨٢ .
٣ - البقرة جزء من الآيتين ٢١٦ ، ٢٣٢ .
٤ - البقرة جزء من الآية ٢٨٢ .
٥ - البقرة ختمت بها الآيات ٧٤ ، ٨٥ ، ١٤٠ ، ١٤٤ ، ١٤٩ .
٦ - البقرة جزء من الآية ٢٨٣ .
٧ - البقرة جزء من الآيتين ٢٣٤ ، ٢٧١ .
٨ - البقرة جزء من الآية / ٢٦٥ .
٩ - البقرة جزء من الآيتين ٢٢٤ ، ٢٥٦ .
١٠ - البقرة جزء من الآية ٢١٢ .
١١ - البقرة جزء من الآية ١٠٥ .
١٢ - البقرة ختمت بها الآيات ٢٤٧ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ .
١٣ - البقرة جزء من الآية ٢٦٣ .
١٤ - البقرة جزء من الآية ٢١٨ .

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[1] ويعلم منهم تلك النفوس المضطربة القانطة،فيؤكد ذلك لهم ليبادروا بالاقلاع والتوبة والرجوع ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2] ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[3] ﴿فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.[4]

فإن أعرضوا وأبوا فليعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[5] والويل لهم مما ينتظرهم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[6] ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾[7] بل لاضير أن يعاجلهم بذلك ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[8] ولاراد لقضائه ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[9] يحثهم علي العمل شاكراً لهم صنعيهم ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[10] ومحبا لهم ﴿وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[11] وهو معهم ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[12] ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾.[13]

وينفرهم من كل قبيح وقبيحة،ويكره منهم ذلك ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾[14] ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾[15] وهو مع ذلك كله سبحانه قدير لاتحد قدرته بزمان ولامكان ، بل له القدرة المطلقة ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[16] والإرادة المطلقة ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[17] والاختيار المطلق ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[18] ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[19] ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.[20]

---

١ – البقرة جزء من الآية ٢٢٥ .
٢ – البقرة ختمت بها الآيات ١٧٣ ، ١٨٢ ، ١٩٢ ، ١٩٩ ، ٢٢٦ .
٣ – البقرة جزء من الآية ٢٢٢ .
٤ – البقرة جزء من الآية ٢٢٦ .
٥ – البقرة جزء من الآية ٢٦٧
٦ – البقرة جزء من الآيتين ١٩٦ ، ٢١١
٧ – البقرة جزء من الآية ١٦٥
٨ – البقرة جزء من الآية ٢٠٢
٩ – البقرة جزء من الآيتين ٢٠٩ ، ٢٢٠
١٠ – البقرة جزء من الآية ١٥٨
١١ – البقرة جزء من الآية ١٩٥
١٢ – البقرة جزء من الآية ٢٤٩
١٣ – البقرة جزء من الآية ١٩٤
١٤ – البقرة ٢٠٥
١٥ – البقرة ٢٧٦
١٦ – البقرة ختمت بها الآيات ٢٠ ، ١٠٦ ، ١٠٩ ، ١٤٨ ، ٢٥٩
١٧ – البقرة جزء من الآية ٢٥٣
١٨ – البقرة جزء من الآية ٢١٣
١٩ – البقرة جزء من الآية ٢٥٨
٢٠ – البقرة جزء من الآية ٢٦٤

لو تأملنا مجيء لفظ الجلالة من حيث موقعه الاعرابي لألفيناه مرة منصوباً[1] ، وأخرى مجروراً [2] ، وثالثة مرفوعاً ، وقد أتى مرفوعا في مائة وستة مواضع[3] منها ستة عشر موضعاً يأتي مبتدأً،وخبره فعلي وهو المقصود في هذا المبحث ، وسنعرض لاثنين منها بالتحليل وغيرها يدخل تحتها تبعا ، وقد أوضحنا فيما سبق[4] ، أنّ السياق ذو أثر فاعل في تحديد السر البلاغي في مثل هذا الأسلوب .

---

١ - جاء منصوبا في سبعة وسبعين موضعا .

٢ - جاء مجروراً في تسعة وتسعين موضعا .

٣ - انظر في هذا التحديد المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، لمحمد فؤاد عبدالباقي (بيروت : دار الفكر ، د.ت) ص ٤٠ - ٦٢

٤ - انظر ص ٦٩-٧٠ .

١ - إفادته للتخصيص :

قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾(١)

هذه الآية وغيرها من الآيات التي فيها إثبات الكيد والمكر والخداع،مما أدى إلى تنازع العلماء في جهة إثباتها ، وقام حولها كثير من الجدل ، ومنها ﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾(٢) وقوله تعالى:﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ، وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴾(٣) (ففي هذه الآيات لم يصف المولى نفسه بهذه الصفات إلا على سبيل المقابلة والتقييد فلا يوصف بها سبحانه على الإطلاق، فلا يقال إنّ الله ماكر لاعلى سبيل الخبر ولا على سبيل التسمية ، ولايقال إنّه كائد أو مستهزيء لاعلى سبيل الخبر،ولاعلى سبيل التسمية ، ذلك لأنّ هذا المعنى يكون مدحا في حال ويكون ذماً في حال ، فلا يمكن أن نصف الله به على سبيل الإطلاق)(٤) فالاستهزاء والمكر والكيد من صفات الله الفعلية (التي لايجوز أن تطلق على الله إلا مقيدة بما يزيل الاحتمال المذموم منها كما وردت مقيدة في الآيات)(٥) فيوصف بها حين تكون مدحا ، ولايوصف بها إذا لم تكن كذلك ، فيقال الله خير الماكرين،أو الله ماكر بالماكرين ومستهزيء بالمستهزئين على سبيل المقابلة .

(فأهل السنة والجماعة يثبتون هذه المعاني لله عز وجل على سبيل الحقيقة لا كما يزعمه أهل التحريف أنها ذكرت من باب المشاكلة اللفظية)(٦) .

---

١ - البقرة الآية ١٥ .

٢ - آل عمران الآية ٥٤ .

٣ - الطارق الآيتان ١٥ - ١٦ .

٤ - انظر شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد بن عثيمين ، تخريج سعد بن فواز الصميل (الدمام : دار ابن الجوزي ، ط / ٢ ، ١٤١٥هـ) ١ / ٣٣٢ .

٥ - انظر العقيدة في الله ، لعمر بن سليمان الأشقر(الكويت : مكتبة الفلاح ، ط/ ٥ ، ١٩٨٥) صـ١٨٨

٦ - شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ١ / ٣٣٧ .

وقوله سبحانه:« الله يستهزي بهم » اختلف المفسرون في المراد باستهزاء الله بهم حتى أوصلها بعضهم إلى تسعة[1]،والراجح مااختاره شيخ المفسرين ابن جرير الطبري حيث قال : (وقال آخرون إنّ معنى ذلك أنّ الله أخبر عن المنافقين أنهم إذا خلوا إلى مردتهم قالوا:إنّا معكم على دينكم في تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وماجاء به ، وإنما نحن بما نظهر لهم من قولنا لهم مستهزئون ، فأخبر تعالى أنه يستهزيء بهم،فيظهر لهم من أحكامه في الدنيا يعنى من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذي لهم عنده في الآخرة يعني من العذاب والنكال كما أظهروا للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين في الدين ماهم على خلافه في سرائرهم)[2] والاستئناف في هذه الآية غاية في الجزالة والفخامة . (وفيه أنّ الله عز وجل هو الذي يستهزيء بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزاؤهم إليه باستهزاء،ولايؤبه له في مقابلته ، لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل)[3]

وأي مقابلة بين استهزاء يصدر من عزيز جبار،وبين استهزاء يصدر من عبيد لئام ظنوا اللؤم قوة والخديعة براعة،وهو وهي في حقيقتها ضعف وخسة ، ولكنه الدفاع عن حرمة من أوذوا من أجله،ولا أحد أغير من الله ، فما أبأس من يستهزيء به الجبار وما أشقاه .

(ولأجل اعتبار الاستئناف قدم اسم الله تعالى على الخبر الفعلي ولم يقل يستهزيء الله بهم ، لأنّ مما يجول في خاطر السائل أن يقول : من الذي يتولى

---

١ – انظر زاد المسير لابن الجوزي بيروت المكتب الاسلامي ط / ٣ ، د. ت ، ١ / ٣٥

٢ – جامع البيان ، ١ / ١٣٣ .

١ – الكشاف ١ / ٧٤

مقابلة سوء صنعيهم فأعلم أنّ الذي يتولى ذلك هو رب العزة تعالى ، وفي ذلك تنويه بشأن المنتصر لهم وهم المؤمنون كما قال تعالى :﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾[1] فتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي هنا لإفادة تقوي الحكم لا محالة، ثم يفيد مع ذلك قصر المسند على المسند إليه ، فإنّه لما كان تقديم المسند إليه على المسند الفعلي في سياق الإيجاب يأتي لتقوي الحكم، ويأتي للقصر ، على رأي الشيخ عبدالقاهر[2]،وصاحب الكشاف كما صرح به في تفسيره لقوله تعالى:« والله يقدر الليل والنهار » في سورة المزمل[3] ، كان الجمع بين قصد التقوى وقصد التخصيص جائزاً في مقاصد الكلام البليغ ، وقد جوزه في الكشاف عند قوله تعالى :« فلا يخاف بخساً ولارهقاً » في سورة الجن[4] لأنّ مايراعيه البليغ من الخصوصيات لايترك حمل الكلام البليغ عليه فكيف بأبلغ كلام ، ولذلك يقال النكت لاتتزاحم)[5] .

فالله سبحانه كفى المؤمنين مجازاة المنافقين على استهزائهم،والتخصيص في هذه الآية لاتنتفي معه التقوية إذ هو متضمن لها لا العكس .

(وعدل سبحانه عن الله مستهزيء بهم المطابق لقولهم إلى قوله:(الله يستهزيء بهم) لإفادته التجدد الاستمراري ، وهو أبلغ[6] مع الاستمرار الثبوتي الذي تفيده

---

١ - الحج الآية ٣٨ .

٢ - انظر ص٦٧-٦٩ تقديم المسند إليه .

٣ - جزء من الآية ٢٠ . قال الزمخشري : « وتقديم اسمه عز وجل مبتدأ مبنياً عليه يقدّر : هو الدال على معنى الاختصاص بالتقدير والمعنى : أنكم لاتقدرون عليه» الكشاف ٤ / ٦٣٠

٤ - جزء من الآية ١٣ . قال الزمخشري ولأنّ الكلام في تقديم مبتدأ وخبر دخلت الفاء ، فكأنه قيل فهو لايخاف فكان دالاً على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة ، وأنه هو المختص بذلك دون غيره ويجوز أن يراد : فلا يخاف أن يبخس بل يجزى الجزاء الأوفى . الكشاف ٤/٦١٥ .

٥ - التحرير والتنوير ، لمحمد الطاهر ابن عاشور نسخة مصورة عن الدار التونسية للنشر، ١/ ٢٩٣ .

٦ - كذا في الكتاب ويبدو أنها « من »

الاسمية لأن البلاء إذا استمر قد يهون وتألفه النفس كما قيل :

خُلقتُ ألوفا لو رَجعتُ إلى الصِّبا   لفارَقْتُ شَيْبي مُوجَعَ القَلْبِ باكياً(١)

وقد كانت نكايات الله تعالى بهم،ونزول الآيات في شأنهم أمراً متجدداً مستمراً ﴿أَوَلا يرون أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ﴾(٢) ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِءُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾(٣) وهذا نوع من العذاب الأدنى ، ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون)(٤) .

(ثم في ذلك التنصيص على الذين يستهزيء الله بهم ، إذ عدى الفعل إليهم فقال يستهزيء بهم ، وهم لم ينصوا حين نسبوا الاستهزاء إليهم على من تعلق به الاستهزاء فلم يقولوا إنما نحن مستهزئون بهم ، وذلك لتحرجهم من إبلاغ ذلك للمؤمنين فينقمون ذلك عليهم ، فابقوا اللفظ محتملا أن لو حوققوا على ذلك لكان لهم مجال في الذب عنهم أنهم لم يستهزئوا بالمؤمنين ، ألا ترى إلى مداراتهم عن أنفسهم بقولهم:﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(٥) وبقولهم:﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا﴾(٦) فهم عند لقائهم لايستطيعون إظهار المداراة ولامشاركتهم بما يكرهون ، بل يظهرون الطواعية والانقياد)!(٧)

ويندرج تحت هذه الآية ويفيد ماتفيده من التخصيص بدلالة السياق قوله سبحانه ﴿ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾(٨)

---

١ - قائله المتنبي من قصيدة يمدح بها كافور ومطلعها :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

انظر ديوان المتنبي ، ص٤٤٢ .

٢ - التوبة جزء من الآية ١٢٦ .   ٣ - التوبة الآية ٦٤ .

٤ - روح المعاني ١ / ١٦١ .   ٥ - البقرة جزء من الآية ٨ .   ٦ - آل عمران جزء من الآية ١١٩ .

٧ - البحر المحيط لأبي حيان ، ت /عادل عبدالموجود ، علي محمد معوض (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/الأولى ،١٤١٣هـ) ١ / ٢٠٣ .   ٨ - البقرة جزء من الآية ١٠٥ .

قال ابن الجوزي : (في هذه الرحمة قولان:أحدهما أنّها النبوة قاله علي ومجاهد، والثاني:أنّها الإسلام قاله ابن عباس ومقاتل)[1]

فأهل الكتاب يرون أنهم أحق بأن يوحى إليهم فيحسدونكم،ومايحبون أن ينزل عليكم شيء من الوحي،والله يختص بالنبوة من يشاء[2]،والله أعلم حيث يجعل رسالته فإذا اختص بها محمداً ﷺ وصحبه الكرام،فقد علم سبحانه أنّه وأنّهم أهل لهذا الاختصاص الذي اصطفاهم به دونما سواهم ، وعبر بلفظ الجلالة الله وأقامه مقام ضمير ربكم[3] للتنبيه (على أنّ تخصيص بعض الناس بالخير دون بعض يلائم الألوهية كما أن إنزال الخير على العموم يناسب الربوبية)[4] .

وقوله سبحانه : ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[5]

(أي أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل ، الذي لايجور فيه ولايظلم مثقال ذرة وهذه كقوله تعالى:﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾[6])[7] فالحكم والفصل في ذلك اليوم له سبحانه لاشركة لأحد فيه (فهو الحكم العدل وإليه تصير الأمور،وهذه الإحالة إلى حكم الله هي وحدها المجدية في مواجهة قوم لايستمدون من منطق ، ولايعتمدون على دليل بعد دحض دعواهم العريضة في أنهم وحدهم أهل الجنة وأنهم وحدهم المهديون)[8]

---

١ - زاد المسير ١ / ١٢٧ .

٢ - انظر تفسير النسفي ، ت الشيخ زكريا عميرات (بيروت:دار الكتب العلمية ، ط الأولى ، ١٤١٥هـ)١/٧٣

٣ - إذ الآيـة ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ﴾ البقرة الآية ١٠٥ .

٤ - روح المعاني ١ / ٣٥٠ .

٥ - البقرة جزء من الآية ١١٣

٦ - سبأ الآية ٢٦ .

٧ - تفسير ابن كثير ١ / ٢٣٢ .

٨ - في ظلال القرآن ، صـ ١ / ١٠٤ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(١) أي بلا نهاية لما يعطيه(٢) .

ومن غيره سبحانه لا نهاية لما يملك ناهيك عن أن يرزق ذلك .

وقوله سبحانه:﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٣) أي (والله يهدي من يشاء من عباده إلى طريق سوي)(٤) لاتتقاذفه الأهواء والشبهات، ولا تتلاعب به الرغبات والنزوات ، وهذه الهداية المقصود بها هداية التوفيق والقبول، وهي خاصة به سبحانه والتي كان الرسول ﷺ يدعو بها قال أبو سلمة بن عبدالرحمن بن عوف: سألت عائشة أم المؤمنين بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت:كان إذا قام من الليل افتتح صلاته «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل،فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون،اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك « إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم »(٥)

وأما قوله سبحانه:﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٦)

فالهداية فيها هداية الدلالة والبيان ، فهو المبيّن عن الله والدال على دينه وشرعه.(٧)

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢١٢ .   ٢ - روح المعاني ١ / ٤٩٥ .

٣ - البقرة جزء من الآية ٢١٣ .

٤ - فتح البيان في مقاصد القرآن لـ صديق بن حسن القنوجي ، بمراجعة عبدالله بن ابراهيم الانصاري (بيروت : المكتبة السعودية ،١٤١٢هـ) ٤٢٩/١ .

٥ - رواه مسلم في صحيحه كتاب صلاة المسافرين وقصرها برقم ٢٠٠ ، وابن ماجة في سننه كتاب قيام الليل وتطوع النهار برقم ١٣٢٢ .

٦ - الشورى جزء من الآية ٥٢ .

٧ - انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل شيخ ، ت محمد حامد الفقي (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) صـ ٢١٢ .

وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾[1]

قال الزمخشري : (أي الملك له غير منازع فيه فهو يؤتيه من يشاء : من يستصلحه للملك)[2]

فهو ملكه سبحانه ، وهو صاحب التصرف فيه ، فليس لأحد معه شركة في اختيار من يشاء من عباده ممن هم أهل لهذا الاختيار وهذا الاصطفاء .

٢ - إفادته للتقوية :

قال تعالى:﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[3]

«والله يعدكم»(الوعد في كلام العرب : إذا أطلق فهو في الخير ، وإذا قيد فقد يقيد تارة بالخير وتارة بالشر ، ومنه قوله تعالى:﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[4] ومنه أيضاً مافي هذه الآية من تقييد وعد الشيطان بالفقر ، وتقييد وعد الله سبحانه بالمغفرة والفضل)[5]

«مغفرة منه وفضلاً» (أي ستراً لذنوبكم مكافأة للبذل «وفضلاً» زيادة على مقتضى ثواب البذل وقيل : وفضلاً أن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم ، أو وثواباً عليه في الآخرة)[6] (وقدم منافع الآخرة لأنّها أهم عند المصدق بها ، وقيل : المغفرة والفضل كلاهما في الآخرة ، وتقديم الأول حينئذ لتقدم التخلية على التحلية،ولكون

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٤٧

٢ - الكشاف ١ / ٢٨٨

٣ - البقرة الآية ٢٦٨ وسوف نتحدث عن تقديم الشيطان في مبحث قادم .

٤ - الحج جزء من الآية ٧٢ .

٥ - فتح القدير، للشوكاني (بيروت : دار الفكر ، د . ت) ٢٨٩/١ .

٦ - البحر المحيط ٢ / ٣٣٣ .

رفع المفاسد أولى من جلب المصالح)[1] وقوله «مغفرة منه» (في مقابلة ماأمركم الشيطان بالفحشاء ، وفضلا أي في مقابلة ماخوفكم الشيطان من الفقر).[2]

(وفي تنكير مغفرة ووصفها بقوله:«منه» دلالة على كمال هذه المغفرة وتعظيم شأنها والمعنى مغفرة أي مغفرة)[3] وفي تقديم لفظ الجلالة على الخبر الفعلي (تقوية للحكم وتحقيقه)[4] فهو مؤذن بمدح الحكم الذي سيق له الكلام ، والتفاؤل به ليقبل المسلم إليه ويهش له ويرغب فيه ، وفي إغواء الشيطان لابن آدم وإضلاله ، ثم في ترشيد الغفور المتفضل له وتبصيره روى الترمذي[5] عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : «إنّ للشيطان لَمَّة بابن آدم وللملك لَمَّة ، فأما لَمَّة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأمّا لَمَّة الملك فإيعاد بالخير وتصديق بالحق،فمن وجد ذلك فليعلم أنّه من الله فليحمد الله،ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ثم قرأ « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » (واللمّة بفتح اللام وتشديد الميم من الإلمام ومعناه النزول والقرب والإصابة ، والمراد مايقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك)[6] .

ومما يندرج تحت هذه الآية في إفادة تقديم لفظ الجلالة تقوية الحكم وتأكيده من خلال دلالات السياق قوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾[7]

(أي لايحب من هذه صفته ولامن يصدر منه ذلك)[8]

---

١ - روح المعاني ٢ / ٤٠ .
٢ - تفسير ابن كثير ١ / ٤٨٠ .
٣ - انظر مفاتيح الغيب للرازي (بيروت:دار الكتب العلمية ، ط١٤١١،١هـ) ٥٨/٧ ، وروح المعاني ٤٠/١ .
٤ - التحرير والتنوير ٦٠/٣ .
٥ - انظر الجامع الصحيح كتاب تفسير القرآن باب ومن سورة البقرة برقم ٢٩٨٨ .
٦ - تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمبار كفوري (بيروت:دا رالكتب العلمية،ط الأولى،١٤١٠هـ)٢٦٥/٨
٧ - البقرة جزء من الآية ٢٠٥ .
٨ - تفسير ابن كثير ١ / ٣٧٠ .

وكذلك المسلمون يكرهون ويرفظون كل لون من ألوان الفساد ، بل كل صاحب نزعة خيرة وفطرة سليمة من أي ملة كان يكره الفساد والإفساد وينفر منه .

وقوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾[1] (أي إلى عمل الجنّة)[2] وقال الزمخشري : (يعني وأولياء الله ، وهم المؤمنون يدعون إلى الجنة والمغفرة ومايوصل إليهما)[3] .

والدعوة إلى الخير من أوسع الطرق التي تهدي إلى الجنة وكل مسلم على ثغر «بلغوا عني ولو آية»[4] فالله سبحانه يحب الخير ويدعو إليه عباده،وكذلك المؤمنون يحبون الخير ويدعون إليه .

وتقدمت الجنة على المغفرة في هذه الآية (مع أن حق التخلية (المغفرة) أن تقدم على التحلية (الجنة) لكنها قدمت لرعاية مقابلة النار ابتداء)[5] في قوله سبحانه في الآية نفسها ﴿ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾[6]

وقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾[7] .

وكذا المؤمنون الرحماء لايحبون هذه الصفة ، وتصديرها بلفظ الجلالة ، وتقديمه على الخبر الفعلي تقويةٌ وتأكيدٌ للحكم ، للتنفير من كفران النعمة ومقابلة الإحسان بالجحود والنكران ، وتحذيرٌ للذين يأكلون أموال الناس بالباطل بجشع لايقدر حاجة الضعفاء ، بل يمتص حتى ضعفهم .. وأي سعادة في حياة خلت من حب الله وحب الرحماء من عباده ، بل أي حياة مقيتة آثمة يعيشها أولئك الجُشَعاء[8] .

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٢١ . ٢ - الجامع لأحكام القران ٣ / ٥٤ . ٣ - الكشاف ١/ ٢٦١ .

٤ - قطعة من حديث رواه البخاري في كتاب الانبياء ، باب ما ذكر عن بني إسرائيل برقم ٣٤٦١ .

٥ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ، ت/ عبدالقادر أحمد عطا ، مطبعة السعادة د . ت ١/ ٣٤٥

٦ - البقرة جزء من الآية ٢٢١ ٧ - البقرة جزء من الآية ٢٧٦

٨ - الجشع : أسوأ الحرص وقيل : هو أن تأخذ نصيبك وتطمع في نصيب غيرك ... فهو جَشِعٌ من قوم جشعين وجَشاعى وجُشَعاء وجِشاع . انظر لسان العرب لابن منظور ، مادة جشع .

ثانيا : لفظ الشيطان :

أ - الشيطان في لغة العرب :

الشيطان فيعال من شطن إذا بعد فيمن جعل النون أصلاً ، وقولهم الشياطين دليل على ذلك ، قال أبو عبيدة والشيطان اسم لكل عارم من الجن والإنس والحيوانات ، قال تعالى : ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ﴾(1) أي أصحابهم من الجن والإنس وقال جرير :

أَزْمَانَ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانَ مِنْ غَزَلِي وَهُنَّ يَهْوَيْنَنِي إِذْ كُنْتُ شَيْطَانَا(2)

وقيل الشيطان : فعلان من شاط يشيط إذا هلك واحترق مثل هيمان وغيمان من هام وغام ، والأصح أنّه من شطن أي تباعد ، قال أمية بن أبي الصلت يصف سليمان بن داود عليهما السلام :

أَيّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ ثُمَّ يُلْقَى في السِّجْنِ وَالْأَغْلَالِ(3)

أراد أيما شيطان ، فإن جعلته فيعال ونونه أصلية من شطن صرفته ، وإن جعلته من شاط يشيط لم تصرفه لأنه فَعْلان(4)

ب - الشيطان في سورة البقرة :

ورد الشيطان في سورة البقرة بمعان عدة وهي :

1 - بمعنى الكهنة قال تعالى «وإذا خلوا إلى شيطانهم»

---

1 - البقرة جزء من الآية ١٤

2 - انظر ديوان جرير(بيروت : دار صادر ، د.ت) صـ٤٩٣ .

3 - قاله أمية بن أبي الصلت في قصيدة مطلعها :

سمع الله لابن آدم نوح ربنا ذو الجلال والافضال انظر : ديوانه ، جمع وتحقيق الدكتور/ عبدالحفيظ السطلي (دمشق : المطبعة التعاونية ، ١٩٧٤) صـ٤٤٥ ، ورواية الديوان «والأكبال» .

4 - انظر الصحاح للجوهري ، مادة شطن ، وبصائر ذوي التمييز ٣ / ٣٢٠ ، ولسان العرب ، مادة شطن .

قال ابن عطية : وقال جمع من المفسرين:« هم الكهان »[1]

٢ - بمعنى دعاة الضلال قال تعالى:﴿ وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ ﴾[2] (قيل هم شياطين الإنس والجن معاً)[3] وفي سورة الانعام قال تعالى : ﴿ شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾[4]

٣ - بمعنى إبليس وأولاده وفي البقرة خمس آيات بلفظ الشيطان يقصد بها هذا المعنى وهي : قوله تعالى:﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ﴾[5]

وقوله سبحانه:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾[6] وقوله سبحانه:﴿ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾[7]

وقوله سبحانه:﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾[8] وقوله سبحانه : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾[9]

٤ - وورد بمعنى الحيّات في غير سورة البقرة،كقوله تعالى في سورة الصافات: ﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴾[10]

قال البيضاوي : وقيل:(الشياطين حيات هائلة قبيحة المنظر لها أعراف ، ولعلها سميت بها لذلك »[11]

والمتأمل في لفظ الشيطان وموقعه الإعرابي يجد أنه وقع مرتين فاعلاً[12]

---

١ - المحرر الوجيز لابن عطية ت عبدالسلام عبدالشافي محمد(بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤١٣هـ) ١ / ٩٧ .

٢ - البقرة جزء من الآية ١٠٢ .

٣ - مفاتيح الغيب مجلد ٢ ج ٣ / ٢٨٥ .

٤ - الأنعام جزء من الآية ١١٢ .

٥ - البقرة جزء من الآية ٣٦ .

٦ - البقرة جزء من الآية ١٦٨ .

٧ - البقرة جزء من الآية ٢٠٨ .

٨ - البقرة جزء من الآية ٢٧٥ .

٩ - البقرة الآية ٢٦٨ .

١٠ - الصافات الآية ٦٥ .

١١ - تفسير البيضاوي ٢ / ٢٩٥ .

١٢ - الآيتان هما ٣٦ ، ٢٧٥ .

ومرتين مضافاً إليه[١] ، ومرة واحدة مبتدأ وخبره فعلي وهو الذي سنعرض له بالدرس والتحليل .

قال تعالى : ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[٢]

«الشيطان يعدكم الفقر» (أي يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه في مرضاة الله «ويأمركم بالفحشاء» أي مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق يأمركم بالمعاصي والمآثم ومخالفة الخلاق)[٣]

والفاحش عند العرب : البخيل قاله الزمخشري[٤] ، ورد ذلك ابو حيان بقوله : (ووافق الزمخشري أبا مسلم في تفسير الفاحش بالبخيل والفحشاء بالبخل قال بعضهم وأنشد أبو مسلم قول طرفة :

أرى الموتَ يعتامُ الكرامَ ويصطفي ... عقيلةَ مالِ الفاحشِ المتشددِ[٥]

قال : والأغلب في كلام العرب ، وفي تفسير البيت أنّ الفاحش السيء الرد لضيفانه وسُؤاله ... ولا حجة في هذا البيت على أنّه أراد بالفاحش البخيل بل يحمل على المسيء الرد)[٦]

وقال : (والفحشاء البخل وترك الصدقة ، أو المعاصي مطلقا ، أو الزنا أقوال ، ويحتمل أن تكون الفحشاء الكلمة السيئة كما قال الشاعر:[٧]

ولاينطِقُ الفحشاءَ مَنْ كانَ منهم ... إذا جلسُوا منّاولا مِنْ سِوائنا)[٨]

---

١ - الآيتان هما ١٦٨ ، ٢٠٨
٢ - البقرة الآية ٢٦٨
٣ - تفسير ابن كثير ١ / ٤٨٠
٤ - انظر الكشاف ١ / ٣١١
٥ - انظر ديوانه ص ٣٤ وهو أحد أبيات معلقته
٦ - انظر البحر المحيط ٢ / ٣٣٣
٧ - قائلة المرّار بن سلامة العجلي ، انظر خزانة الأدب ٣ / ٤٣٨ .
٨ - البحر المحيط ٢ / ٣٣٢ .

والـذي يبـدو لي أن الفاحش والفحشاء دلالتها أعم من أن تحصر بمعنى معين وإنّما السياق هو الذي يحدد المعنى الذي سيقت من أجله ، فهي تدل علي الزنا في قوله تعالى:﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾[١] وقوله سبحانه:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾[٢]

وتدل على القبيح في قوله امريء القيس :

«وجيد كجيد الرّئم ليس بفاحشٍ»[٣] أي ليس بقبيح ولاكريه ، وتدل على الكلمة السيئة كما في البيت السابق،ولاينطق الفحشاء وتدل .... وتدل ... الخ ولمعُرفٍ أن يقيّدها بتقييد مطلق فيقول : تطلق على كل ماقبح من قول أو فعل أو شكل .

قال صاحب الظلال:«والفحشاء كل معصية تفحش، أي تتجاوز الحد، وإن كانت غلبت على نوع معين من المعاصي، ولكنها شاملة، وخوف الفقر كان يدعو القوم في جاهليتهم لوأد البنات وهو فاحشة ، والحرص علي جمع الثروة كان يؤدي ببعضهم إلى أكل الربا وهو فاحشة ... على أن خوف الفقر بسبب الإنفاق في سبيل الله في ذاته فاحشة)[٤]

والوعد كما أوضحناه سابقاً بحسب مايقيد به[٥] (وقد استعمل هنا في الشر نظراً إلى أصل الوضع، لأنّ الفقر ممايراه الإنسان شراً ، ولهذا يخوف الشيطان به المتصدقين)[٦] (وسمي الإخبار بحصول أمر في المستقبل وعدا مجازاً لأنّ الوعد

---

١ – الإسراء جزء من الآية ٣٢ ٢ – النور جزء من الآية ١٩

٣ – صدر بيت من معلقته وعجزه : **إذا هي نصته ولابمعطّل** ، انظر ديوان امريء القيس ، صـ ١١٥ .

٤ – في ظلال القرآن ١ / ٣١٢ . ٥ – انظر صـ ٨٩ .

٦ – روح المعاني ٢ / ٣٩

إخبار بحصول شيء في المستقبل من جهة المخبر ، ولذلك يقال : انجز فلان وعده،أو أخلف وعده ، ولايقولون أنجز خبره ، ويقولون صدق خبره وصدق وعده ، فالوعد أخص من الخبر .. فشُبِّه إلقاء الشيطان في نفوسهم توقع الفقر بوعد منه لحصوله لا محاله ووجه الشبه مافي الوعد من معنى التحقق)[1] فكأنّه نزله في تقرر الوقوع منزلة أفعاله الواقعة بحسب إرادته، أو لوقوعه في مقابلة وعده تعالى على طريق المشاكلة في قوله تعالى:﴿ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً ﴾[2] فإنّه وعد حقيقي ، وحسَّن هذا المجاز مشاكلته للوعد الحقيقي[3]

(وقدم اسم الشيطان مسنداً إليه، لأن تقديمه مؤذن بذم الحكم الذي سيق له الكلام وشؤمه لتحذير المسلمين من هذا الحكم ، كما يقال في علم المعاني:«السفاح في دار صديقك» ولأن في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي تقوي الحكم وتحقيقه).[4]

(وتقدم وعد الشيطان على أمره ، لأنه بالوعد يحصل الاطمئنان إليه ، فإذا اطمأن إليه وخاف الفقر تسلط عليه بالأمر ، إذ الأمر استعلاء على المأمور)[5] ويستفاد من هذا التقديم تدرج الشيطان بالعبد فلم يأمر بالفحشاء ابتداءً ، بل قدّم لها بأمر إن أجابه العبد إليه فلا غرو أن يجره إلى أعظم منه وبمقاومة أقل ، لأنه أخفق في الاختبار الأول ، والذي يعتبر مقدمة لهذه النتيجة ، ولعلم المولى سبحانه بكيد الشيطان ومكره ، حذر عباده مرات عديدة من اقتفاء هذه الخطوات منها في سورة البقرة موضعان :

قال تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[6]

---

١ – التحرير والتنوير ٣ / ٥٩
٢ – البقرة جزء من الآية ٢٦٨
٣ – انظر تفسير أبي السعود ١ / ٤٠٥ ، والتحرير والتنوير ٣ / ٥٩
٤ – التحرير والتنوير ٣ / ٥٩
٥ – البحر المحيط ٢ / ٣٣٣
٦ – البقرة الآية ١٦٨ .

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[1] وفي بقية القرآن موضعان[2] ، والمواضع الأربعة التي ورد النهي فيها عن اتباع خطوات الشيطان ، موضعان منها سياق الآيات يفيد أنّ اتباع هذه الخطوات واقتفاءها طريق موصل للفحشاء ...

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾[3]

وقال سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾[4]

وكأنّي بابن المعتز وهو ينشيء أبياته يتذكر هذه الآيات مفلسفا هذه الخطوات وكيف يرقق بعضها بعضها حتى تقود صغائرها الإنسان إلى كبائرها فيقول :

خلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا … وَكَبِيرَهَا فَهوَ التُّقَى

وكُنْ كَمَاشٍ فَوقَ أر … ضِ الشَّوكِ يَحْذَرُ مَا يَرَى

لاَتَحْقِرَنَّ صَغِيرَةً … إنَّ الجَبَالَ مِنْ الحَصَى[5]

---

١ – البقرة الآية ٢٠٨ .

٢ – في سورة الأنعام الآية ١٤٣ . وفي النور الآية ٢٤ .

٣ – البقرة جزء من الآية ١٦٨ – ١٦٩ .

٤ – النور جزء من الآية ٢١ .

٥ – انظر ديوانه (بيروت : دار صادر ، د.ت ، صـ ٢٩ .

المطلب الثاني : تقديم الضمير :

أولا : تقديم ضمير الفصل المثبت :

الضمير (ماوضع لمتكلم أو مخاطب ، أو غائب تقدم ذكره لفظاً نحو ضرب زيدٌ غلامه ، أو معنى كقوله تعالى:﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾[1] أي العدل أقرب ، أو حكماً نحو: «ضرب غلامه زيد» لأنّ زيداً متقدم في اللفظ تقديراً لكونه فاعلاً)[2] وورد في سورة البقرة مايقرب من ألفي ضمير* مابين متصل ومنفصل ، وهذه الضمائر كم فيها من أسرار بلاغية عظيمة لو استقرأت في مقاماتها النظمية .

أ - ضمير الفصل للمتكلم

قال تعالى:﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[3]

قوله :«قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء»

استشكل المفسرون هذه الآية وذهبوا في تأويلها مذاهب،ومن أحسن ماقيل فيها مختصراً ماذكره البيضاوي في تفسيره قال :

(تعجبٌ من أن يستخلف لعمارة الأرض وإصلاحها من يفسد فيها ، أو يستخلف مكان أهل الطاعة أهل المعصية ، واستكشافٌ عما خفي عليهم من الحكمة التي بهرت تلك المفاسد وألغتها ، واستخبار عما يرشدهم ويزيح شبهتهم كسؤال المعَلّم معلِّمه عما يختلج في صدره ، وليس باعتراض على الله تعالى جلت قدرته

---

١ - المائدة جزء من الآية ٨

٢ - انظر الكافية في النحو ، ص ١٤٣ .

* هذا العدد تقريبي بعد استقراء الباحث للسورة ، ولم أحدها بعدد معين ، لأنّه ربما غفلت عن بعضها سهواً .

٣ - البقرة الآية ٣٠ .

ولاطعن في بني آدم على وجه الغيبة ، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى :﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ۝ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (١) ﴾)(٢)

(ولو قدر أنّه على وجه الاعتراض منهم ، فهو دليل على علمهم أنّه لايفعل شيئا إلا لحكمة ، فلمّا رأوا أنّ خلق هذا الخليفة مناف للحكمة في الظاهر سألوه عن ذلك)(٣)

وماذكره البيضاوي متضمن لما رجحه شيخ المفسرين :

قال أبو جعفر : (وأولى هذه التاويلات بقول الله جل ثناؤه مخبراً عن ملائكته قيلها له :﴿ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ تأويل من قال : إنّ ذلك منها استخبار لربها ، بمعنى أعلمنا ياربنا ، أجاعل أنت في الأرض من هذه صفته ، وتارك أن تجعل خلفاءك منا ونحن نسبح بحمدك ، ونقدس لك ، لا إنكار منها لما أعلمها ربها أنّه فاعل ، وإن كانت قد استعظمت لما أخبرت بذلك أن يكون لله خلق يعصيه)(٤)

(وحكم الملائكة بالإفساد والسفك على الإنسان لم يكن ادعاءً للغيب أو حكماً بالظن ، وإنّما هو باخبار من الله تعالى ، ولم يقص علينا فيما حكي عنهم اكتفاء بدلالة الجواب عليه للإيجاز)(٥)

---

١ - الأنبياء الآيات ٢٦ - ٢٧ .　　٢ - تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط / الأولى ، ١٤٠٨هـ ، ١ / ٥٠ .

٣ - بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم ، جمعه يسري السيد محمد (الدمام : دار ابن الجوزي ، ط/ الأولى ١٤١٤هـ) ١ / ٣٠١ .

٤ - جامع البيان ، ١ / ٢٠٨ - ٢٠٩

٥ - انظر روح المعاني ١ / ٢٢٤ .

ويؤيد ذلك الأثر الذي روي عن ابن عباس وابن مسعود ، وهو أنّ الله جل ثناؤه أخبرهم أنّه جاعل في الأرض خليفة ، تكون له ذرية يفعلون كذا وكذا أي من الافساد وسفك الدماء[1]

(والاستفهام المحكي عن كلام الملائكة محمول علي حقيقته مضمن معنى التعجب والاستبعاد من أن تتعلق الحكمة بذلك ، فدلالة الاستفهام على ذلك هنا بطريق الكناية مع تطلب مايزيل إنكارهم واستبعادهم ، فلذلك تعين بقاء الاستفهام على حقيقته خلافاً لمن توهم الاستفهام هنا لمجرد التعجب ، وعبر بالموصول وصلته للإيماء إلى وجه بناء الكلام وهو الاستفهام والتعجب ، لأنّ من كان من شأنه الفساد والسفك لايصلح للتعمير ، لأنه إذا عمَّر نقض ماعمره ، وعُطف سفك الدماء على الافساد للاهتمام به .. وفي المجيء بالصلة جملة فعلية دلالة على توقع أن يتكرر الافساد والسفك من هذا المخلوق والتعبير عن القتل بسفك الدم (لأنه أقبح أنواع القتل وأفضعه)[2]

﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾

(جملة حالية مقررة للتعجب السابق ، ومؤكدة له على طريقة قول من يجدّ في خدمة مولاه وهو يأمر بها غيره ، أتستخدم العصاة وأنا مجتهد فيها ، كأنه قيل أتستخلف من شأن ذريته الفساد مع وجود من ليس من شأنه ذلك أصلاً ، والمقصود عرض أحقيتهم منهم بالخلافة واستفسار عما رجحهم عليهم مع ماهو متوقع منهم من الموانع لا العجب والتفاخر)[3]

---

١ - انظر جامع البيان ١ / ٢٠٥ : ٢٠٩ .

٢ - انظر التحرير والتنوير ١ / ٤٠٢ ، وتفسير أبي السعود ١ / ١٤٤ .

٣ - تفسير أبي السعود ١ / ١٤٤

ومعنى : نحن نسبح بحمدك ونقدس لك) أي (نحن نعظمك وننزهك والأول بالقول والعمل، والثاني باعتقاد صفات الكمال المناسبة للذات العلية ، وأوثرت الجملة الاسمية في قوله:« ونحن نسبح » لإفادة الدلالة على الدوام والثبات، أي هو وصفهم الملازم لجبلتهم ، وتقديم المسند إليه على الخبر الفعلي دون حرف النفي يكون للتخصيص - وقد نص عليه الالوسي[١] - بحاصل مادلت عليه الجملة الاسمية من الدوام أي نحن الدائمون على التسبيح والتقديس دون هذا المخلوق)[٢] وأيضا التخصيص بحاصل مفهوم دلالة الاستفهام (أتجعل) فالاستفهام ودلالة الجملة الاسمية مما يقوي إفادته للتخصيص، أي أنّ هذه الصفة من التسبيح والتقديس ملازمة لهم لايفترون عنها دون ماسواهم من المخلوقات التي جبلت على الظلم والجهل ، سواء من الجن أو من ذرية آدم وهما في الجن أغلب قال تعالى:﴿ إِنَّ الإنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[٣] وقال سبحانه:﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً ﴾[٤]

وقال الشاعر :

والظُلمُ من شِيَمِ النفوسِ فإن تَجدْ ذا عِفّةٍ فَلعلّةٍ لاَيَظْلِمُ[٥]

ويرى ابن عاشور أن التقديم (الأظهر فيه مجرد التقوى نحو هو يعطي الجزيل).[٦]

ولامنافاة بينهما هنا فالتخصيص متضمن للتقوى والنكت لاتتزاحم .

(والملائكة بفطرتهم البريئة التي لاتتصور إلا الخير المطلق وإلا السلام الشامل ،

---

١ - انظر : روح المعاني ١ / ٢٢٤ .

٢ - التحرير والتنوير ١ / ٤٠٦ .

٣ - ابراهيم جزء من الآية ٣٤ .

٤ - الأحزاب جزء من الآية ٧٢

٥ - البيت للمتنبي من قصيدة يهجو بها إسحق بن الأعور انظر ديوان المتنبي ، صـ ٥٧١

٦ - التحرير والتنوير ١/٤٠٦ .

يرون التسبيح بحمد الله والتقديس له ، هو وحده الغاية المطلقة للوجود ، وهو وحده العلة الأولى للخلق .. وهو متحقق بوجودهم هم ، يسبحون بحمد الله ويقدسون له ويعبدونه ، ولايفترون عن عبادته ! لقد خفيت عليهم الحكمة في بناء هذه الأرض وعمارتها ، وفي تنمية الحياة وتنويعها ، وفي تحقيق إرادة الخالق وناموس الوجود في تطويرها وترقيتها وتعديلها ، على يد هذا الخليفة ، هذا الذي قد يفسد أحياناً ، وقد يسفك الدماء أحياناً ، ليتم من وراء هذا الشر الجزئي الظاهر خير أكبر وأشمل ، خير النمو الدائم ، والرقي الدائم خير الحركة الهادمة البانية ، خير المحاولة التي لاتكف والتطلع الذي لايقف والتغيير والتطوير في هذا الملك الكبير ، عندئذ جاءهم القرار من العليم بكل شيء والخبير بمصائر الأمور : « قال : إني أعلم مالاتعلمون »)[1] أعلم (أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء ورسل،وقوم صالحون وساكنو الجنة)[2]

(أعلم مافي البشرمن صفات الصلاح ومن صفات الفساد ، وأعلم أنّ صلاحه يحصل منه المقصد من تعمير الأرض،وأنّ فساده لا يأتي على المقصد بالإبطال . . . وقد كان قول الله تعالى هذا تنهية للمحاورة ، وإجمالا للحجة على الملائكة بأنّ سعة علم الله تحيط بما لم يحط به علمهم، وأنّه حين أراد أن يجعل آدم خليفة كانت إرادته عن علم بأنّه أهل للخلافة ، وتأكيد الجملة بإنّ لتنزيل الملائكة في مراجعتهم وغفلتهم عن الحكمة منزلة المترددين)[3]

---

١ - أنظر في ظلال القرآن ١/٥٦ - ٥٧

٢ - تفسير ابن كثير ١ / ١٠٩ .

٣ - التحرير والتنوير ١/٤٠٦ - ٤٠٧ .

ب - ضمير الفصل للغائب .

قال تعالى :﴿ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾[1] (اليقين هو العلم بالشيء عن نظر واستدلال أو بعد شك سابق ، ولا يكون شك إلا في أمر ذي نظر فيكون أخص من الإيمان ومن العلم ، واحتج الراغب لذلك بقوله تعالى :﴿ كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾[2] ولذلك لايطلقون الإيقان على علم الله ولا على العلوم الضرورية).[3]

وقيل : (اليقين من صفة العلم فوق المعرفة والدراية وأخواتهما ، يقال : علم يقين ، ولايقال : معرفة يقين).[4]

وعبر عن إيمانهم بالآخرة بمادة الإيقان (لأنّ هاته المادة تشعر بأنّه علم حاصل عن تأمل وغوص الفكر في طريق الاستدلال ، لأنّ الآخرة لما كانت حياة غائبة عن المشاهدة غريبة بحسب المتعارف ، وقد كثرت الشبه التي جرت المشركين والدهريين على نفيها وإحالتها ، كان الإيمان بها جديرا بمادة الإيقان بناء على أنّه أخص من الإيمان ، فلإيثار يوقنون هنا خصوصية مناسبة لبلاغة القران).[5]

(واليقين بالآخرة هو مفرق الطريق بين من يعيش بين جدران الحس المغلقة ، ومن يعيش في الوجود المديد الرحيب ، بين من يشعر أن حياته على الأرض هي كل ماله في هذا الوجود ، ومن يشعر أنّ حياته على الأرض ابتلاء يمهد للجزاء ، وأنّ الحياة الحقيقية إنّما هي هنالك وراء هذا الحيز الصغير المحدود)[6]

---

١ - البقرة جزء من الآية ٤ وسيأتي الحديث عن تقديم المتعلق على عامله ، انظر ص ٣٢٤-٣٢٦ .

٢ - التكاثر الآيات ٥ - ٦ .

٣ - التحرير والتنوير ، ١ / ٢٤٠

٤ - بصائر ذوي التمييز ، ٥/٣٩٥ .

٥ - التحرير والتنوير ١ / ٢٤٠ .

٦ - في ظلال القرآن ، ١ / ٤١

(وفي بناء يوقنون على « هم » إشارة إلى أن اعتقاد مقابليهم في الآخرة جهل محض وتخييل فارغ).[1]

وفيه (تعريض بأهل الكتاب، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته ، وأنّ قولهم ليس بصادر عن إيقان ، وأنّ اليقين ماعليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك).[2]

(وإيراد هذه الجملة اسمية، وإن كانت الجملة معطوفة على جملة فعلية آكد في الإخبار عن هؤلاء بالإيقان، لأنّ قولك:«زيد فعل» آكد من «فعل زيد» لتكرار الاسم في الكلام بكونه مضمرا ، وتصديره مبتدأ يشعر بالاهتمام بالمحكوم عليه ، كما أنّ التقديم للفعل مشعر بالاهتمام بالمحكوم به ، وذكر لفظة هم في قوله:(هم يوقنون) ولم يذكر لفظة هم في قوله:(ومما رزقناهم ينفقون) لأنّ وصف إيقانهم بالآخرة أعلى من وصفهم بالإنفاق فاحتاج هذا إلى التوكيد ولم يحتج ذلك إلى تأكيد ، ولأنّه لو ذكرهم هناك لكان فيه قلق لفظي إذ كان يكون ومما رزقناهم هم ينفقون).[3]

(وجيء بالمسند إليه مقدما على المسند الفعلي لإفادة تقوية الخبر ، إذ هو إيقان ثابت عندهم من قبل مجيء الإسلام على الإجمال ، وفي كلا التقديمين[4] تعريض بالمشركين الدهريين ونداء على انحطاط عقيدتهم)[5] والتقوية حاصلة بتكرار الإسناد مرتين الأولى هم فاعل لليقين ، والثانية اليقين خبر عن هم .

---

١ - روح المعاني للألوسي ، ١ / ١٢٥ .

٢ - الكشاف ١ / ٥١

٣ - البحر المحيط ، ١٦٨/١ .

٤ - المقصود بالتقديمين: أ - تقديم وبالآخرة على العامل وسيأتي لاحقاً
ب - تقديم المسند إليه (هم) وهو المعني بهذا المطلب

٥ - انظر : التحرير والتنوير ١ / ٢٤١ .

ثانياً : تقديم ضمير الفصل المنفي :

قال تعالى:﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(١)

«فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون»

وردت هذه اللفظة ختاماً لست آيات في سورة البقرة خمس آيات بقوله سبحانه « ولاخوف » وهذه الآية « فلا خوف عليهم » وهي بالفاء دون غيرها لأنّها رابطة لجواب الشرط من « وكل جواب يمتنع جعله شرطا ، فإنّ الفاء تجب فيه »(٢) وهذه الجملة لاتصلح أن تكون شرطاً فهي ناقصة ، ومن ثَمَّ ربطت بالفاء،والفاء مسببة ورابطة،فكأنّها جاءت لجبر ذلك النقص ، وبقية المواضع لم يأت أيٌّ منها جواباً للشرط .

والملاحظ في هذا التركيب أنّه في جميع آي القران يأتي في سياق الجزاء والمثوبة للإيمان قولاً ، واعتقاداً ، وعملاً ، فانتفاء الخوف والحزن جزاء ومثوبة للقول والعمل قال تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٣) وانتفاء الخوف والحزن جزاء ومثوبة للاعتقاد والعمل قال تعالى:﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾(٤)

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ

---

١ - البقرة الآية ٣٨

٢ - أوضح المسالك ، ٤/٢٠٩

٣ - الأحقاف الآية ١٣

٤ - البقرة جزء من الآية ٣٨

وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1] وقوله عز شأنه: ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2]

ومعنى أسلم وجهه أي « أخلص دينه »[3] وهو محسن أي « في عمله »[4] وقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[5]

وانتفاء الخوف والحزن جزاء ومثوبة للعمل قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[6]

وقوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[7]

قال الزمخشري: (فإن قلت: أي فرق بين قوله:« لهم أجرهم » وقوله فيما بعد « فلهم أجرهم » قلت الموصول لم يضمن ههنا معنى الشرط، وضمنه ثمة، والفرق بينهما من جهة المعنى أن الفاء فيها دلالة على أن الإنفاق به استحق الأجر، وطرحها عار عن تلك الدلالة)[8]

وتوحد الجزاء في هذا التركيب في جميع آي القران مع اختلاف الآيات في اشتمالها على القول والاعتقاد، أو الاعتقاد والعمل، أو العمل وحده دلالة ظاهرة

١ - البقرة آية ٦٢
٢ - البقرة الآية ١١٢
٣ - تفسير ابن كثير ١ / ٢٣١
٤ - تفسير البيضاوي ١ / ٨٢
٥ - البقرة الآية ٢٧٧
٦ - البقرة الآية ٢٦٢
٧ - البقرة الآية ٢٧٤ .
٨ - الكشاف ١ / ٣٠٧

وقاطعة على (الوحدة بين الشعور والسلوك بين العقيدة والعمل ، بين الإيمان القلبي والإحسان العملي .. بذلك تستحيل العقيدة منهجاً للحياة كلها ، وبذلك تتوحد الشخصية الإنسانية بكل نشاطها واتجاهاتها ،وبذلك يستحق المؤمن هذا العطاء كله:

﴿ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

الأجر المضمون لايضيع عند ربهم .. والأمن الموفور لايساوره خوف ، والسرور الفائض لايمسه حزن . . وتلك هي القاعدة العامة التي يستوي عندها الناس جميعاً ، فلا محسوبية عند الله سبحانه ولامحاباة).[١]

وكلام العلماء حول هذا التركيب (فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) واحد وكثيراً ماترى في كتب المفسرين في المواضع الأخرى « سبق تفسيره » اكتفاءاً منهم بتفسيره في الآية « ٣٨ » من سورة البقرة وقد أدرجتها تحت مطلب واحد ينتظمها جميعاً خشية التكرار لتوحد الدلالة في هذا التركيب .

وقوله : «فلا خوف عليهم» (أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة «ولاهم يحزنون» على مافاتهم من أمور الدنيا).[٢]

وأنّى لهم الخوف والحزن وهم مقبلون على تحقيق موعودهم في « مالا عين رأت ولا أذن سمعت،ولا خطر على قلب بشر »[٣]

(والتعبير في نفي الخوف بالخبر الإسمي ، وهو لاخوف عليهم لإفادة نفي جنس الخوف نفياً قارا ، لدلالة الجملة الإسمية على الدوام والثبات).[٤]

---

١ – في ظلال القرآن ١/ ١٠٤

٢ – تفسير ابن كثير ١ / ١٢٤

٣ – جزء من حديث رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قوله تعالى «يريدون أن يبدلوا كلام الله» برقم ٨٤٩٨، ومسلم في كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة منزلة برقم ٣١٢ ، وابن ماجه في كتاب الزهد باب صفة الجنة برقم ٤٣٢٨ .

٤ – التحرير والتنوير ١ / ٥٤٠ .

(والعدول عن لاخوف لهم أو عندهم إلى « لاخوف عليهم » للإشارة إلى أنّهم قد بلغت حالهم إلى حيث لاينبغي أن يخاف أحد عليهم).[1]

وفي بحر أبي حيان أنه سبحانه (كنّى بقوله «عليهم» عن الاستيلاء والإحاطة ونزل المعنى منزلة الجرم ونفى كونه معتليا مستوليا عليهم ، وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أن الخوف لاينتفي بالكلية ألا ترى إلى انصباب النفي على كينونة الخوف عليهم ، ولا يلزم من كينونة اعتلاء الخوف انتفاء الخوف في كل حال ، ولذلك قال بعض المفسرين ليس في قوله :(فلاخوف عليهم) دليل على نفي أهوال يوم القيامة وخوفها على المطيعين ...).[2]

ويُردُّ قوله هذا بقوله سبحانه :﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ۝ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[3] والفزع الأكبر هو (أهوال يوم القيامة والبعث)[4] (والذين سبقت لهم الحسنى هم المراد من الاستثناء في قوله تعالى :﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ﴾[5]

(ولما كان الخوف والحزن متلازمين كانت خصوصية كل منهما سارية في الآخر)[6] فلا بأس في الرد بدلالة «لايحزنهم» على تعليق أبي حيان حول «فلاخوف».

---

١ - انظر روح المعاني ١ / ٢٤١ ٢ - البحر المحيط ١ / ٣٢٣

٣ - الانبياء الآيات ١٠١ - ١٠٣

٤ - الجامع لأحكام القرآن ، ١١ / ٢٢٩

٥ - التحرير والتنوير ١٧ / ١٥٧ والآية في سورة النمل ٨٧

٦ - المرجع نفسه ١ / ٥٤١ .

وفي تقديم الضمير علي الخبر الفعلي «ولاهم يحزنون» (إشارة إلى اختصاصهم بانتفاء الحزن وأنّ غيرهم يحزن ، والمراد بيان دوام الانتفاء لابيان انتفاء الدوام كما يتوهم من كون الخبر في الجملة الثانية مضارعا ، لما تقرر في محله أن النفي وإن دخل على نفس المضارع يفيد الدوام والاستمرار بحسب المقام)[1]

قال تعالى:﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾[2]

المقصود بهذه الآية (أولئك الذين أخبر الله عنهم أنّهم يؤمنون ببعض الكتاب فيفادون أسراهم من اليهود ، ويكفرون ببعض فيقتلون من حرم الله عليهم قتله من أهل ملتهم ، ويخرجون من داره من حرم الله عليهم إخراجه نقضاً لعهد الله وميثاقه في التوراة إليهم ، ووصفهم جل ثناؤه بأنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، لأنهم رضوا بالدنيا بكفرهم بالله فيها عوضاً من[3] نعيم الآخرة بكفرهم بالله ثمنا لما ابتاعوه به من خسيس الدنيا)[4]

(وقصة شرائهم الحياة الدنيا بالآخرة هنا في هذه المناسبة، هي أن الدافع لهم على مخالفة ميثاقهم مع الله ، هو استمساكهم بميثاقهم مع المشركين في حلف يقتضي مخالفة دينهم وكتابهم ، فإنّ انقسامهم فريقين ، وانضمامهم إلى حلفين[5]، هي هي خطة اسرائيل التقليدية ، في إمساك العصا من الوسط ، والانضمام إلى المعسكرات المتطاحنة كلها من باب الاحتياط ، لتحقيق بعض المغانم على أية حال ، وضمان مصالح اليهود في النهاية سواء انتصر هذا المعسكر أم ذاك ! وهي خطة من لايثق

---

١ – روح المعاني ١ / ٢٤١

٢ – البقرة الآية ٨٦

٣ – كذا في الكتاب ولعل الصواب عن

٤ – جامع البيان ١/٢ ٤٠

٥ – حلف مع الأوس وهم بنو النضير وقريضة وحلف مع الخزرج وهو بنو قينقاع

بالله ، ولايستمسك بميثاقه ، ويجعل اعتماده كله على الدهاء ومواثيق الأرض ، والاستنصار بالعباد لابرب العباد ، والإيمان يحرم على أهله الدخول في حلف يناقض ميثاقهم مع ربهم ، ويناقض تكاليف شريعتهم ، باسم المصلحة أو الوقاية ، فلا مصلحة إلا في اتباع دينهم ، ولا وقاية إلا بحفظ عهدهم مع ربهم)[1]

(واسم الإشارة هنا غير مشار به إلى ذوات ، ولكن إلى صنف اجتمعت فيهم الصفات الماضية ، فانكشفت أحوالهم حتى صاروا كالحاضرين تجاه السامع ، بحيث يشار إليهم ، وهذا استعمال كثير الورود في الكلام البليغ ، وليس في هذه الإشارة إشعار ببعد أو قرب حتى تفيد تحقيرا ناشئا عن البعد ، لأن هذا من أسماء الإشارة الغالبة في كلام العرب ، فلا عدول فيها حتى يكون العدول لمقصد كما في قوله تعالى:« ذلك الكتاب »[2]

فقد عدل مع قرب الكتاب للناطق بآياته عن إشارة القريب إلى البعيد ، فأفاد التعظيم،وعكس هذا قول قيس بن الخطيم :

متى يأت هذا الموتُ لايُلْفِ حاجةً لنفسي إلا قَدْ قَضَيْتُ قَضَاءَهَا[3]

فإن الموت بعيد عنه فحقه أن يشير إليه باسم البعيد ، وعدل عنه إلى إشارة القريب لإظهار استخفافه به)[4]

ومعنى اشتراء الحياة الدنيا بالآخرة : اختيارها عليها واستبدالها بها على سبيل الاستعارة ومنه قول الراجز :

---

١ - في ظلال القرآن ١/ ٨٨ ٢ - البقرة جزء من الآية ٢

٣ - هذا البيت من قصيدة قالها حين أصاب بثأره من قاتلي أبيه وجده ومطلعها :

تذكر ليلى حسنها وصفاءها وبانت فأمسىماينال لقاؤها

انظر ديوان قيس بن الخطيم ت ناصر الدين الأسد بيروت دار صادر ط / ٢ ، ١٣٨٧ هـ

٤ - انظر التحرير والتنوير ١ / ٢٩٧ .

أخـذت بالجمـة راسـا أزعـرا ... وبالثنايا الواضحـات الدَّر درا
وبالطويل العمـر عمـرا حيـدرا ... كما اشتـرى المسلم إذ تنصـرا[1]

وعن وهب : قال الله عز وجل فيما يعيب به بني اسرائيل : تفقهون لغير الدين ، وتعلمون لغير العمل ، وتبتاعون بعمل الآخرة[2]

«فلا يخفف عنهم العذاب» (بنقض الجزية في الدنيا ، والتعذيب في الآخرة)[3] «ولاهم ينصرون» (بدفع الخزي إلى آخر الدنيا أو بدفع الجزية في الدنيا ، والتعذيب في العقبى ، وعلى الاحتمال الأول في الأمرين يستفاد نفي دفع العذاب من نفي تخفيفه بأبلغ وجه وآكده ، ورجحه بعضهم بأنّ المقام على الثاني يستدعي تقديم نفي الدفع على نفي التخفيف ، وتقديم المسند إليه لرعاية الفاصلة والتقوي لا الحصر إذ ليس المقام مقامه ولذا لم يقل فلا عنهم يخفف العذاب)[4]

وانسحاب حرف النفي على جملة إسمية (ليكون الضمير مذكوراً مرتين فيتأكد ذكر المنفي عنه النصر بذكره مرتين)[5] والقول بأنّ التقديم للتقوى والتأكيد مخالف لمنهج الشيخ عبدالقاهر الذي يرى في هذا الأسلوب وأمثاله إفادته للتخصيص قطعاً، ولهذه الآية نظائر في القران تعزز قول من لايرى انسحاب التخصيص على هذا الأسلوب بر متـه كالسكاكي[6]، ومنها قوله تعالى:﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلا هُمْ يُنظَرُونَ﴾[7] فقوله سبحانه:« ولاهم ينظرون » (لاوجه لأنّ الساعة حين تأتي لاتمهل أحدا، فليسوا وحدهم المختصين بعدم الإنظار والذي يأتي

١ - قاله أبو النجم العجلي ، انظر : ديوانه جمع علاء الدين آغا (الرياض : مطبوعات النادي الأدبي ، ١٤٠١هـ) صـ١٢١ .
٢ - انظر الكشاف ١ / ٧٦ - ٧٧ بتصرف
٣ - تفسير البيضاوي ١ / ٧٤
٤ - روح المعاني ١ / ٣١٥
٥ - البحر المحيط ١ / ٣٤٩ .
٦ - وقد سبق مناقشة ذلك في مبحث تقديم المسند إليه المسبوق بنفي على الخبر الفعلي انظر صـ٦٧-٦٨ .
٧ - الأنبياء الآية ٤٠ .

بغتة ويبهت ولا يستطاع رده هو الموت ، وقالوا هو العذاب الذي استعجلوا به وكل ذلك لاوجه للقصر فيه ، والتقديم فيها للتقوية وتأكيد أنّهم في هذه اللحظات لايمهلون كما أمهلوا في الدنيا حين استعجلوا بعذاب وقالوا:متى هذا الوعد).[1]

وشجن الحديث يجر إلى نكتة في مثل هذا الأسلوب وهي أنّه (إذا ثبت أن قولنا « ماأنا قلت » قد يأتي للتقوية على حد« ولاهم ينظرون » فما الفرق بينه وبين « أنا ماقلت » ؟

يبدو أن التوكيد في « ماأنا قلت » وماشابهه أقوى من التوكيد في « أنا ماقلت » وذلك لأنّ النفي فيه داخل على النسبة ، وسلط عليها لأنّ المقصود حينئذ ليس نفي المسند إليه وذلك بخلاف « أنا ماقلت » فإنّ النفي في هذه الحالة جزء من المسند فيفيد هذا الكلام اثبات هذا المسند المنفي إلى المسند إليه ، بينما في الأول يفيد نفي المسند عن المسند إليه ، وهذا فرق جليل ومتصل بجوهر الجملة ، وهو الاسناد ، وكأنّ الجملة الأولى عند التحقيق جملة منفية والجملة الثانية جملة مثبتة الأولى كقولك:«ليس زيد بكاتب» والثانية كقولك:«زيد ليس بكاتب» وشيء آخر في الفرق بينهما هو أنّ دخول النفي على المسند إليه مشعر بإخراج هذه الذات من الحكم ، وفيه من القوة والتوكيد الشيء الكثير ، ولعل هذا هو الذي جعل أكثر هذه الصور لقصر النفي على المذكور).[2]

---

١ - انظر دلالات التراكيب ص ١٧٩ ، وخصائص التراكيب ص ١٧٩ ، ويلاحظ على الدكتور محمد قوله بالتخصيص وعدمه في قوله تعالى « ولاهم ينصرون » من سورة الأنبياء الآية ٣٩ !

٢ - دلالات التراكيب ص ١٨٠ .

المطلب الثالث : تقديم اسم الإشارة :

أ - اسم الإشارة في لغة العرب :

اسم الإشارة « هو اسم يعين مدلوله تعيينا مقروناً بإشارة حسية نحو:هذا القلم ، أو معنوية نحو:« هذا رأي صواب ».

والغالب أن يكون المشار إليه شيئاً محسوساً ، وتكون الإشارة للقريب والمتوسط والبعيد ، للمذكر والمؤنث ، للمفرد والمثنى والجمع).[1]

ب - اسم الاشارة في سورة البقرة :

ورد اسم الإشارة في سورة البقرة سبعين مرة تقريباً#، منها الإشارة إلى المفرد المذكر القريب (هذا)[2] والمؤنث القريب (هذه)[3] والمذكر البعيد (ذلك)[4] والمذكر البعيد المقترن بالكاف (كذلك)[5] والمؤنث البعيد (تلك)[6] والإشارة إلى جمع المذكر القريب هؤلاء،[7] والبعيد أولئك[8]، وذلكم[9] ويمكن للمتأمل في هذه الأسماء أن

---

١ - انظر شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام (بيروت : المكتبة العصرية ، ١٩٩٢)صـ ١٣٥ ، والقواعد الأساسية للغة العربية لأحمد الهاشمي (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) صـ٩٣ ، والنحو الوافي ١ / ٣٢١ ، والمعجم المفصل في علوم اللغة ١ / ٤٦

انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ١٥٤

٢ - ورد في الآيتين (٢٥ ، ١٢٦)   ٣ - ورد في ثلاث آيات (٣٥ ، ٥٨ ، ٢٥٩)

٤ - ورد في السبع عشرة آية في الآيات (٢ ، ٥٢ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٨ ، ٨٥ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٩٦ ، ٢٢٨ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٤٨)

٥ - ورد في تسع آيات وهي (١١٣،١١١٨،١٤٣،١٦٧،١٨٧،١٩١،٢١٩،٢٤٢،٢٦٦)

٦ - ورد في تسع آيات وأرقامها (١١١،١٣٤،١٤١،١٨٧،١٩٦،٢٢٩،٢٥٢،٢٥٣)

٧ - ورد في الآيتين (٣١ ، ٨٥)

٨ - ورد أربع وعشرون مرة في عشرين آية (انظر المعجم المفهرس ص ١٠٠

٩ - ورد أربع مرات في الآيات (٤٩،٥٤،٢٣٢،٢٨٢)

يلحظ الدواعي البيانية ويتلمسها من خلال السياق النظمي لسورة البقرة التي وردت من أجله ومنها :

١ - لتمييز المسند إليه أكمل تمييز لإحضاره في ذهن السامع[١]، فلا يغفل عنه ولايهمل منه شيء قال تعالى :﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِن طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[٢]، وتلك أي (الأحكام المتناهية في مدارج النظم ومراتب الحكم)[٣] ومثلها قوله سبحانه:﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ﴾[٤] أي (الأحكام العظيمة التي تولى الله بيانها من أحكام الطلاق والرجعة والخلع وغيرها. فصارت كالحدود المعروفة في الأراضي)[٥] فهو يشير سبحانه إلى دقتها كل الدقة ، وبيانها كل البيان فلا عذر بعدها لمن أغفل الحكم، وتجاوز الحد، أن يطاله العقاب والجزاء من جنس العمل.

(واسم الإشارة بطبيعة دلالته يحدد المراد منه تحديداً ظاهراً، ويميزه تمييزاً كاشفاً ، وهذا التحديد قد يكون مقصدا مهما للمتكلم لأنه حين يكون معيناً بالحكم على المسند إليه بخبر ما فإن تمييز المسند إليه تمييزاً واضحا يمنح الخبر مزيدا من القوة والتقرير)[٦]

٢ - تعظيم المشار إليه وجلالة قدره وعلو منزلته

قال تعالى:﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٧]

(أي ذلك الرفيع المنزلة في البلاغة ، العزيز المرتبة في علومه وأسلوبه وهو

---

١ - انظر الإيضاح في شروح التلخيص ١ / ٣١٣

٢ - البقرة جزء من الآية ٢٣٠

٣ - نظم الدرر ٣ / ٣١٧

٤ - البقرة جزء من الآية ٢٢٩

٥ - انظر نظم الدرر ٣ / ٣١١

٦ - خصائص التراكيب ص ١٥٣

٧ - البقرة الآية ٢

الكتاب الكامل الذي يستحق أن يسمى كتابا حتى كأنّه لاكتاب سواه وهذا في تعظيم المشار إليه).[1]

قال البقاعي : (وأشير إليه بأداة البعد ولام الكمال ، لعلو مقداره بجلالة آثاره وبعد رتبته عن نيل المطرودين)[2]

٣ - إرشاد عباده إلى الامور الخيرة العظيمة،وتفعيلها في نفوسهم ليقبلوا عليها ويزدادوا بها تمسكا ومدحهم على ذلك قال تعالى :﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾[3] (أولئك) (أي العظيمو الرتبة خاصة).[4]

وقال سبحانه ﴿ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾[5] (أي ذلك الأمر العظيم).[6]

وقال سبحانه : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ﴾[7] (أولئك) العالو الرتبه العظيمو الزلفى والقربة).[8]

وقال تعالى : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[9] «أولئك» (أي خاصة الذين علت هممهم وعظمت أخلاقهم وشيمهم).[10]

٤ - تنبيه عباده إلى أعمال يمقتها سبحانه لمخالفتها الفطرة التي فطر الناس عليها ، فينفروا منها ويحذروها قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[11] «أولئك» (أي البعداء و البغضاء).[12]

---

١ - مواهب الفتاح من شروح التلخيص ١ / ٣١٧
٢ - نظم الدرر ١ / ٧٩
٣ - البقرة جزء من الآية ١٢١
٤ - نظم الدرر ٢ / ١٤٣
٥ - البقرة جزء من الآية ٢٣٢
٦ - نظم الدرر ٣ / ٣٢٥
٧ - البقرة جزء من الآية ٢١٨
٨ - نظم الدرر ٢ / ٢٣٧
٩ - البقرة جزء من الآية ١٧٧
١٠ - نظم الدرر ٣ / ١٠
١١ - البقرة الآية ٣٩
١٢ - نظم الدرر ١ / ٣٠٢ .

وقوله تعالى:﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1] «أولئك» (أي البعداء، والبغضاء)[2]

وقال سبحانه ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴾[3] «أولئك» (أي البعداء والبغضاء)[4] (وجاء بـ «أولئك» اسم الإشارة البعيد تنبيها على ذلك الوصف القبيح وأبرز الخبر في صورة جملتين توكيداً وتعظيماً)[5]

٥ - التنبيه على أن المشار إليه المعقب بأوصاف جدير بما يذكر بعد اسم الاشارة[6] قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[7] (وصفهم سبحانه بالإيمان بالغيب وهذه أعلى مراتب الإيمان ، ثم وصفهم بأنّهم يحفظون حق الله فيقيمون الصلاة كما يحفظون حقوق الفقراء في أموالهم فيؤتون الزكاة ، ثم وصفهم بأصالة الخير في معادنهم فهم يؤمنون بما أنزل على الأنبياء ، وهكذا كانوا أحقاء بما ورد بعد اسم الإشارة وهو كونهم على الهدى عاجلا والفوز بالفلاح آجلاً)[8]

ولابن عاشور تعليق جميل على اسم الإشارة في هذه الآيات يقول فيه:(اسم الإشارة متوجه إلى المتقين الذين أجرى عليهم من الصفات ماتقدم ، فكانوا فريقين

١ - البقرة الآية ٨١
٢ - نظم الدرر ١ / ٤٩٧
٣ - البقرة الآية ١٥٩
٤ - نظم الدرر ١ / ٤٩٧
٥ - البحر المحيط ١ / ١٣٣
٦ - انظر الإيضاح في شروح التلخيص ١ / ٣١٨ - ٣١٩
٧ - البقرة الآيات من ٢ - ٥
٨ - انظر خصائص التراكيب ص ١٥٨ ، ومختصر السعد في شروح التلخيص ١ / ٣٢٠

وأصل الأشارة أن تعود إلى ذاتٍ مشاهده معينة ، إلا أنّ العرب قد يخرجون بها عن الأصل ، فتعود إلى ذات مستحضرة من الكلام بعد أن يذكر من صفاتها وأحوالها ماينزلها منزلة الحاضر في ذهن المتكلم والسامع ، فإنّ السامع إذا وعى تلك الصفات وكانت مبهمة أو غريبة في خير أو ضده صار الموصوف بها كالمشاهد ، فالمتكلم يبني على ذلك فيشير إليه كالحاضر المشاهد ، فيؤتى بتلك الإشارة إلى أنّه لا أوضح في تشخيصه ، ولا أغنى في مشاهدته من تعرف تلك الصفات ، فتكفي الإشارة إليها ، هذا أصل الاستعمال في إيراد الإشارة بعد ذكر صفات مع عدم حضور المشار إليه ثم إنّهم قد يتبعون اسم الإشارة الوارد بعد تلك الأوصاف بأحكام ، فيدل ذلك على أنّ منشأ تلك الأحكام هو تلك الصفات المتقدمة على اسم الإشارة ، لأنّها لما كانت هي طريق الاستحضار كانت الإشارة لأهل تلك الصفات قائمة مقام الذوات المشار إليها .

فكما أنّ الأحكام الواردة بعد اسماء الذوات تفيد أنّها ثابتة للمسميات ، فكذلك الأحكام الواردة بعد ماهو للصفات تفيد أنّها ثبتت للصفات ، فقوله : ﴿أولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ بمنزلة أن يقول : إنّ تلك الأوصاف هي سبب تمكنهم من هدى ربهم إيّاهم)[1] .

٦ - الإيجاز وتفادي التكرار والآيات الآنفة الذكر خير شاهد على ذلك .

وسيكشف البحث عن بعض القيم البلاغية لتقديم اسم الإشارة .

---

١ - التحرير والتنوير ١ / ٢٤١

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾[1]

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾ اختلف فيهم فقال قتادة : (هم المؤمنون برسول الله ﷺ وبما جاء به من أصحابه ، وقال ابن زيد : هم علماء بني اسرائيل الذين آمنوا بالله ، وصدقوا رسله ، فأقروا بحكم التوراة ، فعملوا بما أمر الله فيها من اتباع محمد ﷺ والإيمان به ، والتصديق بما جاء به من عند الله ، وهذا القول أولى بالصواب من القول الأول،لأنّ الآيات قبلها مضت بأخبار أهل الكتابين ، وتبديل من بدل منهم كتاب الله ، وتأوّلهم إياه على غير تأويله ، وادعائهم على الله الأباطيل ، ولم يجر لأصحاب محمد ﷺ في الآية التي قبلها ذكر).[2]

(وكل موضع ذكر في وصف الكتاب : (آتينا) فهو أبلغ من كل موضع ذكر فيه (أوتوا) لأنّ (أوتوا) قد يقال إذا أوتي من لم يكن منه قبول و (آتينا) يقال فيمن كان منه قبول).[3]

(يتلونه حق تلاوته) قال ابن عباس:« يتبعونه حق اتباعه»[4] وقيل : (يقرؤونه حق قراءته ، وهي قراءة تأخذ بمجامع القلب فيراعى فيها ضبط اللفظ ، والتأمل في المعنى).[5]

---

١ - البقرة الآية ١٢١

٢ - انظر جامع البيان ١ / ٥١٨ - ٥١٩

٣ - بصائر ذوي التمييز ٢ / ٤٤

٤ - جامع البيان ١ / ٥١٩

٥ - روح المعاني ١ / ٣٧٠

«أولئك» (إشارة إلى الموصوفين بإيتاء الكتاب وتلاوته ، كما هو حقه ومافيه من معنى البعد ، للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل .

«يؤمنون به» أي بكتابهم دون المحرفين فإنّهم بمعزل من الإيمان به ، فإنّه لايجامع الكفر ببعض منه).(1)

(وقدم المسند إليه (أولئك) على المسند الفعلي للحصر والتعريض)(2) فإنّ الذين لايتلونه حق تلاوته لايفهمون مراد الله منه ، ومن ثمّ لاينتفعون به فيقودهم إلى الإيمان .

(وجيء باسم الإشارة في تعريفهم دون الضمير وغيره ، للتنبيه على أنّ الأوصاف المتقدمة التي استحضروا بواسطتها حتى أشير إليهم باتصافهم بها ، هي الموجبة لجدارتهم بالحكم المسند لاسم الإشارة على حد ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ فلاشك أنّ تلاوتهم الكتاب حق تلاوته تثبت لهم أحديتهم بالإيمان بذلك الكتاب لأن إيمان غيرهم به كالعدم ، فالقصر ادعائي)(3)

قوله:﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (تصريح بحكم مفهوم أولئك يؤمنون به وفيه اكتفاء عن التصريح بحكم المنطوق ، وهو أنّ المؤمنين به هم الرابحون ففي الآية إيجاز بديع بدلالتها على أنّ الذين أوتوا الكتاب يتلونه حق تلاوته هم المؤمنون دون غيرهم فهم كافرون ، فالمؤمنون به هم الفائزون والكافرون هم الخاسرون).(4)

---

١ - تفسير أبي السعود ١ / ٢٤٩

٢ - روح المعاني ١ / ٣٧٠

٣ - التحرير والتنوير ١ / ٦٩٧

٤ - التحرير والتنوير ١ / ٦٩٧

المطلب الرابع : تقديم الاسم الموصول :

أ : الاسم الموصول في لغة العرب :

(هو ما افتقر إلى كلام بعده تصله به، ليتم اسما فإذا تم بما بعده كان حكمه حكم سائر الأسماء التامة، يجوز أن يقع فاعلا ومفعولا ومضافا إليه ومبتدأ وخبرا)[(1)]

فهو اسم غامض مبهم مفتقر إلى مايوضحه ويبينه ، وتوضيحه يكون بجملة تسمى صلة الموصول لا محل لها من الإعراب ، ويشترط في هذه الصلة أن يكون فيها ضمير عائد على الاسم الموصول (فلو قلت : جاء الذي ، فكأنك لم تقل شيئا ، فإذا قلت : علّم ولدك ، فإنّ هذه الصلة بددت هذا الإبهام)[(2)]

والموصول نوعان :

١ - اسمي وقد تقدم تعريفه آنفا

٢ - حرفي (وهو اسم مبهم يحتاج دائما في تعيين مدلوله إلى صلة يسبك معها يسمى المصدر المؤوَّل كقول الشاعر :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الحُرِّ أَنْ يَرَى   عَدُوّاً لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ[(3)]

وألفاظه أن المصدرية ، وما المصدرية ، وكي المصدرية ولو الشرطية ، وهمزة التسوية ، وأنّ المفتوحة الهمزة التي هي حرف مشبه بالفعل)[(4)]، كقوله تعالى ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾[(5)]

---

١ - انظر شرح المفصل ٣ / ١٣٨

٢ - البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) للدكتور / فضل حسن عباس (الأردن : دار الفرقان ، ط/ ٢ ، ١٤٠٩هـ) صـ ٣٠٧

٣ - البيت للمتنبي من قصيدة مطلعها

أقل فعالي بله أكثره مجد   وذا الجدّ فيه نلت أم لم أنل جَدُّ   انظر ديوانه ص ١٩٨

٤ - انظر المعجم المفصل في النحو العربي للدكتورة عزيزة فوّال بابتي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ١٤١٣هـ) ٢ / ١٠٨١ - ١٠٨٢ .

٥ - فصلت جزء من الآية ٥٣ .

والاسمي قسمان خاص وعام وهو المقصود بمطلبنا هذا (فالخاص : هو ماكان نصاً في الدلالة على بعض الأنواع مقصوراً عليه وحده ، فمنه مايختص بالمفرد المذكر أو بالمفرد المؤنث ، أو بالمثنّى ، أو بالجمع ، وألفاظه ثمانية الذي ، التي ، اللذان ، اللتان ، الألى ، الذين ، اللائي ، اللآتي .

والعام : هو الذي يصلح للأنواع كلها دون أن يكون مقصوراً على بعضها في الدلالة ، ولاتتغير صيغته اللفظية وألفاظه ستة وهي :

من ، ما ، وأيّ ، وذو الطائيه ، وذا بعد (ما) للاستفهام ، وأجاز الكوفيون وقوعها موصولة وإن لم يتقدم عليها استفهام[1]

ب : الاسم الموصول في سورة البقرة :

ورد الموصول بنوعيه الحرفي والاسمي في سورة البقرة .. فمن الحرفي همزة التسوية في قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾[2]

وذا بعد (ما) الاستفهامية في قوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴾[3]

والاسمي بقسميه الخاص كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ...﴾[4] والعام كقوله تعالى ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ﴾[5] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ ...﴾[6] ولورودها أغراض بلاغية متنوعة منها :

---

١ - انظر الكافية في النحو ص ١٥٣ ، والمعجم المفصل في النحو العربي ١ / ١٤٠ .

٢ - البقرة الآية ٦ — ٣ - البقرة الآية ٢٦ — ٤ - البقرة جزء من الآية ٢٦٤

٥ - البقرة جزء من الآية ٢٦٩ — ٦ - البقرة جزء من الآية ٢٦٧

١ - توضيح الموصوف أجلّ توضيح وتقريره

قال تعالى ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ۝ الَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ ... ﴾[١] (فجملة الذين ينقضون إلى آخره صفة للفاسقين لتقرير اتصافهم بالفسق لأنّ هاته الخلال من أكبر أنواع الفسوق بمعنى الخروج عن أمر الله)[٢]

٢ - التوبيخ :

قال تعالى ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ﴾[٣] ففي (الذين) (توبيخ عظيم لأهل الكتاب ، لأنّهم نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لايعلم أصلا)[٤]

٣ - استهجان التصريح بالاسم[٥]

قال تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[٦]

فالذين ظلموا هم بنو إسرائيل الذين أمروا أن يدخلوا الباب سجداً ويقولوا حطة ولم يصرح باسمهم استهجانا لذكره ، لقبح فعلتهم والتنفير منها .

٤ - الإيماء والإشارة إلى وجه بناء الخبر[٧]

(وهو قريب مما يسمونه براعة الاستهلال ، ومعنى هذا أن يذكر المتكلم شيئاً في أول حديثه ، يستطيع أن يدرك الفطن ماسيجيء بعده)[٨] قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ

---

١ - البقرة جزء من الآيتين ٢٦ - ٢٧

٢ - التحرير والتنوير ١ / ٢٦٧

٣ - البقرة جزء من الآية ١١٣

٤ - النظم القرآني في سورة البقرة ص ٦٩

٥ - الإيضاح من شروح التلخيص ١ / ٣٠٤

٦ - البقرة الآية ٥٩

٧ - انظر الإيضاح من شروح التلخيص ١ / ٣٠٧ .

٨ - البلاغة فنونها وأفنانها ص ٣٠٩

كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[1]

وقال سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾[2]

فالقاريء للآيتين يدرك ماسيأتي بعد الصلة من جزاء إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، والخبر في الآيتين يؤكد ماذكر ويقويه .

ونعرض بالتحليل والدراسة لشاهد منها على تقديم الاسم الموصول :

قال تعالى :﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾[3] (يخبر الله تعالى أن علماء أهل الكتاب ، يعرفون صحة ماجاءهم به الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرف أحدهم ولده ، والعرب كانت تضرب المثل في صحة الشيء بهذا كما جاء في الحديث[4] «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل معه صغير «ابنك هذا ؟» قال : نعم يارسول الله أشهد به ، قال:«أما أنه لايخفى عليك،ولاتخفى عليه)[5] (ولفظ أتيناهم أبلغ من أوتوا ، لإسناد الإيتاء إلى الله تعالى معبراً عنه بنون العظمة ، وكذا مايجيء من نحو هذا مراداًبه الإكرام نحو هدينا واجتبينا واصطفينا ، قيل : ولأن (أوتوا) قد يستعمل فيما لم يكن له قبول ، و(آتيناهم) أكثر مايستعمل فيما له قبول)[6] نحو:﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ﴾[7]

---

١ - البقرة الآية ٣٩ .
٢ - البقرة الآية ٨٢ .
٣ - البقرة جزء من الآية ١٤٦ .
٤ - الحديث رواه الأمام أحمد في مسنده ٤ برقم ١٧٥٠٣ ، والبغوي في شرح السنة تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤط (بيروت : المكتب الإسلامي ، ط / ٢ ، ١٤٠٣هـ) برقم ٣٦٥٧ ، ولفظهما «إنك لا تجنى عليه ولايجنى عليك» .
٥ - تفسير ابن كثير ١ / ٢٨٩ .
٦ - البحر المحيط ١ / ٦٠٨ .
٧ - الأنعام جزء من الآية ٨٩ .

وقوله:﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾

أي (يعرفون رسول الله ﷺ معرفة جلية يميزون بينه وبين غيره بالوصف المعين المشخص ، وقيل الضمير للعلم ، أو القرآن ، أو تحويل الكعبة .

والراجح أنّ الضمير للرسول ﷺ لدلالة قوله تعالى:﴿ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ عليه ويؤيد ذلك الأثر الذي روي عن عمر أنه سأل عبدالله بن سلام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:أنا أعلم به مني بابني قال : ولم ؟ قال : لأني لست أشك في محمد أنّه نبي ، فأمّا ولدي فلعل والدته خانت فقبل عمر رأسه)[١] وقال الزمخشري: (وجاز الإضمار وإن لم يسبق له ذكر ، لأنّ الكلام يدل عليه ولايلتبس على السامع ، ومثل هذا الإضمار فيه تفخيم وإشعار بأنّه لشهرته وكونه علماً معلوماً بغير إعلام)[٢] لكن أبا حيان لم يرض هذا القول من الزمخشري فرده قائلاً :

(وأقول : ليس كما قالوه من أنّه إضمار قبل الذكر، بل هذا من باب الالتفات، لأنه قال تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ ﴾[٣] ثم قال : ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ ﴾[٤] إلى آخر الآية ، فهذه كلها ضمائر خطاب لرسول الله ﷺ ثم التفت عن ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة ، وحكمة هذا الالتفات أنهّ لما فرغ من الإقبال عليه بالخطاب أقبل على الناس فقال ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ﴾[٥] واخترناهم لتحمل العلم والوحي ، يعرفون هذا الذي خاطبناه في الآية السابقة وأمرناه ونهيناه ، لا يشكون في معرفته ولا في صدق إخباره بما كلفناه من التكاليف التي منها نسخ بيت المقدس بالكعبة، لما في كتابهم من ذكره ونعته والنص

---

١ - انظر الكشاف ١ / ٢٠٣ .

٢ - المصدر نفسه ١ / ٢٠٣

٣ - البقرة جزء من الآية ١٤٤

٤ - البقرة جزء من الآية ١٤٥

٥ - البقرة جزء من الآية ١٤٦

عليه ، يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، فقد اتضح بما ذكرناه أنّه ليس من باب الإضمار قبل الذكر وأنّه من باب الالتفات)(١) (والالتفات عن الخطاب إلى الغيبة للإيذان بأن المراد ليس معرفتهم له صلى الله عليه وسلم من حيث ذاته ونسبه، بل من حيث كونه مسطورا في الكتاب منعوتا بالنعوت التي من جملتها أنّه صلى الله عليه وآله وسلم يصلي إلى القبلتين كأنّه قيل : الذين آتيناهم الكتاب يعرفون من وصفناه فيه ، وبهذا تظهر جزالة النظم الكريم).(٢)

(والتشبيه في قوله:« كما يعرفون أبناؤهم » تشبيه في جلاء المعرفة وتحققها ، فإنّ معرفة المرء بعلائقه معرفة لاتقبل اللبس كما قال زهير :

فهُنّ ووادي الرَّس كاليد للفم(٣)

تشبيها لشدة القرب البيّن).(٤)

وخص الأبناء دون البنات (لأنّهم أكثر مباشرة ومعاشرة للآباء ، وألصق وأعلق بقلوبهم من البنات ، فكان ظن اشتباه أشخاصهم أبعد ، وكان التشبيه بمعرفة الأبناء آكد من التشبيه بالأنفس ، لأنّ الإنسان قد يمر عليه قطعة من الزمان لايعرف فيها نفسه كزمن الطفولية ، بخلاف الأبناء فإنّه لايمر عليه زمان إلا وهو يعرف ابنه).(٥) (وعدل عن أن يقال يعلمونه إلى يعرفونه ، لأنّ المعرفة تتعلق غالبا بالذوات والأمور المحسوسة قال تعالى:﴿ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴾(٦) وقال زهير :

فَلأياً عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ(٧)

---

١ - البحر المحيط ١ / ٦٠٩ .
٢ - فتح البيان في مقاصد القرآن ١ / ٣١٠
٣ - عجز بيت لزهير بن أبي سلمى في معلقته التي يمدح فيها هرم بن سنان والحارث بن عوف لما أصلحا بين عبس وذبيان وصدره : **بَكَرْنَ بُكوراً واستَحَرْنَ بسِحرةٍ .**
انظر ديوان زهير بن أبي سلمى (بيروت : دار صادر ، د.ت) صـ ٧٧
٤ - التحرير والتنوير ٢ / ٤٠
٥ - روح المعاني ١ / ٤١١ - ٤١٢
٦ - المطففين الآية ٢٤ .
٧ - عجز بيت من معلقة زهير بن أبي سلمة وصدره : **وَقَفْتُ بها مِنْ بَعدِ عِشْرينَ حجةً** انظر ديوانه صـ ٧٥ .

وتقول عرفت فلانا،ولاتقول عرفت علم فلان ، إلا إذا أردت أنّ علمه صار كالمشاهد عندك ، ولهذا لايعدّى فعل العرفان إلى مفعولين كما تعدى أفعال الظن والعلم ، ولهذا يوصف الله تعالى بصفة العلم فيقال العليم ، ولايوصف بصفة المعرفة فلا يقال الله يعرف كذا ، فالمعنى يعرفون صفات الرسول ﷺ وعلاماته المذكورة في كتبهم ، ويعرفون الحق كالشيء المشاهد)[1]

وفي تقديم الاسم الموصول في هذه الآية تقوية للحكم الذي سيق من أجله الكلام وتوكيد له ، وإلا فإنّ غير أهل الكتاب يعرفون الرسول صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم ، بل يؤمنون به ويحبونه حبا يفدونه بأنفسهم ، وما المحبة إلا أثر من آثار المعرفة ونتيجة من نتائجها ، وتخصيص أهل الكتاب بالذكر هنا لايدل على قصر المعرفة عليهم دون غيرهم ، وإنما لبيان قبح ماهم عليه من الجحود والإنكار لرسالته،مع معرفتهم إياه حق المعرفة .

١ - التحرير والتنوير ٢ / ٤٠

المطلب الخامس : تقديم المحلى بأل :

أل في لغة العرب :

يؤتي المسند إليه معرفا باللام لإفادة معنى من المعاني التي تفيدها اللام ، ويقسم العلماء «أل» إلى قسمين فهي إما للعهد،وإما للجنس،والفرق بينهما : «أنّ لام العهد هي الداخلة على أمر يشعر بمعرفة السامع له ، لتقدمه في الذكر صراحة،أو كناية ، أمّا أل التي للجنس فليس فيها مايشعر بذلك ، إنها تدخل على ماهية الشيء مما لم يسبق للسامع عهد به)[1]

وكل قسم من أل يتفرع منه أقسام :

أولاً - أل العهديه : وهي أل التعريف التي تدخل على النكرة فتجعل مدلولها فرداً معيناً بعد أن كان مبهماً شائعاً،وهي أقسام :

١ - لام العهد الصريح : وهي ماسبق لمصحوبها ذكر في الكلام قال تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ۞ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾[2]

٢ - لام العهد الكنائي : وهو أن لايتقدم للمعرف ذكر صريح ، وإنما يتقدم مايدل عليه مما تعنيه القرائن قال تعالى:﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ﴾[3] فالذكر وإن لم يكن مسبوقا صريحا ، إلاّ أنّه إشارة إلى «ما» في الآية قبله:﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾[4] فإنهم كانو لايحررون لخدمة بيت المقدس إلا الذكور،وهو المعني بـ(ما) .

٣ - لام العهد الحضوري أو (العلمي والذهني) : وهي مايكون مصحوبها معهوداً في الذهن،فينصرف الفكر إليه بمجرد النطق به ، ولم يسبق له ذكر لاصراحة

١- انظر البلاغة فنونها وأفنانها صـ ٣١١ - ٣١٢
٢ - المزمل الآيات ١٥ - ١٦
٣ - آل عمران جزء من الآية ٣٦
٤ - آل عمران جزء من الآية ٣٥ .

ولاكناية قال تعالى :﴿ وَلا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾[1] (هذه) إشارة للحاضر القريب من المخاطب والمشار إليه شجرة مرئية لآدم وزوجه ، والمراد شجرة من نوعها أو كانت شجرة وحيدة في الجنة[2]

ونحو قولك:«هل جاء المعلم» فالمعلم يعرفه من تسأله[3]

ثانياً : أل الجنسية : وهي أل الداخلة على نكرة ، وتفيد معنى الجنس المحض من غير أن تفيد العهد،وتكون إما للاستغراق ، وإما لبيان الحقيقة .

١ - أل الاستغراقية : وهي أل الجنسية التي تدخل على واحد من الجنس فتجعله يفيد الإحاطة بجميع أفراد الجنس قال تعالى :

﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾[4] أي كل فرد من الإنسان ، أو تجعله يستغرق جميع خصائص الجنس قال تعالى:﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[5] ومعناه (ذلك هو الكتاب الجامع لصفات الكمال في جنس الكتب بناء على أنّ غيره من الكتب إذا نسبت إليه كانت كالمفقود منها وصف الكتاب لعدم استكمالها جميع كمالات الكتب)[6] .

والاستغراق قسمان :

أ - حقيقي ويشمل كل الأفراد الذين يتناولهم اللفظ ، ودليل الشمول : إمّا قرينة حالية قال تعالى:﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾[7] أي كل غيب وشهادة ، أو قرينة مقالية قال تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ أي كل إنسان بدليل الاستثناء بعده .

---

١ - البقرة جزء من الآية ٣٥ ٢ - انظر البحر المحيط ١ / ٣٠٩ ، والتحرير والتنوير ١ / ٤٣٢

٣ - انظر شذور الذهب ص ٤٥ ، ومختصر السعد في الشروح ١ / ٣٢٠ - ٣٢٢ ، ومعجم البلاغة العربية صـ ٤٠ ، والمعجم المفصل في علوم اللغة ١ / ٨٧

٤ - النساء جزء من الآية ٢٨ ٥ - البقرة جزء من الآية ٢

٦ - التحرير والتنوير ١ / ٢٢١ . ٧ - الرعد جزء من الآية ٩ . ٨ - العصر الآية ٢ .

ب - عرفي : وهو الاستغراق الذي يعود إلى العرف في الشمول والإحاطة نحو : «جمع الأمير الصاغة» أي صاغة مملكته لاصاغة العالم أجمع .

٢ - أل التي لبيان الحقيقة : وهي «أل» الجنسية التي تفيد أنّ المراد من الجنس حقيقته القائمة في الذهن دون النظر إلى عمومه وخصوصه،وماينطبق عليه من أفراد ، نحو:«الذهب أثمن من الفضة»[١]

ويجوز في لفظة ما أن تكون اللام فيها للجنس وللعهد إذا ساعد السياق على ذلك قال تعالى:﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[٢] قال الزمخشري في (الناس) :(ولام التعريف فيه للجنس ، ويجوز أن تكون للعهد)[٣]

وهذا التقسيم وإن كان نحويا صرفا إلا أنه لاضير للتقديم به بين يدي الدراسة البلاغية لنبني عليه،ونستشف ماوراءه من المعاني،ونتجاوزه إلى ما سواه .

أل في سورة البقرة :

أسرار القرآن خارجة عن نطاق الحصر ، وإعجازه لاينتهي مادام ذو بصيرة يقلّب طرفه فيه ليستخرج مكنونه ، وهذه (أل) حرفان من حروفه تنطوي على كثير من الأسرار ، وترد أل في سورة البقرة لعدة أغراض بلاغية منها :

١ - توضيح المبهم قال تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ

---

١ - انظر شذور الذهب ص ٤٥ ، ومختصر السعد في شروح التلخيص ١ / ٣٣٠ - ٣٣١، والمعجم المفصل في علوم اللغة ١/٨٥-٨٧ .

٢ - البقرة الآية ٨

٣ - الكشاف ١ / ٦٣

من قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1] (أي : وصلة إلى نداء مافيه الألف واللام ، وهو اسم مبهم مفتقر إلى مايوضحه ويزيل إبهامه ، فلا بد أن يردفه اسم جنس ، أو مايجري مجراه يتصف به حتى يصح المقصود بالنداء)[2]

٢ - دلالتها على الكمال قال تعالى:﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ﴾[3] ومعناه : (أن ذلك الكتاب هو الكتاب الكامل ، كأنّ ماعداه من الكتب في مقابلته ناقص ، وأنّه الكتاب الذي يستأهل أن يسمى كتاباً ، كما تقول : هو الرجل : أي الكامل في الرجولية ، الجامع لما يكون في الرجال من مرضيات الخصال وكما قال الشاعر[4] :

هُم القَوْمُ كُلُّ القَوْمِ يَاأمَّ خالدِ)[5]

٣ - وترد للغلبة (وهي أل العهدية التي غلب مصحوبها على بعض ماله معناه فصار علما بالغلبة نحو:«البيت» للكعبة (والنجم للثريا)[6]

قال تعالى:﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾[7]

قال الزمخشري:(والبيت اسم غالب للكعبة كالنجم للثريا)[8]

٤ - الاهتمام بالمسند وتوضيحه للترغيب في عملهم والحرص على طلب مايطلبون قال تعالى:﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[9]

قال أبو السعود : (وتعريف المفلحين للدلالة على أنّ المتقين هم الناس الذين بلغك أنهم المفلحون في الآخرة ، أو إشارة إلى مايعرفه كل أحد من حقيقة المفلحين وخصائصهم)[10]

---

١ - البقرة الآية ٢١ . ٢ - الكشاف ١ / ٩٦ . ٣ - البقرة جزء من الآية ٢ .

٤ - قيل للأشهب بن رميلة وقيل لحريث بن مخفض وهو عجز بيت صدره : **فإنّ الذي حانت بفلج دماؤهم**
انظر خزانة الأدب ٢/٣١٥ ، وشرح شواهد المغني للسيوطي تعليق محمد الشنقيطي ، القسم الثاني صـ٥١٧

٥ - الكشاف ١ / ٤٢ - ٤٣ ٦ - المعجم المفصل في علوم اللغة ١ / ٨٦

٧ - البقرة جزء من الآية ١٢٥ ٨ - الكشاف ١ / ١٨٤

٩ - البقرة الآية ٥ . ١٠ - تفسير أبو السعود ١ / ٦١

٥ - وتأتي للدلالة على شناعة العدوان،وقبحه للتنفير منه ، وذم فاعليه قال تعالى:﴿ ويَقتلُونَ النَّبيّينَ بغَيْرِ الْحَقّ ﴾[١]

فعرف الحق هنا لزيادة التشنيع على أولئك القوم لقبح العدوان بالباطل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وإلاّ فكل قتل حصل للأنبياء فهو بغير حق لامتناع أن يأتوا أمراً يستحقوا عليه القتل لعصمتهم[٢]

وأكتفي بهذه الإشارة لأغراض (أل) وليس المقام مقام حصر ، وإلاّ فهي مادة خصبة يجر البحث فيها بعضه بعضا ، ولباحث أن يفردها في مصنف خاص .

وسيكشف البحث تحليلا لتقديم المحلى بأل على المسند الفعلي ، وأظهر شاهدين في البقرة قوله تعالى:﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ .. ﴾[٣]

وقوله سبحانه ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ .. ﴾[٤] والقول في أحدهما مغنٍ عن الآخر،لتماثل التركيب في الآيتين .

قال تعالى:﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٥]

قوله «والمطلقات يتربصن» (بيان للعدة)[٦] (وظاهر هذه الآية شمولها لجميع

---

١ - البقرة جزء من الآية ٦١

٢ - انظر البحر المحيط ١ / ٣٩٩ ، والنظم القرآني في سورة البقرة ص ٧١

٣ - البقرة جزء من الآية ٢٢٨ .

٤ - البقرة جزء من الآية ٢٣٣ .

٥ - البقرة الآية ٢٢٨ وسيأتي ذكر لها في تقديم المسند (ولهن مثل الذي عليهن)

٦ - كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزيء الكلبي ، ت / محمد عبدالمنعم التونسي ، وإبراهيم عطوة عوض (القاهرة : أم القرى ، د.ت) ١ / ١٤٤

المطلقات ، لكنه بين في آيات أخر خروج بعض المطلقات من هذا العموم ، كالحوامل المنصوص على أنّ عدتهن وضع الحمل في قوله :﴿ وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾[1] وكالمطلقات قبل الدخول المنصوص على أنهن لا عدة عليهن أصلا بقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴾[2]

أما اللواتي لايحضن لكبر أو صغر، فقد بيّن أنّ عدتهن ثلاثة أشهر)[3] في قوله : ﴿ وَاللاَّئِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللاَّئِي لَمْ يَحِضْنَ ﴾[4]

والتعريف في المطلّقات تعريف الجنس ، واختلف في إفادته ، فمن يرى أن المطلقات لفظ عام لامخصص له كابن عاشور ، فتعريف الجنس عنده مفيد للاستغراق لايصلح لغيره[5]، وليس للاستغراق لمن يرى أن اللفظ عام مخصوص كالزمخشري[6]، والألوسي[7]، وابن جزيء[8]، والشنقيطي[9]، والمترجح لدى الباحث أنّها ليست للاستغراق لوجود المخصص لهذه الآية كما مر آنفا هذا أولاً ، وثانياً : (لأن دلالة العام[10] ليست دلالة المطلق[11] ، ولا لفظ العام مطلق في تناول الجنس، بل يتناول كل فرد فرد ، ويستغرق الأفراد)[12]

١ - الطلاق جزء من الآية ٤ ٢ - الأحزاب الآية ٤٩

٣ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (القاهرة : مكتبة ابن تيمية ، ١٤١٣هـ) ١ / ١٢٩ .

٤ - الطلاق جزء من الآية ٤ ٥ - انظر التحرير والتنوير ١ / ٣٨٩ ٦ - انظر الكشاف ١ / ٢٦٧

٧ - انظر روح المعاني ١ / ٥٢٥ ٨ - انظر كتاب التسهيل ١ / ١٤٤ ٩ - انظر أضواء البيان ١ / ١٢٩

١٠ - العام هو (اللفظ المستغرق لما يصلح له بحسب وضع واحد) انظر البلبل في أصول الفقه لابن عبدالقوي الطوفي (الرياض : مكتبة الامام الشافعي ، ط / ٢ ، ١٤١٤هـ) صـ ٩٧ .

١١ - المطلق : هو اللفظ الدال على ذات بلا قيد كقوله سبحانه «فتحرير رقبة مومنة» انظر إمتاع العقول بروضة الأصول لعبد القادر بن شيبة الحمد ، ط / ١ ، ١٣٨١هـ) ١ / ١٥٦ .

١٢ - البحر المحيط ١ / ١٩٦

وقوله «يتربصن» (تربص به تربصا أي انتظر به خيراً،أو شراً يحل به)[1] وذكر الفيروز أبادي أن تربص ترد في القرآن لثمانية أمور[2] ، وهذه الثمانية وإن اختلفت في نوعها إلاّ أنّها عند التأمل ترجع لحقيقة واحدة وهي دلالتها على انتظار تعقبه نتيجة (ويقار بها في المعنى الترصد،والترقب،والتنظُّر ، والتطلع)[3]

والمعنى الذهني القريب لـ « يتربصن بأنفسهن » (هو أن ينتظرن دون زواج جديد،حتى تنقضي ثلاث حيضات،أو حتى يطهرن منها ... ولكن التعبير القرآني يلقى ظلالا أخرى بجانب ذلك المعنى الذهني .. إنّه يلقي ظلال الرغبة الدافعة إلى استئناف حياة زوجية جديدة ، رغبة الأنفس التي يدعوهن إلى التربص بها ، والإمساك بزمامها ، مع التحفز ، والتوفز الذي يصاحب صورة التربص ، وهي حالة طبيعية ، تدفع إليها رغبة المرأة أن تثبت لنفسها ولغيرها أنّ إخفاقها في حياة الزوجية لم يكن لعجز فيها أو نقص ، وأنّها قادرة على أنّ تجتذب رجلاً آخر،وأن تنشيء حياة جديدة، هذا الدافع لايوجد بطبيعته في نفس الرجل، لأنّه هو الذي طلق، بينما يوجد بعنف في نفس المرأة لأنّها هي التي وقع عليها الطلاق .. وهكذا يصور القرآن الحالة النفسية من خلال التعبير ، كما يلحظ هذه الحالة ويحسب لها حسابا)[4] وهذا يوضح لنا تقييد التربص بقوله (بأنفسهن) وتركه في الآية السابقة في قوله : ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾[5] وماذاك إلاّ (لتحريض النساء على التربص ، لأنّ الباء للتعدية فيكون المأمور به أن يقمعن أنفسهن،ويحملنها على الانتظار،وفيه إشعار بكونهن مائلات إلى الرجال وذلك مما يستنكفن منه ، فإذا سمعن هذا (تربصن) وهذا بخلاف الآية السابقة فإن المأمور فيها -بالتربص- الأزواج وهم وإن كانوا طامحين إلى النساء لكن ليس لهم استنكاف منه،فذكر -الأنفس- فيها لايفيد تحريضهم على التربص)[6]

١ - بصائر ذوي التمييز ٢ / ٣٣٠ .
٢ - انظر المصدر نفسه ٢ / ٣٣٠ .
٣ - انظر بصائر ذوي التمييز ٢ / ٣٣١
٤ - في ظلال القرآن ١ / ٢٤٥ - ٢٤٦
٥ - ونص الآية ﴿لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ البقرة ٢٢٦ .
٦ - روح المعاني ١ / ٥٢٦ .

وقوله:« ثلاثة قروء » أتى بقروء على صيغة الكثرة،وكان القياس ذكر القرء بصيغة القلة التي هي أقراء لأنّهم (يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية .. ولعل القروء كانت أكثر استعمالا في جمع قرء من الأقراء ، فأوثر عليه تنزيلا لقليل الاستعمال منزلة المهمل)[1] وقال الألوسي : (ولعل النكتة المرجحة لاختياره هاهنا ، أنّ المراد بالمطلقات هاهنا جميع المطلقات ذوات الأقراء الحرائر وجميعها متجاوز فوق العشرة ، فهي مستعملة مقام جمع الكثرة ولكل واحدة منها ثلاثة أقراء فيحصل في الأقراء الكثرة فحسن أن يستعمل جمع الكثرة في تمييز الثلاثة تنبيها على ذلك ، وهذا كما استعمل أنفسهن مكان نفوسهن للإشارة إلى أن الطلاق ينبغي أن يقع على القلة)[2] وهي فذلكة حسنة منه رحمه الله .

وفي تخصيص هذه المدة بين الزوجين بثلاثة قروء حكمة عظيمة وهي (أنّها فترة معقولة يختبر فيها الزوجان عواطفهما بعد الفرقة،فقد يكون في قلوبها من ود يستعاد،وعواطف تستجاش ، ومعان غلبت عليها نزوة أو غلطة أو كبرياء ، فإذا سكن الغضب ، وهدأت الشرة واطمأنت النفس ، استصغرت تلك الأسباب التي دفعت إلى الفراق،وبرزت معان أخرى واعتبارات جديدة ، وعاودها الحنين إلى استئناف الحياة ، أو عاودها التجمل رعاية لواجب من الواجبات ، والطلاق أبغض الحلال إلى الله ، وهو عملية بقر لا يلجأ إليها إلا حين يخيب كل علاج)[3]

هذا وإنكّ لتلمح في سياق هذه الآية سراً في تركيبها،وروعة في تعبيرها (فجملة والمطلقات يتربصن ، خبرية مراد بها الأمر، فالخبر مستعمل في الإنشاء،وهو مجاز فيجوز جعله مجازا مرسلا مركبا ، باستعمال الخبر في لازم معناه وهو التقرر

---

١ - الكشاف ١ / ٢٦٨ - ٢٦٩

٢ - روح المعاني ١ / ٥٢٨ .

٣ - في ظلال القرآن ١ / ٢٤٦

والحصول ، وهو الوجه الذي اختاره التفتازاني في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾[1] بأن يكون الخبر مستعملاً في المعنى المركب الإنشائي ، بعلاقة اللزوم بين الأمر مثلا كما هنا ، وبين الامتثال ، حتى يقدر المامور فاعلا فيخبر عنه ويجوز جعله مجازاً تمثيلياً كما اختاره الزمخشري في هذه الآية)[2] إذ يقول (فإن قلت : فما معنى الإخبار عنهن بالتربص ؟ قلت : هو خبر في معنى الأمر ، وأصلح الكلام[3] : وليتربص المطلقات ، وإخراج الأمر في صورة الخبر تأكيد للأمر ، وإشعار بأنّه مما يجب أن يتلقى بالمسارعة إلى امتثاله ، فكأنهنّ امتثلن الأمر بالتربص، فهو يخبر عنه موجوداً ونحوه قولهم في الدعاء: رحمك الله، أخرج في صورة الخبر ثقة بالاستجابة ، كأنما وجدت الرحمة فهو يخبر عنها)[4]

قال التفتازاني : فهو تشبيه ماهو مطلوب الوقوع بما هو محقق الوقوع في الماضي،كما في قول الناس : رحمه الله ، أو في المستقبل أو الحال كما في هذه الآية)[5] .

(وبناء الفعل يتربصن على المبتدأ - والمطلقات - مما زاده أيضاً فضل تأكيد لما فيه من إفادة التقوي على أحد الطريقين المنقولين عن الشيخ عبدالقاهر والسكاكي ، ولو قيل : ويتربصن المطلقات لم يكن بتلك الوكادة ، لأنّ الجملة الأسمية تدل على الثبات والدوام بخلاف الفعلية)[6]

ويعقب أبو حيان على هذا قائلاً : (وهو كلام حسن وإنما كانت الجملة الابتدائية فيها زيادة توكيد على جملة الفعل والفاعل ، لتكرار الاسم فيها مرتين إحداهما : بظهوره والأخرى بإضماره ، وجملة الفعل والفاعل يذكر فيها الاسم مرة واحدة)[6] .

---

١ - الزمر جزء من الآية ١٩
٢ - التحرير والتنوير ١ / ٣٨٨
٣ - لعلها وأصل الكلام وبها يستقيم المعنى .
٤ - الكشاف ١ / ٢٦٧
٥ - التحرير والتنوير ٢ / ٣٨٨ - ٣٨٩
٦ - انظر الكشاف ١ / ٢٦٧ ، وروح المعاني ١ / ٥٢٦ ، وتفسير النسفي ١ / ١٢٦
٧ - البحر المحيط ٢ / ١٩٦ .

المبحث الثاني

تقديم المسند إليه على الخبر المشتق

- مدخـــــل .

- المطلب الأول : تقديم العلم « لفظ الجلالة » .

- المطلب الثاني : تقديم المضمرات .

أ - تقـديم ضمـــير المتكلم .

ب - تقديم ضمير المخاطب .

ج - تقـديم ضمـــير الغائب .

(الاشتقاق أخذ صيغة من أخرى، مع اتفاقهما معنى ومادة أصلية وهيئة تركيب لها ، ليدل بالثانية على معنى الأصل ، بزيادة مفيدة لأجلها اختلفا حروفا أو هيئة ، كضارب من ضرب ، فَضَرْبٌ دال على مطلق الضرب فقط ، أمّا ضارب ، ومضروب، ويضرب ، واضرب ، فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفاً ، وضَرَبَ الماضي مساوٍ حروفاً وأكثر دلالة ، وكلها مشتركة في « ض ر ب » وفي هيئة تركيبها ، وهذا هو الاشتقاق الأصغر المحتج به ، وأما الأكبر فيحفظ فيه المادة دون الهيئة)[1]

أي تتحد فيه الكلمات في الحروف وتختلف في الترتيب ويعرف باسم القلب ، وقد ابتدعه ابن جنّي ، قال في الخصائص :

(وإنّما التلقيب لنا نحن وستراه فتعلم أنّه لقب مستحسن ، وذلك أنّ الاشتقاق عندي على ضربين : كبير وصغير ...

وأمّا الاشتقاق الأكبر، فهو أن تأخذ أصلاً من الأصول الثلاثية فتعقد عليه وعلى تقاليبه الستة معنى واحدا ، تجتمع التراكيب الستة ومايتصرف من كل واحد منها عليه نحو : (ق و ل) (ق ل و) (و ق ل) (و ل ق) (ل ق و) (ل و ق)

فقد عقد ابني جني هذه التقاليب الستة كلها على الإسراع والخفة)[2]

وهذا القسم (ليس معتمداً في اللغة ولايصح أن يستنبط به اشتقاق في لغة

١ - انظر المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ت محمد أحمد جاد المولى وعلي البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم (بيروت :دار الجيل ، د.ت) ١ / ٣٤٦ - ٣٤٧ .

٢ - انظر الخصائص لابن جني ٢ / ١٣٣ - ١٣٤

العرب ، وإنّما جعله أبو الفتح بيانا لقوة ساعده ورده المختلفات إلى قدر مشترك مع اعترافه وعلمه بأنّه ليس هو موضوع تلك الصيغ)[١]

والذي يهمنا في هذه الإضاءة هو الاشتقاق الصغير ، لأنّ كل خبر يرد في هذا المبحث منه (والاسماء المشتقة عشرة أنواع :

أ - اسم الفاعل
ب - اسم المفعول
ج - الصفة المشبهة
د - اسم التفضيل
هـ - اسم المبالغة
و - اسم الزمان
ز - اسم المكان
ح - اسم الآلة
ط - المصدر الميمي
ي - مصدر الفعل فوق الثلاثي المجرد نحو دحرجة)[٢]

---

١ - المزهر في اللغة ١ / ٣٤٧
٢ - انظر المعجم المفصل في علوم اللغة ٢ / ٥٧٤

المطلب الأول : تقديم العلم (لفظ الجلالة) :

قال تعالى:﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[1]

(هذه الآية مؤخرة في التلاوة ، مقدمة في المعنى ، لأن السبب في الأمر بذبح البقرة قتل النفس ، فتقدير الكلام : وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ، فسألتم موسى فقال:﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً ﴾[2] ونظيرها قوله تعالى:﴿ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ قَيِّمًا ﴾[3] أراد أنزل الكتاب قيماً ، ولم يجعل له عوجا ، فأخر المقدم وقدم المؤخر ، لأنه من عادة العرب ... قال جرير :

طافَ الخيالُ وأينَ منكَ لِماما   فارجعْ لزورِكِ بالسَّلامِ سَلامَا[4]

أراد : طاف الخيال لماما ، وأين هو منك)[5]

ويعلل الزمخشري لمجيء القصة على هذا الترتيب تعليلاً جميلا فيقول : (فإن قلت : فما للقصة لم تقص على ترتيبها ، وكان حقها أن يقدم ذكر القتيل والضرب ببعض البقرة على الأمر بذبحها ، وأن يقال : وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها فقلنا اذبحوا بقرة واضربوه ببعضها ؟

قلت : كل ماقص من قصص بني اسرائيل إنما قص تعديداً لما وجد منهم من الجنايات ، وتقريعا لهم عليها ولما جدّد فيهم من الآيات العظام ، وهاتان قصتان كل واحدة منهما مستقلة بنوع من التقريع ، وإن كانتا متصلتين متّحدتين ، فالأولى لتقريعهم على الاستهزاء وترك المسارعة إلى الامتثال ومايتبع ذلك ، والثانية

---

١ - البقرة الآية ٧٢

٢ - البقرة جزء من الآية ٦٧

٣ - الكهف جزء من الآيتين ١ ، ٢

٤ - هذا البيت مطلع قصيدة لجرير يهجو بها الفرذدق والبعيث ، انظرديوان جرير ، صـ ٤٤٤ .

٥ - انظر زاد المسير ١ / ١٠٠ - ١٠١ .

للتقريع على قتل النفس المحرمة ومايتبعه من الآية العظيمة ، وإنّما قدمت قصة الأمر بذبح البقرة على ذكر القتيل لأنّه لو عمل على عكسه لكانت قصة واحدة ، ولذهب الغرض في تثنية التقريع)[1] بَيدَ أن القول بتأخير هذه الآية تلاوة مع سبقها في الوقوع لم يرق لأبي حيان فرده قائلاً : (ويجوز أن يكون ترتيب وجودهما ونزولهما على حسب تلاوتهما ، فيكون الله تعالى قد أمرهم بذبح البقرة فذبحوها وهم لايعلمون بماله تعالى فيها من السر ، ثم وقع بعد ذلك أمر القتيل فأظهر لهم ما كان أخفاه عنهم من الحكمة ، بقوله:﴿ اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ﴾ ولا شيء يضطرنا إلى اعتقاد تقدم قتل القتيل ، ثم سألوا عن تعيين قاتله إذ كانوا قد اختلفوا في ذلك فأمرهم الله تعالى بذبح البقرة ، فيكون الأمر بالذَّبح متقدما في النزول والتلاوة متأخراً في الوجود ، ويكون قتل القتيل متأخراً في النزول والتلاوة متقدماً في الوجود ، ولا إلى اعتقاد كون الأمر بالذبح ومابعده مؤخراً في النزول متقدما في التلاوة والإخبار عن قتلهم مُقدّما في النزول متأخراً في التلاوة ، دون تعرض لزمان وجود القصتين ، وإنّما حمل من حمل على خلاف الظاهر اعتبار ماروروا من القصص الذي لايصح إذ لم يرد به كتاب ولا سنة ، ومتى أمكن حمل الشيء على ظاهره كان أولى، إذ العدول عن الظاهر إلى غير الظاهر إنما يكون لمرجح ولا مرجح، بل تظهر الحكمة البالغة في تكليفهم أولاً ذبح البقرة هل يمتثلون ذلك أم لا ؟ وامتثال التكاليف التي لايظهر فيها ببادىء الرأي حكمة، أعظم من امتثال ماتظهر فيه حكمة ، لأنّها طواعية صرف وعبودية محضة واستسلام خالص بخلاف ماتظهر له حكمة ، فإنّ في العقل داعية على امتثاله وحضا على العمل به)[2]

وماذكره أبو حيان على وجاهته وقوة حجته،إلا أنّه خلاف المشهور عند المفسرين وهو أنّ القتل وقع أولاً فسألوا عن القاتل فأمروا أن يذبحوا بقرة ، وقد أكّد ذلك ابن جرير الطبري بعد ماساق أسانيد أوصلها إلى ابن عباس ومجاهد وأبو العالية

---

١ - الكشاف ١ / ١٥٥ - ١٥٦

٢ - البحر المحيط ١ / ٤٢٤

وغيرهم قال : (إلاّ أنّهم جميعا مجمعون على أنّ موسى إنّما أمرهم بذبح البقرة من أجل القتيل ، إذ احتكموا إليه عن أمر الله إياهم بذلك فقالوا له : وماذبح البقرة يبين لنا خصومتنا التي اختصمنا فيها إليك في قتل من قتل ، فادعى على بعضنا أنه القاتل أتهزأ بنا ؟)[1]

وهذه الآثار التي أوردها ابن جرير من أخبار بني اسرائيل ليس هناك داع لردها إذ ليس فيها مايخالف آية أو حديث ولم يُبن عليها تشريع ، وإنّما ذكرت للاستشهاد بها على صحة ماذهبوا إليه من التقديم والتأخير، ناهيك عن أنّه أسلوب من أساليب اللغة العربية تنزّل به القرآن، والذي يبدو لي أنّ الذي حدا بأبي حيان أن يقول قوله هو تعقبه الشديد للزمخشري ورده عليه في كثير من القضايا التي يوردها لعل هذه إحداها .. يدفعه إلى ذلك موقفه الرافض لعقيدة الزمخشري الاعتزالية .. وإن كنا جميعا نرفض هذا المعتقد إلاّ أنّ هذا الرفض لايقف حائلا دون الاستفادة من لفتاته البلاغية العميقة بل واستحسانها .

قوله:« وإذ قتلتم نفسا »

(أي شخص أو ذا نفس)[2] ونسب القتل إلى الجمع (إمّا لأنّ القاتلين جمع وهم ورثة المقتول ، وقد نقل أنّهم اجتمعوا على قتله، أو لأنّ القاتل واحد،ونسب ذلك إليهم لوجود ذلك فيهم على طريقة العرب في نسبة الأشياء إلى القبيلة إذا وجد من بعضها مايذم به أو يمدح)[3] ومنه قول النابغة الذبياني:

وَهُم قَتَلوا الطّائي بالحَجْرِ عَنْوَةً   أبَا جَابرٍ واسْتَنكَحُوا أمَّ جَابرِ[4]

---

١ - جامع البيان ١ / ٣٤٠   ٢ - روح المعاني ١ / ٢٩٢

٣ - البحر المحيط ١ / ٤٢٤ .

٤ - البيت من قصيدة للنابغة يمدح فيها بني حنّ ومطلع القصيدة

لقد قلت للنعمان يوم لقيته   يريد بني حُنّ ببرقة صادر

انظر ديوانه بشرح عباس عبدالساتر (بيروت : دار الكاتب العلمية ، ط ١، ١٤٠٥هـ) ص ٨٠ .

وقوله:« فادّارأتم فيها » (أي فاختلفتم،واختصمتم في شأنها)[١](وأصله تدارأتم من الدرء وهو الدفع ، فاجتمعت التاء والدال مع تقارب مخرجيهما،وأريد الإدغام فقلبت التاء دالاً،وسكنت للإدغام،فاجتلبت همزة الوصل لئلا يبتدأ بساكن)[٢]

والتدارؤ هنا يحتمل أن يراد به الحقيقة أو المجاز ، فالحقيقة أن يدفع بعضهم بعضا بالأيدي لشدة الاختصام ، والمجاز أن يطرح كل منهما القتل على صاحبه)[٣] ولامانع من إرادتهما جميعا في آن واحد في مثل هذا الحدث وملابساته والمجازيُّ فيه أظهر .

وقوله:« والله مخرج ماكنتم تكتمون» :

(أي مظهر لامحالة ماكنتم تكتمونه من أمر القتيل والقاتل)[٤]

وفي تقديم لفظ الجلالة وبناء اسم الفاعل عليه ، تقوية للحكم الذي سيق من أجله الكلام وتوكيده ، فمهما تكتمون من أمر فإنّ الله مخرجه لامحالة ، والتعبير باسم الفاعل مشعر للمخاطبين بثبات الحكم عليهم واستمراره ، فلا فائدة ترجى من الكتمان إن كان ثمّة من يكشفه وينشره أبدا .. وجاء اسم الفاعل معملا ولم يضف ، وإن كان من حيث المعنى ماضيا ، لأنّه حكى ماكان مستقبلا وقت التدارؤ كما أعمل ﴿ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ ﴾[٥] لأنه حكاية حال ماضية ، ودخلت كان هنا ليدل على تقدم الكتمان[٦] .

---

١ - الكشاف ١ / ١٥٤ ٢ - روح المعاني ١ / ٢٩٢ ٣ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٢٤

٤ - روح المعاني ١ / ٢٩٢ ٥ - سورة الكهف جزء من الآية ١٨

٦ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٢٤ ، وتفسير البيضاوي ١ / ٦٩

المطلب الثاني : تقديم الضمير :

أولا : تقديم ضمير المتكلم :

قال تعالى : ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾(١)

هذه الآية آية من مقطع أتى في سبع آيات ، أربع منها مختومة بقوله سبحانه: ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(٢) ، وقوله سبحانه:﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾(٣) ، وقوله:﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴾(٤) ونلحظ في هذه الألفاظ تكثيفا لحقيقة عظمى عالجها القرآن كثيرا في سوره المدنيه التي تعنى بالتشريع والأحكام كهذه السورة ، ناهيك عن سوره المكية ... هذه الحقيقة محور من أهم المحاور التي تنطلق منه الجماعة المسلمة ، وركيزة من أعظم الركائز التي يقوم عليها بناء الأمة الإسلامية صلبا متماسكا ... وهي وإن اختلفت ألفاظها مسلمون ، عابدون ، مخلصون إلاّ أنّ مصبَّها واحد،وتقرر حقيقة واحدة هي (تقرير وحدة دين الله ، واطراده على أيدي رسله جميعا ، ونفي فكرة احتكاره في أيدي أمة أو جنس ، وبيان أنّ العقيدة تراث القلب المؤمن لاتراث العصبية العمياء ، وأنّ وراثة هذا التراث لاتقوم على قرابة الدم والجنس،ولكن على قرابة الايمان والعقيدة ، فمن آمن بهذه العقيدة،ورعاها في أي جيل ومن أي قبيل فهو أحق بها من أبناء الصلب وأقرباء العصب، فالدين دين الله وليس بين الله وبين أحد من عباده نسب ولاصهر.. فإسلام الوجه لله وحده كان هو الرسالة الأولى ، وكان هو الرسالة الأخيرة .. هكذا اعتقد ابراهيم ، وهكذا اعتقد من بعده إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، حتى أسلموا هذه العقيدة ذاتها إلى موسى وعيسى .. ثم آلت أخيراً إلى ورثة إبراهيم من المسلمين .. فمن استقام على هذه العقيدة الواحدة فهو وريثها ، ووريث عهودها وبشاراتها ، ومن فسق عنها ورغب بنفسه عن ملة إبراهيم فقد فسق عن عهد الله ، وقد فقد وراثته لهذا العهد وبشاراته)(٥)

---

١ - البقرة الآية ١٣٨ . ٢ - البقرة جزء من الآية ١٣٣ ، ١٣٦ ٣ - البقرة جزء من الآية ١٣٨ .

٤ - البقرة جزء من الآية ١٣٩ . ٥ - انظر في ظلال القرآن ١ / ١١١ .

قوله تعالى: ﴿ صِبْغَةَ اللَّهِ ﴾

اختلف أهل التأويل في تأويل «صبغة» على أقوال متقاربة،وكلها تدخل تحت معنى دين الله وفطرته.(١)

(والصبغة هنا اسم للماء الذي يغتسل به اليهود عنوانا على التوبة لمغفرة الذنوب، والأصل فيها عندهم الاغتسال الذي جاء فرضه في التوراة على الكاهن إذا أراد تقديم قربان كفارة عن الخطيئة عن نفسه، أو عن أهل بيته .. وعند النصارى الصبغة أصلها التطهر في نهر الأردن، وهو اغتسال سنه النبي يحيى بن زكريا لمن يتوب من الذنوب،فقد كان يحيى يعظ بعض الناس بالتوبة، فإذا تابوا أتوه فيأمرهم بأن يغتسلوا في نهر الأردن رمزا للتطهر الروحاني، وكانو يسمون ذلك «معموذيت» بذال معجمة وبتاء فوقية في آخره ، ويقولون أيضا معموذيتا بألف بعد التاء ، وهي كلمة من اللغة الآرامية معناها الطهارة ، وقد عربه العرب فقالوا معمودية بالدالة المهملة وهاء تأنيث في آخره وياؤه التحتية مخففة .. وإطلاق الصبغة على ماء المعمودية أو على الاغتسال به استعارة مبنية على تشبيه وجهه تخييلي ، إذ تخيلوا أنّ التعميد يكسب المعمد به صفة النصرانية ويلونه بلونها ، كما يلون الصبغ ثوباً مصبوغاً ، وقريب منه إطلاق الصبغ على عادة القوم وخلقهم)(٢)

وفي قوله:«صبغة الله» رد على اليهود والنصارى معا ، أمّا اليهود فلأنّ الصبغة نشأت بينهم ، وأما النصارى فلأنّها سنّة مستمرة فيهم إذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قال : الآن صار نصرانيا حقاً ، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم : قولوا آمنا بالله،وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا ، وطهرنا به تطهيراً لامثل تطهيرنا أو يقول المسلمون صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم ، وإنما جيء بلفظ

١ - انظر جامع البيان ١ / ٥٧٠ - ٥٧١ ، والبحر المحيط ١ / ٥٨٣

٢ - انظر التحرير والتنوير ١ / ٧٤٣ - ٧٤٤

الصبغة على طريقة المشاكلة ، كما تقول لمن يغرس الأشجار : اغرس كما يغرس فلان تريد رجلا يصطنع الكرم.[1]

وقوله:﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً ﴾

(هذا استفهام ومعناه النفي ، أي ولا أحد أحسن من الله صبغة و (أحسن) هنا لايراد بها حقيقة التفضيل ، إذ صبغة غير الله منتف عنها الحسن ، أو يراد التفضيل باعتبار من يظن أنّ في صبغة غير الله حسنا ، لا أنّ ذلك بالنسبة إلى حقيقة الشيء)[2]

وقوله :﴿ وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾

(أي موحدون أو مطيعون متبعون ملة ابراهيم ، وتقديم الجار[3] لإفادة اختصاص العبادة له تعالى ، وتقديم المسند إليه لإفادة قصر ذلك الاختصاص عليهم، وعدم تجاوزه إلى أهل الكتاب ، فيكون تعريضا لهم بالشرك أي لانشرك به كشرككم)[4] كما في التقديم إشعار بشرف الانتساب لهذه العبودية الحقة وأنّها منهجهم،وطريق سيرهم في الحياة وإيثار الاسمية بالخبر للإشعار بدوام العبادة .

ثانياً : ضمير المخاطب :

قال تعالى:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾[5]

قوله:﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾

---

١ - انظر التحرير والتنوير ١ / ٧٤٤ ، والكشاف ١ / ١٩٥ ٢ - البحر المحيط ١ / ٥٨٤

٣ - تقديم الجار سيأتي بحثه إن شاء الله تعالى في تقديم المتعلق على عامله وإيراده هنا لأنّ السياق يتطلبه .

٤ - انظر روح المعاني ١ / ٣٩٥ . ٥ - البقرة الآية ٨٣ .

« أخذ » يرد في القرآن لعدة معان ، والأصل فيه أنّه لتناول الشيء وتحصيله[1] ، وأغلب مايرد في القرآن في سياقات دلالتها تنبيء عن القوة والشدة والبطش والقهر أو ماكان مقارباً لها قال تعالى ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾[2] قال ابن كثير : (وكما أهلكنا أولئك القرون الظالمة المكذبة لرسلنا كذلك نفعل بأشباههم وفي الصحيحين[3] عن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إنّ الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ رسول الله ﷺ « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة)[4] وقال سبحانه ﴿ وأخذ الذين ظلموا الصيحة ﴾[5]

وقال سبحانه على لسان إخوة يوسف ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾[6] أي (استعبده)[7] وقال تعالى : ﴿ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ﴾[8] وقال تعالى ﴿ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ﴾[9] (أي حرصوا على قتله بكل ممكن)[10] وقال سبحانه ﴿ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾[11] (أي أهلكتهم على ماصنعوا من هذه الآثام والذنوب العظام)[12] (وحينما نتدبر كلا من القول « أخذنا » والقول « ميثاق » نتبين أنهما قولان متكافئان في القوة المعنوية ، فلو أنّا نظرنا إلى جملة أخذ من الوجهة اللغوية واستعمالاتها ، لتبينا أنّها تفيد التناول وهو خلاف العطاء وفي هذا التناول شيء كبير من القوة والشدة، لاسيما وقد أسند الفعل إلى نون العظمة العائدة إلى الله سبحانه ، وفي الضمير تقوية لعملية الأخذ ، فإذا تحولنا إلى لفظة

---

١ - انظر بصائر ذوي التمييز ٢ / ١٠٤
٢ - هود جزء من الآية ١٠٢
٣ - رواه البخاري في كتاب التفسير باب (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة) برقم ٤٦٨٦ ، ومسلم في كتاب البر والصلة باب « تحريم الظلم » برقم ٢٥٨٣
٤ - تفسير ابن كثير ٢ / ٧١٠ .
٥ - هود جزء من الآية ٦٧ .
٦ - يوسف جزء من الآية ٧٨
٧ - تفسير الجلالين ، لجلال الدين المحلي ، وجلال الدين السيوطي ، راجعه أحمد محمد شاكر ، وعلي محمد شاكر (مصر : دار المعارف ، د.ت) ١ / ٢٩١
٨ - النازعات الآية ٢٥ .
٩ - غافر جزء من الآية ٥
١٠ - تفسير ابن كثير ٤ / ١٠٨ .
١١ - غافر جزء من الآية ٥ .
١٢ - تفسير ابن كثير ٤ / ١٠٨ .

الميثاق تبينا أن الميثاق هو العهد المؤكد بيمين أو غيره ، وهذا معناه أنّ بني اسرائيل إنما أخذ الله تعالى عليهم عهداً مؤكداً ، والتقدير كما ذهب إلى ذلك سيبويه : وإذا استحلفناكم والله لاتعبدون إلا الله[1]،فثمة تكافؤ بين العهد المؤكد،وبين التناول الشديد)[2]

(والميثاق مفعال من التوثق باليمين ونحوها من الأمور التي تؤكد القول)[3] وهذا الذي أخذ على بني اسرائيل (قد تضمن القواعد الثابتة لدين الله ، هذه القواعد التي جاء بها الاسلام أيضا ، فتنكروا لها وأنكروها ، لقد تضمن ميثاق الله معهم : ألا يعبدوا إلا الله ... القاعدة الأولى للتوحيد المطلق ، وتضمن الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين ، وتضمن خطاب الناس بالحسنى ، وفي أولها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. كذلك تضمن فريضة الصلاة وفريضة الزكاة ، وهذه في مجموعها هي قواعد الإسلام وتكاليفه ... ومن ثم تتقرر حقيقتان : الأولى : هي وحدة دين الله ، وتصديق هذا الدين الأخير لما قبله في أصوله ، والثانية : هي مقدار التعنت في موقف اليهود من هذا الدين ، وهو يدعوهم لمثل ماعاهدوا الله عليه ، وأعطوا عليه الميثاق)[4]

وقوله:﴿ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾*

« لاتعبدون » (إخبار في معنى النهي كما تقول : تذهب إلى فلان تقول له كذا تريد الأمر ، وهو أبلغ من صريح الأمر والنهي ، لأنه كأنه سورع إلى الامتثال والانتهاء ، فهو يخبر عنه ، وتنصره قراءة عبدالله ، وأبي (لاتعبدوا) ويدل عليه أيضا قوله « وقولوا »)[5] في الآية نفسها .

---

١ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٥٠

٢ - انظر تأملات في سورة البقرة للدكتورحسن محمد باجودة (مصر:دار مصر للطباعة ، ط١٤١٠،١هـ)١/٤٤٦

٣ - جامع البيان ١ / ٣٨٨ ٤ - في ظلال القرآن ١ / ٨٧

* (وبالوالدين إحساناً) سوف يأتي بحثها إن شاء الله في تقديم المتعلقات ، انظر صـ ٣٢٧ .

٥ - الكشاف ١ / ١٥٩ - ١٦٠ .

ويوجه ابن المنير الاسكندري في حاشيته الانتصاف كلام الزمخشري فيقول : (وجه الدليل منه أنّ الأول لو لم يكن في معنى النهي لما حسن عطف الأمر عليه ، لما بين الأمر والخبر المحض من التنافر ، ولا كذلك الأمر والنهي لالتقائهما في معنى الطلب)[1]

ويلحظ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله:« تعبدون» (وحكمته الإقبال عليهم بالخطاب ليكون أدعى للقبول وأقرب للامتثال ، إذ فيه الإقبال من الله على المخاطب بالخطاب .

كما يلحظ الالتفات في قوله سبحانه : « إلا الله »

إذ خرج فيه من ضمير المتكلم إلى الاسم الغائب، ألا ترى أنّه لو جرى علي نسق واحد لكان نظم الكلام لاتعبدون إلا إيّانا لكن في العدول إلى الاسم الظاهر من الفخامة ، والدلالة على سائر الصفات ، والتفرد بالتسمية به ماليس في المضمر ولأن ماجاء بعده من الأسماء إنما هي أسماء ظاهرة تناسب مجاورة الظاهر الظاهر)[2]

وقوله سبحانه:﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾

« ثم توليتم » أي (أعرضتم عن الميثاق ورفضتموه)[3] والإعراض والتولى قيل بمعنى واحد ، ومنهم من فرق بينهما فقال الإعراض بالقلب والتولي بالجسم[4] .

« إلا قليلاً منكم » (إنصاف لهم في توبيخهم ومذمتهم ، وإعلان بفضل من حافظ على العهد)[5]

﴿ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (عن الوصايا التي تضمنت ذلك الميثاق أي توليتم عن تعمد وجرأة وقلة اكترات بالوصايا ، وتركا للتدبر فيها والعمل بها)[6]

(والجملة حالية ، قالوا مؤكدة ، وهذا قول من جعل التولي هو الإعراض بعينه ،

---

١ - الانتصاف في الكشاف ١ / ١٥٩

٢ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٥١

٣ - روح المعاني ١ / ٣٠٩

٤ - انظر المصدر نفسه ١ / ٣١٠

٥ - التحرير والتنوير ١ / ٥٨٤ .

٦ - المرجع نفسه ١ / ٥٨٤ .

ومن خالف بينهما تكون الحال مبينة ، وكذلك تكون مبينة إذا اختلف متعلق التولي والإعراض كما قال بعضهم : إنّ معناه ثم توليتم عن عهد ميثاقكم وأنتم معرضون عن هذا النبي ﷺ ، وجاءت الجملة الحالية اسمية مصدرة بأنتم، لأنّها آكد، وكان الخبر اسما لأنّه أدل على الثبوت ، فكأنّه قيل : وأنتم عادتكم الإعراض عن الحق والتولي عنه ، وفي المواجهة بأنتم تقبيح لفعلهم وكونهم ارتكبوا ذلك الفعل القبيح الذي من شأنه أن لايقع، كقولك يحسن إليك زيد وأنت مسيء إليه، فكان المعنى أنّ من واثقه الله وأخذ عليه العهد في أشياء بها انتظام دينه ودنياه جدير أن يثبت على العهد وأن لاينقضه ولايعرض عنه)[1] وأنّى ليهودي هذا الثبات وكثيرة هي الآيات التي تحدثت عن عهود بني اسرائيل ومواثيقهم حتى أن كلمة « ميثاق » ومشتقاتها، موثق ، ميثاقكم، ميثاقهم، موثقهم ، ذكرت في القرآن ثماني وعشرين مرة[2]، تتحدث عن ميثاق الله المأخوذ على اليهود وتسجل عليهم نقضهم له ، وهذه ظاهرة تلفت النظر وتدل على تأصل هذا الخلق الغادر وتمكنه منهم ، وعلى مدار سنين طويلة جداً من تاريخهم الغابر لانكاد نعثر على عهد واحد وفى به اليهود ، سواء مع النصارى،أو مع المسلمين ماوجدوا سبيلاً إلى نقضه ، ولهم في ذلك خطة معروفة ذكرها هتلر في كتابه (كفاحي)[3] وهي تقسيم أنفسهم إلى فريقين ، لكي يلعبوا في كل الظروف بحبل واحد،ويبقى الحبل الآخر متصلا يسمح لهم بتكرار اللعب على الجهة المقابلة،وهذا الذي كتبه هتلر في القرن العشرين، قرره القرآن منذ أربعة عشر قرنا حين قال عنهم:﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾[4] وهو لون قديم من خداعهم، ونلحظ التعبير بكلما ، وهي تدل على أن نقض العهد عملية متكررة عند اليهود،فكل عهد يعقدونه يقومون بنقضه مهما كان الطرف الآخر

---

١ - البحر المحيط ١ / ٤٥٦

٢ - انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص ٧٤١

٣ - انظر كفاحي لهتلر(بيروت : دار الكتب الشعبية ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥م) ص ١٠ - ١١

٤ - البقرة الآية ١٠٠

الذي عقدوه معه .. قال أبو حيان : في تفسيره لهذه الآية (والهمزة للإنكار بمعنى ماكان ينبغي ، وفيه إعظام مايقدمون عليه من تكرر عهودهم ونقضها ، حتى صار سجية لهم وعادة)[1]

وياليت قومي يعلمون أن العهد عند اليهودي أشبه مايكون بضرورة مرحلية يُعقد لأجلها ، ثم ينقضه بانتهاء ظروفها ومنفعتها !! ؟

ثالثا : ضمير الغائب

قال تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ* وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾[2] قال قتادة : (هذا نعت ، نعت عبداً خائن السريرة ، كثير الأخلاف يعرف بلسانه ، وينكر بقلبه ، ويصدق بلسانه ، ويخالف بعمله ، ويصبح على حال ، ويمسى على غيره ، ويتكفأ تكفؤ السفينة ، كلما هبت ريح هب فيها)[3]

والنفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر ، وهو أنواع :

اعتقادي : وهو الذي يخلد صاحبه في النار ، وعملي وهو من كبائر الذنوب كالكذب والخيانة والغيبة، والنميمة ، والرياء وغيرها، وصاحبها تحت مشيئة الله إن شاء عذبه بعدله وإن شاء رحمه بفضله، والحديث عن النفاق والمنافقين لم يقتصر على سورة البقرة التي افتتحت بأربع آيات في صفة المؤمنين ، وآيتين في صفة الكافرين وضعفها مجتمعة في صفات المنافقين ، بل ورد في سبع عشرة سورة من السور المدنية[4] البالغ عددها ٣٠ سورة،واستغرق موضوع النفاق والمنافقين

---

١ - البحر المحيط ١ / ٣٣٤

* سوف نعرج بالحديث إن شاء الله على هذه الآية في تقديم المسند وسنكتفي هنا بالحديث على قوله «وماهم بمؤمنين»

٢ - البقرة الآية ٨

٣ - الدُّرّ المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي بيروت دار الكتب العلمية ط / ١ ، ١٤١١ هـ ١ / ٦٦

٤ - وهي البقرة ، آل عمران ، النساء ، المائدة ، الأنفال ، التوبة ، الحج ، النور ، العنكبوت ، الأحزاب ، محمد ، الفتح ، الحديد ، المجادلة ، الحشر ، المنافقون ، التحريم .

٣٤٠ آيه[١]،وماذاك إلا لبيان خطورة النفاق والمنافقين في المجتمع الإسلامي ، لأنّهم لبسوا لبوسه وتظاهروا بصفاته! على حين قلوبهم وأهوائهم مع أعداء هذا الدين .. فكان عقابهم عظيماً ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾[٢] والجزاء من جنس العمل ، وقد تحدث ابن كثير عن بداية النفاق عند تفسيره هذه الآية فقال :(نزلت صفات المنافقين في السور المدنية ، لأنّ مكة لم يكن فيها نفاق،بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكرها وهو في الباطن مؤمن، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج وكانوا في جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركي العرب ، وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم،فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبليتي الأوس والخزرج ، وقلّ من أسلم من اليهود إلا عبدالله بن سلام رضي الله عنه ، ولم يكن إذ ذاك نفاق أيضا ، لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف، بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة ، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز الإسلام وأهله ، قال عبدالله بن أبي بن سلول وكان رأساً في المدينة : هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول في الإسلام،ودخل معه طوائف ممن هو* على طريقته ونحلته ، وآخرون من أهل الكتاب،فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب)[٣]

ونفاق ابن أبي قديما،ونفاق المتسترين بالعلمنة والمجتمع المدني وغيرها ، هو هو لم يتغير جوهره وإن كان ثمة تغير في الأسلوب والتطبيق يمليه عليهم واقع المجتمع وظروفه ، وهم وإن أتقنوا فن النفاق ليتخفوا به لتحقيق إهدافهم، فإنّ القرآن بتفصيله الحديث عنهم يكشف حالهم،ويجلو عوارهم لكل ذي لب يفقه تلاوته ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[٤].

---

١ - النفاق آثاره ومناهجه للشيخ عبدالرحمن الدوسري الكويت مكتبة دار الأرقم ط / ٢ ، ١٤٠٢ هـ ص ١١٥

٢ - النساء الآية ١٤٥

٣ - انظر تفسير ابن كثير ١ / ٧٤ .

* لعل الصواب هم .

٤ - محمد الآية ٣٠ .

قوله تعالى:«وماهم بمؤمنين»

وفيه (إنكار مادعوه ونفي ماانتحلوا إثباته)(١)

وفي تقديم الضمير منفيا على الاسم المشتق ردّ علي دعوى أولئك المنافقين وأخراجهم من سلك المؤمنين ، وإن قالوا بأفواههم آمنا ، وإخراجهم من سلك المؤمنين مستلزم لنفي الإيمان الحقيقي عنهم ، وإثبات الكفر ودوامه فيهم ، ومما يلحظ من روعة الأسلوب وجمال تركيبه ، اختلاف التعبير في أدعاء الايمان على لسان المنافقين وفي نفيه عنهم ، فالمنافقون همهم منصب على فعل الإيمان ولذا جاءت الجملة فعلية مرتبطابها الزمن الماضي « آمنا بالله وباليوم الآخر » وأمّا نفي الإيمان عنهم فقد جاء منصبا على الإيمان المنفي نفيا مطلقا ، ولذا جاءت الجملة اسمية لاعلاقة لها بالزمن من ناحية ، وتفيد النفي المطلق من ناحية أخرى .(٢)

وقد أحسن القول في هذا المعنى الزمخشري،وأبو حيان،ونقل عنهم غيرهم(٣) مابين مقل ومستكثر،يقول الزمخشري :

(فإن قلت : كيف طابق قوله : «وماهم بمؤمنين» قولهم «آمنا بالله وباليوم الاخر» والأول في ذكر شأن الفعل لا الفاعل ، والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل؟ قلت:القصد إلى إنكار ما ادعوه ونفيه فسلك في ذلك طريقا أدّى إلى الغرض المطلوب ، وفيه من التوكيد والمبالغة ماليس في غيره ، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين ، لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان ، وإذا شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة ، فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفي ماانتحلوا إثباته لأنفسهم على سبيل البت

---

١ - تفسير البيضاوي ١ / ٢٥ ٢ - انظر تأملات في سورة البقرة ١ / ٧٦

٣ - انظر النسفي ١ / ٢٢ ، والبيضاوي ١ / ٢٥ . والتسهيل لابن جزي،١ / ٦٤ وفتح البيان للقنوجي ١ /٩٠ والتحرير والتنوير ١ / ٢٦٥ .

والقطع ، ونحوه قوله تعالى : ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾[1] هو أبلغ من قولك : ومايخرجون منها ، فإن قلت : فلم جاء الإيمان مطلقا في الثاني وهو مقيّد في الأول ؟ قلت:يحتمل أن يراد التقييد ويترك لدلالة المذكور عليه ، وأن يراد بالإطلاق أنّهم ليسوا من الإيمان في شيء قط، لامن الإيمان بالله واليوم الآخر ، ولا من الإيمان بغيرهما)[2]

وقال أبو حيان : (وإنّما زيدت الباء في الخبر للتأكيد ، ولأجل التأكيد في مبالغة نفي إيمانهم جاءت الجملة المنفية اسمية مصدرة بهم ، وتسلط النفي على اسم الفاعل الذي ليس مقيداً بزمان ليشمل النفي جميع الأزمان ، إذ لو جاء اللفظ منسحبا على اللفظ المحكي الذي هو آمنا لكان ومـاآمنوا ، فكان يكون نفيا للإيمان الماضي ، والمقصود أنهم ليسوا متلبسين بشيء من الإيمان في وقت مامن الأوقات،وهذا أحسن من أن يحمل على تقييد الإيمان المنفي أي وماهم بمؤمنين بالله واليوم الآخر ، ولم يرد الله تعالى عليهم قولهم آمنا ، إنّما رد عليهم متعلق القول ، وهو الإيمان)[3] .

وخلاصة كلام القوم أنّه سبحانه لو قال في معرض الرد عليهم ، ومـاآمنوا لنفى فيه الحدث ، لكنه عبّر بمؤمنين لإفادة نفي ثبوت الوصف باستمرار .

---

١ - المائدة جزء من الآية ٣٧ .

٢ - الكشاف ١ / ٦٣ - ٦٤

٣ - البحر المحيط ١ / ١٨٣ - ١٨٤

الفصل الثاني

تقديم المسند

- إضاءة .
- مدخل : وتحته مطالب

المطلب الأول : المسند «التعريف به وأغراض تقديمه»

المطلب الثاني : أنواع الخبر .

المطلب الثالث : اللام الجارة معانيها ودلالاتها .

المطلب الرابع : علاقات اللام بغيرها من حروف الجر .

- المبحث الأول : تقديم المسند المفرد .
- المبحث الثاني : تقديم المسند الجملة .
- المبحث الثالث : تقديم المسند شبه الجملة .

المتأمل لمواضع تقدم المسند في سورة البقرة يلحظ أموراً منها :

الأول : هذه المواضع البالغة ثلاثة وسبعين موضعاً أتت كلها مجرورة عدا خمسة مواضع ، وقد أوضح الاستقراء[1] . أن الخبر المفرد غير المجرور لم يرد مقدما إلا في موضعين ، والخبر الجملة في موضع واحد وبقية المواضع كان للخبر شبه الجملة نصيب الظرف منها موضعان فقط .

الثاني : هذه المواضع المجرورة كان القِدْحُ المُعَلّى فيها لحرف اللام حيث أتت جارة لأربعة وثلاثين موضعا ، والباحث يحاول جهده الكشف عن هذا الحرف ودلالته في الاستعمال .

الثالث : أغلب المجرور كان ضميراً حيث أتى في خمسة وأربعين موضعاً ولاغرو فالنصيب الأوفر من أقسام المعارف في سورة البقرة كان للضمير إذ تحوي ما يقرب من ألفي ضمير .[2]

الرابع : لم يأت من مواضع المسند مقدما هنا إلا خبر المبتدأ وخبر النواسخ وغيرها من المواضع لا يصلح تقديمه هنا .. إمّا أنه لو قدم لفقد وصف الخبرية كالفعل واسم الفعل ، أو لكونه من تقديم المتعلقات كالمفعول الثاني لظن أو المفعول الثالث لأرى .

---

١ - كان الاعتماد فيه على اعراب القرآن للنحاس وإعراب القرآن للدرويش .

٢ - انظر ص : (٩٨) .

المطلب الأول : المسند « التعريف به وأغراض تقديمه »

أولا : المسند :

وهو المحكوم به (ويكون فعلاً تقييده على أخصر وجه مع إفادة التجدد بأحد الأزمنة الثلاثة الماضي والمستقبل والحال ، ويكون اسماً لإفادة الثبوت ويأتي مفرداً نحو علي مسافر ، كما يأتي جملة نحو علي يقوم)[1] (وليس بلازم من كون المسند فعلاً أن يكون جملة ، فقد يكون فعلاً وهو مفرد نحو ينطلق زيد ، فالمسند هو الفعل فقط وهو مفرد ، والفرق بين كون المسند فعلا فقط مثل ينطلق زيد ، وكونه جملة مثل زيد ينطلق أو زيدٌ أبوه منطلق ، هو أنّ الجملة تفيد تقوي الحكم وقد قالوا إنّ كل ماخبره جملة يفيد التقوي) [2] .

(وتكون جملة المسند اسمية لإفادة الثبوت ، وفعلية لإفادة التجدد والحدوث في أحد الأزمنة الثلاثة على أخصر وجه ، وشرطية للاعتبارات المختلفة الحاصلة من أدوات الشرط في نحو «أزيد إن تلقه يكرمك » أو (إذا لقيته يكرمك) فقد أخبرت أولاً بالإكرام الذي يحصل على تقدير اللقاء المشكوك فيه ، وثانيا بالإكرام الحاصل على تقدير وقوع اللقاء المحقق .

ومواضع المسند ثمانية :

---

١ - انظر الإيضاح في شروح التلخيص ٢/٢٥ - ٢٩ ، ومعجم البلاغة العربية ص ٢٨١ - ٢٨٢ .

٢ - انظر خصائص التراكيب ، صـ ٢٣٦ .

١ - خبر المبتدأ : نحو « قادر » من قولك الله قادر .

٢ - الفعل التام : نحو « حضر » من قولك حضر الأمير .

٣ - واسم الفعل : نحو « هيهات » و « وي » و « آمين » .

٤ - والمبتدأ الوصف المستغني عن الخبر بمرفوعه : نحو عارف من قولك «أعارفٌ أخوك قدر الإنصاف» .

٥ - وأخبار النواسخ «كان ونظائرها» و «إنّ ونظائرها» .

٦ - والمفعول الثاني لظنّ وأخواتها .

٧ - والمفعول الثالث لأرى وأخواتها .

٨ - (والمصدر النائب عن فعل الأمر)[١] .

- ثانيا : تقديم المسند :

يقدم المسند للأغراض التالية :

أ - (للتنبيه من أول الأمرعلى أن المقدم خبر لانعت إذ النعت لايتقدم على المنعوت كقول الشاعر :[٢]

لَهُ هِمَمٌ لامُنْتَهَى لِكِبَارِهَا وَهِمَّتُهُ الصُّغْرَى أجلُّ مِن الدَّهْرِ)[٣]

---

١ - معجم البلاغة العربية ص ٢٨٢ - ٢٨٣

٢ - البيت لبكر بن النطاح في مدح أبي دلف العجلي ، وقبله :

له راحة لو أن معشار جودها على البَرّكان البُر أندى من البحر

انظر الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ،ت/عبدالكريم الغرباوي (بيروت مؤسسة جمال ، د، ت ، ١٠٩/١٩ وعزاه المغربي والسبكي إلى حسان بن ثابت في مدح الرسول ﷺ ولم أجده في ديوانه ، انظر مواهب الفتاح وعروس الأفراح في شروح التلخيص ١١٤/٢ - ١١٥ .

٣ - انظر مختصر السعد في شروح التلخيص ١١٤/٢ - ١١٥ .

(لم يقل «همم له» لئلا يتوهم أنّ الظرف نعت ، إذ حاجة النكرة إليه أشد من حاجتها إلى الخبر ، وفي جعله نعتا صرف للكلام عن الغرض الذي سيق له وهو مدح النبي ﷺ إلى مدح هممه)[1] .

ب - (أو التشويق إلى ذكر المسند إليه بأن يكون في المسند المتقدم طول يشوق النفس إلى ذكر المسند إليه فيكون له وقع في النفس ومحل من القبول كقول الشاعر :[2]

ثَلاَثَةٌ تُشرِقُ الدنيا بَبِهْجَتِها   شَمْسُ الضُّحَى وأبو اسحاقَ والقمرُ)[3]

(فإنّه لما قال ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها تطلعت النفوس إلى معرفتهم ، لأنّ في المسند مايشعر بجليل خطرهم حيث تشرق الدنيا ببهجتهم ، فإذا أتى المسند إليه وقع في النفس موقعا حسنا)[4] .

ج - فإن كان المسند ظرفا : فإمّا أن يكون مثبتا أو منفيا ، فإن كان مثبتا (فإنه يفيد الاختصاص بمعرفة السياق تقول : له العتبى ، وعنده الحاجة ، فيصلح ذلك كله للاختصاص ولمجرد الاهتمام فقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[5] تقديم المسند فيه يفيد الاختصاص أي إنّ إيابهم لايكون إلا

---

١ - معجم البلاغة العربية ص ٥٢٩

٢ - البيت لمحمد بن وهيب يمدح المعتصم انظر حاشية الدسوقي على مختصر السعد في شروح التلخيص ١١٦/٢

٣ - انظر مختصر السعد في شروح التلخيص ١١٦/٢ .

٤ - خصائص التراكيب ص ٢٥١ .

٥ - الغاشية الآيات ٢٥ ، ٢٦

لله وإن حسابهم لايكون إلا عليه ، أما قوله تعالى ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾[1] فليس التقديم فيه مفيداً للاختصاص وإنما هو للاهتمام)[2] قال الزمخشري : وفائدة تقديم خبر إنّ على اسمها ، هو القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على مااستهجن الله منهم من استتباع رأي رسول الله ﷺ لآرائهم)[3]

(وأمّا إن كان منفيا فإن إفادته للتخصيص موضع اتفاق بين البلاغيين فقوله تعالى ﴿لا فِيهَا غَوْلٌ﴾[4] يفيد التخصيص قطعاً ، والمراد قصر نفي الغول عليها بخلاف خمر الدنيا فإن فيها غولا ، ولو قال : لاغول فيها لأفاد نفي الغول عنها فقط من غير أن يتعرض لخمور الدنيا)[5] ومن ثم لم يقدم الظرف في قوله تعالى : ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾[6] لأنّه لو قُدم لاقتضى ثبوت الريب في سائر كتب الله تعالى ماعدا القرآن .

---

١ - الحجرات جزء من الاية ٧

٢ - انظر دلالات التراكيب ص ١٧٢

٣ - انظر الكشاف ، ٣٥٢/٤ .

٤ - الصافات جزء من الآية ٤٧ .

٥ - خصائص التراكيب ص ٢٥٠ .

٦ - البقرة جزء من الآية ٢ .

المطلب الثاني : أقسام الخبر .

الخبر : (هو الجزء الذي حصلت به الفائدة مع مبتدأ غير الوصف المذكور)[1] ويعني بالوصف المذكور قوله في تعريف المبتدأ «أو وصف رافع لمكتفى به»[2] فقوله «غير الوصف المذكور» قيد أخرج به الوصف نحو «أعارف أخوك قدر الانصاف» لأن ما بعد الوصف يعرب فاعلا سد مسد الخبر ولا يكون خبراً .

والخبر ثلاثة أقسام :

١ - المفرد : وهو ما ليس جملة ولا شبه جملة (ويكون جامداً فلا يتحمل ضمير المبتدأ نحو «هذا زيد» إلا إن أوّل بالمشتق نحو «زيد أسد» إذا أريد به شجاع، أو مشتقاً فيتحمل ضميره نحو «زيد قائم »)[3]

٢ - الجملة : (وهي كل كلام مفيد مستقل بنفسه وهي على ضربين اسمية وفعلية ، ولابد لكل واحدة من الجملتين إذا وقعت خبراً عن المبتدأ من ضمير يعود إليه منها نحو «زيد أخوه قائم» و «زيد قاه أخوه» فالضمير في الجملتين عائد على زيد)[4]

(ولو قلت : زيد قام عمرو لم يجز ، لأنّه ليس في الجملة ضمير يعود على المبتدأ،

---

١ - أوضح المسالك ١ / ١٩٤ .

٢ - المصدر نفسه ١ / ١٨٤ .

٣ - المصدر نفسه ١ / ١٩٤ .

٤ - اللمع في العربية ، لابن جني ، ت حامد المؤمن ، بيروت : عالم الكتب ط / ٢ ، ١٤٠٥هـ صـ ٧٣ .

فإن قلت : إليه أو معه أو نحو ذلك صحت المسألة لأجل «الهاء» العائدة ، فأمّا قولهم : السمن منوان بدرهم فإنّما تقديره : السمن منوان منه بدرهم ، ولكنهم حذفوا «منه» للعلم به)[1]

٣ - الخبر شبه الجملة : وهو نوعان الجار والمجرور نحو قوله تعالى : ﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾[2] أو ظرف كقوله تعالى : ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[3] .

واختلف في متعلق الظرف والجار والمجرور إذا وقعا خبراً ، فذهب بعضهم إلى أن المتعلق مفرد وقدروه بـ«كائن» أو مستقر ، وذهب أكثر النحاة إلى أنّ المتعلق جملة وقدروها بـ«استقر» وهذا مذهب أكثر البصريين واختاره ابن الحاجب في كافيته[4]

(وتسمية النحاة للجار والمجرور والظرف بـ«شبه الجملة» له علاقة بالتعليق إذ أنّ شبه الجملة تتعلق كثيراً بالفعل ، وهي مركبة كالجمل ، ولأنّ الجار والمجرور لا يؤدي معنى مستقلاً في الكلام ، وإنّما يؤدي معنى فرعيا فكأن جملة الجار والمجرور ناقصة أو شبه جملة »)[5]

---

١ - اللمع في العربية صـ ٧٤ .

٢ - البقرة جزء من الآية ٢٥ .

٣ - البقرة جزء من الآية ١١٥ .

٤ - الكافية في النحو صـ ٧٦ .

٥ - حروف الجر في العربية بين المصطلح والوظيفة ، للدكتورة / نور الهدى لوشن ، بنغازي : منشورات جامعة قاريونس ، ط / ١ ، ١٩٩٥م صـ ٣٧ .

المطلب الثالث : اللام الجارة .

اللام حرف من حروف الجر التابعة لحروف المعاني وحرف المعنى : كلمة تدل على معنى في غيرها ليس باسم ولا فعل ، كسوف وواو القسم ولام الإضافة ونحوها[1] ، (وأكد هذا التعريف لحرف المعنى أبو علي الفارسي ، والزمخشري ، وابن الأنباري والزجاجي ، وابن هشام ، والسيوطي ، حين أشاروا إلى أن الحرف يفيد معنى ليس في اسم ولا في فعل نحو قولنا : زيد آت ثم نقول : هل زيد آت ؟ فأفدنا بـ«هل» ما لم يكن في زيد ولا في آت)[2]

وثمة فرق بين نوعين من الحروف يخلط البعض فيهما ، ولإزالة هذا اللبس والخلط لابد من تحديد حقيقة كل منها ، فالحرف على ضربين ، حروف معان وحروف مبان .

١ - فحروف المباني (هي الحروف الهجائية التي أولها الألف وآخرها الياء ، وسميت بذلك لأنّ منها بناء الكلمة)[3] أمّاحرف المعنى (فليس جزءاً من الكلمة ، أو بعضا منها ، بل هو كلمة مستقلة قائمة بذاتها ، ومعناها يظهر في غيرها ، فلو قلنا كتبت بالقلم، فالباء كلمة هي حرف معنى يفيد في غيره الاستعانة ، ولا يكون هذا الحرف

---

١ - انظر الكتاب ١ / ١٢ ، ويقصد بلام الإضافة لام الجر .

٢ - معجم حروف المعاني ، للدكتور/ أحمد جميل شامي ، بيروت : مؤسسة عز الدين ط/ ١ ، ١٤١٣هـ صـ ٧ .

٣ - انظر حروف المعاني ، للدكتور / عبدالحي حسن جمال ، الطائف : مكتبة المعارف ط / ١ ، ١٣٩١هـ ، صـ ١٩-٢١ .

جزءاً من القلم أو بعضاً منه،وتختلف حروف المباني عن حروف المعاني بأنّ عدداً منها يأتي نيابة عن الحركات كالنون في التثنية والجمع .

وتختلف حروف المعاني عن حروف المباني من ناحية العدد ، فحروف المعاني تربو على التسعين ، على حين أن حروف المباني لاتزيد على تسعة وعشرين حرفاً كذلك تختلف حروف المعاني والمباني من ناحية التعريف والتنكير ، فحروف المعاني ليت ولعل وإنّ واللام من حقهن أن تكن معارف ، أمّا حروف المعجم أي : الحروف الهجائية ، «با» و «تا» وغيرها فحقهن أن يكنّ نكرة ، فعندما نقول إنّ وليت أشياء معروفة ، وقد عرفت مواضعها وأثبتت حقائقها ، ولهذا السبب يمنع دخول حروف التعريف عليها ، وذلك إذا رأينا أحد هذه الحروف مكتوباً فلا نعبر عنه بالألف واللام غير أن حروف المباني تكون نكرة بغير آلف ولام ، ومعرفة كقولنا : الألف واللام والتاء)[1] .

(وقد أجرى ابن جني دراسة مستفيضة حول حروف المباني ، واندرجت هذه الدراسة في إطار دراسته للأصوات ، أي الحروف وأجراسها الطبيعية وصفاتها العامة ، من همس وجهارة ، ومن شدة ورخاوة ، ومن إطباق وانفتاح ، ومن استعلاء واستفال ، ثم تناولت دراسته الصوتية المدلول اللفظي لحروف المباني واستقصاء أحكامها الصوتية ، ففي كتابه «سر صناعة الإعراب» مادة غزيرة

---

١ - انظر معجم حروف المعاني ، صـ ٧-١١ .

للدراسة الصوتية واللغوية لحروف المباني التسعة والعشرين وقد ميّز ابن جني بين حروف المباني وحروف المعاني ، ورأى أنّ حروف المباني تكون مصوغة مع الكلمة أصلاً ، أو زيادة ، أو قلبا أو إعلالا ، وهي لا تعد حرف معنى على الإطلاق ، لكن هناك عدداً من الحروف تكون حينا حرف مبنى ، وأحياناً حرف معنى نحو : أزيد ، انهض ، فالهمزة هنا للنداء ، وفي قولنا : أسعيد عندك أم منير ؟ فالهمزة هنا للإستفهام ، وفي هذه الحالة تكون الهمزة حرف معنى ، وقد تأتي حرف مبني في قولنا : سأل وأقام ونشأ،لأنها مصوغة مع الكلمة .

ويمكن القول إن معظم حروف المعاني الآحادية الوضع تشبه بصورتها حروف المباني،وتكاد تكون هي هي من حيث الشكل ، لا من حيث المعنى ، بخلاف حروف المعاني الثنائية والثلاثية والرباعية والخماسية ، التي لا تتوافق مع حروف المعجم لا بالشكل ولا بالمعنى)[1] .

وسؤال أخير هل لحروف الجر معنى ومنها اللام ؟

(والجواب إنّه ليس لها معنى إذا قصدنا بالمعنى المعنى المعجمي للكلمات فالمعجم في الغالب ليس له عمل في هذه الحروف، وما هو على شاكلتها من الأدوات التي ينحصر معناها في قيمها الوظيفية ودلالاتها التي تكتسبها في السياق ، فالحروف لها معان وظيفية تظهر في السياق، وتنفك عنها إذا خرجت من السياق إلا

---

١ - انظر معجم المعاني ، صـ ٨ ، ٩ .

ما يبقى لهذه الحروف من دلالة عامة مبهمة كدلالة «إلى» على الاتجاه و«على» على الاستعلاء ، ولكن هذه الدلالات التي قد تلمح في هذه الحروف مجروره من سياقها لا يمكن أن تخطر على الذهن إلا مستصحبة سياقات مألوفة أي أنّ هذه الحروف التصقت بدلالاتها الوظيفية بعد استخدامها متلازمة معها تلازما يستصحب في الذهن بعد فك التلازم ، ويظهر هذا الاستصحاب عند إنشاء تلازم جديد من حرف الجر وسياق جديد لم يكن قبل مألوفاً ، فيكون الاستخدام قد خرج إلى دائرة المجاز أو جاء الحرف نائباً عن غيره)[١]

وبعد هذا التحديد والإيضاح لهذه الحروف،نعرض لحرف اللام للكشف عن معانيه ودلالاته .

١ - حروف الجر دلالتها وعلاقاتها ، إبراهيم الشمسان ، (جدة : دار المدني ط/ ١ ، ١٤٠٧هـ) صـ ٨-٩ .

اللام معانيها ودلالاتها :

تدخل اللام على الظاهر والمضمر فتكسر مع كل ظاهر نحو:﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[1] إلا مع المستغاث المباشر ليا فمفتوحة نحو «ياللّه» ومفتوحة مع كل مضمر نحو:﴿لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[2] إلا مع ياء المتكلم فمكسورة[3] .

وقد ذهب النحاة إلى تشقيق معاني اللام حتى إن المرادي جعل لها ثلاثين معنى[4]، وابن هشام جعل لها اثنين وعشرين[5] ، (وألف بعض البغدادين فيها كتابا سماه «كتاب اللامات»[6] عدد لها فيه نحو الأربعين معنى بحسب اختلافها أدنى اختلاف)[7] .

وأخذ بعضهم معنى من هذه المعاني ، وجعله أصلاً ترجع إليه بقية المعاني قال المرادي :(التحقيق أنّ معنى اللام في الأصل هو الاختصاص وهو معنى لايفارقها ، وقد يصحبه معان أخر وإذا تؤملت سائر المعاني المذكورة وجدت راجعة إلى الاختصاص ، وأنواع الاختصاص متعددة ، ألا ترى أنّ من معانيها المشهورة

---

١ – البقرة جزء من الآية ٢٨٤ . ٢ – البقرة جزء من الآية ٢٥ .

٣ – انظر مغنى اللبيب ١ / ٢٠٨ ، والكامل في اللغة والأدب للمبرد ، ت نعيم زرزور ، تغاريد بيضون ، (بيروت: دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤٠٧ هـ ، ٢ / ٢١٧ .

٤ – انظر الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ، ت / فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل ، (بيروت : دار الكتب العلمية ط / ١ ، ١٤١٣هـ) صـ ٩٦ .

٥ – انظر مغني اللبيب ١ / ٢٠٨ . ٦ – هو أبو القاسم الزجاجي .

٧ – رصف المباني في شرح المعاني للمالقي ، ت / د. أحمد محمد الخراط ، (دمشق : دار القلم ط / ٢ ، ١٤٠٥هـ) صـ ٢٩٣ .

التعليل قال بعضهم وهو راجع إلى معنى الاختصاص ، لأنّك إذا قلت:(جئتك للإكرام) دلت اللام على أنّ مجيئك مختص بالإكرام ، إذا كان الإكرام سببه دون غيره فتأمل ذلك)[1]

وماذكره المرادي رحمه الله يجرنا إلى تأويل لمعنى الحرف نحن بغنى عنه ، وتعسف تأباه مرونة اللغة،إذ نحن أمام قيد ما إن نفك دلالة الحرف عنه حتى نرجع مرة أخرى لنقيده به ، وأيّ فائدة ترجى من هذا التقسيم والتحديد،والخلاف الذي ذكره العلماء في بعض معانيها إذا كان الأمر كذلك .

ولو قال إنّ الغالب على اللام دلالتها على الاختصاص والاستحقاق والتمليك لكان ألطف وأصوب ، لقربه من منطق اللغة وبلاغتها ، ولابن السراج تعليق لطيف على تسميتهم اللام بلام الملك ، فهو يرى أن هذه التسمية ليست بشيء (لأنّ الملك أمر نسبي ، ففي غلام لعبدالله الملك للثاني ، وفي سيد لعبدالله الملك للأول ، وفي أخ لعبدالله لا ملك ، وإنّما هي مقاربة)[2] ونذكر بعض هذه الدلالات التي تكتسب من السياق الخاص بلام الجر .

١ - (الاختصاص : ولام الاختصاص هي الداخلة بين اسمين يدل كل منهما على الذات والداخلة عليه لا يملك الآخر، قال تعالى:﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[3] ومنه «الجنة للمتقين»)[4] .

---

١ - الجنى الداني صـ ١٠٩ .

٢ - الأصول في النحو ، لأبن السراج ، ت / د. عبدالحسين الفتلي ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط / ١ ، ١٤٠٥هـ) ١ / ٤١٣ .

٣ - البقرة : الآية ٢ .　　٤ - انظر مغني اللبيب ١ / ٢٠٨ .

٢ - ا(لاستحقاق : وهي الواقعة بين معنى وذات ، قال تعالى:﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] ومنه الحمد لله ، والعزة لله)[2] وكقولك : المنة في هذا لزيد[3] .

٣ - الملك[4] قال تعالى:﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾[5] ، وقالوا في الفرق بين لام الملك ولام الاستحقاق ، أنّ في الاستحقاق (الأشياء ليست مما يملك ، وإنما هي تستحق ، فتضيف بهذه اللام ما استحق من الأشياء إلى مستحقه)[6] قال الزجاجي : (ومعنياهما متقاربان ، إلا أنّا فصلنا بينهما لأنّ من الأشياء ما تستحق ولا يقع عليها الملك)[7] كالمنة والفضل وغيرها .

٤ - التمليك : وهبت لزيد ديناراً[8] .

٥ - شبه التمليك[9] : قال تعالى:﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾[10]

٦ - التبعيض : الكم للجبة .

٧ - النسب : (الابن لخالد)[11] .

والمالقي يجمع هذه المواضع ويدرجها تحت موضع واحد يقول : (الموضع الأول : أن تكون للتخصيص ، وأنواع هذه المواضع تتشعب والذي يجمعها النسبة ، فحيث كانت جاز أن تنسب لما بعدها بها ، فمنها الملك نحو الثوب لزيد ، ومنها الاستحقاق نحو

---

١ - البقرة جزء من الآية ١١٤ .
٢ - مغني اللبيب ١ / ٢٠٨ .
٣ - انظر كتاب اللامات للزجاجي ت / مازن المبارك (دمشق : دار الفكر ، ط/ ٢ ، ١٤٠٥هـ) صـ ٦٥ .
٤ - مغني اللبيب ٢٠٨/١ .
٥ - البقرة جزء من الآية ٢٥٥ .
٦ - حروف الجر بين المصطلح والوظيفة صـ٥٤ .
٧ - اللامات للزجاجي صـ ٦٥ .
٨ - مغني اللبيب ١ / ٢٠٩ .
٩ - المصدر نفسه ١ / ٢٠٩ .
١٠ - النحل جزء من الآية ٧٢ .
١١ - رصف المباني صـ ٢٩٤ .

الباب للدار ، ومنها النسب نحو الابن لخالد ، ومنها التبعيض نحو الكم للجبة ، ومنها الفعل نحو : الضرب لزيد ، والتسبيح لعمرو .

وأنواع النسب لا تكاد تحصر لكثرتها)[1]

وكلامه أدق من كلام المرادي رحمه الله الذي أرجع المعاني كلها لمعنى التخصيص ، والمالقي حدد ذلك فيما يجمعها النسبة .. وإن كنا نلمح قصوراً في تقريره لهذا الموضوع عندما ختمه بقوله : (وأنواع النسبة لا تكاد تحصر لكثرتها)[2] فهذه الكثرة إن أبت حصراً ، فهي من باب أولى أشد إباءً من أن تقيّد بمعنى واحد .

٨ - التعليل[3] : قال تعالى : ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾[4]

وقوله تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾[5]

٩ - (للتعجب : ويكون في باب النداء نحو:«يا للعجب» وقول الشاعر :

يَالَكِ مِـــنْ قُبرَّةٍ بِمَعْـــمَرِ [6]

ويكون في المدح نحو:يالك رجلاً صالحاً ، وفي الذم يالك رجلاً خبيثاً ، وتكون للتعجب أيضاً في القسم : لله لا يقومُ ، ولله ليقومنّ زيد)[7]

---

١ - رصف المباني صـ ٢٩٤ .

٢ - المصدر نفسه صـ ٢٩٤ .

٣ - مغني اللبيب ١ / ٢٠٩ .

٤ - البقرة جزء من الآية ٦٠ .

٥ - العاديات الآية ٨ ..

٦ - صدر بيت لطرفة بن العبد وعجزه خلالَكِ الجوّ فبيضي واصفري .
وقيل : رويت لكليب أخي المهلهل ولعل طرفة استشهد بها . أنظر ديوان طرفة صـ ٤٦ .

٧ - انظر رصف المباني صـ ٢٩٥ - ٢٩٦ .

١٠ - التعدية وهي التي توصل الفعل إلى المفعول نحو:« ما أحب زيداً لبكر» ، ومثل له ابن مالك[١] بقوله تعالى : ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾[٢]

١١ - التقوية : وتزاد لتقوية عامل ضعيف[٣] قال تعالى ﴿إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾[٤]

١٢ - للتبليغ : (وهي الجارة لاسم السامع لقول أو مافي معناه نحو قلت له ، وفسرت له)[٥]

١٣ - التبيين : (وهي اللام الواقعة بعد أسماء الأفعال والمصادر التي تشبهها ، مبينة لصاحب معناها)[٦] قال ابن هشام وهي ثلاثة أقسام :

أ - ما تبين المفعول من الفاعل ، وضابطها : أن تقع بعد فعل تعجب أو أسم تفضيل مفهمين حبا أو بغضاً ، تقول:« ما أحبني وما أبغضني » فإن قلت:« لفلان» فأنت فاعل الحب والبغض،وهو مفعولهما وإن قلت:« إلى فلان» فالأمر بالعكس)[٧] ومن الأول قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[٨] فالذين آمنوا هم الفاعلون[٩] .

---

١ - انظر مغني اللبيب ١ / ٢١٥ ، وحروف الجر العربية بين المصطلح والوظيفة صـ ٥٦ ، وكشف السر عن حروف الجر للدكتور / ناصر حسين علي (دمشق : المطبعة التعاونية ط / ١ ، ١٤١٥هـ) صـ٩٥ .

٢ - مريم جزء من الآية ٥ .

٣ - انظر معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ، ت / أحمد شمس الدين (بيروت : دار الكتب العلمية ط/ ١ ، ١٤٠٨هـ) ٢ / ٢٨٥ .

٤ - سورة يوسف جزء من الآية ٤٣ .

٥ - مغني اللبيب ١ / ٢١٣ .

٦ - كشف السر عن حروف الجر صـ ٩٤ .

٧ - مغني اللبيب ١ / ٢٢١ .

٨ - البقرة جزء من الآية ١٦٥ .

٩ - انظر : كشف السر عن حروف الجر صـ ٩٤ .

ب - اللام التي تبين فاعلية غير ملتبسة بمفعولية «تبا لزيد وويحا له» وهما بمعنى خسر وهلك .

ج - اللام التي تبين المفعولية غير ملتبسة بالفاعلية « سقيا لخالد وجدعاً له» فهذه اللام مبينة للمدعو له ، أو عليه ، إن لم يكن معلوماً من سياق أو غيره ، أو مؤكدة للبيان إن كان معلوماً[1]

١ - انظر مغني اللبيب ١ / ٢٢٠ - ٢٢١ ، وكشف السر عن حروف الجر ص ٩٤ .

المطلب الرابع : علاقات اللام بغيرها من حروف الجر .

للنحاة كلام حول تناوب حروف الجر، فمنهم من منعه مطلقا، ومنهم من أجازه بتحفظ، وقد أوجز ابن هشام هذا الخلاف بقوله : (مذهب البصريين أنّ أحرف الجر لا ينوب بعضها عن بعض بقياس ، كما أنّ أحرف الجزم وأحرف النصب كذلك ، وما أوهم ذلك فهو عندهم إمّا تؤول تأويلاً يقبله اللفظ ، كما قيل في:﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾[1] إنّ «في» ليست بمعنى «على» ولكن شبه المصلوب لتمكنه من الجذع بالحالّ في الشيء ، وإمّا على تضمين الفعل معنى فعل يتعدى بذلك الحرف ، كما ضمن بعضهم أحسن في ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﴾[2] معنى لطف ، وإمّا على شذوذ إنابة لكلمة عن أخرى ، وهذا الأخير هو محمل الباب كله عند أكثر الكوفيين وبعض المتأخرين ، ولا يجعلون ذلك شاذا ومذهبهم أقل تعسفا)[3]

وفي موضع آخر نراه يقيد ما أطلقه بعض النحاة يقول في الباب السادس : (في التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين) .

(قولهم:«ينوب بعض حروف الجر عن بعض» وهذا أيضاً مما يتداولونه ويستدلون به، وتصحيحه بإدخال «قد» على قولهم ينوب، وحينئذ فيتعذر استدلالهم به ، إذ كل موضع ادعوا فيه ذلك يقال لهم فيه : لا نسلم أنّ هذا مما وقعت فيه

---

١ - طه جزء من الآية ٧١ .

٢ - يوسف جزء من الاية ١٠٠ .

٣ - مغني اللبيب ١ / ١١١ .

النيابة ولو صح قولهم لجاز أن يقال : مررت في زيد ، ودخلت من عمرو ، وكتبت إلى القلم)[1] وهذا لا يخرج عن ما قرره ابن جني حيث يقول:(ولسنا ندفع أن يكون ذلك -أي تناوب الحروف- كما قالوا ، لكنا نقول : إنّه يكون بمعناه في موضع دون موضع ، على حسب الأحوال الداعية إليه ، والمسوغة له ، فأمّا في كل موضع وعلى كل حال فلا ، ألا ترى أنك إن أخذت بظاهر هذا القول غفلا هكذا لا مقيدا لزمك عليه أن تقول : سرت إلى زيد ، وأنت تريد معه ، وأن تقول : زيد في الفرس ، وأنت تريد : عليه ، وزيد في عمرو ، وأنت تريد عليه في العداوة،وأن تقول : رويت الحديث بزيد ، وأنت تريد : عنه ، ونحو ذلك مما يطول ويتفاحش)[2]

غير أنّ ابن جني يرى في الأماكن والمواضع التي ادعيت فيها النيابة أنّ الحرف باق على معناه ، وأنّ العامل ضُمّن معنى عامل يتعدى بذلك الحرف،لأنّ التجوز في الفعل أسهل منه في الحرف وذلك كقول الله عز اسمه : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾[3] وأنت لا تقول : رفثت إلى المرأة وإنّما تقول : رفثت بها ، أو معها ، لكنّه لما كان الرفث هنا في معنى الإفضاء ، وكنت تعدّى أفضيت بـ«إلى» كقولك أفضيت إلى المرأة جئت بـ«إلى» مع الرفث ، إيذاناً وإشعارا أنه بمعناه[4] ، وجميع الأمثلة التي أوردها ، أوّل الفعل فيها بمعنى يتمشى وينساق

---

١ - مغني اللبيب ٢ / ٢٥٦ .

٢ - الخصائص ٢ / ٣٠٨ .

٣ - البقرة جزء من الآية ١٨٧ .

٤ - انظر الخصائص ٢ / ٣٠٨ .

مع الحــرف[1] ، وفي ذلك تكلف لا يخفى ، بل يقود أحياناً إلى تعسف لا يقبله التــأويل ، ومع بصــيــرة ابن جنّي النافــذة إلاّ أنّ الخــرق اتسع على الراقع ومــذهب الكوفيين (عـملي سهل بعيد عن الالـتجاء إلى المجاز والتأويل ونحوهما من غير داع، فلاغرابة في أن يؤدي الحرف الواحد عدة معان مختلفة ، وقصر حرف الجر على معنى حقيقي واحد تعسف وتحكم لا مسوغ له ، فما الحرف إلا كلمة كسائر الكلمات من أسماء وأفعال ، وهذه الكلمات الأسماء والأفعال يؤدي الواحد منها عدة معان حقيقية ، لا مجازية ، ولا يتوقف العقل في فهم دلالتها الحقيقية فهماً سريعاً ، فما الداعي لإخراج الحرف من أمر يدخل فيه غيره من الكلمات الأخرى)[2] .

وهذا المذهب اشتهر عن الكوفيين وليس مقصوراً عليهم فقد قال به بعض أئمة النحاة من البصريين كالمبرد قال : (وحروف الخفض يُبدَل بعضها من بعض إذا وقع الحرفان في معنى في بعض المواضع قال تعالى : ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾[3] أي عليه)[4] فيعلم من ذلك أنّ إطلاق المنع أو الجواز سيّان في الحكم ، وكلا طرفي قصد الأمــور ذميم ، وخير الامور الوسط ، والأقرب لروح اللغة قبول ما سمع عن العرب ودل عليه السياق ، دون تعرض لتأويله ، ومن الأمثلة على ذلك في حرف اللام :

---

١ - انظر الخصائص ٢ / ٣٠٨ - ٣١٥ .

٢ - انظر النحو الوافي ٢ / ٥٤٠-٥٤٢ .

٣ - الطور جزء من الآية ٣٨ .

٤ - الكامل في اللغة والأدب ٢ / ٩٥ .

١ - (أن يكون بمعنى إلى ، قال تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ﴾[١] أي إلى هذا)[٢] .

وعدها المالقي قياساً (لأنّ «إلى» يقرب معناها من معنى اللام وكذلك لفظها)[٣] قال تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾[٤] وقال في موضع آخر:﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا[٥]﴾[٦] .

٢ - (أن تكون بمعنى «على» وذلك موقوف على السماع لأنّ الحروف لا يوضع بعضها موضع قياسا إلا إذا كان معنياهما واحداً)[٧] قال تعالى : ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾[٨] أي على الأذقان[٩] وقال الشاعر[١٠] :

تَنَاوَلْتُ بالرمْحِ الطَّوِيْلِ ثِيَابَهُ ... فَخَرَّ صَرِيْعَاً لِلْيَدَيْنِ وللفَمِ

أي على اليدين،وعلى الفم[١١] .

---

١ - الأعراف جزء من الآية ٤٣ .

٢ - الازهية في علم الحروف للهروي ت / عبد المعين الملوحي ، (دمشق : مطبوعات مجمع اللغة العربية ، ١٤١٣هـ) صـ ٢٨٧ .

٣ - رصف المباني صـ ٢٩٧ .

٤ - النحل جزء من الآية ٦٨ .

٥ - الزلزلة الآية ٥ .

٦ - رصف المباني ٢٩٨ .

٧ - المصدر نفسه صـ ٢٩٧ .

٨ - الإسراء جزء من الآية ١٠٧ .

٩ - الأزهية في علم الحروف صـ ٢٨٧ .

١٠ - البيت للأشعث بن قيس الكندي وقيل للمكعبر الضبي ، قاله في محمد بن طلحه بعد ما قتله في يوم صفين، انظر الأزهية صـ ٢٨٨ . وأدب الكاتب لابن قتيبه ت/ علي فاعور (بيروت: دار الكتب العلمية ط١، ١٤٠٨هـ) صـ ٣٣٦، ولجابر بن حُنَيّ بيت يقاربه وهو **تناوله بالرمح حتى اتّنى له فخر صريعا....** ، أنظر المفضليات للمفضل الضبي ت / أحمد محمد شاكر ، عبدالسلام هارون ، (القاهرة : دار المعارف ط/ ٧ ، د،ت) صـ٢١٢ .

١١ - الأزهية صـ ٢٨٨ .

٣ - أن تكون بمعنى «من» نحو: سمعت له صراخا ، وقول جرير[١] :

لَنَا الْفَضْلُ فِيْ الدُّنْيَا وَأَنْفُكَ رَاْغِمُ
وَنَحْنُ لَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ أَفْضَلُ[٢]

أي نحن أفضل منكم يوم القيامة .

٤ - وتكون بمعنى «في» (مثل قوله عز وجل :﴿لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾[٣] أي في أول الحشر)[٤] وقال سبحانه : ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[٥] (أي في يوم القيامة)[٦].

٥ - وتكون بمعنى «مع» قال متمم بن نويرة :[٧]

فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّيْ وَمَالِكًا
لِطُوْلِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبِتْ لَيْلَةً مَعَا

---

١ - من قصيدة يهجو بها الأخطل ومطلعها :

أجُدِّك لا يصحو الفؤاد المُعَلَّلُ وقد لاح من شيبٍ عذارٌ ومِسحَلُ انظر ديوانه صـ ٣٦٥ .

٢ - مغني اللبيب ١ / ٢١٣ . ٣ - الحشر جزء من الاية ٢ .

٤ - الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ت / الدكتور عمر فاروق الطّباع ، (بيروت : مكتبة المعارف ط/ ١ ١٤١٤هـ) صـ ١١٧ .

٥ - الانبياء جزء من الآية ٤٧ .

٦ - معاني القرآن للفراء ت / محمد علي النجار ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ٢ / ٢٠٥ .

٧ - قاله في رثاء أخيه مالك في قصيدة مطلعها :

لعمري وما دهري بتأبين هالك ولا جَـزَعٍ مما أصاب فأوجعا

انظر المفضليات صـ ٢٦٧ ، وجمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ت / علي فاعور (بيروت : دار الكتب العلمية ط / ١ ، ١٤٠٦هـ) صـ ٣٤٤ ، والعقد الفريد لابن عبد ربه ، ت / الدكتور : عبدالمجيد الترحيني (بيروت : دار الكتب العلمية ط / ١ ١٤٠٤هـ) ٣ / ٢٢١ .

أراد : مع طول اجتماع[1] .

٦ - وتكون بمعنى بعد قال تعالى :﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾[2] أي بعد زوال الشمس.[3]

وقال الراعي:[4]

حَتَّى وَرَدْنَ لِتِمِّ خِمْسٍ بَائِصٍ   جُداً تَعَاوَرَهُ الرِّيَاحُ وَبِيلاَ

أي بعد تم خمس.[5]

٧ - وتكون بمعنى عن ، قال تعالى : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾[6] . أي عن الذين آمنوا.[7]

٨ - وتكون بمعنى عند قال تعالى : ﴿أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾[8] . أي عنده[9] .

ويلاحظ إمكانية مجيء بعضها لمعنيين ، كبيت متمم ، فبعضهم يسوقه شاهداً بمعنى «مع» وآخرون بمعنى «بعد».[10]

---

١ - الأزهية صـ ٢٨٩ .
٢ - الإسراء جزء من الآية ٧٨ .
٣ - الأزهية صـ ٢٨٩ .
٤ - هذا البيت من قصيدة يمدح بها الراعي النميري عبدالملك بن مراون ومطلعها :

مابال دفّك بالفراش مذيلا   أقذىً بعينك أم أردت رحيلاً

انظر ديوانه شرح د / واضح الصمد (بيروت : دار الجيل ط / ١ ، ١٤١٦هـ) صـ ٢٠٢ .
٥ - الأزهية صـ ٢٨٩ ، ورصف المباني صـ ٢٩٩ .
٦ الأحقاف جزء من الآية ١١ .
٧ - الجنى الداني صـ ٩٩ - ١٠٠ .
٨ - طه جزء من الآية ١٤ .
٩ - الصاحبي في فقه اللغة صـ ١١٧ .
١٠ - انظر مغني اللبيب ١ / ٢١٣ .

وأختم هذا المطلب بمثال يبين لنا كيف (أنّ الأفعال المتعدية بأكثر من حرف تكتسب دلالات مختلفة يخلعها عليها الحرف الذي تعدى به)(١) . فالهداية ترد في القرآن ولها أربعة معاني الإرشاد ، أو التوفيق، أو الإلهام، أو الدلالة(٢) .

(وهذه المعاني يكتسبها الفعل من اتصاله بحرف التعدية ، فهو حين يعدى بإلى يدل على الإرشاد ، وإيصال المهدي إلى الغاية المنشودة، وحين يعدى باللام يدل على التوفيق وتهيئة القلب والنفس للسعي من أجل هذه الغاية، انبثاقاً من معنى الاختصاص في اللام(٣)) ، وصرح بذلك ابن القيم فقال:(ففعل الهداية متى عدى بإلى تضمن الإيصال إلى الغاية المطلوبة ، فأتى بحرف الغاية ، ومتى عدى باللام تضمن التخصيص بالشيء المطلوب،فأتى باللام الدالة على الاختصاص والتعيين ، فإذا قلت هديته لكذا فهم معنى ذكرته له وجعلته له وهيأته ونحو هذا(٤)) .

فقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾(٥) وقوله : ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾(٦) .

---

١ – من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، للدكتور/ محمد الأمين الخضري ، (القاهرة : مكتبة وهبة ط / ١ ، ١٤٠٩هـ) صـ ٢٢٣ .

٢ – انظر بصائر ذوي التمييز ٥ / ٣١٣-٣١٤ ، وفتح القدير ١ / ٣ .

٣ – من أسرار حروف الجر صـ ٢٢٣ .

٤ – بدائع الفوائد لابن القيم ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، د . ت ، ٢ / ٢١)

٥ – الأعراف جزء من الآية ٤٣ .

٦ – الحجرات جزء من الآية ١٧ .

(توحي اللام فيهما بتوفيق الله للمؤمنين ، وتهيئة نفوسهم وقلوبهم للإيمان والعمل الصالح ، واختصاصهم بهذا الطريق دون سواه من سبل الشر والغواية ، أما قوله تعالى : ﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴾(١) .وقوله :﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٢) ففيها دلالة على إرشادهم إلى طريق الحق والخير كما يدل عليه حرف الانتهاء)(٣) . وقد أفاد ابن كثير ذلك حين قال بعد أن تحدث عن تعدية فعل الهداية بنفسه :(وقد تعدى بإلى كقوله تعالى :﴿ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٤) ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾(٥) وذلك بمعنى الإرشاد والدلالة وكذلك قوله :﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(٦) وقد تعدى باللام كقول أهل الجنة ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا ﴾(٧) أي وفقنا لهذا واجعلنا له أهلا(٨) .

(وأحسب أن القرآن لفتنا إلى هذه النكتة حين خالف بين التعديتين في قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ ﴾(٩) حيث عدى الهداية المنسوبة إلى الشركاء بإلى ، والهداية المنسوبة إلى ذاته العلية باللام ، لأنّه لا يملك توجيه القلوب،وتهيئتها للحق سواه وهو آية من آيات الإعجاز في الذكر الحكيم)(١٠) .

---

١ - النازعات الآية ١٩ .

٢ - الشورى جزء من الآية ٥٢ .

٣ - من أسرار حروف الجر صـ ٢٢٤ .

٤ - النحل جزء من الآية ١٢١ .

٥ - الصافات جزء من الآية ٢٣ .

٦ - الشورى جزء من الآية ٥٢ .

٧ - الاعراف جزء من الآية ٤٣ .

٨ - تفسير ابن كثير ١ / ٤٣ .

٩ - يونس جزء من الآية ٣٥ .

١٠ - من أسرار حروف الجر صـ ٢٢٤ .

المبحث الأول

تقديم المسند المفرد

المطلب الأول : المفرد المعرفة .

المطلب الثاني : المفرد النكرة .

المطلب الأول : المفرد المعرفة .

قال تعالى : ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ ﴾(١) .

لما بيّن سبحانه كفر أهل الكتاب الطاعنين في نسخ القبلة بتكذيب الرسول ﷺ وكتمان الحق وغير ذلك، إلى أن ختم بكفرهم بالاختلاف في الكتاب وكتمان ما فيه من مؤيدات الإسلام ، والطعن على المسلمين بعد ما تحولوا عن بيت المقدس ، أبان أنّ هذا الاستقبال الذي أكثروا العيب به، وأفاضوا فيه ليس مقصوداً لذاته ، وإنّما المقصودبالذات هو الإيمان ، فإذا وقع تبعته جميع الطاعات من الصلاة المشترط فيها الاستقبال وغيرها(٢) فقال سبحانه :﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ (فليس القصد من تحويل القبله ، ولا من شعائر العبادة على الإطلاق ، أن يولي الناس وجوههم قبل المشرق والمغرب نحو بيت المقدس أو نحو المسجد الحرام ، وليست غاية البر هي تلك الشعائر الظاهرة فهي في ذاتها - مجردة عما يصاحبها في القلب من المشاعر وفي الحياة من السلوك - لا تحقق البر ، ولا تنشيء الخير ، إنّما البر تصور وشعور وأعمال وسلوك ، تصور ينشئ أثره في ضمير الفرد والجماعة ، وعمل ينشئ أثره في حياة الفرد والجماعة ، ولا يغني عن هذه الحقيقة العميقة تولية الوجوه قبل المشرق والمغرب ، أو سائر الحركات الظاهرة التي يزاولها الناس في الشعائر)(٣) .

١ - البقرة جزء من الآية ١٧٧ .

٢ - انظر نظم الدرر ج٣ / ص١

٣ - في ظلال القرآن ١ / ١٥٩ .

﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

وقوله:﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ .

اختلف من المراد بهذا الخطاب ؟

(قال قتادة : ذكر لنا أنّ رجلاً سأل نبي الله ﷺ عن البرِّ ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

قال:كان الرجل قبل الفرائض إذا شهد أن لاإله إلا الله ، وأنّ محمداً عبده ورسوله ، ثم مات على ذلك وجبت له الجنّة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية)(١)

(وقال الربيع وقتادة أيضاً : الخطاب لليهود والنصارى لأنّهم اختلفوا في التوجه والتولي ، فاليهود إلى المغرب قبل بيت المقدس،والنصارى إلى المشرق مطلع الشمس، وتكلموا في تحويل القبله،وفضّلت كل فرقة توليتها ، فقيل لهم : ليس البر ما أنتم فيه ، ولكن البر من آمن بالله)(٢)

والراجح القول الثاني لدلالة الآيات قبلها،فقد مضت بتوبيخهم ولومهم ، والخبر عنهم وعما أعد لهم من أليم العذاب واختاره ابن جرير(٣) .

و«البر» اسم للخير ولكل فعل مرضي ، وأل للجنس لإفادة عموم النفي لا للقصر ، إذ ليس المقصود نفي القصر،أو قصر النفي(٤) .

وفي البرِّ قراءتان : قرأ حمزة،وحفص بالنصب «ليس البرَّ» وقرأ بقية السبعة

١ - أسباب نزول القرآن للواحدي ، ت/ أحمد صقر (جدة: دار القبلة ، ط / ٢ ، ١٤٠٤هـ) ص ١٦٠ .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١٦٠ .

٣ - انظر جامع البيان ٢ / ٩٤ .

٤ - انظر الكشاف ١ / ٢١٥ ، وروح المعاني ١ / ٤٤٢ .

بالرفع(١) «ليس البرُّ» (ومن قرأ بنصب البر جعله خبر ليس ، وأن تولوا في موضع الاسم، والوجه أن يلي المرفوع لأنها بمنزلة الفعل المتعدي ، وهذه القراءة من وجه أولى وهو أن جعل فيها اسم ليس أن تولوا،وجعل الخبر البر ، وأن وصلتها أقوى في التعريف من المعرف بالألف واللام، وقراءة الجمهور أولى من وجه، وهو أن توسط خبر ليس بينها وبين اسمها قليل ، وقد ذهب إلى المنع من ذلك «ابن درستويه» تشبيها لها بما ، أراد الحكم عليها بأنّها حرف كما لا يجوز توسيط خبر ما ، وهو محجوج بهذه القراءة المتواترة ، وبورود ذلك في كلام العرب ، قال الشاعر(٢) :

سَلي إنْ جَهِلْتِ النَّاسَ عَنَّا وعَنْهُمُ
وليس سواءً عَالِمُ وَجَهُولُ)(٣)

وتقدم الخبر لأنّ أمر استقبال القبلة هو شغلهم الشاغل فإذا أتى الخبر قبله ترقب السامع وتشوقت النفس إلى معرفة المبتدأ، فإذا سمعه تقرر في علمه ، وتمكن من نفسه ، وبلغ الغرض المسوق من أجله مبلغه(٤) هذا أولاً .

وثانياً : أحقية المصدر بالاسمية (إذ المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام ، لأنّه يشبه الضمير من حيث لا يوصف ولا يوصف به ، والأعرف أحق بالاسمية ، ولأنّ في الاسم طولاً فلو روعي الترتيب المعهود لفات تجاوب أطراف النظم

---

١ - انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ، مراجعة / علي محمد الضبّاع ، دار الكتاب العربي ، د.ت ٢/٢٢٦ .

٢ - قائله السمو أل بن غريض بن عاديا من قصيدة مطلعها

إذا المرءُ لم يدنّسْ من اللوم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

انظر : ديوانا عروه بن الورد والسمو أل (بيروت : دار صادر د.ت) صـ٩٢ .

٣ - البحر المحيط ٢ / ٤ .

٤ - انظر التحرير والتنوير ٢ / ١٢٩ .

الكريم(١)) .

وقوله:﴿ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ أي السمتان المعينان ، فإن اليهود كانت تصلي قبل المغرب ، والنصارى قبل المشرق .

وقدم المشرق على المغرب مع تأخر زمان الملة النصرانية ، رعاية لما بينهما من الترتيب المتفرع على ترتيب الشروق والغروب(٢) .

وقوله:﴿ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ ﴾

(وهو تحقيق للحق بعد بيان الباطل وتفصيل لخصال البر مما لا يختلف باختلاف الشرائع ، وما يختلف باختلافها ، أي ولكن البر المعهود الذي يحق أن يهتم بشأنه ويجد في تحصيله ، بر من آمن بالله وحده إيماناً بريئاً من شائبة الإشراك ، لا كإيمان اليهود والنصارى المشركين بقولهم:عزير ابن الله،وقولهم:المسيح ابن الله ﴿ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ أي على ما هو عليه لا كما يزعمون من أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودات)(٣) .

وفي هذه الآية ملمح عميق .. كثيراً ما نغفل عنه نلمسه من تقديم الإيمان بالله واليوم الآخر على أعمال الجوارح في الآية ، وهو أهمية الأعمال القلبية،وأنها أفضل من أعمال الجوارح ، وأشرف عند الله وأزكى،بل هي الأسس التي يقام عليها غيرها يقول عبدالله بن الشخير في أبي بكر :

---

١ - تفسير أبي السعود ١ / ٣٠٥ .

٢ - انظر : جامع البيان ٢ / ٩٥ ، وروح المعاني ١ / ٤٤٢ .

٣ - تفسير أبي السعود ١ / ٣٠٦ .

(والله ما سبقكم بكثرة صيام ولا صلاة،ولكن بشيء وقر في قلبه) .

قال ابن القيم :

(وعمل القلب كالمحبة له والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والخوف منه والرجاء له، وإخلاص الدين له ، والصبر على أوامره ، وعن نواهيه وعلى أقداره ، والرضى به وعنه ، والموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، والذل له والخضوع ، والإخبات اليه ، والطمأنينة به ، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها ، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة)(١) .

---

١ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، لإبن القيم ، ت / محمد المعتصم بالله البغدادي (بيروت : دار الكتاب العربي ط / ١ ، ١٤١٠هـ) ١ / ١٢١ .

المطلب الثاني : المفرد النكرة .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(١)

افتتح سبحانه سورة البقرة بذكر أوليائه وصفاتهم التي ارتفعت بهم إلى وصفهم بالمفلحين ، وأبان أنّ الكتاب هدى لهم خاصة، وقفّى على إثرهم بذكر المردة من الكفار الذين لا ينتفعون ببلاغ مبلغ أو إنذار منذر ، والملاحظ في سياق الآيات أن الحديث عن الكفار أتى مقطوعا عما قبله ولم يعطف عليه كما في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾(٢) وغيرها من الآيات المثاني في القرآن ، والسر في ذلك لأنّ العطف في هاتين الآيتين لاتحاد الجامع ، إذ الآية الأولى مسوقة لبيان ثواب الأخيار ، والثانية لبيان جزاء الأشرار(٣) .

وآيات البقرة تباين غيرها ، فالآيات الأولى مسوقة لذكر الكتاب وأنه هدى للمتقين ، وسيقت الثانية لشرح تمرد الكافرين وانهماكهم في الضلال ، فبين الجملتين

---

١ - البقرة الآية ٦ .

٢ - الانفطار الايات ١٣ - ١٤ .

٣ - انظر خصائص التشبيه في سورة البقرة ، د/ إبراهيم داود ، (مصر : مطبعة الأمانة ، ط / ١ ، ١٤٠٦هـ) صـ٣٧ .

تباين في الغرض والأسلوب وهما على حد لا مجال للعاطف فيه(١) .

(واختلف العلماء في تأويل هذه الآية فقيل:هي عامة ومعناها الخصوص فيمن حقت عليه كلمة العذاب ، وسبق في علم الله أنّه يموت على كفره ، أراد الله تعالى أن يعلم الناس أنّ فيهم من هذا حاله دون أن يعين أحداً ، وقال ابن عباس والكلبي: نزلت في رؤساء اليهود حيي بن أخطب وكعب بن الأشرف ونظرائهما ، وقال الربيع بن أنس : نزلت فيمن قتل يوم بدر من قادة الأحزاب ، والأول أصح فإنّ من عين أحداً فإنّما مثّل بمن كشف الغيب عنه بموته على الكفر)(٢) . واختاره ابن جرير(٣) .

وقوله سبحانه : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ﴾ .

(سواء) (اسم بمعنى الاستواء وصف به كما يوصف بالمصادر ومنه قوله سبحانه: ﴿ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾(٤) وقوله:﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴾(٥) بمعنى مستوية)(٦) .

---

١ - انظر الكشاف ١ / ٥٥ ، وتفسير البيضاوي ١ / ٢١ .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٢٩ .

٣ - انظر جامع البيان ١ / ١٠٩ .

٤ - آل عمران جزء من الآية ٦٤ .

٥ - فصلت جزء من الآية ١٠ .

٦ - الكشاف ١ / ٥٦ .

وهذا التركيب ورد في القرآن في ستة مواضع(١) .

قال تعالى : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢) وقال سبحانه : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴾(٣) وقال سبحانه : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾(٤) وقال تعالى : ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ الْوَاعِظِينَ ﴾(٥) وقال سبحانه : ﴿ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ ﴾(٦) وقال عز شأنه : ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾(٧) فهذه الآيات جاءت على نسق واحد «سواء» متصدرة الجملة يتلوها (على) حرف جار للضمير، ثم همزة الاستفهام داخلة على الفعل الماضي في الآيات الست ، ثم (أم) داخلة على الفعل المضارع في أربعة مواضع (البقرة ، الشعراء ، يس ، المنافقون) وعلى الفعل الماضي في موضع واحد في سورة إبراهيم (أَمْ صَبَرْنَا) وعلى الجملة الإسمية في موضع واحد في سورة الأعراف (أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ) وسياق الآيات يكاد يبين لنا عن دلالة بارزة مفادها سلبية الآخر -أو المقابل- فالنتيجة واحدة .. سواء دعوة الرسل للكافرين والمنافقين كما في آيات (البقرة ، الشعراء ، يس ، المنافقون) أو في دعوة الكافرين لأصنامهم في آية الأعراف ، أو في شأنهم مع أنفسهم وهم في العذاب كما سورة إبراهيم (مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ) .

١ - انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن صـ ٣٧٣ - ٣٧٤ .

٢ - البقرة جزء من الآية ٦ .

٣ - الأعراف جزء من الآية ١٩٣ .

٤ - إبراهيم الآية ٢١ .

٥ - الشعراء الآية ١٣٦ .

٦ - يس الآية ١٠ .

٧ - المنافقون جزء من الآية ٦ .

وفي إعراب سواء كلام للمعربين(١) أقواه قولان لخصهما الرازي بقوله:(في ارتفاع سواء قولان : أحدهما : أنّ ارتفاعه على أنّه خبر لأنّ و(أأنذرتهم أم لم تنذرهم) في موضع الرفع به على الفاعلية ، كأنه قيل : إنّ الذين كفروا مستو عليهم إنذارك وعدمه كما تقول : إن زيداً مختصم أخوه وابن عمه ، والثاني : أن تكون (أأنذرتهم أم لم تنذرهم) في موضع الابتداء وسواء خبره مقدما بمعنى سواء عليهم إنذارك وعدمه ، والجملة خبر لأنّ ، واعلم أن الوجه الثاني أولى ، لأن سواء اسم ، وتنزيله بمنزلة الفعل يكون تركا للظاهر من غير ضرورة)(٢) .

قال أبو السعود : (وسواءٌ عليهم خبر قدم اعتناء بشأنه)(٣) . لأن مقتضى المقام بيان كون الإنذار وعدمه سواء ، لا بيان كون المستوي الإنذار وعدمه(٤) .

وفي هذا التقديم تسلية للمصطفى ﷺ،وتسرية عنه، فما عليه إلا البلاغ ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾(٥) ودرساً له في طريق الدعوة الطويل فيصبر على معاناة من لا قبول له ومجاهدته ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾(٦) (وعدي بعلى هنا ولم يعلق بعند ونحوها مع أنه المقصود من الاستعلاء في مثله للإشارة إلى

---

١ - انظر إعراب القرآن للنحاس ، ت / الدكتور: زهير غازي زاهد ، (بيروت : عالم الكتب ، ط / ٣ ، ١٤٠٩هـ) ١ / ١٨٤ ، وإملاء ما من به الرحمن للعكبري (بيروت دار الكتب العلمية ط / ١ ، ١٣٩٩هـ) ١٤/١ ، وإعراب القرآن لمحيي الدين الدرويش ، (دمشق : اليمامة ، دار ابن كثير ، ١٤٠٨) ١ / ٢٨ .

٢ - مفاتيح الغيب ٢ / ٣٧-٣٨ .

٣ - تفسير أبي السعود ١ / ٦٣ .

٤ - انظر المصدر السابق ١ / ٦٣ .

٥ - آل عمران جزء من الآية ٢٠ .

٦ - يوسف الآية ١٠٣ .

تمكن الاستواء عند المتكلم وأنّه لا مصرف له عنه ولا تردد له فيه فالمعنى سواء عندهم الإنذار وعدمه)(١) .

(وأتى بضمير الغائب في قوله:(عليهم) دون المخاطب (عليك) لأنّ الإنذار وعدمه ليسا سواء لديه ﷺ لفضيلة الإنذار الواجب عليه)(٢) .

وقوله:(أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ) عدل هنا عن المصدر إلى الفعل (لما فيه إيهام التجدد وحسن دخول الهمزة وأم عليه ، لتقرير معنى الاستواء وتأكيده فإنّهما جردتا عن معنى الاستفهام لمجرد الاستواء ، كما جردت حروف النداء عن الطلب لمجرد التخصيص في قولهم : (اللهم اغفر لنا أيتها العصابة)(٣) .

(والإنذار هو التخويف من عقاب الله بالزجر عن المعاصي ، وإنّما ذكر الإنذار دون البشارة ، لأنّ تأثير الإنذار في الفعل والترك أقوى من تأثير البشارة ، لأن اشتغال الإنسان بدفع الضرر أشد من اشتغاله بجلب المنفعة ، فإذا لم ينفع فيهم كانت البشارة بعدم النفع أولى)(٤) .

وفائدة الإنذار هنا مع أنه مستو مع عدمه (لقطع حجتهم،وأنّهم قد دعوا فلم يؤمنوا ، ولئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت ، وأنّ فيه تكثير الأجر بمعاناة من لا قبول له

---

١ - التحرير والتنوير ١ / ٢٤٩ .

٢ - خصائص التشبيه في سورة البقرة صـ ٤٠ .

٣ - تفسير البيضاوي ١ / ٢٢ .

٤ - انظر مفاتيح الغيب ٢ / ٣٩ ، وتفسير البيضاوي ١ / ٢٢ .

للإيمان ومقاساته ، وأنّ في ذلك عموم إنذاره لأنّه أرسل للخلق كافة)(١) .

وفي الآية تشبيه ، فالمشبه هو الإنذار للذين كفروا ، والمشبه به عدم الإنذار والأداة «سواء» أي أن إنذارهم يشبه عدم إنذارهم في كونهم لا يؤمنون .. ولو قيل في غير القرآن إنّ الذين كفروا إنذارك لهم كعدم إنذارك ، لا يؤمنون ، لنبا عنه السياق من حيث الأداة أولا ، ومن حيث التعبير بالمصدر (إنذار) ثانياً ، فأداة التشبيه «سواء» هنا كأنّ فيها براعة استهلال يكشف لنا به عن شيء من خصائص التعبير القرآني ، إنّه يكشف لنا عن أن التشبيه القرآني لا يعتمد على أن يقرب الشيء فحسب ، بل أن يقول لنا ماذا يكون الشيء ، إنه يقرن بين الأشياء التي بلغ التناظر فيها من حيث المقصود حدا تجاوز مرحلة التشابه ، وأوغل في مرحلة التوافق في الباطن ، فهو لا يصور ظواهر الأشياء وإنما يكشف بواطنها(٢) .

وقوله : ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ .

(جملة مؤكدة لقوله تعالى : ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾(٣) .

١ - البحر المحيط ١ / ١٧٥ .

٢ - انظر خصائص التشبيه في سورة البقرة صـ ٣٦ - ٤٠ .

٣ - تفسير ابن كثير ١ / ٧١ .

المبحث الثاني

تقديم المسند الجملة

هذا المبحث مختص بالجملة الاسمية الواقعة خبراً ، وأمّا الجملة الفعلية فقد سبق بحثها في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي ولو تقدمت لفقدت وصف الخبرية ولا مسوغ لبحثها هنا .

قال تعالى : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(١) .

أخذ الله العهد على بني اسرائيل في التوراة ، أن لا يقتل بعضهم بعضاً وافترض عليهم فيها فداء أسراهم،فكانوا فريقين ، فأمّا بنو قينقاع والنضير فكانوا حلفاء الخزرج ، وأمّا بنو قريضة فكانوا حلفاء الأوس ، فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه ، وإذا غلبوا خربوا ديارهم وأخرجوهم ، فإذا أسر الرجل من الفريقين جمعوا له حتى يفدوه ، فتعيرهم العرب بذلك ويقولون : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ فيقولون إنّا أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم ، قالوا : فلم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحي أن تستذل حلفاؤنا فذلك حين عيرهم جل وعز فقال : ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾(٢) .

وقوله:﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ . أشكل على المفسرين التركيب اللغوي في قوله سبحانه ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ﴾ وذهبوا في تخريجه مذاهب شتى .

قال القتبي : «التقدير يا هؤلاء »(٣) .

وهذا لا يجوز عند البصريين،لأنّ اسم الإشارة عندهم لا يجوز أن يحذف منه حرف

---

١ - البقرة الآية ٨٥ .
٢ - انظر جامع البيان ١ / ٣٩٧-٣٩٨ .
٣ - اعراب القرآن للنحاس ، ٢٤٣/١ .

النداء ، وهو ما عناه سيبويه بقوله:«ولا يحسن أن تقول هذا ، ولا رجل وأنت تريد يا هذا ، ويا رجل»(١) .

(والفراء يرى جوازه،وخرجت الآية اتباعاً لرأيه، فيكون على هذا القول تقتلون خبرا عن أنتم ، وفصل بين المبتدأ والخبر بالنداء ، والفصل بينهما بالنداء جائز ، وإنّما ذهب من ذهب إلى هذا في هذه الآية ، لأنّه صعب عنده أن ينعقد من ضمير المخاطب واسم الإشارة جملة من مبتدأ وخبر .

وذهب ابن كيسان وغيره إلى أنّ أنتم مبتدأ ، وتقتلون الخبر ، وهؤلاء تخصيص للمخاطبين لما نبهوا على الحال التي هم عليها مقيمون ، فيكون إذ ذاك منصوباً بأعني ، ويفهم من كلام النحاس(٢) ترجمة لهذا القول ويرد قوله:(أنّ النحاة نصوا على أن التخصيص لا يكون بالنكرات(٣) ولا بأسماء الإشارة ، والمستقرأ من لسان العرب أنّه يكون «أياً» نحو:اللهم اغفر لنا أيتها العصابة ، أو معرفاً بالألف واللام نحو : نحن العرب أقرى الناس للضيف ، أو بالاضافة نحو:نحن معشر الأنبياء لا نورث ، وقد يكون علماً كما أنشدوا :

بناَ تميماً يكْشفُ الضَّبَابُ(٤)

---

١ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٥٨ .

٢ - انظر إعراب القرآن للنحاس ٢٤٣/١ .

٣ - قال الزمخشري : وقد جاء نكرة في قول الهذلي :

ويأوي إلى نسوةٍ عُطَّلٍ وشعثاً مراضيع مثل السَّعالي

والشاهد فيه أنّ شعثا منصوب على الترحم بفعل محذوف ، انظر المفصل في علم العربية للزمخشري (بيروت: دار الجيل ، د.ت) صـ ٤٦-٤٧ .

٤ - هذا البيت من ارجوزة لرؤبة بن العجاج وقبله : راحت وراح كعصا السيساب

انظر: ديوان رؤبة بن العجاج ، ت/ وليم الورد (بيروت : دار الآفاق الجديدة ، ط / ١ ، ١٩٧٩م) صـ١٦٩ .

وأكثر ما يأتي بعد ضمير متكلم كما مثلناه ، وقد جاء بعد ضمير مخاطب كقولهم : بك الله نرجو الفضل)(١) .

وقيل هؤلاء بمعنى الذين ، وهو خبر عن أنتم ، ويكون تقتلون صلة لهؤلاء ، أي ثم أنتم الذين تقتلون ، وهذا لايجوز على مذهب البصريين .

قال النحاس : (وسمعت علي بن سليمان يقول : سمعت محمد بن يزيد -المبرد-(٢) يقول : أخطأ من قال : إنّ هذا بمعنى الذي وإن كان قد أنشد) .

عَدَسْ مالعبّادٍ عليكِ إمارةٌ نَجوْتِ وَهَذَا تَحْمِلِينَ طَلِيْقُ(٣)

قال : فإنّ هذا بطلان المعاني)(٤) . وأجاز ذلك الكوفيون .

وقال الزمخشري : (والمعنى ثم أنتم بعد ذلك هؤلاء المشاهدون،يعني أنّكم قوم آخرون غير أولئك المقربين تنزيلاً ، لتغير الصفة منزلة تغير الذات كما تقول : رجعت بغير الوجه الذي خرجت به)(٥) .

ورد أبو حيان تقدير الزمخشري بقوله : (والظاهر أنّ المشار إليه بقوله (ثم أنتم هؤلاء ، هم المخاطبون أولاً فليسوا أقواماً آخرين ، ألا ترى أنّ هذا التقدير الذي قدره الزمخشري من تنزيل تغير الصفة منزلة تغير الذات لا يتأتى في نحو : ها أنا ذا قائماً،ولا في ها أنتم أولاء ، بل المخاطب هو المشار إليه من غير تغير(٦)) .

---

١ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٥٩ .
٢ - انظر أدب الكاتب للمبرد صـ ٢٧٢ .
٣ - البيت ليزيد بن مفرغ الحميري ، وهو مطلع قصيدة قالها بعد ما إخرج من السجن ، انظر ديوانه ، جمع عبدالقدوس صالح (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط / ٢ ، ١٤٠٢هـ) صـ ١٧٠ .
٤ - اعراب القرآن ١ / ٢٤٣ .
٥ - الكشاف ١ / ١٦١ .
٦ - البحر المحيط ١ / ٤٥٨ .

وهو كما قال أبو حيان ، فالمغايرة مقصودة بالآية ، ويستقيم المعنى عليها ، والذي حدا بالزمخشري إلى أن يقول هذا القول ، ليوافق الخطابُ هنا الخطابَ في الآيات قبلها إذ المخاطب فيها أسلاف المعاصرين للبعثة المحمدية ، وعليه فأظهر الأقوال القول الأول .

وقوله : ﴿ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ .

(التظاهر : التعاون ، قال ابن قتيبة : وأصله من الظهر ، فكأنّ التظاهر أن يجعل كل واحد من الرجلين «أو من القوم» الآخر ظهراً له ليتقوى به ويستند إليه)(١) .

(والإثم الذي تنفر منه النفس،ولا يطمئن إليه القلب)(٢) .

وفي حديث النواس «الأثم ما حاك في صدرك،وكرهت أن يطَّلِعَ عليه النّاس»(٣)

والعدوان « هو تجاوز الحد في الظلم»(٤) .

وقوله : ﴿ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ ﴾

(أصل الأسر الشد، قرأ ابن كثير وأبو عمر وابن عامر «أسارى» ، وقرأ الأعمش وحمزة «أسرى» قال الفراء : أهل الحجاز يجمعون الأسير «أسارى» وأهل

---

١ - زاد المسير ١ / ١١١ .

٢ - البحر المحيط ١ / ٤٥٩ .

٣ - رواه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب تفسير الإثم ، برقم ٢٥٥٣ ، واللفظ له ، وأحمد في مسنده ، برقم ١٧٦٤٩ ، ٤ / ٢٢٤ .

٤ - البحر المحيط ١ / ٤٥٩ .

نجد أكثر كلامهم «أسرى» وهو أجود الوجهين في العربية ، لأنّه بمنزلة قولهم ، جريح وجرحى ، وصريع وصرعى)(١) . (والأسير مشتق من الإسار وهو القد الذي يشد به المحمل فسمى أسيراً ، لأنّه يشد وثاقه ، والعرب تقول : قد أسر قتبه أي شده ، ثم سمي كل أخيذ أسيراً وإن لم يؤسر ، وقال الأعشى(٢) :

وَقيَّدَنِي الشِّعْرُ في بَيْتِهِ   كَمَا قَيَّدَ الآسِرَاتُ الحِمَارَا

أي أنا في بيته ، يريد ذلك بلوغه النهاية فيه)(٣) .

وحسن لفظ الإتيان من حيث هو في مقابلة الإخراج ، فيظهر التضاد المقبح لفعلهم في الإخراج ، يعني أنّه لا يناسب من أساتم إليه بالإخراج من ديارهم ، أن تحسنوا إليهم بالفداء ، و«تفادوهم» ، تطلقونهم بعد أن تأخذوا عنهم شيئاً(٤) .

وقوله : ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ﴾

«وهو» الواو حالية ، وهو مبتدأ وهو المسمى بضمير الشأن ، ومحرم خبر مقدم . «عليكم» جار ومجرور متعلقان بمحرّم «إخراجهم» مبتدأ مؤخر،والجملة الاسمية في محل رفع خبر لضمير الشأن(٥) .

---

١ - زاد المسير ١ / ١١١ .

٢ - في قصيدة له يمدح بها قيس بن معد يكرب مطلعها

أأزمعت من آل ليلى ابتكارا   وشطت على ذي هوى أن تزارا

انظر ديوان الأعشى الكبير ، شرح مهدي محمد ناصر الدين ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ٢ ، ١٤١٣هـ) صـ ٧٧ .

٣ . الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١٦ .

٤ - انظر المحرر الوجيز ١ / ١٧٥ ، والبحر المحيط ١ / ٤٦٠ .

٥ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٦١ ، وإعراب القرآن للدرويش ١ / ١٣٩ .

(وفي تقديم الخبر تشنيع وتبليد لهم، إذ توهموا القربة فيما هو من آثار المعصية أي كيف ترتكبون الجناية وتزعمون أنكم تتقربون بالفداء ، وإنّما الفداء المشروع هو فداء الأسرى من أيدي الأعداء ، لا من أيديكم فهلا تركتم موجب الفداء)(١) .

وتخصيص بيان الحرمة هنا بالإخراج مع كونه قرينا للقتل عند أخذ الميثاق ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾(٢) ، لما في الإخراج من الديار من معرة الجلاء ، والنفي الذي لا ينقطع شره إلا بالموت ، وذلك بخلاف القتل ، لأن القتل وإن كان من حيث هو هدم البنية أعظم،لكنّ فيه انقطاع الشر(٣) .

ولمّا كان الإخراج من الديار مما يشق على الإنسان مشقة لا تعد لها مشقة ، جعله سبحانه مساويا للقتل في قوله :﴿أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾(٤) وكأني بالشاعر يتمثل هذه الآية وهو ينشيء قوله :

لموتٌ بِحدِّ السيف أهْوَنُ مَوْقِعًا على النَّفْسِ مَنْ قَتْلٍ بِحدِّ فِرَاقِ(٥)

ولما يحمله الإخراج من رصيد مليء بالمعاناة ، والتشرد ، وبؤس العيش ، احتفظ به الطغاة ورقة رابحة يلّوحون به أمام العامة، لحجبهم عن المصلحين، والتنفير منهم،

---

١ - التحرير والتنوير ١ / ٥٩٠ .

٢ - البقرة جزء من الآية ٨٤ .

٣ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٦٠ .

٤ - النساء جزء من الآية ٦٦ .

٥ - لم أعثر على قائله وأورده الزمخشري وأبو حيان من غير نسبة .
انظر الكشاف ١ / ٢٣٤ بلفظ لقتل بحد السيف ، والبحر المحيط ٢ / ٧٤ .

وهي شنشنة تعاقبها الطغاة من لدن كبيرهم وقدوتهم فرعون ﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾(١) ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾(٢) ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾(٣) .

﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ؟ كم هو البون الشاسع بينها وبين ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾(٤) ؟! ولكنها القوة الذاتية المنبعثة من الحق حيث ترغم أنوف الطغاة للخضوع ..

وقوله : ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ .

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ بفداء الأسرى ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ بالقتال والإجلاء. قال السدي : أخذ الله عليكم أربعة عهود، ترك القتل، وترك الإخراج وترك المظاهرة، وفداء الأسير، فأعرضوا عن كل ما أمروا به إلا الفداء)(٥) والاستفهام معناه التوبيخ والإنكار ، ولم يذمهم على الفداء ، بل على المناقضة،إذ أتوا ببعض الواجب وتركوا بعضا ، أي كيف تعمدتم مخالفة التوراة في قتال إخوانكم واتبعتموها في فداء أسراهم ، وسمي الاتباع والإعراض إيمانا وكفراً على طريقة

---

١ - طه الآية ٦٣ .

٢ - الأعراف جزء من الآية ١٢٣ .

٣ - الشعراء الآية ٣٥ .

٤ - النازعات الآية ٢٤ .

٥ - تفسير النسفي ١ / ٦٥ .

الاستعارة لتشويه المشبه ، وللإنذار بأن تعمد المخالفة للكتاب ، قد تفضي بصاحبها إلى الكفر به(١) .

وقوله : ﴿فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ .

الجزاء يطلق في الخير والشر(٢) . قال تعالى : ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ (٣) وقال سبحانه : ﴿فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾(٤) .

«والخزي» الذل والصغار والمراد به هنا ما لحق اليهود بعد تلك الحروب من المذلة بإخراج بني النضير من ديارهم ، وقتل مقاتلة بني قريظة وسبي ذراريهم ، أو ضرب الجزية عليهم ما أقاموا على دينهم ذلة لهم وصغاراً(٥) .

وقوله : ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾

(وأشد العذاب الخلود في النار،وأشديته من حيث إنه لا انقضاء له ، أو أنواع عذاب جهنم لأنها دركات مختلفة)(٦) .

(وفي تقديم يوم القيامة على ذكر ما يقع فيه لتهويل الخطب،وتفظيع الحال من أول الأمر)(٧) .

---

١ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٦١ ، والتحرير والتنوير ١ / ٥٩١ .
٢ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٦١ .
٣ - الإنسان الآية ١٢ .
٤ - النساء جزء من الآية ٩٣ .
٥ - انظر جامع البيان ١ / ٤٠١ .
٦ - البحر المحيط ١ / ٤٦٢ .
٧ - تفسير أبي السعود ١ / ٢٠٩ .

المبحث الثالث

تقديم المسند شبه الجملة

المطلب الأول : تقديم الجار والمجرور .

المطلب الثاني : تقديم الظرف .

المطلب الأول : تقديم الجار والمجرور : وهو قسمان :

القسم الأول : تقديم الجار والمجرور المعرفة وهو أنواع :

النوع الأول : العلم (لفظ الجلالة) .

النوع الثاني : المضمر .

النوع الثالث : اسم الإشارة .

النوع الرابع : الاسم الموصول .

النوع الخامس:ما عرف بالألف واللام .

النوع السادس : المضاف .

القسم الثاني : تقديم الجار والمجرور النكرة .

١ - تقديم لفظ الجلالة :

قال تعالى : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾(١) .

سبب نزول الآية ما رواه البخاري عن البراء ابن عازب قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً ، أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يتوجه نحو الكعبة ، فأنزل الله تعالى : «قد نرى تقلب وجهك في السماء» الآية ، فقال السفهاء من الناس وهم اليهود : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فقال الله تعالى : «قل لله المشرق والمغرب» الآية(٢) .

وقوله : ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ ﴾

«السفهاء» (الذين خفت أحلامهم واستمهنوها بالتقليد والإعراض عن النظر ، والمراد بالسفهاء اليهود لكراهتهم التوجه إلى الكعبة ، وقيل المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء ، وقيل : المشركون قالوا:رغب عن قبلة آبائه ثم رجع إليها ، والله ليرجعن إلى دينهم)(٣) .

(وإنما سماهم الله عز وجل سفهاء ، لأنّهم سفهوا الحق فتجاهلت أحبار اليهود ، وتعاظمت جهالهم ، وأهل الغباء منهم عن اتباع محمد ﷺ،وتحير المنافقون فتبلدوا)(٤) .

---

١ - البقرة الآية ١٤٢ ، وقد ورد لفظ الجلالة في سورة البقرة خبراً مقدماً في ثلاث آيات هذه الآية ، وقوله سبحانه : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] ، وقوله : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٨٤] .

٢ - انظر كتاب الصلاة ، باب التوجه نحو القبلة حيث كان ، برقم ٣٩٩ .

٣ - انظر الكشاف ١ / ١٩٦ ، وتفسير البيضاوي ١ / ٩١ .

٤ - جامع البيان ج٢ / ١ .

﴿مِنَ النَّاسِ﴾ (في موضع نصب على الحال ، والمراد منهم الجنس ، وفائدة ذكره التنبيه على كمال سفاهتهم بالقياس إلى الجنس)(١) .

وأخبر سبحانه في هذه الآية عن قولهم قبل وقوعه وفائدته (أنّ مفاجأة المكروه أشد ، والعلم به قبل وقوعه أبعد من الاضطراب إذا وقع ، لما يتقدمه من توطين النفس ، وأنّ الجواب العتيد قبل الحاجة إليه أقطع للخصم ، وأرد لشغبه ، وقبل الرمي يراش السهم)(٢) (وليكون الوقوع بعد الإخبار معجزة له ﷺ)(٣) .

وقوله : ﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾

﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ (أي شيء صرفهم عن قبلتهم ، وهو من قول القائل ولاني فلان دبره : إذا حوّل وجهه عنه واستدبره ، فكذلك قوله:﴿مَا وَلَّاهُمْ﴾ أي شيء حوّل وجوههم)(٤) والاستفهام للإنكار(٥) .

﴿عَن قِبْلَتِهِمُ﴾ يعني بيت المقدس ، والقبلة في الأصل ، الحالة التي عليها الإنسان من الاستقبال ، فصارت عرفا للمكان المتوجه نحوه للصلاة ، وإضافة القبلة إلى ضمير المسلمين للدلالة على مزيد إختصاصهم بها ، والإستعلاء في قوله:﴿الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ للتمكن المجازي ، وحكمته أنّهم لمواظبتهم على امتثال أمر الله في المحافظة على الصلوات صارت القبلة لهم ، كالشيء المستعلى عليه الملازم دائماً

١ - روح المعاني ١ / ٤٠٢ .
٢ - الكشاف ١ / ١٩٧ .
٣ - مفاتيح الغيب ٤ / ٨٣ .
٤ - جامع البيان ٢ / ٢ .
٥ - انظر روح المعاني ١ / ٤٠٢ .

كقوله:﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾(١) وفيه زيادة توجيه للإنكار والاستغراب ، أي كيف عدلوا عنها بعد أن لازموها ، ولم يكن استقبالهم إياها مجرد مصادفة ، فإنهم استقبلوا الكعبة ثلاث عشرة سنة قبل الهجرة(٢) .

وقوله : ﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾ .

(الأمر متوجه للنبي ﷺ ، وفيه تعليم له ﷺ كيف يبطل مقالتهم ، ورد عليهم إنكارهم ، والمعنى : أن الجهات كلها لله تعالى،يكلف عباده بما شاء أن يستقبل منها ، وأن تجعل قبلة)(٣). وذكر المشرق والمغرب مراد به تعميم الجهات ، ويجوز أن يكون المراد من المشرق والمغرب ، الكناية عن الأرض كلها ، لأنّ اصطلاح الناس أنّهم يقسمون الأرض إلى جهتين ، شرقية وغربية ، بحسب مطلع الشمس ومغربها(٤) .

(وتقديم الظرف للاختصاص أي أنّ الأرض لله تعالى فقط لا لهم ، فليس لهم حق في منع شيء منها عن عباد الله المخلصين)(٥) . بل ولا حق الاعتراض ، فالملك ملكه ولا يسأل عما يفعل سبحانه ، وهم يسألون ، فله أن يكلف عباده باستقبال أي مكان وأي جهة شاء ، وليس لجهة من هذه الجهات ميزة ذاتية تتمتع بها دون ما

---

١ - البقـرة جزء من الآية ٥ .

٢ - انظر البحر المحيط ١ / ٥٩٤ ، وتفسير البيضاوي ١ / ٩١ ، والتحرير والتنوير ٢ / ٨-٩ .

٣ - البحر المحيط ١ / ٥٩٤ .

٤ - انظر التحرير والتنوير ٢ / ١٢ .

٥ - التحرير والتنوير ١ / ٦٨٣ .

سواها وإنما هو الامتثال لأمره سبحانه (أمّا أهل الجمود والمقلدون لهم ، فظنوا أن القبلة أصل في الدين من حيث هي الصخرة المعينة أو البناء المعين ، ولذلك كانت الحجة التي لقنها الله لنبيه في الرد على السفهاء والجاهلين لهذه الحكمة ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ أي أنّ الجهات كلها لله تعالى لا فضل لجهة منها بذاتها على جهة ، وإنّ لله أن يخصص منها ما شاء فيجعله قبلة لمن يشاء)(١) .

وقوله : ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

(قل يا محمد إنّ الله هدانا بالتوجه شطر المسجد الحرام لقبلة إبراهيم ، وأضلكم أيها اليهود والمنافقون ، وجماعة الشرك بالله ، فخذلكم عما هدانا من ذلك)(٢) .

---

١ - تفسير المنار ، لمحمد رشيد رضا ، دار الفكر ط / ٢ ، د.ت ، ٢ / ٣ - ٤ .

٢ - جامع البيان ٢ / ٧ .

٢ - تقديم الضمير :

أ - تقديم المضمر المتكلم :

قال تعالى : ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ۝﴾(١) .

قوله : ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ﴾

﴿قُلْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ، والهمزة للاستفهام مصحوباً بالإنكار عليهم . ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾ الخطاب لأهل الكتاب ، والمعنى أتجادلوننا في شأن الله ، واصطفائه النبي من العرب دونكم ، وتقولون : لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا ، وترونكم أحق بالنبوة منا ، ومحاجتهم راجعة إلى الحسد واعتقاد اختصاصهم بفضل الله تعالى وكرامته(٢) .

وقوله : ﴿وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾

(واقعة في موقع تأييد الإنكار ، أي بلغت بكم الوقاحة إلى أن تحاجونا في ابطال دعوة الإسلام بلا دليل سوى زعمكم أنّ الله اختصكم بالفضيلة ، مع أنّ اللّه ربنا كما هو ربكم فلماذا لا يمنُّ علينا بما منّ به عليكم)(٣) .

(والجملة حالية يعني أنّه مالكهم كلهم ، فهم مشتركون في العبودية ، فله أن

---

١ - البقرة الآية ١٣٩ .

٢ - انظر الكشاف ١ / ١٩٦ ، والبحر المحيط ١ / ٥٨٥ ، والتحرير والتنوير ١ / ٧٤٥ .

٣ - التحرير والتنوير ١ / ٧٤٥ .

يخص من شاء بما شاء من الكرامة ، والمعنى أنه مع اعترافنا كلنا أنّا مربوبون لرب واحد،فلا يناسب الجدال فيما شاء من أفعاله ، وما خص به بعض مربوباته من الشرف والزلفى ، لأنّه متصرف في كلهم تصرف المالك)(١) .

وقوله : ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾

عطف على الحال ، ارتقاء في إبطال مجادلتهم بعد بيان أنّ المربوبية تؤهل لإنعامه كما أهلتهم ، ارتقى فجعل مرجع رضى الله تعالى على عباده أعمالهم فإذا كان قد أكرمكم لأجل الأعمال الصالحة ، فلعله أكرمنا لأجل صالحات أعمالنا ، والمراد من ذلك النصيحة في الدين ، كأنه تعالى قال لنبيه : قل لهم هذا القول على وجه الشفقة والنصيحة(٢) .

وتقديم المجرور في ﴿وَلَنَا أَعْمَالُنَا﴾ للاختصاص ، أي لنا أعمالنا لا أعمالكم وهذا الأسلوب من ضروب القصر الإضافي، والمسمى بقصر القلب وعطف ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ﴾ احتراس لدفع توهم أن يكون المسلمون مشاركين للمخاطبين في أعمالهم(٣) . فأعمالنا الصالحة لا تنفعكم ، وأعمالكم القبيحة وبالها عليكم لا يلحقنا من جرائها ضرر ، فيُظن أن الدافع لهذا النصح هو دفع الضرر ، وإنّما المراد نصحكم وإرشادكم ، والدعوة عند ما تكون مجردة من طلب أي مردود نفعي سوى الإصلاح سرعان ما تجد لها قبولاً عند أصحاب الفطر السليمة والقلوب الحية ، فإن

---

١ - البحر المحيط ١ / ٥٨٥ .

٢ - انظر مفاتيح الغيب ٤ / ٨٠ ، والتحرير والتنوير ١ / ٧٤٦ .

٣ - انظر التحرير والتنوير ١ / ٧٤٦ .

تعلقت بأدران الماديات والمصالح الشخصية والمنافع الذاتية فبعداً ثم بعداً للقبول .

وقوله : ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾

(عطف آخر على جملة الحال ، وهي ارتقاء ثالث لإظهار أنّ المسلمين أحق بإضافة الخير ، فإنّهم وإن اشتركوا مع الآخرين في المربوبية وفي الصلاحية لصدور الأعمال الصالحة فالمسلمون قد أخلصوا دينهم لله ، ومخالفوهم قد خلطوا عبادة الله بعبادة غيره ، أي فلماذا لا نكون نحن أقرب إلى رضى الله منكم)(١) . وقد أخلصنا له في العبودية وهو المعيار الذي يكون التفاضل به والخصلة التي يكون صاحبها أولى بالله سبحانه من غيره ، فكيف تدّعون لأنفسكم ما نحن أولى به منكم وأحق ، وهذه الجملة من باب التعريض بالذم(٢) .

---

١ – التحرير والتنوير ١ / ٧٤٦ .

٢ – انظر البحر المحيط ١ / ٥٨٦ ، وفتح القدير ١ / ١٤٨ .

ب - تقديم ضمير المخاطب :

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾(١) .

لا يفتأ اليهود يتشدقون بدعاوى عريضة ، لا تقف عند حد ولا تعرف منتهى فإن عُذبوا فهي أيام قليلة ﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾(٢) ولن يدخل الجنة سواهم ومن يصطفون ﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ﴾(٣) ولا يتورعون في دعواهم حتى نسبوا النقص إليه سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾(٤) ولما حكى سبحانه هذه الدعاوى الباطلة أكذبهم وألزمهم الحجة فقال:﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(٥) وأنّى لهم ذلك .

وقوله : ﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ ﴾

(الضمير في قل:إمّا للنبي ﷺ ، وإمّا لمن ينبغي إقامة الحجة عليهم منه ومن غيره ، والدار الآخرة الجنة،وذلك معهود في إطلاقها ، قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ

---

١ - البقرة الآيات ٩٤-٩٥ .

٢ - البقرة جزء من الآية ٨٠ .

٣ - البقرة جزء من الآية ١١١ .

٤ - المائدة جزء من الآية ١٨ .

٥ - البقرة الآية ٩٤ .

الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾(١)
واستحسن أبو حيان تقدير مضاف أي نعيم الدار الآخرة)(٢) .

وقوله تعالى : ﴿عِندَ اللَّهِ﴾

(أي في حكم الله،كقوله تعالى:﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(٣) أي في حكمه ، وقيل المراد بالعندية هنا المكانة والمرتبة والشرف،لا المكان)(٤) .

وقوله : ﴿خَالِصَةً﴾

(نصب على الحال من الدار الآخرة ، أي سالمة لكم خاصة بكم ، ليس لأحد سواهم فيها حق ، يعني إن صح قولكم لن يدخل الجنة إلا من كان هودا)(٥) .

وقوله : ﴿مِّن دُونِ النَّاسِ﴾

دون هنا يستعمل للاختصاص وقطع الشركة(٦) .

و«الناس» (المراد بهم الجنس ، وقيل للعهد وهم المسلمون)(٧) .

والأول أولى وأظهر لدلالة اللفظ،وقوله:«خاصة» ولا معهود هنا(٨) .

---

١ - القصص الآية ٨٣ .

٢ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٧٧ .

٣ - المائدة جزء من الآية ٤٧ .

٤ - البحر المحيط ١ / ٤٧٨ .

٥ - الكشاف ١ / ١٦٦ .

٦ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٧٨ .

٧ - الكشاف ١ / ١٦٦ .

٨ - انظر مفاتيح الغيب ٣ / ١٧٤ ، والبحر المحيط ١ / ٤٧٨ .

وفي الآية تقديم «لكم» الواقع خبراً لكانت على المبتدأ «الدار الآخرة» (للحصر بناء على اعتقادهم كتقديمه في قول الكميت(١) :

لَكُم مَسْجِدَا اللَّه المَزُورَانِ وَالْحَصَى
لَكُمْ قَبْضَةٌ مِنْ بَيْنِ أَثْرَىْ وَأَقْتَرى(٢)

ويلحظ في تركيب الآية تأصل تلك الدعوى الموهومة في نفوس بني اسرائيل من خلوص الجنة لهم ، واختصاصهم بها ، ودلالات ذلك متتابعة في هذه الآية ، منها تقديم الجار والمجرور المقوّي لمعنى الاختصاص ، (والدار الآخرة مقترنة بقوله «عند الله» أي في حكمه ، وهو مقوٍ لما استقر في نفوس القوم من وهم بكون اقتصار دخول الجنّة عليهم حكماً أجراه الحكيم الخبير وقدره ، وتظلُّ القوة ملازمة لاستقرار ذلك الوهم حينما نذهب إلى كون « المراد بالعندية هنا المكانة والمرتبة والشرف لا المكان »(٣))(٤) .

ناهيك عن دلالة خالصة،وتعميقها لمعنى الخصوص ، واستعمال دون في هذه الآية،ودلالته الاختصاص وقطع الشركة ، وأخيراً اللام الجنسية في «الناس» وشمولها لكل أحد غير بني اسرائيل ، وبالرغم من كل هذه القوة الواهمة العميقة التي تشربتها نفوس بني إسرائيل ، إلا أنّها سرعان ما تتبدد وأسرع ما تتناهى

---

١ - البيت للكميت بن زيد الأسدي .
انظر : ديوان الكميت ، جمع الدكتور / داود سلوم (بيروت : عالم الطباعة ، ط٢ ، ١٤١٧هـ) ١ / ١٦٣ .
٢ - التحرير والتنوير ١ / ٦١٤ .
٣ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٧٨ .
٤ - تأملات في سورة البقرة ١ / ٥٤٠ .

عند ما يطالبون بأثر رجعي يؤكد صدق ما ادعوه «فتمنوا الموت إن كنتم صادقين» (لأنّ من أيقن أنّه من أهل الجنة اشتاق إليها، وتمنى سرعة الوصول إلى النعيم، والتخلص من الدار ذات الشوائب كما روى عن المبشرين بالجنة ما روى)(١) . كان علي رضي الله عنه يطوف بين الصفين في غلالة فقال له ابنه الحسن : ما هذا بزيّ المحاربين فقال : يا بني لا يبالي أبوك على الموت سقط ، أم عليه سقط الموت(٢) .

وعن حذيفة رضي الله عنه أنه كان يتمنى الموت ، فلما احتضر قال:حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم(٣) ، يعني على التمني ، وقال عمار بصفين : «الآن ألاقي الأحبة محمداً وحزبه»(٤) ويردد أنس بن النظر مودعاً الدنيا :«واها لريح الجنة أجدها من دون أحد»(٥) ، واسمع خبيب بن عدي يترنم منشداً :

وَلَسْتُ أُبَالِيْ حِيْنَ أُقْتَلُ مُسْلِمَا ... عَلَى أيِّ جَنْبٍ كَانَ فِيْ اللّهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِيْ ذَاتِ الإلَهِ وَإنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ(٦)

---

١ - الكشاف ١ / ١٦٦-١٦٧ .

٢ - انظر البداية والنهاية لأبن كثير ، ٧ / ٢٧٥ .

٣ - انظر حلية الأولياء لأبي نعيم مصر ، مطبعة السعادة ط / ١ ، ١٤١٢هـ . ١ / ٢٨٢ .

٤ - انظر البداية والنهاية ٧ / ٢٨٠ .

٥ - أخرجه البخاري في كتاب الجهاد ، باب قول الله عز وجل «من المؤمنين رجال صدقوا» برقم ٢٨٠٥ ، والترمذي في كتاب التفسير ، باب ومن سورة الأحزاب ، برقم ٤٠٤٨ .

٦ - انظر حياة الصحابة للكاندهلوي ، دار التراث العربي ، ط / ٢ ، ١٤٠٢هـ ، ١ / ٤٧٦ ، والبداية والنهاية ٤ / ٦٥ .

وكتب التاريخ والسير مليئة بتلك الصفحات المشرقة الوضاءة التي تصور حنين الأفذاذ وحبهم للموت ، لا سخطا من حياة لا يرضونها ولكنه الشوق إلى لقاء المحبوب،والتصديق الجازم بموعوده ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾(١) وكم اختزلت «ومنهم من ينتظر»من دلالات عظيمة .

وقوله : ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ قال ابن عباس :

(أي ادعوا بالموت على أي الفريقين أكذب)(٢)

واختار هذا القول ابن كثير ونصره ، ويرى أنّه من قبيل المباهلة قال : (ثم هذا الذي فسر به ابن عباس الآية ، هو المتعين ، وهو الدعاء على أي الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة ، ونظير هذه الآية قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(٣) والمعنى إن كنتم تعتقدون أنّكم أولياء الله من دون الناس ، وأنّكم من أهل الجنّة ومن عداكم من أهل النار ، فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم ، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لا محالة ، فلما تيقنوا ذلك وعلموا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم فعلم كل أحد باطلهم وعنادهم ، وسميت هذه المباهلة

١ - الأحزاب جزء من الآية ٢٣ .

٢ - انظر جامع البيان ١ / ٤٢٥ .

٣ - الجمعة الآيات ٦ - ٧ .

تمنيا ، لأنّ كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ، ولا سيما إذا كان في ذلك حجة له في بيان حقه وظهوره ، وكانت المباهلة بالموت لأنّ الحياة عندهم عزيزة عظيمة، لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت)(١) .

(ويعقب سبحانه على هذا التحدي بتقرير أنهم لن يقبلوا المباهلة ، ولن يطلبوا الموت ، لأنّهم يعلمون أنّهم كاذبون ، ويخشون أن يستجيب الله فيأخذهم وهم يعلمون أنّ ما قدموه من عمل لا يجعل لهم نصيباً في الآخرة ، وعندئذ يكونون قد خسروا الدنيا بالموت الذي طلبوه ، وخسروا الآخرة بالعمل السيء الذي قدموه .. ومن ثمّ فإنّهم لن يقبلوا التحدي ، فهم أحرص الناس على حياة)(٢) ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾(٣) .

قال ﷺ ﴿ **لو أنّ اليهود تمنو الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار** ﴾(٤) .

---

١ - انظر تفسير ابن كثير ١ / ١٩١-١٩٢ .

٢ - في ظلال القرآن ١ / ٩٢ .

٣ - البقرة الآية ٩٥ .

٤ - جامع البيان ١ / ٤٢٤ ، وانظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط٣ ، ١٤٠٢هـ) ٦/٣١٤ .

ج - تقديم ضمير الغائب :

قال تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾(١) .

عقبت الآيات المتقدمة من قوله:﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ ﴾(٢) بهذه الآية لأنّ تلك الآيات تضمنت الثناء على إبراهيم وبنيه،والتنويه بشأنهم والتعريض بمن لم يقتف آثارهم من ذريتهم ، والذين تذرعوا بدعوى أنّ صلاح آبائهم ينفعهم ، فجاءت هذه الآية لإفادة أنّ الجزاء بالأعمال لا بالاتكال(٣) ، ويعمق هذه الإفادة قوله ﷺ: ﴿ **من بطأ به عمله لم يسرع به نسبه** ﴾(٤) .

(فلكل حساب ، ولكل طريق ، أولئك أمة من المؤمنين فلا علاقة لها بأعقابها من الفاسقين ، إنّ هذه الأعقاب ليست امتداداً لتلك الأسلاف ، هؤلاء حزب وأولئك حزب ، لهؤلاء راية ، ولأولئك راية ... والتصور الإيماني في هذا غير التصور الجاهلي .. فالتصور الجاهلي لا يفرق بين جيل من الأمة وجيل ، لأنّ الصلة هي صلة الجنس والنسب ، أمّا التصور الإيماني فيفرق بين جيل مؤمن وجيل فاسق ، فليسا أمة واحدة وليسا بينهما صلة ولا قرابة،إنّهما أمتان مختلفتان في ميزان الله ، فهما مختلفتان في ميزان المؤمنين)(٥) .

---

١ - البقرة الآية ١٣٤ .   ٢ - البقرة جزء من الآية ١٢٤ .

٣ - انظر التحرير والتنوير ١ / ٧٣٥ .

٤ - قطعة من حديث أخرجه مسلم في كتاب الذكر ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن برقم ٢٦٩٩ ، وأبوداود في كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم برقم ٣٦٤٣ .

٥ - في ظلال القرآن ١ / ١١٦ .

قوله : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ ﴾ .

الإشارة إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب وبنيهم الموحدين(١) (والأمة أتت بمعان ، والمراد بها هنا الجماعة من أمّ بمعنى قصد ، وسميت كل جماعة يجمعهم أمر ما إمّا دين واحد ، أو زمان واحد أو مكان بذلك ، لأنّهم يؤم بعضهم بعضا ويقصده)(٢) .

(والأمّة في التصور الإيماني ، هي الجماعة التي تنتسب إلى عقيدة واحدة من كل جنس ومن كل أرض ، وليست هي الجماعة التي تنتسب إلى جنس واحد أو أرض واحدة ، وهذا هو التصور اللائق بالإنسان الذي يستمد إنسانيته من نفحة الروح العلوية ، لا من التصاقات الطين الأرضية)(٣) .

﴿ قَدْ خَلَتْ ﴾ (مضت لسبيلها) (٤) .

(وأصل الخلاء الفراغ ، فأصل معنى خلت:خلا منها المكان ، فأسند الخلو إلى أصحاب المكان على طريقة المجاز العقلي لنكتة المبالغة ، والخبر هنا كناية عن عدم انتفاع غيرهم بأعمالهم الصالحة ، وإلاّ فإنّ كونها خلت مما لا يحتاج إلى الإخبار به ، ولذا فقوله:«لَهَا مَا كَسَبَتْ ... الآية» بدل من جملة قد خلت ، بدل مفصل من مجمل)(٥).

---

١ - انظر جامع البيان ١ / ٥٦٣ .

٢ - روح المعاني ١ / ٣٨٩ .

٣ - في ظلال القرآن ١ / ١١٦ .

٤ - جامع البيان ١ / ٥٦٣ .

٥ - التحرير والتنوير ١ / ٧٣٥ .

وقوله : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ﴾

الخطاب لليهود أي (فلكل أجر عمله ، والمعنى إنّ انتسابكم إليهم لا يوجب انتفاعكم بأعمالهم ، وإنما تنتفعون بموافقتهم واتباعهم)(١) .

(وتقديم المسند «لها ولكم» لقصر المسند إليه على المسند)(٢) ، (أي ما كسبت الأمة لا يتجاوزها إلى غيرها وما كسبتم لا يتجاوزكم ، وهو قصر إضافي لقلب اعتقاد المخاطبين ، فإنّهم لغرورهم يزعمون أنّ ما كان لأسلافهم من الفضائل يزيل ما ارتكبوه هم من المعاصي ، أو يحمله عنهم أسلافهم)(٣) .

وقوله : ﴿وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

(تقرير وتحقيق لمعنى الاختصاص،فكل فريق مختص به عمله،عليه يحاسب،وعنه يسأل)(٤) .

---

١ - تفسير البيضاوي ١ / ٨٩ .

٢ - روح المعاني ١ / ٣٨٩ .

٣ - التحرير والتنوير ١ / ٧٣٥ .

٤ - التحرير والتنوير ١ / ٧٣٦ .

وقال تعالى : ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(١) .

قوله : ﴿وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾

(من الولد أو من دم الحيض أو منهما ، وذلك إذا أرادت المرأة فراق زوجها فكتمت حملها ، لئلا ينتظر بطلاقها أن تضع ، ولئلا يشفق على الولد فيترك تسريحها ، أو كتمت حيضها،وقالت وهي حائض قد طهرت،استعجالاً للطلاق)(٢) . فلا يحل لهن أن يكتمن ذلك لتنقضي العدة ولا يملك الزوج الرجعة إذا كانت له(٣).، ونسب الفعل «يكتمن» إليهن لأنهن مؤتمنات على ذلك(٤) .

وقوله : ﴿إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

(تهديد لهن على خلاف الحق ، ودل هذا على أنّ المرجع في هذا إليهن لأنّه أمر لا يعلم إلا من جهتهن ، ويتعذر إقامة البيّنة غالباً على ذلك ، فرد الأمر إليهن وتوعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحق ، إمّا استعجالاً منها لانقضاء العدة ، أو رغبة منها في تطويلها لما لها في ذلك من المقاصد ، فأمرت أن تخبر بالحق في ذلك من غير زيادة ولا نقصان)(٥) .

---

١ - البقرة الآية ٢٢٨ ، وسبق الحديث عن جزء منها في تقديم المسند اليه على الخبر الفعلي في مبحث تقديم المحلي بأل صـ ١٣١ - ١٣٥ .

٢ - الكشاف ١ / ١٢٦ .

٣- انظر جامع البيان ٢ / ٤٤٦ .

٤ - انظر البحر المحيط ٢ / ١٩٨ .

٥ - تفسير ابن كثير١ / ٤٠٥ . ويلاحظ في هذا النص اختلاف الضمائر ، وتحولها من ضمير الجمع الغائب إلى المفرد الغائب .

وقوله : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاحًا ﴾

(أي وزوجها الذي طلقها أحق بردها ، مادامت في عدتها ، إذا كان مراده بردها الإصـــلاح)(١) . وصحة الرجعة ليست معلقة بقصد الإصلاح بل هي صحيحة ولو انتفى هذا الشرط بدلالة قوله سبحانه ﴿ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا ﴾(٢) والغرض من الشرط ، الحث على المراجعة لقصد الإصلاح والزجر عن قصد المضارة وليس للتقييد(٣) .

(وأحق هنا بمعنى حقيق عبر عنه بصيغة التفضيل للمبالغة ، كأنه قيل للبعولة حق الرجعة ، أي حق محبوب عند الله تعالى بخلاف الطلاق فإنّه مبغوض ، ولذا ورد للتنفير عنه «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»(٤) وإنّما لم يبق على معناه من المشاركة والزيادة إذ لاحق للزوجة في المراجعة كما لا يخفى)(٥) وجوز الشهاب أن يكون باقيا على أصله والمراد : وبعولتهن أحق بالرجعة منهن بالآباء(٦) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ ﴾

(أي للنساء على بعولتهن من الحقوق واللوازم، مثل الذي عليهن لأزواجهن من الحقوق اللازمة والمستحبة ، ومرجع الحقوق بين الزوجين إلى المعروف ، وهو: العادة الجارية في ذلك البلد، وذلك الزمان من مثلها لمثله ، ويختلف ذلك باختلاف الأزمنة

---

١ - تفسير ابن كثير ١ / ٤٠٥ .   ٢ - البقرة جزء من الآية ٢٣١ .

٣ - انظر : حاشية الروض المربع شرح زاد المستقنع لعبد الرحمن بن قاسم ط/ ٥ ، ١٤١٣هـ ، ٦ / ٦٠٢ .

٤ - رواه ابن ماجه في كتاب الطلاق برقم ٢٠١٨ ، وأبوداود في كتاب الطلاق باب في كراهية الطلاق ، وكلاهما رواه من طريق محارب بن دثار عن ابن عمر قال الخطابي : المشهور في هذا عن محارب بن دثار مرسل عن النبي ﷺ ليس منه ابن عمر ، انظر معالم السنن للخطابي في هامش سنن أبي داود ت/ عزت الدعاس وعادل السيد (بيروت : دارالحديث ط / ١ ، ١٣٨٩) وقال الألباني ضعيف ، انظر : إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل للألباني (بيروت : المكتب الإسلامي ط / ٢ ، ١٤٠٥هـ) ٧ / ١٠٧ .

٥ - روح المعاني ١ / ٥٢٩ .   ٦ - انظر : حاشية الشهاب ٢ / ٥٣٤ .

والأمكنة ، والأحوال والأشخاص والعوائد)(١) .

والمراد بالمماثلة مماثلة الواجب الواجب في كونه حسنة لافي جنس الفعل ، فلا يجب عليه إذا غسلت ثيابه أن يفعل ذلك لها ، ولكن يقابله بما يليق للرجال من حسن العشرة والنفقة وترك المضارة وغيرها(٢) .

(وتقديم الظرف «لهن» للاهتمام بالخبر ، لأنّه من الأخبار التي لا يتوقعها السامعون فقدم ليصغى السامعون إلى المسند إليه ، بخلاف مالو أخر فقيل : ومثل الذي عليهن لهن بالمعروف ، وفي هذا إعلان لحقوق النساء وإصداع بها وإشادة بذكرها ومثل ذلك من شأنه أن يتلقى بالاستغراب،فلذلك كان محل الاهتمام)(٣) وإنّ مما يدعو إلى ذلك (أن حقوق الرجال على النساء مشهورة مسلمة من أقدم عصور البشر،فأمّا حقوق النساء فلم تكن مما يلتفت إليه أو كانت متهاونا بها ، وموكولة إلى مقدار حظوة المرأة عند زوجها ، حتى جاء الإسلام فأقامها ، وأعظم ما أسست به هو ما جمعته هذه الآية)(٤) .

والأثر الذي يذكره ابن عباس عن عمر، فيه تأكيد لهذه النظرة القاصرة تجاه المرأة وتهذيبها في آن واحد تأثراً بتوجيهات القرآن،ومن أعظمها هذه الآية، والتي تضمنت تقديم حق النساء على حق الرجال ، قال ابن عباس فيما يرويه عن عمر : كنا في الجاهلية لا نعد النساء شيئاً فلما جاء الإسلام ، وذكرهن الله رأينا لهن بذلك علينا حقا من غير أن ندخلهن في شيء من أمورنا(٥) .

---

١ - تيسير الكريم الرحمن للسعدي ، ت / محمد زهري النجار (الرياض : مكتبة الخلفاء ، ط / ١ ، ١٤٠٨هـ) ١ / ٢٨٤ .

٢ - انظر تفسير النسفي ١ / ١٢٧ .

٣ - التحرير والتنوير ٢ / ٣٩٦-٣٩٧ .

٤ - التحرير والتنوير ٢ / ٣٩٦ .

٥ - انظر فتح الباري ٩ / ٣٥٠ .

٣ - تقديم اسم الإشارة :

قال تعالى : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾(١) .

قوله : ﴿ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾

أمر بقتلهم(٢) و«حيث ثقفتموهم» (أي وجدتموهم ومنه قول حسان(٣) رضي الله عنه :

فإمّا تَثْقَفَنَّ بنو لؤَيٍّ جُذَيمةَ إنّ قَتَلَهُمُ دَوَاءُ)(٤)

(والثقف وجود على وجه الأخذ والغلبة ومنه: رجل ثقف سريع الأخذ لأقرانه)(٥) .

والمعنى : اقتلوهم في أي مكان تمكنتم من قتلهم سواء في حل أو حرم(٦) .

وقوله : ﴿ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ﴾

الخطاب للمهاجرين ، أي أخرجوهم من المكان الذي أخرجوكم منه يعني مكة ،

---

١ - البقـرة الآية ١٩١ .
٢ - انظر البحر المحيط ٢ / ٧٣ .
٣ - البيت لحسان بن ثابت من قصيدة يمدح بها الرسول ﷺ ويهجو أبا سفيان ومطلعها :

عَفَتْ ذاتُ الأصَابعِ فَالجِوَاءُ إلى عَذْرَاءَ مَنْزِلُها خَلاَءُ

انظر ديوانه شرح عبدأ . مهنّا (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ، ١٤٠٦هـ) صـ ٢١ والقافية فيه شفاء وليس دواء .
٤ - روح المعاني ١ / ٤٧١ .
٥ - الكشاف ١ / ٢٣٣ .
٦ - انظر جامع البيان ٢ / ١٩١ .

وهو أمر بالإخراج أمر تمكين ، فكأنه وعد من الله بفتح مكة ، وقد امتثل رسول الله ﷺ أمر ربه ، فأخرج من مكة من لم يسلم بعد فتحها(١) .

وقوله : ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾

الفتنة أصلها عرض الذهب على النار ليختبر جودته ، قال ابن فارس : «الفاء والتاء والنون أصل صحيح يدل على ابتلاء واختبار ... من ذلك الفتنة ، وفتنت الذهب بالنار إذا امتحنته»(٢) .

وقد ورد في القرآن على اثني عشر وجهاً* ، والفتنة تستعمل فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾(٣) . وهي في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالاً(٤) .

واختلف بالمراد بالفتنة هنا ، وقد أوصلها أبو حيان إلى سبعة معان(٥) ، وأكثر المفسرين على ما أوجزه ابن الجوزي بقوله:(فأما الفتنة ففيها قولان ، أحدهما : أنّها الشرك قاله ابن مسعود ، وابن عباس ، وابن عمر ، وقتادة ، والثاني:أنها ارتداد المؤمن إلى عبادة الأوثان قاله مجاهد ، فيكون معنى الكلام على القول الأول : شرك القوم أعظم من قتلكم إياهم في الحرم ، وعلى الثاني : ارتداد المؤمن إلى الأوثان أشد عليه من أن يقتل محقا)(٦) .

---

١ - انظر جامع البيان ٢ / ١٩١ ، والبحر المحيط ٢ / ٧٤ .

٢ - انظر معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، مادة فتن .

٣ - الأنبياء جزء من الآية ٣٥ .

* ثلاثة مواضع وردت بمعنى العذاب فتكون الأوجه عشرة .

٤ - انظر بصائر ذوي التمييز ٤ / ١٦٧-١٦٨ .

٥ - انظر البحر المحيط ٢ / ٧٤ .

٦ - زاد المسير ١ / ١٩٨ - ١٩٩ .

والظاهر في دلالتها أنّها تتسع حتى تشمل كل فتنة عن الدين بأي سبب كان وعلى أي صورة وقعت ، فهي أشد من القتل لأنّها اعتداء على أقدس ما في الحياة الإنسانية ، وهي أشد من القتل لأنّها تخرج الفرد عن ملته وتفصله عن جماعته ، وهي أشد من القتل لشدة تبعاتها من عذاب وعقاب دائم والقتل ليس كذلك .

وقوله : ﴿ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ ﴾

(نهي للمؤمنين أن يبدأوا القتال في ذلك الموطن الشريف حتى يكون هم الذين يبدأون ، فالنهي عن المقاتلة التي هي فعل اثنين باعتبار نهيهم عن الابتداء بها الذي يكون سببا لحصولها ، وكذا كونها غاية باعتبار المفاتحة ، لئلا يلزم كون الشيء غاية لنفسه)(١) .

(والحظ دقة التعبير في التركيب ، فالمسلمون المعظمون لشعائر الله ينهون عن قتال المشركين عند المسجد الحرام وبالقرب منه ، بمعنى أنّ المكان المجاور للمسجد الحرام ذاته قد اكتسب شيئاً من حرمة المسجد الحرام الخاصة به ، بينما ينبه السياق إلى احتمال اعتداء المشركين على المسلمين في المسجد الحرام ذاته ، وليس عند المسجد الحرام ، أو في الحرم ، وذلك امتداد لاستهانة المشركين بشعائر الله تعالى ويعباده المؤمنين)(٢) .

وقوله : ﴿ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ ﴾

(تصريح بمفهوم الغاية وفيه محذوف ، أي فإن قاتلوكم فيه فاقتلوهم فيه ، وفيه

---

١ - روح المعاني ١ / ٤٧١ .

٢ - تاملات في سورة البقرة ٢ / ١٠٨١ .

نفي للحرج عن القتال في الحرم الذي خاف منه المسلمون وكرهوه ، أي إن قاتلوكم هناك فلا تبالوا بقتالهم لأنّهم الذين هتكوا الحرمة ، وأنتم في قتالهم دافعون القتل عن أنفسكم ، والعدول عن صيغة المفاعلة التي ورد بها النهي والشرط إلى فعل الأمر «فاقتلوهم» فيه بشارة عظيمة بالغلبة عليهم ، أي هم من الخذلان وعدم النصرة،بحيث أمرتم بقتلهم ، لا بقتالهم فأنتم متمكنون منهم بحيث لا يحتاجون إلا إلى إيقاع القتل بهم إذا ناشبوكم القتال ، لا إلى قتالهم)(١) .

وقوله : ﴿ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴾

(أي القتل والإخراج «جزاء الكافرين» مطلقا بأن يفعل بهم مثل ما فعلوا بغيرهم)(٢) (وفي إضافة الجزاء إلى الكافرين إشعار بعلية القتل)(٣) .

و«كذلك» خبر مقدم،والتقديم للاهتمام به،والقصد منه الإساءة اليهم والزراية بهم ، فأي وقع على النفس أشد من قولك القتل جزاؤك . (والإشارة للتهويل،أي لا يقل جزاء المشركين عن القتل ، ولا مصلحة في الإبقاء عليهم ، وهذا تهديد لهم)(٤) .

---

١ - انظر البحر المحيط ٢ / ٧٥ .

٢ - فتح البيان في مقاصد القرآن ١ / ٣٨٧ .

٣ - البحر المحيط ٢ / ٧٥ .

٤ - التحرير والتنوير ٢ / ٢٠٦ .

٤ – تقديم الاسم الموصول :

قال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(١)

قوله : ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ﴾

يؤلون :أي يحلفون وقرأ أبّي،وابن عباس «للذين يقسمون» ومنه قول الشاعر(٢) :

قَليلُ الألا يا حافِظٌ لِيَمينِهِ   فإن سَبَقت منهُ الأليّةُ بَرَّت(٣)

هذا المعنى اللغوي للإيلاء،وأما في الشرع : (فهو الحلف على ترك وطء الزوجة أكثر من أربعة أشهر)(٤) .

قال ابن عباس : (كان إيلاء الجاهلية السنة والسنتين وأكثر من ذلك ، يقصدون بذلك إيذاء المرأة عند المساءة ، فوقت لهم أربعة أشهر ، فمن أتى بأقل من ذلك فليس بإيلاء حكمي)(٥) .

(فإذا حلف الرجل أن لا يجامع زوجته مدة ، فلا يخلو إمّا أن يكون أقل من أربعة أشهر،أو أكثر منها ، فإن كانت أقل ، فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته ، وعليها أن تصبر،وليس لها مطالبة بالفيئة في هذه المدة ، فأمّا إن زادت

١ – البقرة الآيات ٢٢٦ – ٢٢٧ .

٢ – البيت لكثيّر عزة من قصيدة يرثي بها عبدالعزيز بن مروان ومطلعها :

أأطلالَ دارٍ بالنّياع فحمَّتِ   سألت فلما استعجمت ثمَّ صمَّتِ

انظر ديوانه ، شرحه مجيد طراد (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط / ١ ، ١٤١٣هـ) صـ ٥٩ .

٣ – انظر الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٦٨ .

٤ – الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، لابن قدامه (بيروت: المكتب الإسلامي ،ط/ ٢، ١٣٩٩هـ) ٣/ ٢٣٨ .

٥ – الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٦٨ .

المدة على أربعة أشهر ، فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر إما أن يفيء ، وإما أن يطلق ، فيجبره الحاكم على هذا لئلا يضر بالمرأة)(١) .

والإيلاء يقع في حال الرضى والغضب ، وهو قول الجمهور،مثله مثل الطلاق والظهار وسائر الأيمان ، وعليه ظاهر القرآن وعمومه ، ويرى ابن عباس والحسن والنخعي وغيرهم ، أن الإيلاء إنما يكون في حال الغضب دون الرضى ، وتخصيصه بحال الغضب يحتاج إلى دليل(٢) .

(ومجيء اللام في «للذين يؤلون» لبيان أن التربص جعل توسعة عليهم،فاللام للأجل مثل «هذا لك» ويعلم منه معنى التخيير فيه ، أي ليس التربص بواجب ، فللمولي أن يفيء في أقل من الأشهر الأربعة)(٣) وعدي الفعل يؤلون بمن،وحقه أن يعدَّى بعلى ، لأنّه ضمن معنى البعد هنا فكأنه قيل : يبعدون من نسائهم مؤلين،أو مقسمين(٤) .

وقوله : ﴿تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾

(التربص الانتظار والتوقف أضيف إلى الظرف اتساعا،أي لهم أن ينتظروا في هذه المدة من غير مطالبة بفيء،أو طلاق)(٥) .

(والتوقيت بهذه المدة دفعا للضرار عن الزوجة ، وقد كان أهل الجاهلية يؤلون السنة والسنتين وأكثر من ذلك،يقصدون بذلك ضرار النساء ، وقد قيل إن الأربعة

---

١ - تفسير ابن كثير ١ / ٤٠١ .

٢ - انظر : المغني لابن قدامة (الرياض : مكتبة الرياض الحديثة ، ١٤٠١هـ) ٧ / ٣١٤-٣١٥ .

٣ - التحرير والتنوير ٢ / ٣٨٤ .

٤ - انظر : الكشاف ١ / ٢٦٥ .

٥ - تفسير أبي السعود ١ / ٣٤٩ .

الأشهر هي التي لا تطيق المرأة الصبر عن زوجها زيادة عليها)(١) ، ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يطوف ليلة بالمدينة فسمع امرأة تنشد :

ألا طال هذا الليل واسودّ جانبه ... وأرقني أن لا حبيب ألاعبه

فوالله لولا الله لاشيء غيره ... لزعزع من هذا السرير جوانبه

مخافة ربي والحياءُ يكفني ... وإكرام بعلي أن تنال مراكبه

فلما كان من الغد استدعى عمر تلك المرأة وقال لها : أين زوجك ؟ فقالت بعثت به إلى العراق ، فاستدعى نساء ، فسألهن عن المرأة كم مقدار ما تصبر عن زوجها ؟ فقلن شهرين ، ويقل صبرها في ثلاثة أشهر ، وينفذ صبرها في أربعة أشهر، فجعل عمر مدة غزو الرجل أربعة أشهر ، فإذا مضت أربعة أشهر استرد الغازين،ووجه بقوم آخرين(٢) .

قال القرطبي معلقاً : (هذا والله أعلم يقوي اختصاص مدة الإيلاء بأربعة أشهر)(٣) .

(وتقديم «للذين» على المبتدأ المسند إليه ، وهو تربص ، للاهتمام بهذه التوسعة التي وسع الله على الأزواج ، وتشويق لذكر المسند إليه)(٤) . فهذه المدة كفيلة بالإصلاح بين الزوجين ، وكفيلة بتكوين نظرة متأملة للزوج واختبار لمشاعره ،

---

١ - فتح القدير ١ / ٢٣٢ .

٢ - عزاها ابن كثير إلى موطأ الإمام مالك عن عبدالله بن دينار ولم أجدها ، فهي ليست في رواية يحيى الليثي ولا القعنبي ولا ابن القاسم ولا محمد بن الحسن الشيباني ، لكن لعلها في رواية أخرى غير هذه وقال معلقا عليها وقد روى هذا من طرق وهو من المشهورات . انظر تفسير ابن كثير ١ / ٤٠٣ ، وقد أخرج هذا الأثر سعيد بن منصور في سننه في باب الغازي يطيل الغيبة عن أهله برقم ٢٤٦٣ ، والبيهقي في السنن الكبرى مختصرا في باب الإمام لا يجمر بالغزى برقم ١٧٨٥٠ .

٣ - الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٧٢ .

٤ - التحرير والتنوير ٢ / ٣٨٥ .

وتشويق لذكر المسند إليه فالسامعون لم يبتدعوا الإيلاء ، بل كان موجوداً منذ الجاهلية،وأحكامه متروكه للزوج ليس للمرأة فيها أدنى حق ، فإذا تقدم المسند اشتاقت النفس لمعرفة المسند إليه ، فإذا سمعته تمكن ، منها فضل تمكن،وعرفته حق المعرفة وهو المقصود بالكلام .

قوله : ﴿فَإِن فَاءُوا﴾

أي (إن رجعوا ، والرجوع لايكون إلاّ عن مرجوع عنه ، وقد تقدم منه يمين واعتقاد ، فأمّا اليمين فيكون الرجوع عنها بالكفارة ، لأنها تحلها ، وأما الاعتقاد فيكون الرجوع عنه بالفعل ، لأنّ اعتقاده مستتر لا يظهر إلا بما يكشف عنه من فعل يتبين به ، كحلِّ اليمين بالكفارة ، أو إتيان ما امتنع منه ، فأما مجرد قوله : رجعت فلا يعد فيئا)(١) .

قال ابن المنذر : (أجمع كلُّ من يحفظ عنه من أهل العلم على أنّ الفيء الجماع لمن لا عذر له ، فإن كان له عذر مرض أو سجن أو شبه ذلك ، فإنّ ارتجاعه صحيح وهي امرأته فإذا زال العذر بقدومه من سفره ، أو إفاقته من مرضه ، أو انطلاقه من سجنه فأبى الوطء ، فرّق بينهما إن كانت المدة قد انقضت)(٢) .

قوله : ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

أي (غفور لما كان منهم من الكذب في أيمانهم ، بأن لا يأتوهن ثم أتوهن ، وبما سلف منهم إليهن من اليمين على مالم يكن لهم أن يحلفوا عليه فحلفوا عليه . رحيم بهم وبغيرهم من عباده المؤمنين)(٣) .

---

١ - أحكام القرآن لابن العربي ، ت / محمد عبدالقادر عطا (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، د.ت) ١ / ٢٤٥-٢٤٦ .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٧٢ .

٣ - جامع البيان ٢ / ٤٢١ .

٥ - تقديم ما عرف بالألف واللام :

قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾(١)

من للتبعيض ، والناس اسم جمع لا واحد له من لفظه ، ومرادفه أناسي جمع إنسان وأصل «ناس» أناس حذفت همزته تخفيفاً ، وحذفها مع التعريف كاللازم ، لايكاد يقال الأناس، ومادته عند سيبويه والفراء همزة ونون وسين، وجاء على الأصل في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾(٢) ومادته ومادة الإنس واحدة وسموا بذلك لظهورهم ، وأنهم يؤنسون أي يبصرون ، كما سمي الجن لاجتنانهم(٣) .

والتعريف في الناس(للجنس ، أو للعهد ، فكأنّه قال ومن الكفار السابق ذكرهم من يقول)(٤) .

وقوله : ﴿مَن يَقُولُ﴾

(من موصولة ، والمراد بها فريق وجماعة بقرينة قوله «وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ» وما بعده من صيغ الجمع)(٥) .

«ومَن» من الأسماء التي لفظها مفرد مذكر دائما ، وتنطلق عليه فروع المفرد

---

١ - البقرة الآية ٨ ، وسبق الحديث عن سياق الآية وحديثها عن المنافقين في تقديم المسند إليه على الخبر المشتق في مطلب ضمير الغائب صـ ١٥٣ .

٢ - الإسراء جزء من الآية ٧١ .

٣ - انظر الكشاف ١ / ٦٢ ، والبحر المحيط ١ / ١٧٩ ، ١٨٠ .

٤ - البحر المحيط ١ / ١٨٢ .

٥ - التحرير والتنوير ١ / ٢٦٢ .

والمذكر إذا كان معناها كذلك، فتارة يراعى اللفظ فيفرد ما يعود على «مَن» مذكرا، وتارة يراعى المعنى فيحمل عليه ... والبدء بالحمل على اللفظ ثم على المعنى أولى من الابتداء بالحمل على المعنى ثم يرجع إلى الحمل على اللفظ)(١) (فتوحيد الضمير في يقول باعتبار لفظه «مَنْ» وجمعه في قوله ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ وما بعده باعتبار معناها)(٢) وفي التعبير بـ«يقول» في مثل هذا المقام، إيماء إلى أنّ ذلك قول غير مطابق للواقع، لأن الخبر المحكي عن الغير إذا لم يتعلق الغرض بذكر نصه وحكى بلفظ «يقول» أومأ ذلك إلى أنّه غير مطابق لاعتقاده، أو أنّ المتكلم يكذبه في ذلك، ففيه تمهيد لقوله ﴿وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾) (٣)

وقوله: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾

﴿وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ يعني بالبعث يوم القيامة، وإنما سمى يوم القيامة اليوم الآخر لأنّه أخر يوم، لا يوم بعده سواه، وتخصيصهما للإيمان بالله وباليوم الآخر بالذكر للإيهام بأنّهم احتازوا الإيمان من جانبيه واكتنفوه من قطريه وأحاطوا بأوله وآخره(٤) (إذ الإيمان بالله هو مبدأ الاعتقادات كلها، وهو أصل العمل، ولا يصح الاعتقاد إلا بتوحيده سبحانه، والإيمان باليوم الآخر، لأنّه الوازع والباعث في الأعمال كلها وفيه صلاح الحال العملي)(٥)، وفي تكرير الباء إفادة (أنهم ادعوا كل واحد من الإيمانين على صفة الصحة والاستحكام(٦).

---

١ - انظر البحر المحيط ١ / ١٨٢ - ١٨٣ .

٢ - تفسير أبي السعود ١ / ٧٠ .

٣ - جامع البيان ١ / ١١٧ .

٤ - انظر الكشاف ١ / ٦٣ .

٥ - انظر التحرير والتنوير ١ / ٢٦٢ .

٦ - الكشاف ١ / ٦٣ .

(وتقديم الخبر هنا للتشويق إلى استعلام المبتدأ وليس فيه إفادة تخصيص ، وإذا علمت أن قوله (ومن الناس) مؤذن بأن المتحدث عنهم ستساق في شأنهم قصة مذمومة، وحالة شنيعة، إذ لا يستر ذكرهم إلاّ لأنّ حالهم من الشناعة بحيث يستحي المتكلم أن يصرح بموصوفها ، وفي ذلك من تحقير شأن النفاق ومذمته أمر كبير ، فوردت في شأنهم ثلاث عشرة آية في مقدمة هذه السورة نعي عليهم فيها خبثهم ، ومكرهم ، وسوء عواقبهم وسفه أحلامهم ، وجهالتهم ، وأردف ذلك كله بشتم واستهزاء ، وتمثيل حالهم في أشنع الصور وهم أحرياء بذلك)(١) .

(ولو أخر لكان موقعه زائداً لحصول العلم بأن ما ذكره المتكلم لا يقع إلا من إنسان)(٢) .

ومثل هذه في سورة البقرة قوله سبحانه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾(٣) وقوله عز شأنه ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾(٤) .

---

١ - التحرير والتنوير ١ / ٢٦٠ - ٢٦١ .

٢ - المرجع نفسه ١ / ٢٦٠ .

٣ - البقرة جزء من الآية ١٦٥ .

٤ - البقرة الآية ٢٠٤ .

قال تعالى : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١)

(الرجل معروف ، يجمع على رجال ، وهو مشتق من الرجلة وهي القوة ، يقال : جل بين الرجولة والرجلة ، وهو أرجل الرجلين ، أي : أقواهما ، وفرس رجيل : قوي لى المشي ، ومنه سميت : الرجل لقوتها على المشي ، وارتجل الكلام قوى عليه ، ترجل النهار ، قوي ضياؤه ، ويقال رجل ورجلة كما قالوا امرؤ وامرأة)(٢) .

(وأتى بالمظهر هنا عوض عن المضمر ، إذ كان لو أتى على المضمر لقال : ولهم عليهن درجة ، للتنوية بذكر الرجولية التي بها ظهرت المزية للرجال على النساء ، ولما كان يظهر في الكلام بالإضمار من تشابه الألفاظ ، وأنت تعلم ما في ذاك ، إذ كان يكون : ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف ، ولهم عليهن درجة ، ولقلق الإضمار حذف مضمران ومضافان من الجملة الأولى)(٣) (والدرجة ما يرتقى عليه في سلم أو نحوه ، وصيغت بوزن فعلة من درج إذا انتقل على بطء ومهل ، يقال : درج الصبي إذا ابتدأ في المشي ، وهي هنا استعارة للرفعة المكنى بها عن الزيادة في الفضيلة الحقوقية ، وذلك أنّه تقرر تشبيه المزية في الفضل بالعلو والارتفاع ، فتبع ذلك تشبيه الأفضلية بزيادة الدرجات في سير الصاعد ، لأنّ بزيادتها زيادة الارتفاع)(٤) .

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٢٨ ، وقد سبق الحديث عن أجزاء من الآية في موضعين الأول : في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي مطلب تقديم المحلى بأل صـ ١٣١-١٣٥ ، الثاني : في تقديم المسند شبه الجملة ، في تقديم ضمير الغائب صـ ٢١٩-٢٢٢ .

٢ - البحر المحيط ٢ / ١٨٦ .

٣ - المصدر نفسه ٢ / ٢٠٠ .

٤ - التحرير والتنوير ٢ / ٤٠١ .

وذكر المفسرون لقوله سبحانه «درجة» معاني عدة ، أوصلها بعضهم إلى عشرة(١) . وهي في جملتها تعني الرفعة ، وتقتضي التفضيل وتشعر بأنّ حق الزوج عليها أوجب من حقها عليه ، وفي ذلك روى ابن ماجة من طريق عائشة ، أن رسول الله ﷺ قال : **«لو أمرت أحداً أن يسجد لأحد ، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها»**(٢) ... وتلمح للمزايا التي وهبها الله للرجل وكونها في طبيعته النفسية وقوته البدنية وما ترتب عليها من أعمال وواجبات لكل منهما .

وقوله «وللرجال» (خبر عن درجة ، قدم للاهتمام بما تفيده اللام من معنى استحقاقهم تلك الدرجة ، كما أشير إلى ذلك الاستحقاق في قوله تعالى : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾(٣) .

وفي هذا الاهتمام مقصدان ، أحدهما : دفع توهم المساواة بين الرجال والنساء في كل الحقوق ، توهما من قوله : ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ﴾(٤) وثانيهما : تحديد إيثار الرجال على النساء بمقدار مخصوص ، لإبطال إيثارهم المطلق الذي كان متبعا في الجاهلية)(٥) .

---

١ - انظر روح المعاني ٢ / ٨٣ .

٢ - جزء من حديث رواه ابن ماجة في كتاب النكاح باب حق الزوج على المرأة برقم ١٨٥٢ . قال الهيثمي وفيه علي بن زيد وحديثه حسن وقد ضعف ، انظر مجمع الزوائد ٤ / ٣١٠ ، لكن للحديث طرق آخر وله شاهدان من حديث طلق بن علي رواه الترمذي والنسائي ، ومن حديث أم سلمة رواه الترمذي وابن ماجة .

٣ - النساء جزء من الآية ٣٤ .

٤ - البقرة جزء من الآية ٢٢٨ .

٥ - التحرير والتنوير ٢ / ٤٠١ .

٦ - تقديم المضاف المجرور :

قال تعالى : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(١)

قوله : ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾

(المرض حقيقة فيما يعرض للبدن ، فيخرجه عن الاعتدال الخاص به ويوجب الخلل في أفعاله ، ومجازاً في الأعراض النفسانية ، التي تخل بكمالها كالجهل ، وسوء العقيدة والحسد ، والضغينة ، وحب المعاصي ، لأنها مانعة من نيل الفضائل ، أو مؤدية إلى زوال الحياة الحقيقية الأبدية)(٢) .

والمراد به في هذه الآية ما في قلوبهم من الغل ، والحسد ، وسوء الاعتقاد(٣) ، ولما كان معلوما بالخبر عن مرض القلب أنه معنى به مرض ما هم معتقدوه من الاعتقاد استغنى بالخبر عن القلب بذلك ، والكناية عن تصريح الخبر عن ضمائرهم واعتقاداتهم كما قال عنترة(٤) .

هلاّ سألتِ الخيلَ يا ابْنَةَ مالكٍ إنْ كُنتِ جاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعلَمِي

يريد : هلا سألت أصحاب الخيل ، وكذلك الآية «في قلوبهم مرض» إنما يعني في اعتقاد قلوبهم ، فأجتزأ بدلالة الخبر عن قلوبهم ، على معناه عن تصريح الخبر عن اعتقادهم(٥) .

---

١ - البقرة الآية ١٠ . ٢ - تفسير البيضاوي ١ / ٢٦ .

٣ - انظر جامع البيان ١ / ١٢١ ، والكشاف ١ / ٦٧ .

٤ - هذا البيت من معلقته ومطلعها :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرفت الدار بعد توهم

انظر ديوان عنتره (بيروت : دار صادر ، د.ت) صـ ٢٥ .

٥ - انظر جامع البيان ١ / ١٢١ .

والتنكير في مرض (للدلالة على كونه مبهما غير ما يتعارفه الناس من الأمراض)(١) . ولم يجمع كما جمع القلوب ، لأن تعداد المحال يدل على تعداد الحال عقلا فاكتفى بجمعها عن جمعه(٢) .

(والجملة مقررة لما يفيده قوله تعالى «وما هم بمؤمنين» من استمرار عدم إيمانهم، أو تعليل له ، كأنّه قيل مالهم لايؤمنون فقيل في قلوبهم مرض يمنعهم)(٣) .

وتقديم الخبر «في قلوبهم» للاهتمام به إذ القلوب هي محل الفكرة ، وكل أثر سلبياً كان أو ايجابياً منطلقه ومنشأه كان فكرة ، وحياة المنافقين بخداعها ، وحسدها ومكرها ، وجبنها ، وجميع نقائصها لم تكن لو كانت قلوبهم صالحة تنشد الخير ، فالقلب ملك للأعضاء ، وبتوجيهه تنقاد ، فإن هو صلح صلحت ، وإن هو فسد فسدت وأمعنت فسادا(٤) . (وللاشعار بأنّ المرض مختص بها مبالغة في تعلق هذا الداء بتلك القلوب ، لما كانوا عليه من شدة الحسد وفرط العداوة)(٥) .

وقوله : ﴿فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾

(الزيادة تجاوز المقدار المعلوم)(٦) .

ومعناها هنا أنه كلما أنزل الله على رسوله الوحي فسمعوه كفروا به فازدادوا كفراً إلى كفرهم ، أو كلما زاد رسوله نصرة وتبسطا في البلاد

١ - تفسير أبي السعود ١ / ٧٣ .
٢ - انظر : البحر المحيط ١ / ١٨٨ .
٣ - تفسير أبي السعود ١ / ٧٣ .
٤ - إشارة إلى الحديث «ألا وان في الجسد مضغة ...» وهو قطعة من حديث النعمان بن بشير «إن الحلال بين ..» أخرجه البخاري في كتاب الإيمان . باب فضل من استبرأ لدينه ، برقم ٥٢ ، ومسلم في كتاب البيوع ، باب أخذ الحلال ، برقم ١٥٩٩ .
٥ - فتح القدير ١ / ٤٢ .
٦ - البحر المحيط ١ / ١٨٨ .

ازداودا حسداً وغلا وبغضاً(١) .

(وتعدية الزيادة إليهم لا إلى القلوب إذ قال تعالى:« فزادهم » ولم يقل فزادها يحتمل وجهين :

أحدهما : أن يكون على حذف مضاف : أي فزاد الله قلوبهم مرضا .

والثاني : أنّه زاد ذواتهم مرضا ، لأن مرض القلب لسائر الجسد ، فصح نسبة الزيادة إلى الذوات ، ويكون ذلك تنبيها على أن في ذواتهم مرضا ، وإنّما أضاف ذلك إلى قلوبهم ، لأنّها محل الإدراك والعقل)(٢) .

وقوله : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(الأليم هو الموجع ، ومعناه : ولهم عذاب مؤلم ، فصرف مؤلم إلى أليم كما يقال: ضرب وجيع بمعنى موجع ومنه قول ذي الرمة(٣) :

ويرفعُ مِنْ صُدُوْرِ شَمَرْ دَلاَتِ   يَصُدُّ وُجُوهَها وَهَجٌ أَليمُ

ويروى يصك ، وإنّما الأليم صفة للعذاب كأنه قال : ولهم عذاب مؤلم ، وهو مأخوذ من الألم ، والألم الوجع)(٤) .

(والجملة معطوفة على قوله:« فزادهم الله مرضا » وفيها بيان ماجره النفاق إليهم

---

١ – انظر الكشاف ١ / ٦٨ .

٢ – البحر المحيط ١ / ١٨٨ – ١٨٩ .

٣ – هذا البيت من قصيدة مطلعها :

أحادرة دموعك دارمّي   وهائجة صبابتك الرسوم

انظر ديوان ذي الرمة ٢ / ٦٧٧ .

٤ – انظر جامع البيان ١ / ١٢٣ .

فساد الحال في الدنيا والعذاب في الآخرة ، وتقديم الجار والمجرور وهو «لهم»(١)
بيه على أنه خبر لا نعت حتى يستقر بمجرد سماع المبتدأ العلمُ بأن ذلك من
اتهم فلا تلهو النفس عن تلقيه)(٢) .

وقوله : ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾

الباء للسببية و«ما» مصدرية(٣) ، (والمراد بكذبهم قولهم:(آمنا بالله وباليوم
خر) ، وفيه رمز إلى قبح الكذب وسماجته ، وأنّ العذاب الأليم لا حق بهم من
ل كذبهم ، ونحوه قوله تعالى : ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا﴾(٤) والقوم كفره ، وإنّما
صت الخطيئات استعظاما لها وتنفيراً عن ارتكابها)(٥) .

---

١ - هذا التقديم من تقديم الضمير المجرور ، وبحثه في تقديم ضمير الغائب المجرور وذكره هنا ليس مقصوداً لذاته، وإنما دعى إلى ذلك تحليل الآية ومحاولة تلمس بلاغة القرآن .

٢ - التحرير والتنوير ١ / ٢٨٢ .

٣ - انظر البحر المحيط ١ / ١٨٩ .

٤ - نوح جزء من الآية ٢٥ .

٥ - الكشاف ١ / ٦٩ .

القسم الثاني : تقديم الجار والمجرور النكرة :

قال تعالى : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(١)

قوله : ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾

(أي ولكل أهل ملة فحذف أهل الملة ، واكتفى بدلالة الكلام عليه)(٢) . والتنوين في «كلٍّ» تنوين عوض عن الإضافة ، واختلف في تقدير المضاف فقيل : المعنى ولكل طائفة من أهل الأديان ، وقيل : ولكل أهل صقع من المسلمين ، وقيل لكل نبي(٣) . والذي حدا بإيراد هذه التقديرات كلها ، هو الدلالة على أن أيّا منها لم يأت معرفة ، بل كلها نكرات والمضاف بحسب ما أضيف إليه ، وهو المقصود بالتقديم في هذا المبحث .

والمراد بـ«وجهة» أي قبلة قاله مجاهد وابن زيد(٤) ، وهي قراءة أبي قرأ «ولكل قبلة»(٥) .

(والوجهة حقيقتها البقعة التي يتوجه إليها ، فهي وزن «فعِله» مؤنث فعل الذي هو بمعنى مفعول مثل ذبح ، ولكونها اسم مكان لم تحذف الواو التي هي فاء الكلمة عند اقتران الاسم بهاء التأنيث ، لأنّ حذف الواو في مثله إنّما يكون في «فعله» بمعنى المصدر ، وتستعار الوجهة لما يهتم به المرء من الأمور ، تشبيها بالمكان الموجه

---

١ - البقرة الآية ١٤٨ .
٢ - جامع البيان ٢ / ٢٨ .
٣ - انظر البحر المحيط ١ / ٦١١ .
٤ - انظر جامع البيان ٢ / ٢٨ - ٢٩ .
٥ - انظر الكشاف ١ / ٢٠٣ .

إليه تشبيه معقول بمحسوس ، ولفظ «وجهة» في الآية صالح للمعنيين فالتعبير به كلام موجه وهو من المحاسن)(١) .

(و«هو» من قوله:«هو موليها» عائد على «كل» على لفظه لا على معناه أي : هو مستقبلها ، وموجه إليها صلاته التي يتقرب بها ، والمفعول الثاني لموليها محذوف لفهم المعنى ، أي : موليها وجهه أو نفسه ، قاله ابن عباس وعطاء والربيع ويؤيد أنّ «هو» عائد على «كل» قراءة من قرأ «هو مولاها» وقيل «هو» عائد على الله تعالى،قاله الأخفش والزجاج ، أي : الله موليها إياه اتبعها من اتبعها ، وتركها من تركها ، فمعنى هو موليها على هذا التقدير شارعها ومكلفهم بها ، والجملة من الابتداء والخبر في موضع الصفة لوجهة)(٢) .

وفي تقديمه سبحانه الخبر «ولكل» للاهتمام به،وتعميق حقيقة تحدث القرآن عنها في آيات سابقة لهذه الآية ، فأهل الكتاب بوصفهم أمة لن يتبعوا قبلة محمد ﷺ بل لن يتبع بعضهم قبلة بعض ، فهم مختلفون رغم اتفاقهم على عدم اتباع قبلة محمد ﷺ ، فلا ضير عليه إن لم يتبعوه فلكل قبلة ، وفي تقديمه تشويق للمبتدأ فلفظه كل تفيد العموم ، فالجميع يترقب ما يأتي بعدها ، لأنّها تعنيه ، وهو جزء من هذا الكل .

وقوله : ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾

أي فبادروا وأسرعوا ، قال ابن زيد «فاستبقوا الخيرات» الأعمال الصالحة(٣) ،

---

١ - التحرير والتنوير ٢ / ٤٢ .

٢ - البحر المحيط ١ / ٦١١ .

٣ - انظر جامع البيان ١ / ٢٩ - ٣٠ .

واستبقوا (أبلغ من الأمر بالمسارعة لما فيه من الحث على إحراز قصب السبق)(١) .

واللام في الخيرات للاستغراق ، فيعم المحلى أمر القبلة وغيره ، ويجوز أن تكون «اللام» للعهد ، فالمراد بالخيرات الفاضلات من الجهات التي تسامت الكعبة ، وفيه إشارة إلى أنّ الصلاة إلى عين الكعبة أكثر ثواباً من الصلاة إلى جهتها(٢) .

والاستغراق أولى لتضمنه معنى الثاني ، ولموافقته منهج القرآن وأحاديث المصطفى ﷺ في الحث على مبادرة الأعمال الصالحة ، وما يقرِّب إليه سبحانه .

وقوله : ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾

جملة تتضمن وعظا وتحذيرا وإظهاراً لقدرته ، ففي أي مكان تهلكون يأت بكم الله يوم القيامة(٣) .

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(فيقدر على الإماتة ، والإحياء ، والجمع ، فهو تعليل للحكم السابق)(١) .

---

١ - تفسير أبي السعود ١ / ٢٨٣ .

٢ - انظر روح المعاني ١ / ٤١٣ .

٣ - انظر جامع البيان ٢ / ٣٠ ، والبحر المحيط ١ / ٦١٢ .

٤ - تفسير أبي السعود ١ / ٢٨٤ .

المطلب الثاني

تقديم الظرف

١ - الظرف الزماني .

٢ - الظرف المكاني .

١ - الظرف الزماني :

قال تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾(١)

مناسبة الآية لما قبلها (أنّه سبحانه قال في الآية قبلها:﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(٢) والمراد أنّه يهدي من يشاء إلى الحق وطلب الجنة ، فبيّن في هذه الآية أنّ ذلك الطلب لا يتم ولاّ يكمل إلا باحتمال الشدائد في التكليف فقال ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم﴾ أو لمّا بيّن أنّه هداهم لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه في الآية قبلها ، بيّن في هذه الآية أنّهم بعد تلك الهداية احتملوا الشدائد في إقامة الحق وصبروا على البلوى ، فكذا أنتم يا أصحاب محمد لا تستحقون الفضيلة في الدين إلا بتحمل هذه المحن)(٣) .

وفي سبب نزولها قال قتادة والسدي:(نزلت هذه الآية في غزوة الخندق حين أصاب المسلمين ما أصابهم من الجهد، والشدة، والحر، والخوف، والبرد، وضيق العيش، وأنوع الأذى، وكان كما قال الله تعالى:﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾(٤) ، وقال عطاء:لما دخل رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة،اشتد الضر عليهم لأنّهم خرجوا بلا مال،وتركوا ديارهم وأموالهم بأيدي المشركين ، وآثروا رضا الله ورسوله،وأظهرت

١ - البقرة الآية ٢١٤ .

٢ - البقرة جزء من الآية ٢١٣ .

٣ - انظر مفاتيح الغيب ٦ / ١٧ .

٤ - الأحزاب جزء من الآية ١٠ .

اليهود العداوة لرسول الله ﷺ ، وأسرَّ قوم من الأغنياء النفاق ، فأنزل الله تعالى تطييباً لقلوبهم «أم حسبتم» الآية)(١) .

وقوله : ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾

«أم» هنا منقطعة مقدرة ببل والهمزة ، فتتضمن إضراباً، وهو انتقال من كلام إلى كلام ، ويدل على استفهام لكنه استفهام تقرير ، وزعم بعض اللغويين أنّها تأتي بمنزلة همزة الاستفهام ، ويبتدأ بها ، فهذا يقتضي أن يكون التقدير : أحسبتم ، وقال الزجاج:بمعنى بل ، ورام بعض المفسرين أن يجعلها متصلة ، ويجعل قبلها جملة مقدرة تصير بتقديرها أم متصلة ، ويكون التقدير : فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق فصبروا على استهزاء قومهم بهم ، أفتسلكون سبيلهم ، أم تحسبون أن تدخلوا الجنة من غير سلوك سبيلهم ، والصحيح القول الأول(٢) . والخطاب للرسول ﷺ ومن معه من المؤمنين حثاً لهم على الثبات ، والمصابرة على مخالفة الكفرة وتحمل المشاق ، كما حصل لمن قبلهم من الأنبياء وتابيعهم ، فصبروا وكابدوا وكان عاقبة أمرهم نصراً(٣) .

وجعل صاحب الكشاف في هذا الخطاب التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب ، قال : (ولما ذكر ما كانت عليه الأمم من الاختلاف على النبيين ، بعد مجئ البينات تشجيعاً لرسول الله ﷺ والمؤمنين على الثبات ، والصبر مع الذين اختلفوا عليه من المشركين وأهل الكتاب ، وإنكارهم لآياته ، وعداوتهم له ، قال لهم على طريقة

---

١ - أسباب نزول القرآن صـ ٦٠ .

٢ - انظر البحر المحيط ٢ / ١٤٨ .

٣ - انظر تفسير أبي السعود ١ / ٣٣٥ .

الالتفات التي هي أبلغ : «أم حسبتم»)(١) وتابعه في ذلك الألوسي(٢) (والأظهر أنّه لما وقع الانتقال من غرض إلى غرض بالإضراب الانتقالي الحاصل بأم ، صار الكلام افتتاحا محضا،وبذلك يتأكد اعتبار الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ، فالالتفات هنا غير منظور إليه على التحقيق)(٣) .

وقوله : ﴿ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم ﴾

(لَمَّا فيها معنى التوقع ، وهي في النفي نظيرة قد في الإثبات ، والمعنى أن إتيان ذلك متوقع منتظر)(٤) .

(والجملة حال التقدير ، غير آتيكم مثل الذين خلوا من قبلكم أي : أنّ دخول الجنة لابد أن يكون على ابتلاء شدائد ، وصبر على ماينال من أذى الكفار ، والفقر والمجاهدة في سبيل الله ، وليس ذلك على مجرد الإيمان فقط ، بل سبيلكم في ذلك سبيل من تقدمكم من أتباع الرسل ... ولمّا أبلغ في النفي من لم ، لأنها تدل على نفي الفعل متصلا بزمان الحال ، فهي لنفي التوقع ، والمثل الشبه إلا أنّه مستعار لحال غريبة،أو قضية عجيبة لها شأن)(٥) ، وعليه يكون معنى «مثل الذين خلو» (حالهم التي هي مثل في الشدة)(٦) .

---

١ - الكشاف ١ / ٢٥٣ .

٢ - انظر روح المعاني ١ / ٤٩٨ .

٣ - التحرير والتنوير ٢ / ٣١٤ .

٤ - الكشاف ١ / ٢٥٣ .

٥ - البحر المحيط ٢ / ١٤٨ .

٦ - الكشاف ١ / ٢٥٣ .

وقوله : ﴿مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا﴾

«مستهم» (بيان للمثل ، وهو استئناف ، كأنّ قائلاً قال : كيف ذلك المثل ؟ فقيل : مستهم الباساء[1]) والمس حقيقة جس الشيء باليد ، وهو مجاز في إصابة الشيء ووقوعه كما في الآية ، ومنه مس الشيطان ﴿الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[2]. ومس سقر ﴿ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾[3] قال الأخفش : جعل للمس مذاق[4].

والبأساء (اسم من البؤس بمعنى الشدة وهو الفقر والمسكنة[5]) والضراء المرض والجوع[6] قال ابن عطية (الباساء) في المال (والضراء) في البدن)[7] .

«وزلزلوا» (وأزعجوا إزعاجاً شديداً شبيها بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والأفزاع)[8] وقال الزجاج :(أصل الزلزلة في اللغة من أزال الشيء عن مكانه ، فإذا قلت : زلزلته فتأويله أنّك كررت تلك الإزالة،فضوعف لفظه بمضاعفة معناه)[9] .

(وبني الفعل للمفعول وحذف الفاعل للعلم به أي : وزلزلهم أعداؤهم)[10] .

وقوله : ﴿حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ﴾

حتى غاية للمسّ والزلزال ، أي بلغ بهم الأمر إلى غاية يقول عندها الرسول والذين معه:متى نصر الله ، وفي هذه الغاية دليل على تناهي الأمر في الشدة وتماديه في العظِم ، لأن الرسل لا يقادر قدر ثباتهم،واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم ،

١ - الكشاف ١ / ٢٥٣ .
٢ - البقرة جزء من الآية ٢٧٥ .
٣ - القمر جزء من الآية ٤٨ .
٤ - انظر بصائر ذوي التمييز ٤ / ٤٩٨ .
٥ - مفاتيح الغيب ٦ / ١٧ .
٦ - تفسير النسفي ١/١١٨ .
٧ - المحرر الوجيز ١ / ٢٧٨ .
٨ - الكشاف ١ / ٢٥٣ .
٩ - مفاتيح الغيب ٦ / ١٨ .
١٠ - البحر المحيط ٢ / ١٤٩ .

فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجوا كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها(١).

وفي قوله:« والذين آمنوا » (تفخيم لشأنهم ، حيث صرح بهم ظاهراً بهذا الوصف الشريف الذي هو الإيمان،ولم يأت « حتى يقول الرسول » وهم(٢)) .

(و« متى » سؤال عن الوقت ، فقيل ذلك على سبيل الدعاء لله تعالى ، والاستعلام لوقت النصر،فأجابهم الله تعالى و« ألا إن نصر الله قريب » وقيل ذلك على سبيل الاستبطاء)(٣) . وظاهر الآية أن جملة « متى نصر الله » من مقول الرسول والذين آمنوا معه (وقالت طائفة في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير حتى يقول الذين آمنوا متى نصر الله،فيقول الرسول « ألا إن نصر الله قريب » فقدم الرسول في الرتبة لمكانته ، ثم قدم قول المؤمنين لأنه المتقدم في الزمان(٤)) .

ولا داعي لهذا التكلف الذي لجأوا إليه بحجة تنزيه الرسول ﷺ أن يقول ذلك شكا بموعود الله ، فالسؤال نتيجة الاستبطاء،لا الشك والارتياب هذا أولاً ، وثانياً: مقام الرسالة لا يسلب الرسول طبيعته البشرية ، فالرسول يخاف قال تعالى حكاية عن موسى وهارون:﴿ قَالا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾(٥) ويفزع:﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ ﴾ (٦) . ويضيق صدره من كيد الأعداء:

---

١ – انظر الكشاف ١ / ٢٥٤ ، والتحرير والتنوير ٢ / ٣١٦ .

٢ – البحر المحيط ٢ / ١٤٩ .

٣ – المصدر نفسه ٢ / ١٤٩ .

٤ – المحرر الوجيز ١ / ٢٨٨ .

٥ – طه الآية ٤٥ .

٦ – ص جزء من الآية ٢٢ .

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾(١) والخطاب لمحمد ﷺ ، فأي شيء يمنع الرسول البشري أن يستوضح عن وقت النصر ويدعو به ، وهو يلاقي ما يلاقي هو واتباعه من مشقة وعنت ؟ .

«متى نصر الله» متى اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب ظرف على الظرفية الزمانية ، والظرف متعلق بمحذوف خبر مقدم ، ونصر الله مبتدأ مؤخر والجملة في محل نصب مقول القول(٢) . ومثل هذا التركيب يجب فيه تقديم الخبر كما قال ابن مالك(٣) :

ونحو عندي درهم ولِي وطر ... ملتزم فيه تقدم الخبر

كذا إذا يستوجب التصديرا ... كأين من علمته نصيرا

وهذا كلام النحاة وأكرم به ، لكن عندما نتجاوزه لنتلمس سراً لهذا التقديم فإنّنا لا نعدم ذلك .. ففي موقف تزلزل فيه القلوب ويحاط بالرسول والمؤمنين من كل جانب ، ويصلون إلى غاية من الشدائد والأهوال ، لم يروا فيها منفذاً لسبب من أسباب الفوز ليتخذوه ﴿ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ ﴾(٤) ومحنة كهذه لن تكون إلا محنة فوق الوصف ، تلقي ظلالها على مثل هاتيك القلوب ، فتبعث منها ذلك

---

١ - الحجر الآية ٩٧ .

٢ - انظر إعراب القرآن للدرويش ١ / ٣١٧ ، والمعجم المفصل في الإعراب لطاهر يوسف الخطيب (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤١٢هـ) صـ ٤١٢ .

٣ - انظر ألفية بن مالك في النحو والصرف لابن مالك (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤٠٥هـ) صـ١٧ .

٤ - الأحزاب جزء من الآية ١٠ .

السؤال المكروب «متى نصر الله» متى ؟ إنها تصور خلجات قلب ، وأحاسيس نفس تستيقن النصر وتتذوق طعم الهزيمة ، إنّها لا تسأل عن النصر وكيفيته ، بل تستعجل وقته ويهمها متى .. متى لاغير أمّا النصر فمضمون ، لكنّها اللحظات الحرجة التي تستنطق الطبيعة البشرية مع قوة صلتها بالله ، فتنقاد لدفع هذا الحرج فتسأل متى ، والعمق الذي صدر به السؤال من النفس السائلة تأتي الإجابة عليه تكثيفاً لهذا العمق «ألا إن نصر الله قريب» وكم هي الدلالات التي حملتها (قريب) لفظه اختزلت كل معاني الوقوع والإتيان والقدوم و.... و.... الخ وهي هي بعينها ما ينشدها السائلون .

«ألا إنّ نصر الله قريب» (استئناف نحوي على تقدير القول أي فقيل لهم حينئذ ذلك تطييباً لأنفسهم بإسعافهم بمرامهم ، وإيثار الجملة الاسمية على الفعلية المناسبة لما قبلها وتصديرها بحرف التنبيه والتأكيد من الدلالة على تحقق مضمونها ، وتقريره مالا يخفى ، واختيار حكاية الوعد بالنصر ، لما أنّها في حكم إنشاء الوعد للرسول والاقتصاد على حكايتها دون حكاية النصر مع تحققه ، للإيذان بعدم الحاجة إلى ذلك لاستحالة الخلف ، وقيل : لما كان السؤال -بمتى- يشير إلى استعلام القرب تضمن الجواب القرب ، واكتفى به ليكون الجواب طبق السؤال) .(١)

---

١ - روح المعاني ١ / ٤٩٩ .

٢ - الظرف المكاني :

قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾(١)

مناسبة الآية لما قبلها أنّه (لما ذكر منع المساجد من ذكر الله ، والسعي في تخريبها،نبّه على أنّ ذلك لا يمنع من أداء الصلوات ، ولا من ذكر الله إذ المشرق والمغرب لله تعالى ، فأيّ جهة أديتم العبادة فهي لله ، يثيب على ذلك ، ولا يختص مكان التأدية بالمسجد)(٢) .

قوله : ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾

(أي لله ملكهما وتدبيرهما ، والمشرق موضع شروق الشمس ، والمغرب موضع غروبها فإن قال قائل : أو ماكان لله إلا مشرق واحد ومغرب واحد حتى قيل «ولله المشرق والمغرب» قيل : إنّ معنى ذلك غير الذي ذهبت إليه ، وإنّما معنى ذلك : ولله المشرق الذي تشرق منه الشمس كل يوم ، والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم ، فتأويله إذا كان ذلك : معناه ولله ما بين قطري المشرق ، ومابين قطري المغرب ، إذ كان شروق الشمس كل يوم من موضع منه لا تعود لشروقها منه إلى الحول الذي بعده ، وكذلك غروبها كل يوم)(٣) .

وخصهما بالذكر والإضافة اليه تشريفا لهما وإن كانت الأشياء كلها لله ، كما شرف البيت الحرام وغيره من الأماكن بالإضافة إليه تعالى ، وأتى المشرق والمغرب في القرآن مفرداً كما في هذه الآية باعتبار الناحية ، وأما التثنيه فباعتبار مشرقي الشتاء والصيف ومغربيهما ، وأما الجمع فباعتبار اختلاف المغارب والمطالع كل يوم(٤) .

---

١ - البقرة الآية ١١٥ .

٢ - البحر المحيط ١ / ٥٣٠ .

٣ - انظر جامع البيان ١ / ٥٠١ .

٤ - انظر البحر المحيط ١ / ٥٣٠ ، بتصرف .

قوله : ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾

يعني إلى أي مكان تولوا وجوهكم عند الصلاة فهنالك وجهي(١) .

والوجه من الصفات الذاتية له سبحانه ، فأهل السنة يثبتون أن لله وجهاً موصوفاً بالجلال والإكرام ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(٢) وموصوفا بالبهاء،والعظمة والنور العظيم حتى قال ﷺ:«حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»(٣) .

وهذا الوجه يليق بجلاله وعظمته لا يماثل أوجه المخلوقين لقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾(٤) ونجهل كيفية هذا الوجه لقوله تعالى:﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾(٥) وفي هذه الآيات وهذا الحديث رد على من أنكر هذه الصفة ، أو أولها بتأويل باطل(٦) . والأصل أنّ المراد بالوجه المضاف إلى الله عز وجل الذي هو صفة من صفاته، وفي هذه الآية اختلف المفسرون فمنهم من قال : إن الوجه بمعنى الجهة(٧) . لقوله تعالى:﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾(٨) فالمراد بالوجه الجهة ، أي فثم الجهة التي يقبل الله صلاتكم إليها ، لكن الصحيح أنّ المراد بالوجه هنا وجه الله الحقيقي(٩) ، أي إلى أي جهة تتوجهون ، فثم وجه الله سبحانه وتعالى ، لأنّ الله محيط بكل

---

١ - انظر جامع البيان ١ / ٥٠٥ .
٢ - الرحمن الآيات ٢٦ - ٢٧ .
٣ - رواه مسلم عن أبي موسى الأشعري في كتاب الإيمان ، باب إن الله لا ينام برقم ٢٩٣ .
٤ - الشورى جزء من الآية ١١ .
٥ - طه جزء من الآية ١١٠ .
٦ - انظر شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ١ / ٢٨٣ - ٢٨٤ ، والأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية عبدالعزيز بن محمد السلمان (مطابع الإشماع ط / ١٣ ، ١٤٠٠هـ) .
٧ - انظر الكشاف ١ / ١٧٩ .
٨ - البقرة جزء من الآية ١٤٨ .
٩ - انظر جامع البيان ١ / ٥٠٥ .

شيء ولأنه ثبت عن النبي ﷺ «أنّ المصلي إذا قام يصلي، فإن الله قبل وجهه»(١). ولهذا نُهي أن يبصق المصلي أمام وجهه،لأن الله قبل وجهه .

فإذا صلى المسلم في مكان لا يدري أين القبلة،واجتهد وتحرى استقبالها ثم صارت القبلة في الواقع خلفه ، فالله سبحانه يكون قبل وجهه حتى في هذه الحال وهذا معنى صحيح موافق لظاهر الآية .

والمعنى الأول لا يخالفه في الواقع .

إذا قلنا : فثم جهة الله ، وكان هناك دليل ، سواء كان هذا الدليل تفسير الآية الثانية في الوجه الثاني ، أو كان الدليل ما جاءت به السنة ، فإنك إذا توجهت إلى الله في صلاتك ، فهي جهة الله التي يقبل الله صلاتك إليها ، فثم أيضاً وجه الله حقا ، وحينئذ يكون المعنيان لا يتنافيان(٢) .

قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

(يسع خلقه كلهم بالكفاية والإفضال والجود)(٣) .

وقيل (يوسع على عباده في دينهم ولا يكلفهم ما ليس في وسعهم)(٤) .

«عليم» (أي عليم بأفعالهم،لا يغيب عنه منها شيء ، ولا يعزب عن علمه ، بل هو بجميعها عليم)(٥) .

---

١ - رواه البخاري في كتاب الصلاة باب حك البزاق باليد من المسجد برقم ٤٠٦ ، ومسلم في كتاب المساجد ، باب النهي عن البصاق في المسجد برقم ٤٥٧ ، وكلاهما من طريق ابن عمر .

٢ - انظر شرح العقيدة الواسطية لابن عثيمين ١ / ٢٨٩ - ٢٩٠ .

٣ - جامع البيان ١ / ٥٠٦ .

٤ - الجامع لأحكام القرآن ٢ / ٥٨ .

٥ - جامع البيان ١ / ٥٠٦ .

قوله : ﴿فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾

فثمَّ بفتح الثاء ظرف مكان ، وهو اسم إشارة للمكان البعيد مبنى على الفتح ، وهو هنا خبر مقدم ، ووجه الله مبتدأ مؤخر ، والجملة في محل الجزم على أنّها جواب الشرط(١) .

وقدم الخبر لأهميته لتعلقه بشعيرة تعبدية،هي أعظم شعيرة في الإسلام ، والمسلم يتوخى أن يؤديها على الوجه الأكمل ، فلربما عرض له عارض من سفر أو ليل بهيم فيتعذر عليه معرفة الجهة التي يتطلبها ، فإن هو تحرى واجتهد «فثم وجه الله» ولأنّ المتحري والمجتهد يهمه نتيجة اجتهاده وتحريه ، أتى الخبر مقدما لأنّه يعنيه ذلك ويتطلبه ، لأهميته في شأن عبادته .

وتقديمه كذلك مشعر بالرد على سخرية اليهود من المسلمين بعد توليهم عن قبلتهم الأولى وقولهم:﴿مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾(٢) (وابطال لما هو عليه من اعتقاد أنّ للعبادة هياكل ومواقع لا تصح بدونها)(٣) .

١ - انظر تفسير أبي السعود ١ / ٢٤٣ ، ومعجم الأدوات النحوية للدكتور / محمد التونجي (دمشق : دار الفكر ، ط / ٦ ، ١٤٠٠هـ) صـ ٥١ .

٢ - البقرة جزء من الآية ١٤٢ .

٣ - صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ، للشيخ / عبدالرحمن الدوسري (الكويت : دار الأرقم ، ط / ١ ، ١٤٠٢هـ) ٢ / ٣١٨ .

الفصل الثالث

تقديم المتعلقات

- مدخـــــــل .

- المبحث الأول : تقديم المتعلق على عامله .

- المبحث الثاني : تقديم بعض المتعلقات على بعض .

التقديم في المتعلقات .

المتعلقات تشمل المفعول به والمفعول لأجله ، والمفعول معه ، والحال ، والتمييز والجار والمجرور والظرف(١) (والتقديم في المتعلقات إمّا أن يكون على الفعل نفسه ، وإمّا أن يكون تقديم بعض المتعلقات على بعض ، وكل واحد من الضربين لايكون إلا لغرض ، أمّا تقديم المتعلق على العامل فإنه غالبا ما يكون للاختصاص تقول : زيداً أكرمت ، وأنت تعني أنّك ما أكرمت إلا زيداً ، ومنه قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(٢) أي نخصك بالعبادة فلا نعبد غيرك ، ونخصك بالاستعانة فلا نستعين بسواك)(٣) .

والقول بالاختصاص نجدها كثيراً عند الزمخشري(٤) ، مما حدا بابن الأثير وأبي حيان أن يناقشاه على هذه الدعوى ، ويردا عليه مقاله .

قال ابن الأثير : (وقد ذكر الزمخشري في تفسيره أنّ التقديم في هذا الموضع

---

١ - انظر من بلاغة النظم العربي للدكتور/ عبدالعزيز عبدالمعطي عرفة (بيروت : عالم الكتب ، ط٢ ، ١٤٠٥هـ) ص٢٦٩ .

٢ - الفاتحة الآية (٥) .

٣ - خصائص التراكيب ، ص٢٩١ .

٤ - انظر تعليقة على الآيات التالية :

١ - قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ الفاتحة الآية ٥ ، الكشاف ١ / ٢٣ .

٢ - قوله تعالى : ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ البقرة جزء من الآية ٣ ، الكشاف ١ / ٥٠ .

٣ - قوله تعالى : ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ البقرة جزء من الآية ١٤٣ ، الكشاف ١ / ٩٨ .

٤ - قوله تعالى : ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ الأنعام جزء من الآية ٩٠ ، الكشاف ٢ / ٤١ .

٥ - قوله تعالى : ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ النحل جزء من الآية ١٦ ، الكشاف ٢ / ٥٧٥ .

٦ - قوله تعالى : ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ الحاقة الآيات ٣٠ - ٣١ ، الكشاف٤ / ٥٩٢ .

قصد به الاختصاص ، وليس كذلك فإنّه لم يقدم المفعول فيه على الفعل للاختصاص ، وإنما قدَّم لمكان نظم الكلام ، لأنّه لو قال : نعبدك ونستعينك لم يكن له من الحسن ما لقوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(١) ألا ترى أنه تقدم قوله تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾(٢) فجاء بعد ذلك قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ وذاك لمراعاة حسن النظم السجعي الذي هو على حرف النون ، ولوقال : نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة وزال ذلك الحسن ، وهذا غير خاف على أحدٍ من الناس ، فضلاً عن أرباب علم البيان)(٣) .

وقال أبو حيان:(والتقديم على العامل عنده - أي الزمخشري - يوجب الاختصاص ، وليس كما زعم ، قال سيبويه(٤) وقد تكلم على ضربت زيداً ما نصه وإذا قدمت الاسم فهو عربي جيد كما كان ذلك يعني تأخيره عربياً جيداً ، وذلك قولك زيداً ضربت ، والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواء ، مثله في ضرب زيد عمراً وضرب زيداً عمرو)(٥) .

وقال : (إياك مفعول مقدّم ، والزمخشري يزعم أنّه لا يقدّم على العامل إلاّ

---

١ - الفاتحة الآية (٥) .

٢ - الفاتحة الآية (٢-٤) .

٣ - المثل السائر ٢ / ٢٤١ .

٤ - سبق نص سيبويه في صـ ٣٩ .

٥ - البحر المحيط ، ١ / ١٢٧ .

للتخصيص فكأنه قال ما نعبد إلا إيّاك .. والتقديم عندنا إنّما هو للاعتناء والاهتمام بالمفعول)(١) .

وابن الأثير وأبو حيان ألزما الزمخشري بشيء لم يلزم به نفسه ، وهو أنّ كل تقديم للمعمول على العامل يوجب التخصيص (والحجة التي أقامها أبو حيان لرفض كلام الزمخشري حجة مرفوضة ، وذلك لأنّه لا يحتج برأي على رأى ، على أننا لا نرى في كلام سيبويه ما يعارض كلام الزمخشري ، لأنّ سيبويه يثبت العناية والاهتمام لدلالة صورة التقديم ، وهذه العناية لا تعني أن الصورة لا تفيد التخصيص ، لأنّه لا منافاة بينهما ، وليس في كلام سيبويه ما يرفض دلالة الاختصاص، كما أنّه ليس في كلام الزمخشري ما يرفض دلالة العناية والاهتمام ... وقول أبي حيان : والتقديم عنده يوجب الاختصاص ليس كلاما دقيقاً ، لأنّ التقديم عنده يفيد الاختصاص ولا يوجبه ، ولذلك نراه يسكت عن الاختصاص في بعض الآيات كما في قوله تعالى : ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾(٢) وقوله : ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾(٣) وقوله : ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ﴾(٤) فإنّه جعل التقديم في كل هذا للأهمية وسكت عن دلالة الاختصاص ، لأنّ المراد إنكار أن يكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا ، وأن يكون غير دين الله بمثابة أن يقصد ويطلب ، وأن يكون غير الله كذلك أهلاً لأن يعبد ، وكان التقديم ليتوجه الإنكار إلى المقدم)(٥) .

١ - البحر المحيط ١ / ١٤١ .

٢ - آل عمران جزء من الآية ٨٣ .

٣ - الانعام جزء من الآية ١٤ .

٤ - الزمر جزء من الآية ٦٤ .

٥ - انظر البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري صـ ٢٨٢ .

وبنحو هذا الكلام يقال لابن الأثير ، إذ لا مانع أن يكون التقديم للاختصاص ولمراعاة حسن النظم السجعي .

(فيجوز أن يكون التقديم من أجل الاختصاص والتشاكل ، فيكون في التقديم مراعاة لجانب اللفظ والمعنى جميعا ، فالاختصاص أمر معنوي ، والتشاكل أمر لفظي)(١) .

ونخلص من ذلك إلى أنّ تقديم المعمول سواءً أكان جاراً ومجروراً، أم ظرفا، أم حالاً، أم ما أشبهها على عامله ، الغالب فيه التخصيص ، والقول بالأغلبية (إشارة إلى عدم لزومه دائما لصحة أن يكون التقديم لمجرد الاهتمام كما تقول العلم لزمت لأن الأهم تعلق اللزوم بالعلم ، أو للتبرك كما تقول النبي محمداً ﷺ تبعنا ، إو للاستلذاذ كليلى أحببت ، أو لموافقة كلام السامع كما إذا قال من أكرمت ؟ فتقول زيداً أكرمت موافقة لتقديمه .. وهذه الوجوه يشملها الاهتمام لأنّها أسباب له ، أو لضرورة الشعر وهو كثير كقوله :

وَلَيْسَ إلَى دَاعِي النَّدَى بِسَرِيْعِ(٢)

والسجع، والفاصلة، ونحو ذلك، كتعجيل المسرة كما يقال: «سعداً تلقى»)(٣) .

---

١ - الطراز ، يحيى بن حمزة العلوي ، ت / محمد عبدالسلام شاهين (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٠٥هـ) صـ ٢٣٥ .

٢ - هذا عجز بيت للأقيشر في ابن عم له وصدره : «سَريعٌ إلى ابن العَمِّ يَلْطِمُ وَجْهَهُ»
انظر ديوان الأقيشر الأسدي جمع وتحقيق د/خليل الدويهي (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط / ١ ، ١٤١١هـ) صـ ٥٥ .

٣ - انظر مواهب الفتاح في شروح التلخيص ٢ / ١٦٠ .

أمّا تقديم بعض المتعلقات على بعض فلأسباب منها :

أولاً : (لأنّ التقديم هو الأصل ، ولا مقتضى للعدول عنه ، كالفاعل فإنّ أصله التقديم على سائر معمولات الفعل لكونه عمدة ، وكذلك المفعول الأول في باب أعطيت زيداً درهما ، لأنه في الأصل الفاعل المعنوي)(١) .

ثانياً : (وإمّا لأن ذكره أهم ، والعناية به أتم ، فيقدم المفعول على الفاعل إذا كان الغرض معرفة وقوع الفعل على من وقع عليه ، لا وقوعه ممن وقع منه ، كما إذا خرج رجل على السلطان ، وعاث في البلاد ، وكثر منه الأذى ، فقُتل وأردت أن تخبر بقتله فتقول : قتل الخارجيَّ فلانٌ بتقديم الخارجيّ ، إذ ليس للناس فائدة في أن يعرفوا قاتله ، وإنما الذي يريدون علمه هو وقوع القتل ، ليخلصوا من شره)(٢) .

ثالثاً : (لأنّ في التأخير إخلالاً ببيان المعنى نحو: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾(٣) فإنه لو أخر قوله : ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ عن قوله : ﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ لتوهم أنه من صلة يكتم ، أي يكتم إيمانه من آل فرعون ، فلم يفهم أنّه أي ذلك الرجل كان منهم ، أي من آل فرعون ، والحاصل أنّه ذكر لرجل ثلاثة أوصاف(٤) قدم الأول -أعني مؤمن- لكونه أشرف ، ثم الثاني لئلا يتوهم خلاف المقصود)(٥) .

---

١ - عروس الأفراح للسبكي ضمن شرح التلخيص ٢ / ١٦٠ .

٢ - انظر دلائل الإعجاز صـ ١٠٧ - ١٠٨ ، والايضاح للقزويني في شروح التلخيص ٢ / ١٦١-١٦٢ .

٣ - غافر جزء من الآية ٢٨ .

٤ - قوله ثلاثة أوصاف (أي مؤمنا وكونه من آل فرعون وكونه يكتم إيمانه) حاشية الدسوقي على شرح السعد من شروح التلخيص ٢ / ١٦٤ .

٥ - شرح السعد ضمن شروح التلخيص ٢ / ١٦٤ - ١٦٥ .

رابعاً : (أو لأنّ في التأخير إخلالا بالتناسب ، كرعاية الفاصلة نحو:﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾(١) بتقديم الجار والمجرور والمفعول على الفاعل ، لأن فواصل الآي على حرف الألف)(٢) .

وفيما يأتي سيقوم البحث بعرض لأنماط تقديم المتعلّق على عامله في سورة البقرة ، ويتلمس أسراره البلاغية ، وما ينطوي عليه من القيم الفنية والجمالية .

وسيكون في مبحثين :

- المبحث الأول : تقديم المتعلّق على عامله .

- المبحث الثاني : تقديم بعض المتعلقات على بعض .

١ - طه الآية ٦٧ .

٢ - شرح السعد ضمن شروح التلخيص ٢ / ١٦٤-١٦٥ .

المبحث الأول

تقديم المتعلِّق على عامله

- القسم الأول : تقديم المفعول .

- القسم الثاني : تقديم الجار والمجرور .

القسم الأول

تقديم المفعول

١ - المفعول المعرفة :

المطلب الأول : الضمير المنفصل .

أ - المتكلم　　　　ب - الغائب

المطلب الثاني : المضاف .

٢ - المفعول النكرة :

المطلب الأول : ما الشرطية .

المطلب الثاني : ما الاستفهامية .

المطلب الثالث : النكرة المشتقة .

مدخـــــل :

المعرفة : (ما دل على شيء بعينه ، وهو على خمسة أضرب ، العلم الخاص ، والمضمر والمبهم وهو شيئان ، أسماء الإشارة والموصولات ، والداخل عليه حرف التعريف ، والمضاف إلى أحد هؤلاء إضافة حقيقية)(١) .

هذه ستة(٢) أنواع للمعرفة ذكرها الزمخشري ، وزاد ابن الحاجب(٣) النكرة المنادى وذهب مذهبه ابن هشام(٤) ، وقرره السيوطي حين قال : (وأغفل أكثرهم ذكر المنادى ، والمراد به النكرة المقبل عليها نحو : «يارجل» فتعريفه بالقصد ، كما صححه ابن مالك)(٥) .

(وأعرفها المضمر، ثم العلم، ثم المبهم، ثم الداخل عليه حرف التعريف ، وأمّا المضاف فيعتبر أمره بما يضاف إليه ، وأعرف أنواع المضمر ضمير المتكلم، ثم المخاطب ، ثم الغائب)(٦) .

والنكرة : (كل اسم شائع في جنسه ولا يخصّ به واحد دون آخر نحو «رجل ، وفرس ، وثوب ، وغلام» وما أشبه ذلك ، وأنكر النكرات شيء ، ثم جوهر ، ثم جسم ، ثم حيوان ، ثم إنسان ، ثم رجل)(٧) .

---

١ - المفصل في علم العربية ، صـ ١٩٨ .

٢ - الزمخشري عدها خمسة لكنه جعل نوعين في نوع واحد وهي المبهمات .

٣ - انظر الكافية في النحو ، صـ ١٦٥ .

٤ - انظر أوضح المسالك ، صـ ١٢ .

٥ - همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية للسيوطي ، تصحيح محمد بدر الدين النعساني (بيروت : دار المعرفة ، د.ت) ١ / ١٩٠ .

٦ - المفصل في علم العربية صـ ١٩٧ - ١٩٨ .

٧ - الجمل في النحو ، صـ ١٧٨ .

١ - المفعول المعرفـة :

المطلب الأول : تقديم الضمير المنفصل :

أ - ضمير المتكلم .

قـال تعـالى : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾(١)

هذه الآية بداية لحديث طويل عن بني إسرائيل، يستغرق ثلث السورة تقريباً من الآية (٤٠-١٢٣) وفي هذه الآية حث على الوفاء بالعهد، ومنه يبدأ ذلك الحديث المفصل المطلوب عن بني إسرائيل، يبين في كل خطوة كيف أنهم خانوا العهد ، وكيف أنهم لم يستقيموا مرة واحدة في تاريخهم كله على عهد واحد بذلوه !! .

وسؤال حقيق بالإجابة عنه هنا، وهو ما السبب الذي جعل الحديث عن بني إسرائيل يستغرق كل هذه الآيات ؟

لعل (من أهم دواعي ذلك سببان رئيسيان ، أولهما : أنّ بني إسرائيل هم الأمة التي قامت حياتها على كتاب منزل من عند الله ، ثم ظلوا يبتعدون عن كتابهم تدريجياً ، حتى خرجوا منه خروجاً كاملاً في النهاية ، والمسلمون في بدء إقامة دولتهم ومجتمعهم على أساس من الكتاب المنزل، يُوَجَّهون ألا يفعلوا ما فعله بنو إسرائيل من قبل ، بل يتمسكوا بكتابهم ويحافظوا عليه، لكيلا يحل عليهم غضب الله الذي حل ببني إسرائيل .

أما السبب الآخر، فهو الكيد المستمر من اليهود للدولة الإسلامية الناشئة

---

١ - البقرة الآية ٤٠ .

ومحاولة تقويضها قبل أن تتمكن في الأرض ، بدافع حسدهم لهذه الأمة المهتدية والتواء طبيعتهم عن الاهتداء ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾(١) ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾(٢) فكان القرآن يعّرف المسلمين بتاريخ بني إسرائيل الماضي كله، ليعرفوا عدوهم على حقيقته ، ليتوقعوا منه الشر الدائم فيحذروه ، ولكيلا يقوم بينهم وبينه أي لون من ألوان الولاء)(٣) .

ولن أتتبع السياق بالتفصيل ، إنما أشير إلى أن القرآن قد لخص في الآيات (٤٠-١٢٣) تاريخ بني إسرائيل الأسود كله، كفرهم، وكذبهم، وقتلهم الأنبياء بغير حق، وتبجحهم مع الله سبحانه ، واستهتارهم بكل العهود والمواثيق ، وتحايلهم ومكرهم وخداعهم(٤) . ولا تزال شرذمة تلهث خلف سراب السلام لجهلهم بحقيقة المعركة ، هذه المعركة التي شنها اليهود على الإسلام والمسلمين بعد هجرته ﷺ للمدينة ، ثم لم يخْبُ أوارها حتى اللحظة الحاضرة ، بنفس الوسائل ، ونفس الأساليب، لا يتغير إلا شكلها أما حقيقتها فباقية ، وأما طبيعتها فواحدة ، ولا أنجع هذه الأيام من وسائلهم الخبيثة اللاهثة وراء مطمع ، عاملهم الله بنقيض قصدهم وأعز المجاهدين في سبيله .

---

١ - البقرة جزء من الآية ١٠٥ .

٢ - البقرة جزء من الآية ١٠٩ .

٣ - دراسات قرآنية ، لمحمد قطب (بيروت : دار الشروق ، د ، ت) صـ ٢٧٧-٢٧٨ .

٤ - انظر المرجع السابق صـ ٣٠١ .

قوله سبحانه : ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾

﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي (يا ولد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن ، وكان يعقوب يدعى إسرائيل ، بمعنى عبدالله وصفوته من خلقه و«إيل» : هو الله ، وإسرا : هو العبد ، كما قيل جبريل بمعنى عبدالله(١) . وأضافهم إلى لفظ اسرائيل، وهو يعقوب، ولم يقل يابني يعقوب، لما في لفظ اسرائيل من دلالة العبودية والصفوة، فكأنّه قيل ، يابني عبدالله ، أو يابني صفوة الله ، فكان في ذلك تنبيه على أن يكونوا مثل أبيهم في الخير كما تقول : يا ابن الرجل الصالح أطع الله ، فتضيفه إلى ما يحركه لطاعة الله ، لأنّ الإنسان يحب أن يقتفي أثر أبائه، وإن لم يكن بذلك محموداً فكيف إذا كان محموداً ؟ ألا ترى قوله سبحانه : ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾(٢) وقوله : ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾(٣) .... وفي إضافتهم إلى اسرائيل تشريف لهم بذكر نسبتهم لهذا الأصل الطيب)(٤) .

(والنعمة : المنّة ، وفي المراد بهذه النعمة ثلاثة أقوال : أحدها : أنّها ما استودعهم من التوراة التي فيها صفة رسول الله ﷺ قاله : ابن عباس . والثاني : أنّها ما أنعم به على آبائهم وأجدادهم إذ أنجاهم من آل فرعون وأهلك عدوهم ، وأعطاهم التوراة، ونحو ذلك قاله الحسن والزجاج، وإنما منّ عليهم بما أعطى أباءهم، لأنّ فخر الآباء فخر للإبناء ، والثالث : أنها جمع نعمة على تصريف الأحوال)(٥) .

والقول الثالث أرجحها لعمومه ، قال ابن عطية بعدما ساق أقوالاً في المراد

---

١ - جامع البيان ١ / ٢٤٨ .
٢ - الزخرف جزء من الآية ٢٢ .
٣ - البقرة جزء من الآية ١٧٠ .
٤ - البحر المحيط ١ / ٣٢٨ .
٥ - زاد المسير ١ / ٧٢ - ٧٣ .

بالنعمة : (وهذه أقوال على جهة المثال ، والعموم في اللفظة هو الحسن)(١) .

(والمراد من ذكرها : شكرها ، إذ من لم يشكر فما ذكر)(٢) .

(وفي إضافة النعمة إليه سبحانه إشارة إلى عظم قدرها ، وسعة برها ، وحسن موقعها)(٣) (وتقييد النعمة بهم لما أنّ الإنسان مجبول على حب النعمة ، فإذا نظر إلى ما فاض عليه من النعم حمله ذلك على الرضى والشكر)(٤) .

قال بعض العارفين : عبيد النعم كثيرون وعبيد المنعم قليلون ، فالله تعالى ذكَّر بني إسرائيل بنعمه عليهم، ولمّا آل الأمر إلى أمة محمد ﷺ ذكرهم بالمنعم فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾(٥) فدل ذلك على فضل أمة محمد ﷺ على سائر الأمم)(٦) .

وقوله سبحانه : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾

اختلف المتأولون في هذا العهد ، حتى أنّ أبا حيان ساق أربعة وعشرين قولاً(٧) في تفسير هذا العهد ، والجمهور على أن ذلك عام في جميع أوامره ونواهيه ووصاياه(٨) .

﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ (بما عاهدتكم عليه من حسن الثواب على حسناتكم)(٩) .

---

١ - المحرر الوجيز ١ / ١٣٣ .

٢ - زاد المسير ١ / ٧٣ .

٣ - البحر المحيط ١ / ٣٢٩ .

٤ - تفسير أبي السعود ١ / ١٦٤ .

٥ - البقرة جزء من الآية ١٥٢ .

٦ - مفاتيح الغيب ٣ / ٣٢ .

٧ - انظر البحر المحيط ١ / ٣٢٩ - ٣٣٠ .

٨ - انظر المحرر الوجيز ١ / ١٣٤ .

٩ - الكشاف ١ / ١٣٤ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴾

أي فأخشون أن أنزل بكم ما أنزلت بمن قبلكم من آبائكم من النقمات التي قد عرفتم من المسخ وغيره(١) .

(وقيل معنى فارهبون أن لا تنقضوا عهدي، وفي الأمر بالرهبة وعيد بالغ، وليس قول من زعم أنّ هذا الأمر معناه التهديد والتخويف والتهويل مثل قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾(٢) تشديد، لأنّ هذا في الحقيقة مطلوب واعملوا ما شئتم غير مطلوب فافترقا)(٣) .

﴿وَإِيَّايَ﴾ ضمير منفصل مفعول به مقدم (وتقديم المفعول هنا متعين للاختصاص ليحصل من الجملة إثبات ونفي ، واختير من طرق القصر طريق التقديم دون «ما وإلاّ» ليكون الحاصل بالمنطوق هو الأمر برهبة الله تعالى ، ويكون النهي عن رهبة غيره حاصلا بالمفهوم ، فإنّهم إذا رهبو الله تعالى حرصوا على الإيفاء بالعهد ، ولما كانت رهبتهم أحبارهم تمنعهم من الايفاء بالعهد ، أدمج النهي عن رهبة غير الله مع الأمر برهبة الله تعالى في صيغة واحدة)(٤) .

وهو آكد في إفادة التخصيص من إياك نعبد(٥) ، (لما فيه مع التقديم من تكرير المفعول ، وإلغاء الجزائية الدالة على تضمن الكلام معنى الشرط ، كأنه قيل إن كنتم راهبين فارهبوني)(٦) .

(وتقديم المفعول مع اشتغال فعله بضميره آكد في إفادة التقديم الحصر من تقديم المفعول على الفعل غير المشتغل بضميره ، فإياي ارهبون آكد من نحو إياى ارهبوا كما أشار إليه صاحب الكشاف ، إذ قال : «وهو من قولك زيداً رهبته ، وهو أوكد في إفادة الاختصاص من إياك نعبد)(٧) .

---

١ - انظر جامع البيان ١ / ٢٥١ .
٢ - فصلت جزء من الآية ٤٠ .
٣ - البحر المحيط ١ / ٣٣١ .
٤ - التحرير والتنوير ١ / ٤٥٤ .
٥ - انظر الكشاف ١ / ١٣٤ .
٦ - تفسير أبي السعود ١ / ١٦٥ .
٧ - الكشاف ١ / ١٣٤ .

ب - ضمير الغائب :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾(١)

(هذا الخطاب مؤكد لقوله تعالى في آية سابقة:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً ﴾(٢) ولما كان لفظ الناس يعم المؤمن والكافر، ميّز الله المؤمنين بهذا النداء تشريفا لهم، وتنبيها على خصوصيتهم ، وظاهر «كلوا» الأمر بالأكل المعهود ، وقيل: المراد الانتفاع به، ونبه بالأكل على وجوه الانتفاع، إذ كان الأكل أعظمها إذ به تقوم البنية، قيل : وهذا أقرب إلى المعنى لأنه تعالى ما خص الحل والحرمة بالمأكولات بل بسائر ما ينتفع به من أكل وشرب ولبس وغير ذلك)(٣). «والطيبات» كل مستلذ مستطاب حلال ، ولم يقل في هذه الآية حلالاً (لأنّ المؤمن أباح الله له الطيبات من الرزق خالصة من التبعة، ولأنّ إيمانه يحجزه عن تناول ما ليس له)(٤) .

وفي إسناد الرزق إلى ضمير المتكلم بنون العظمة (لما في الرزق من الامتنان والإحسان)(٥) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ ﴾

أي (وأثنو على الله بما هو أهله منكم على النعم التي رزقكم وطيبها لكم)(٦) .

---

١ - البقرة الآية ١٧٢ .
٢ - البقرة جزء من الآية ١٦٨ .
٣ - البحر المحيط ١ / ٦٥٩ .
٤ - تيسير الكريم الرحمن ١ / ٢٠٤ .
٥ - البحر المحيط ١ / ٦٥٩ .
٦ - جامع البيان ٢ / ٨٣ .

وفيه التفات إذ خرج من ضمير المتكلم «رزقناكم» إلى اسم الغائب «لله» (وحكمة ذلك ظاهرة ، لأنّ هذا الاسم الظاهر متضمن لجميع الأوصاف التي منها وصف الإنعام والرزق ، والشكر ليس على هذا الإذن الخاص ، بل يشكر على سائر الإنعامات والامتنانات التي منها هذا الامتنان الخاص)(١) . والأمر فيه للوجوب لأن شكر المنعم واجب ، بل هو نصف الإيمان كما قال ابن مسعود : الشكر نصف الإيمان(٢) .

ولعل ابن مسعود رضي الله عنه قال قولته استناداً على حديث رسول الله ﷺ قال: **«عجباً لأمر المؤمن إنّ أمره كلّه لخير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر ، فكان خيراً له»**(٣) .

وسمى نفسه سبحانه «شاكراً» و«شكورا» وسمّى الشاكرين بهذين الاسمين فقال سبحانه عن إبراهيم: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾(٤) وعن نوح : ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾(٥) ولغيرهم : ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾(٦) فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه ، وحسبك بهذا محبة للشاكرين(٧) .

---

١ - البحر المحيط ١ / ٦٥٩ .

٢ - انظر إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٣هـ) ٤ / ٨١ .

٣ - رواه مسلم في كتاب الزهد ، باب المؤمن أمره كله خير ، برقم ٢٩٩٩ .

٤ - النحل جزء من الآية ١٢١ .

٥ - الإسراء جزء من الآية ٣ .

٦ - إبراهيم جزء من الآية ٥ .

٧ - انظر مدارج السالكين لابن القيم ٢ / ٢٣٣ .

وقوله سبحانه : ﴿إن كُنتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾

(بمنزلة التعليل لطلب الشكر كأنّه قيل : وأشكروا له لأنّكم تخصونه بالعبادة وتخصيصكم إياه بالعبادة يدل على أنكم تريدون عبادة كاملة تليق بكبريائه، وهي لا تتم إلا بالشكر لأنّه من أجل العبادات)(١) (و«إن» شرط ، والمراد بهذا الشرط التثبيت وهز النفس ، كما تقول افعل كذا إن كنت رجلا)(٢) . وتقديم الضمير المنفصل للتخصيص، وعليه المعنى عند الزمخشري حين قال : ﴿إن كُنتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ أي إن صح أنكم تخصونه بالعبادة وتقرون أنه مولى النعم لاغيره(٣) .

ومثله قال الرازي(٤) ، والبيضاوي(٥) ، والشوكاني(٦) ، والقنوجي(٧) ، والنسفي(٨) ، وبسط ذلك محمد رشيد رضا فقال : ﴿إن كُنتُمْ إيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (أي إن كنتم تخصونه بالعبادة ، وتؤمنون بانفرداه بالسلطة والتدبير ، فاشكروا له خلق هذه النعم وإباحتها لكم ، ولا تجعلوا له أندادا تطلبون منهم الرزق أو ترجعون إليهم بالتحليل والتحريم ، فإن ذلك له وحده ، وإلا كنتم مشركين به كافرين لنعمه كالذين من قبلكم جهلوا معنى عبادة الله تعالى ، فاتخذوا بينهم وبينه وسطاء في طلب الرزق ، ورؤساء يشرعون لهم من الدين مالم يشرعه ، ويحلون لهم ويحرمون عليهم مالم يشرعه لهم)(٩) .

وأمّا أبو حيان فينفي في مثل هذا التركيب أنّه للتخصيص(١٠) كما نفاه في قوله سبحانه : ﴿إيَّاكَ نَعْبُدُ وَإيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١١) قال : («وإيّا» هنا مفعول مقدم

١ - روح المعاني ١ / ٤٣٩ .
٢ - المحرر الوجيز ١ / ٢٣٩ .
٣ - انظر الكشاف ١ / ٢١٣ .
٤ - انظر مفاتيح الغيب ٥ / ٩ .
٥ - انظر تفسير البيضاوي ١ / ١٠٠ .
٦ - انظر فتح القدير ١ / ١٦٩ .
٧ - انظر فتح البيان ١ / ٣٤١ .
٨ - انظر تفسير النسفي ١ / ٩٧ .
٩ - المنار ٢ / ٩٦ .
١٠ - انظر البحر المحيط ١ / ١٤١ .
١١ - الفاتحة الآية ٥ ، وسبق مناقشته في أول هذا الفصل انظر صـ٢٥٦ .

وقدم لكون العامل فيه وقع رأس آية، وللاهتمام به والتعظيم لشأنه لأنه عائد على الله تعالى كما في قولك : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾(١))(٢) .

والقول الأول هو الصحيح وهو متضمن للاهتمام والتعظيم ، وتعضده النصوص الواردة في إخلاص العبادة له وحده دونما سواه ، وأمّا كلام أبي حيان فغير محرر لأنه ينكر دلالة الاختصاص ليس في تقديم المفعول فحسب بل حتى في تقديم المسند ينفي أن يكون للتخصيص يقول : (وقد انتقل الزمخشري من دعوى الاختصاص بتقديم المفعول ، إلى دعواه بتقديم الخبر ، ولا نعلم أحداً يفرق بين «ليس في الدار رجل» و«ليس رجل في الدار)(٣) .

وهذا الذي سلكه أبو حيان في نفي التخصيص مسلك صعب حتى على أبي حيان نفسه ، فهو حين ينفي دلالة الاختصاص في مواضع من سورة الفاتحة والبقرة في معرض تعقبه للزمخشري في مثل قوله : (والتقديم على العامل عنده - أي الزمخشري - يوجب الاختصاص وليس كما زعم ...)(٤) .

نراه يتلطف في سورة تالية للبقرة ويثبت المذهب الذي رده سابقا يقول حول قوله تعالى في سورة آل عمران : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾(٥) (وقدم الجار والمجرور للاهتمام أو الاختصاص على مذهب من يرى ذلك)(٦) .

---

١ - الفاتحة جزء من الآية ٥ .

٢ - البحر المحيط ١ / ٦٦٠ .

٣ - البحر المحيط ١ / ١٦١ .

٤ - المصدر نفسه ١ / ١٢٧ .

٥ - آل عمران جزء من الآية ١٢٢ .

٦ - البحر المحيط ٣ / ٥١ .

المطلب الثاني : المضـــاف :

قال تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾(١)

هذه الآية تصور بعض النعم التي امتن اللّه بها على بني اسرائيل في التيه، بعد ما أمروا أن يدخلوا بيت المقدس، ووعدوا بالنصر فقالوا لموسى : ﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴾(٢) فغضب موسى عليه السلام ودعا عليهم فقال : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٣) وكانت الإجابة ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾(٤) .

قال الربيع بن أنس : (ظلل عليهم الغمام في التيه، تاهوا في خمسة فراسخ أو ستة ، كلما أصبحوا ساروا غادين ، فأمسوا فإذا هم في مكانهم الذي ارتحلوا منه ، فكانوا كذلك حتى مرت أربعون سنة ، قال وهم في ذلك ينزل عليهم المن والسلوى ، ولا تبلى ثيابهم، ومعهم حجر من حجارة الطور يحملونه معهم ، فإذا انزلوا ضربه موسى بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا)(٥) .

قال سبحانه : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ ﴾

« وظللنا » (وجعلنا الغمام يظلكم)(٦) .

(والغمام جمع غمامة ، كما السحاب جمع سحابة ، والغمام هو ما غم السماء

---

١ - البقرة الآية ٥٧ .
٢ - المائدة جزء من الآية ٢٤ .
٣ - المائدة جزء من الآية ٢٥ .
٤ - المائدة جزء من الآية ٢٦ .
٥ - جامع البيان ١ / ٢٩٧ .
٦ - الكشاف ١ / ١٤٤ .

فألبسها من سحاب وقتام وغير ذلك مما يسترها عن أعين الناظرين ، وكل مغطى فإن العرب تسميه مغموما ، وقد قيل : إنّ الغمام التي ظللها الله على بني اسرائيل لم تكن سحابا ... قال ابن عباس : هو غمام أبرد من هذا وأطيب ، وهو الذي يأتي الله عز وجل فيه يوم القيامة في قوله : ﴿فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾(١) وهو الذي جاءت فيه الملائكة يوم بدر)(٢) .

وقوله : ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾

«المن» (اسم جنس لا واحد له من لفظه)(٣) .

وقد حكى المفسرون فيه أقوالاً عدة ، أوصلها بعضهم(٤) إلى ثمانية ، أوجزها ابن الجوزي بقوله : (وفي المن ثمانية أقوال أحدها : أنّه الذي يقع على الشجر فيأكله الناس ، قاله ابن عباس والشعبي والضحاك ، والثاني : أنّه الترنجبين(٥) روى عن ابن عباس أيضا ، وهو قول مقاتل ، والثالث : أنّه صمغة قاله مجاهد ، والرابع : أنّه يشبه الرُّبّ الغليظ قاله عكرمة ، والخامس : أنّه شراب قاله أبو العالية والربيع بن أنس ، والسادس : أنّه خبز الرقاق مثل الذرة ، أو مثل النَّقى قاله وهب ، والسابع : أنه عسل قاله ابن زيد ، والثامن : أنه الزنجبيل قاله السدي)(٦) .

ولابن كثير تعليق جميل بعد سياقه ما قيل في المن قال : (والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة في شرح المن ، فمنهم من فسره بالطعام ، ومنهم من فسره بالشراب

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢١٠ .
٢ - جامع البيان ١ / ٢٩٣ .
٣ - البحر المحيط ١ / ٣٧٤ .
٤ - انظر جامع البيان ١ / ٢٩٤ ، والبحر المحيط ١ / ٣٧٤ .
٥ - وهو شيء يشبه الصمغ حلو مع شيء من الحموضة ، وهو المشهور عند المفسرين ، انظر البحر المحيط ١ / ٣٧٤ ، وروح المعاني ١ / ٢٦٤ .
٦ - زاد المسير ١ / ٨٤ .

والظاهر والله أعلم ، أنه كلّ ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد ، فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاماً وحلاوة ، وإن مزج مع الماء صار شراباً طيباً ، وإن ركب مع غيره صار نوعاً آخر ، ولكن ليس هو المراد من الآية وحده، والدليل ماروواه البخاري عن سعيد بن زيد رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ **«الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين»**(١))(٢) فالحديث فيه دلالة على أن المن ليس مقصوراً على نوع واحد ، بل هو أنواع ، والكمأة منها .

«والسلوى» (اسم طائر يشبه السماني ، واحدة وجماعة بلفظ واحد كذلك السماني لفظ جماعها وواحدها سواء ، وقيل(٣) إن واحدة السلوى سلواة)(٤) (والمنُّ ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لكل إنسان صاع)(٥) (والسلوى تسوقها إليهم ريح الجنوب يختارون حاجتهم ويذهب الباقي)(٦) (ولا يدخر أحد منهم شيئاً من المن والسلوى ، فإن أدخر منه شيئاً فسد عليه ، إلا في يوم الجمعة ، فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم ، لأنّ يوم السبت يوم عبادة ، وما كان ينزل عليهم يوم السبت شيء)(٧) .

وقوله : ﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾

﴿كُلُوا﴾ فيه حذف ، تقديره وقلنا كلوا ، فحذف اختصاراً لدلالة الظاهر عليه(٨). ﴿مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ (من مشتهيات رزقنا الذي رزقناكموه ، وقيل:

---

١ - رواه البخاري في كتاب الطب باب المنّ شفاء للعين برقم ٥٧٠٨ ، ومسلم في كتاب الأشربة باب فضل الكمأة ومداواة العين بها برقم ٢٠٤٩ .

٢ - تفسير ابن كثير ١ / ١٤٤ .

٣ - قاله الخليل انظر كتاب العين باب السين واللام .

٤ - جامع البيان ١ / ٢٩٥ .

٥ - انظر الكشاف ١ / ١٤٤ .

٦ - البحر المحيط ١ / ٣٧٥ .

٧ - الجامع لأحكام القرآن ١ / ٢٧٧ .

٨ - المصدر السابق ١ / ٢٧٨ .

حلاله الذي أبحناه لكم ، فجعلناه لكم رزقاً ، والأول من القولين أولى بالتأويل، لأنّه وصف ما كان القوم فيه من هنيء العيش الذي أعطاهم فوصف ذلك بالطيب الذي هو بمعنى اللذه أحرى من وصفه بأنه حلال مباح ، و«ما » التي مع رزقناكم بمعنى الذي كأنه قيل ، كلوا من طيبات الرزق الذي رزقناكموه)[1] .

وقوله : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا ﴾

عطف على محذوف أي فعصوا ولم يقابلوا النعم بالشكر[2] ، أو فظلموا بأن كفروا هذه النعم وما ظلمونا بذلك[3] .

ويجوز ألا يقدر محذوف كما عند أبي حيان وابن عاشور[4] .

قال أبو حيان : «وما ظلمونا » نفي أنهم لم يقع منهم ظلم الله تعالى ، وفي هذا دليل على أنه ليس من شرط نفي الشيء عن الشيء إمكان وقوعه، لأنّ ظلم الإنسان لله تعالى لا يمكن وقوعه البتة ، والمعنى وما ظلمونا بقولهم ﴿ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾[5] وما ظلمونا بإبائهم على موسى أن يدخلوا قرية الجبارين ، وما ظلمونا بعبادة العجل ، فلا يتعين تقدير محذوف لأنّه قد صدر منهم ارتكاب قبائح من اتخاذ العجل إلها ومن سؤال رؤية الله على سبيل التعنت، وغير ذلك مما لم يقص هنا فجاء قوله تعالى «وما ظلمونا » جملة منفية تدل على أنّ ما وقع منهم من تلك القبائح لم يصل ألينا بذلك نقص ولا ضرر ، بل وبال ذلك راجع إلى أنفسهم ومختص بهم لا يصل إلينا منه شيء[6] .

---

١ - جامع البيان ١ / ٢٩٨ .

٢ - انظر الجامع لأحكام القرآن ١ / ٢٧٨ .

٣ - انظر الكشاف ١ / ١٤٥ .

٤ - انظر التحرير والتنوير ١ / ٥١١ .

٥ - البقرة جزء من الآية ٥٥ .

٦ - انظر البحر المحيط ١ / ٣٧٥-٣٧٦ بتصرف .

وقوله : ﴿وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

(بالكفران أو بما فعلوا «إذ لا يتخطاهم ضرره)[1] .

(«ولكن» هنا وقعت أحسن موقع لأنّه تقدم قبلها نفي ، وجاء بعدها إيجاب نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾[2] وكذلك العكس نحو قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾[3] أعني أن يتقدم إيجاب ثم يجيء بعدها نفي، لأنّ الاستدراك الحاصل بها إنّما يكون يدل عليه ماقبلها بوجه ما ، وذلك أنه لما تقرر أنه قد وقع منهم ظلم، فلما نفى ذلك الظلم أن يصل إلى الله تعالى بقيت النفس متشوقة ومتطلعة إلى ذكر من وقع به الظلم، فاستدرك بأنّ ذلك الظلم الحاصل منهم إنما كان واقعا بهم ، وأحسن مواقعها أن تكون بين المتضادين ، ويليه أن تقع بين النقيضين ، ويليه أن تقع بين الخلافين ... واتفقوا على أنها لا تقع بين المتماثلين نحو ما خرج زيد ولكن لم يخرج عمرو)[4] .

وفي ذكر «أنفسهم» بجمع القلة تحقيرهم وتقليل لعصيانهم[5] .

وتقديم المفعول «أنفسهم» للقصر (وقد حصل القصر أولاً بمجرد الجمع بين النفي والإثبات ، ثم أكد بالتقديم لأنّ حالهم كحال من ينكي غيره ، كما قيل يفعل الجاهل بنفسه ما يفعل العدو بعدوه)[6] .

---

١ - روح المعاني ١ / ٢٦٥ .

٢ - هود جزء من الآية ١٠١ .

٣ - البقرة جزء من الآية ١٣ .

٤ - البحر المحيط ١ / ٣٧٦ .

٥ - انظر روح المعاني ١ / ٢٦٥ .

٦ - التحرير والتنوير ١ / ٥١٢ .

فالتقديم للاختصاص والظلم واقع عليهم لا يتعداهم إلى غيرهم ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[1] وما من قبيحة قدموها فتلتها تبعة ، إلا ووزرها فوق ظهورهم محمول و ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2] .

والقرآن في هذه الآية وفي غيرها ينبه إلى ظلم الإنسان لنفسه ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾[3] والسنة تبسط ذلك وتقربه «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أُوَفِّيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه»[4] .

فالإنسان هو المحور الفاعل سلباً أو إيجابا لكل خطوة يخطوها ، ووسائله تصح وتمرض بالقدر الذي يصح فيه الهدف أو يمرض (إننا نتوهم أننا ضحايا ظلم الآخرين... فمتى ندرك أن ظلم الاستعمار لم يكن ليقع لولا وجود القابلية للاستعمار ، وأن ظلم المستكبر ما ظهر لولا وجود المستضعف وظلمه لنفسه ! لم لا نذكر عند الأزمات قوله سبحانه ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾[5])[6]

---

١ - الأنعام جزء من الآية ١٦٤ . ٢ - المدثر الآية ٣٨ .

٣ - هود جزء من الآية ١٠١ .

٤ - جزء من حديث قدسي رواه مسلم عن أبي ذر في كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم برقم ٢٥٧٧ .

٥ - آل عمران جزء من الآية ١٦٥ .

٦ - انظر من هدي سورة البقرة ، لحنان لحام (الرياض : دار الهدى ، ط / ١ ، ١٤٠٩) صـ١٦٤ .

٢ - المفعول النكـــــرة :

المطلب الأول : (مـــا الشرطيــة) :

(تتـميـز «مـا» بتنوع وظيـفي ودلالي لا نظيـر له في الأدوات الأخرى في اللغة العربية ، والمحدد لهذا التنوع هو السـياق الذي ترد فـيه ، ولعل أبرز تقسيماتها ما أشار به النحاة ، من أنّها تكون أحياناً اسما مبنيا ، وأحيـانا أخرى حرفا قد يكون عاملاً في سياق ، وغير عامل في سياق آخر ، فالاسمية لها وظائفها ودلالاتها :

فقد تكون شرطية جازمة ، تدخل على الفعل وتحتاج إلى جواب ، وقد تكون استفهامية حقيقية أو مجازية ، يستفهم بها عن غير العاقل ، أو حقيقـة الشـيء وقد تكون موصولة بمعنى الذي لغير العاقل ، وقد تكون للعاقل أو صفته ، وقد تكون نكرة موصوفة ، أو تامة ، أو تعجبية .

والحرفية لها وظائفها ودلالاتها :

فقد تكون نافية غير عاملة ، تنفي الماضي والمضارع والجملة الاسمية .

وقد تكون نافية تعمل عمل (ليس) .

وقد تكون مصدرية ، تؤول مع ما بعدها بمصدر .

وقد تكون مؤكدة غير كافة ، وقد تكون مؤكدة كافة .

ورغم هذا التقسيم فإن وظائف (ما) ودلالتها تتداخل في السياقات المختلفة ، ويكون التداخل أحيـاناً بين الاسمية والحرفية ، أو بين الأقسام المختلفة لكل من الحرفية والاسمية ، مما يجعل مجال الاجتهاد في فهمها واسعا خاصة في الدلالات الدقيقة وفي مقدمتها النص القرآني)(١) .

---

١ - معجم حروف المعاني في القرآن ، لمحمد حسن الشريف (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط / ١ ، ١٤١٧هـ) ٣ / ٩٦٤ .

و(ما الشرطية) اسم شرط جازم يحتاج إلى فعل شرط وجواب ، وحيث اعتبر النحاة (ما) اسما فإنهم ذهبوا إلى أنّ (انجزام الفعل بعدها وبعد غيرها من أسماء الجزاء ينبغي أن يكون بتقدير «إنْ» ولا يكون بالاسم ، لأنّا لم نجد اسما عاملا في فعل، وإنما الأفعال تعمل في الأسماء ، وموضعها من الإعراب بحسب العامل فإن كان الشرط فعلا غير متعد كان الموضع رفعا بالابتداء ، وإن كان متعديا كانت منصوبة الموضع به)[1] . وقد وردت (ما الشرطية) في سورة البقرة في محل نصب مفعول به مقدم على عامله في تسعة مواضع[2] ، وتختلف العناصر اللغوية التي دخلت عليها ما الشرطية ، والتصنيف النوعي لها كالآتي :

أ - أئتلاف الطرفين :

حيث أتى فعل الشرط مضارعا وجوابه كذلك في أربعة مواضع :

١ - قال تعالى : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾[3] .

٢ - قال تعالى : ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ﴾[4] .

٣ - قال تعالى : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾[5] .

٤ - قال تعالى : ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾[6] .

أ - اختلاف الطرفين :

أولاً : الفعل ماض وجوابه جملة اسمية :

١ - قال تعالى : ﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[7] .

١ - قال تعالى : ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾[8] .

---

١ - شرح المفصل لابن يعيش ٤ / ص٥ .

٢ - انظر الشرط في القرآن على نهج اللسانيات الوصفية ، للدكتور / عبدالسلام المسدي ، والدكتور / محمد الهادي الطرابلسي (ليبيا : الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٥م) صـ ٢٧٢ - ٢٧٣ .

٣ - البقرة جزء من الآية ١٠٦ .

٤ - البقرة جزء من الآية ١١٠ .

٥ - البقرة جزء من الآية ١٩٧ .

٦ - البقرة جزء من الآية ٢٧٢ .

٧ - البقرة جزء من الآية ٢١٥ .

٨ - البقرة جزء من الآية ٢٧٠ .

ثانياً : الفعل مضارع وجوابه جملة اسمية :

١ - قال تعالى : ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[١] .

٢ - قال تعالى : ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾[٢] .

٣ - قال تعالى : ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[٣] .

وهذه المواضع التسعة أتت ستة منها في سياق الحث على النفقة ! فهل من دلالة ؟

الذي يظهر والله أعلم أن الدلالة تلتمس من تكثيف أسلوب الشرط ذاته ... فلما للمال من حظوة في نفس الإنسان ، وحب غريزي لجمعه ، وعدم التفريط به حتى إنه ليثقل على النفس بذله وإخراجه ، وهي به إلى الشح أقرب ، أتى بالأسلوب الشرطي الدافع ليدفع هذا الشح .. إذ تركيب الجملة الشرطية يتلازم ويتعانق فيها الجواب بالفعل ، فالمنفق لا يكاد يسمع الفعل مقرونا بالشرط حتى يصغي سمعه ، ويجمع حسه للأثر المترتب على هذا الفعل فينشط كيف لا ؟ وهو إن أنفق فلنفسه ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾[٤] والجزاء كامل غير منقوص ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾[٥] وما فعل ذلك إلا ابتغاء وجه ربه . وهو لا يغفل عنه سبحانه ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[٦] وقد ختمت ثلاث آيات بهذا الجواب ، وأي وازع أقوى يدفع العامل للمسارعة والمكاثرة في الخيرات من يقينه بعلم الله بما يعمل وحسبه ذلك .

وسيعرض البحث بالتحليل لنمط واحد من أنماط ما الشرطية منعاً للإطالة والتكرار .

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢١٥ .

٢ - البقرة جزء من الآية ٢٧٢ .

٣ - البقرة جزء من الآية ٢٧٣ .

٤ - البقرة جزء من الآية ٢٧٢ .

٥ - البقرة جزء من الآية ٢٧٢ .

٦ - البقرة جزء من الآية ٢٧٣ .

قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾[1]

تعددت الأقوال في سبب نزول هذه الآية، وجماع ذلك أن من أسلم كره أن يتصدق على قريبه المشرك ، أو نهاهم النبي ﷺ من التصدق عليهم ، أو امتنع هو من ذلك بغية إسلامهم فنزلت هذه الآية[2] قال ابن عباس : كان أناس من الأنصار لهم أنسباء وقرابة من قريظة والنضير ، وكانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ، ويريدونهم أن يسلموا فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ....﴾ الآية[3] .

وقوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾

(أي لا يجب عليك أن تجعلهم مهديين إلى فعل ما أمروا به من المحاسن والانتهاء عما نهوا عنه من القبائح ، وإنّما الواجب عليك الإرشاد إلى الخير ، والحث عليه ، والنهي عن الشر ، والردع عنه لما أوحى إليك من الآيات)[4] .

(إنّ أمر القلوب وهداها وضلالها ليس من شأن أحد من خلق الله – ولو كان هو رسول الله ﷺ – إنّه من أمر الله وحده ، فهذه القلوب من صنعه ولا يحكمها غيره ولا يصرفها سواه ، ولا سلطان لأحد عليها إلا الله ، وما على الرسول إلا البلاغ فأمّا الهدى فهو بيد الله يعطيه من يشاء ، ممن يعلم سبحانه أنه يستحق الهدى ويسعى إليه ، وإخراج هذا الأمر من اختصاص البشر ، يقرر الحقيقة التي لابد أن تستقر في حس المسلم ليتوجه في طلب الهدى إلى الله وحده ، وليتلقى دلائل الهدى

١ – البقرة الآية ٢٧٢ .

٢ – انظر جامع البيان ٣ / ٩٤-٩٥ ، وأسباب النزول للواحدي صـ ٨٢ – ٨٣ .

٣ – جامع البيان ٣ / ٩٥ .

٤ – تفسير أبي السعود ١ / ٤٠٩ .

من الله وحده ... ثم هي تفسح في احتمال صاحب الدعوة لعناد الضالين ، فلا يضيق صدره بهم وهو يدعوهم ، ويعطف عليهم ، ويرتقب إذن الله لقلوبهم في الهدى وتوفيقهم إليه بمعرفته حين يريد)[1] .

قوله : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (بتوفيقه إلى النظر الصحيح المؤدي إلى الاعتقاد الجازم الذي يثمر العمل)[2] . (وجيء فيه بحرف الاستدراك لما في الكلام المنفي من توهم إمكان هديهم بالحرص أو بالإلجاء ، فمصب الاستدراك هو الصلة ، أعني «من يشاء» أي فلا فائدة في إلجاء من لم يشأ الله هديه)[3] .

وقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾

أي وما تنفقوا في وجوه البر «من خير» أي مال فهو لأنفسكم لا ينتفع به في الآخرة غيركم ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ ﴾[4] ولا تبطلوه بالمن والاذى ورئاء الناس ، و«ما» شرطية جازمة لتنفقوا منتصبة به على المفعولية[5] . (أو فنفعه الديني لكم لا لغيركم من الفقراء ، حتى تمنعوه ممن لا ينتفع به من حيث الدين من فقراء المشركين)[6] .

وقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ﴾

(قال الحسن البصري : نفقة المؤمن لنفسه ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله ، وقال عطاء الخراساني : يعني إذا أعطيت لوجه الله فلا عليك ما كان عمله ، وهذا معنى حسن ، وحاصله أن المتصدق إذاتصدق ابتغاء وجه الله ، فقد وقع

---

١ - في ظلال القرآن ١ / ٣١٤ .
٢ - المنار ٣ / ٨٣ .
٣ - التحرير والتنوير ٣ / ٧٢ .
٤ - البقرة جزء من الآية ٢٦٧ .
٥ - انظر روح المعاني ٢ / ٤٥ .
٦ - تفسير أبي السعود ١ / ٤١٠ .

أجره على الله ، ولا عليه في نفس الأمر لمن أصاب أبرٌّ أو فاجر أو مستحق أو غيره وهو مثاب على قصده)[1] .

وهذا المعنى إذا قلنا إنّ الكلام خبر على ظاهره ، ويشهد لهذا المعنى حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها في يد زانية ، فأصبح الناس يتحدثون تصدق على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن الليلة بصدقة فوضعها في يد غني فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على غني ، قال : اللهم لك الحمد على غني ، لأتصدقن الليلة بصدقة ، فخرج فوضعها في يد سارق فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد على زانية وعلى غني وعلى سارق ، فأتى فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، وأمّا الزانية فلعلها أن تستعفف بها عن زنا ، ولعل الغني يعتبر فينفق مما أعطاه الله ، ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته»[2] .

(وقيل نفي بمعنى النهي أي ولا تنفقوا إلا ابتغاء وجه الله ، ومجازه أنّه لما نهى عن أن يقع الإنفاق إلا لوجه الله ، حصل الامتثال ، وإذا حصل الامتثال فلا يقع الإنفاق إلا لابتغاء وجه الله ، فعبر عن النهي بالنفي لهذا المعنى)[3] .

وقوله : ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾

﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ تأكيد وبيان[4] لقوله : ﴿وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ﴾ والمعنى أي (يوفر عليكم جزاؤه مضاعفاً ، وفي هذا وفيما قبله قطع

---

١ - تفسير ابن كثير ١ / ٤٨٤ .

٢ - رواه مسلم في كتاب الزكاة ، باب ثبوت أجر المتصدق وإن وقعت الصدقة في يد غير أهلها برقم ١٠٢٢ .

٣ - البحر المحيط ٢ / ٣٤١ .

٤ - الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٢٢٠ .

عذرهم في عدم الإنفاق ، إذا الذي ينفقونه هو لهم حيث يكونون محتاجين إليه فيوفونه كاملاً موفراً ، فينبغي أن يكون إنفاقهم على أحسن الوجوه وأفضلها)[1] .
وقد جاء قوله تعالى : ﴿ويُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[2] وقوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «من تصدَّق بعدل تمرة من كسب طيب - ولايقبل إلا الطيّب - فإنّ الله يتقبلها بيمينه ثم يربِّيها لصاحبه كما يربِّي أحدكم فلوَّه حتى تكون مثل الجبل»[3] .

(والضمير في يوفَّ عائد على «ما» ومعنى توفيته إجزال ثوابه .

﴿وأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ جملة حالية العامل فيها يوف والمعنى أنكم لا تنقصون شيئاً من ثواب إنفاقكم)[4] .

والمقصود بالصدقات المباح دفعها للكفار إذا احتاجوا إليها ، هي صدقة التطوع وأما المفروضة فلا يجزيء دفعها لكافر ، لقوله عليه السلام : «فأعلمهم أن اللّه افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد في فقرائهم»[5] .

(قال ابن المنذر : أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم، أنّ الذمي لايعطى من زكاة الأموال شيئاً ، ثم ذكر جماعة ممن نص على ذلك ولم يذكر خلافا)[6] .

(وقال أبو حنيفة : تصرف إليهم صدقة الفطر ، لحديث يروى عن ابن مسعود أنه كان يعطي الرهبان من صدقة الفطر ، وهذا حديث ضعيف لا أصل له، ودليلنا أنّها صدقة طهر واجبة، فلا تصرف إلى الكافر كصدقة الماشية والعين)[7] .

---

١ - البحر المحيط ٢ / ٣٤١ .
٢ - البقرة جزء من الآية ٢٧٦ .
٣ - رواه البخاري في كتاب الزكاة باب الصدقة من كسب طيب برقم ١٤١٠ ، ومسلم في كتاب الزكاة باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها برقم ١٠١٤ .
٤ - البحر المحيط ٢ / ٣٤١ .
٥ - جزء من حديث رواه مسلم عن معاذ بن جبل في كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام برقم ٢٩
٦ - الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٢١٩ .
٧ - أحكام القرآن لابن العربي ١ / ٣١٦ .

وفي هذه الآية موضعان تقدم الشرط فيها في قوله سبحانه «وما تنفقوا» فـ«ما» هنا شرطية جازمة في محل نصب مفعول به مقدم لتنفقوا ، والشرط من خصائصه التقدم قال الزمخشري : (والشرط كالاستفهام في أنّ شيئا مما في حيزه لا يتقدمه)[1] .

والملاحظ في آيات الإنفاق طول التوجيه إلى الإنفاق، وتنوع أساليبه، ومنه أسلوب الشرط، حيث تكرر ست مرات ، والقصد منه بيان الملازمة بين الإنفاق والثواب (لبصر الإسلام بطبيعة النفس البشرية وما يخالجها من الشح بالمال ، وحاجتها إلى التحريك المستمر والاستجاشة الدائبة لتستعلي على هذا الحرص وتنطلق من هذا الشح ، وترتفع إلى المستوى الكريم الذي يريده الله للناس هذا أولاً: وثانياً: ما كان يواجهه القرآن من هذه الطبيعة في البيئة العربية التي اشتهرت شهرة عامة بالسخاء والكرم، ولكنه كان سخاء وكرما يقصد به الذكر والصيت، وثناء الناس ، وتناقل أخباره في المضارب والخيام ، ولم يكن أمراً ميسوراً أن يعلمهم الإسلام أن يتصدقوا دون انتظار لهذا كله ، متجردين من هذا كله ، متجهين لله وحده دون الناس)[2] .

فكان لأسلوب الشرط دوره في تصحيح تصوراتهم وتهذيب سلوكهم ، ونقلة لنفوسهم لتستعلي على الثناء العاجل وتزهد فيه ، رجاء وطمعا في الثواب الآجل .

---

١ - المفصل في علم العربية صـ ٣٢٢ .

٢ - في ظلال القرآن ١ / ٣١٤ .

المطلب الثاني : (مـا الاستفهامية) :

اسم يستفهم به عما لا يعقل[1] .

قال ابن يعيش : (وهي تقع على ذوات ما لايعقل وعلى صفات من يعقل)[2] (وتدخل على الاسم نحو قوله تعالى : ﴿الْحَاقَّةُ ۝ مَا الْحَاقَّةُ﴾[3] كما تدخل على الفعل نحو قوله تعالى : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ* مَا يَوْمُ الدِّينِ[4]﴾)[5] .

وتحذف ألفها إذا سبقت بحرف جر، وتبقى الفتحة دليلا عليها فيقال : (لِمَ ، بِمَ ، فيمَ) وربما حذف الألف في غير موضع الخفض ، ولكن إذا حذفوا الخبر يقولون : مه يازيد أي ما الخبر ؟ وما الأمر ؟ حذفت ألفها ووقف عليها بهاء السكت[6] .

وتكون «ما» بحسب السياق استفهامية حقيقية ، نحو قوله تعالى : ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾[7] وقد يكون الاستفهام مجازيا فيخرج عن الاستفهام الحقيقي إلى معان أخرى كالتقرير كقوله سبحانه : ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾[8] والتعجب نحو قوله تعالى : ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾[9] والتعظيم كقوله سبحانه : ﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾[10] والتحقير كقوله سبحانه : ﴿وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ﴾[11] والإنكار التوبيخي كقوله سبحانه : ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[12] وغير ذلك من المعاني[13] .

---

١ - انظر اللمع في العربية ، صـ ٢٩٥ .

٢ - شرح المفصل ٣ / ١٤٥ . ٣ - الحاقة الآيات ١ - ٢ .

* كل ما جاء في القرآن من (ومايدريك) فغير مذكور جوابه ، وماجاء من (وما أدراك) فمذكور جوابه ، انظر دراسات لاسلوب القرآن العظيم لمحمد عبدالخالق عظيمة (مصر: مطبعة السعادة ، ط/ ١ ، ١٣٩٣هـ ، القسم الثالث ج٣ /ص٩ .

٤ - الانفطار الآية ١٧ . ٥ - معجم حروف المعاني في القرآن ٣ / ٩٦٥ .

٦ - انظر نتائج الفكر في النحو للسهيلي ، ت/د. محمد إبراهيم البنا (الرياض : دار الرياض ، د.ت) صـ ١٩٧

٧ - القصص جزء من الآية ٢٣ . ٨ - الشعراء الآية ٢٠٧ . ٩ - الذاريات الآية ٣١ .

١٠ - الواقعة الآية ٨ . ١١ - الواقعة الآية ٩ . ١٢ - الأعراف جزء من الآية ١٢ .

١٣ - انظر معجم حروف المعاني في القرآن ٣ / ٩٦٥ .

مواقع «ما» الاستفهامية في الأعراب :

وقعت «ما» الاستفهامية في القرآن مجرورة بالحرف ، ومفعولا به مقدما في آيتين :

١ - آية البقرة قال تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي﴾[١] .

١ - آية الشعراء قال تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾[٢] .

وفي بقية مواضعها كانت مبتدأ[٣] .

قال تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٤]

قوله سبحانه : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ﴾

أم فيها ثلاثة أقوال للمفسرين، بمعنى الهمزة أي أكنتم[٥] ، وقيل إنها للإضراب فقط بمعنى بل، والمشهور أنها هنا منقطعة بمعنى بل والهمزة[٦] .

(والخطاب لليهود والنصارى الذين انتحلوا الأنبياء صلوات الله عليهم ، ونسبوهم إلى اليهودية والنصرانية ، فرد الله عليهم وكذبهم)[٧] .

(والاستفهام للتقريع والتوبيخ، وهو في معنى النفي أي : ما كنتم شهداء

١ - البقرة جزء من الآية ١٣٣ . ٢ - الشعراء الآية ٧٠ .
٣ - انظر دراسات لأسلوب القرآن العظيم ، القسم الثالث ج٣ / ٩ ، ١٠٢ .
٤ - البقرة الآية ١٣٣ . ٥ - انظر جامع البيان ١ / ٥٦٢ .
٦ - انظر البحر المحيط ١ / ٥٧٢ . ٧ - المحرر الوجيز ١ / ٢١٣ .

فكيف تنسبون إليه مالا تعلمون ، ولا شهدتموه أنتم ولا أسلافكم)[1] .

(وتأويل الكلام : أكنتم يا معشر اليهود والنصارى المكذبين بمحمد ﷺ الجاحدين نبوته حضور يعقوب وشهوده إذ حضره الموت ، أي أنكم لم تحضروا ذلك فلا تدّعوا على أنبيائي ورسلي الأباطيل ، وتنحلوهم اليهودية والنصرانية فإني ابتعثت خليلي إبراهيم ، وولده إسحاق وإسماعيل وذريتهم بالحنيفية المسلمة ، وبذلك وصّوا بنيهم ، وبه عهدوا إلى أولادهم من بعدهم)[2] .

قوله سبحانه : ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾

أي حضر مقدمات الموت وأسبابه ، وإلاّ فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئاً[3] .

(وفي قوله : «حضر» كناية غريبة أنّه غائب لابد أن يقدم ، ولذلك يقال في الدعاء: واجعل الموت خير غائب ننتظره)[4] .

قوله سبحانه : ﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾

«إذ» (هذه مكررة إبدالاً من إذ الأولى ، بمعنى أم كنتم شهداء يعقوب ، إذ قال يعقوب لبينه حين حضور موته؟)[5] .

﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ («ما» استفهام عما لا يعقل، وهو اسم تام منصوب بالفعل بعده)[6] ومعناه أي شيء تعبدون ؟[7] (وسأل «بما» لأنّ المعبودات المتعارفة في ذلك الوقت كانت جمادات، كالأوثان والنار والشمس والحجارة، فاستفهم «بما» التي يستفهم بها عما لا يعقل ، وفهم عنه بنوه فأجابوه بأنّا لا نعبد شيئاً من هؤلاء)[8] .

---

١ - البحر المحيط ١ / ٥٧٢ .
٢ - جامع البيان ١ / ٥٦٢ .
٣ - انظر المحرر الوجيز ١ / ٢١٤ .
٤ - البحر المحيط ١ / ٥٧٣ .
٥ - جامع البيان ١ / ٥٦٢ .
٦ - البحر المحيط ١ / ٥٧٣ .
٧ - انظر الكشاف ١ / ١٩٢ .
٨ - البحر المحيط ١ / ٥٧٣ .

وقيل (عبر عن المعبود «بما» تجربة لهم ولم يقل «من» لئلا يطرق لهم الاهتداء وإنّما أراد أن يختبرهم)(١) (ويجوز أن يقال «ما تعبدون» سؤال عن صفة المعبود كما نقول: ما زيد؟ تريد : أفقيه أم طبيب أم غير ذلك من الصفات)(٢) .

«من بعدي» (أي من بعد وفاتي)(٣) .

«ما تعبدون» وقع اسم الاستفهام مفعولا مقدما ، (وللاستفهام صدر الكلام لا يجوز تقديم شيء مما في حيِّزه عليه)(٤) .

وثمة دلالة تعقب هذا التقعيد النحوي ، ولكل سياق وأسلوب دلالاته (إنّ هذا المشهد بين يعقوب وبنيه في لحظة الموت والاحتضار لمشهد عظيم الدلالة ، قوي الإيحاء ، عميق التأثير .. ميت يحتضر ، فما هي القضية التي تشغل باله في ساعة الاحتضار؟ ما هو الشاغل الذي يعني خاطره وهو في سكرات الموت ؟ ما هو الأمر الجلل الذي يريد أن يطمئن عليه ويستوثق منه؟ ماهي التركة أن يخلفها لأبنائه ويحرص على سلامة وصولها إليهم؟ ..إنّها العقيدة : هي التركة وهي الذخر وهي القضية الكبرى ، وهي الشغل الشاغل ، والأمر الجلل الذي لا تشغل عنه سكرات الموت وصرعاته «ما تعبدون من بعدي»)(٥)

إنّه لا تعنيه العبادة مجردة من معبودها ، فهو يستوثق ويستفهم عن المعبود أي شيء تعبدون ؟ إن عبادة لا تؤدى على وجهها الصحيح جسد بلا روح ، بل وبال على صاحبها ، وسيسأل عن صرفها لغير الله ، وهذا ماحدا بيعقوب عليه السلام أن يهتم كل هذا الاهتمام .

قال الرازي : (والآية دالة على أن شفقة الأنبياء عليهم السلام على أولادهم كانت في باب الدين ، وهمتهم مصروفة إليه دون غيره)(٦) .

---

١ - المحرر الوجيز ١ / ٢١٤ .
٢ - الكشاف ١ / ١٩٢ .
٣ - جامع البيان ١ / ٥٦٢ .
٤ - المفصل في علم العربية صـ ٣٢٠ .
٥ - في ظلال القرآن ١ / ١١٦ .
٦ - مفاتيح الغيب ٤ / ٦٨ .

وقوله سبحانه : ﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾

﴿قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ﴾ أي نعبد معبودك الذي تعبده ومعبود آبائك)[1] (وفي إجابتهم له بإظهار الفعل تأكيد لما أجابوا به ، إذ كان يجوز أن يقال : قالوا إلهك ، فتصريحهم بالفعل تأكيد في الجواب أنه مطابق للسؤال ، أعني في العامل الملفوظ به في السؤال ، وإضافة الإله إلى يعقوب فيه دليل عى اتحاد معبود السائل والمجيب لفظا ، وفي قوله : «وإله آبائك» دليل على اتحاد المعبود أيضا من حيث اللفظ وإنما كرّر لفظ «وإله» لأنه لا يصح العطف على الضمير المجرور إلا باعادة جارّه إلا في الشعر)[2] .

﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾

(عطف بيان لأبائك ، وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه ، لأن العم أب والخاله أم ، لانخراطهما في سلك واحد وهو الأخوة لا تفاوت بينهما ، ومنه قوله عليه السلام «عم الرجل صنو أبيه»[3] أي لا تفاوت بينهما كما لا تفاوت بين صنوي النخلة ، وقال عليه الصلاة والسلام في العباس : «هذا بقية آبائي[4])[5] .

﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾

(«إلها» بدل من «إلهك» وكرره لفائدة الصفة بالوحدانية وقيل : «إلها» حال وهذا قول حسن ، لأنّ الغرض إثبات حال الوحدانية)[6] (وفائدة هذه الحال أو البدل هو التنصيص على أنّ معبودهم واحد فرد ، إذ قد توهم إضافة الشيء إلى كثيرين ، تعداد ذلك المضاف ، فنهض بهذه الحال أو البدل على نفي الإيهام)[7] .

---

١ - جامع البيان ١ / ٥٦٢ . ٢ - البحر المحيط ١ / ٥٧٤ .

٣ - جزء من حديث رواه مسلم في كتاب الزكاة في تقديم الزكاة ومنعها برقم ٩٨٣ .

٤ - أخرجه ابن أبي شيبه في مصنفه في كتاب الفضائل ، باب ما ذكر في العباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ برقم ٣٢٢٠٢ ، ٦ / ٣٨٥ .

٥ - الكشاف ١ / ١٩٢ . ٦ - المحرر الوجيز ١ / ٢١٤ . ٧ - البحر المحيط ١ / ٥٧٤ .

قوله سبحانه : ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

أي (ونحن له خاضعون بالعبودية والطاعة)[1] .

وقال أبوحيان : أي منقادون ، لما ذكر الجواب بالفعل الذي هو نعبد، لأنّ العبادة متجددة دائماً ، ذكر هذه الجملة الاسمية المخبر عن المبتدأ فيها باسم الفاعل الدال على الثبوت ، لأنّ الانقياد لا ينفكون عنه دائماً ، وعنه تكون العبادة، فيكون قوله: ﴿ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ أحد جملتي الجواب ، فأجابوه بشيئين أحدهما بالذي سأل عنه والثاني مؤكداً لما أجابوا به ، فيكون من باب الجواب المربي على السؤال)[2] .

ومما تجدر الإشارة إليه في ختام هذا المطلب أنّ اسم الاستفهام ورد مفعولاً مقدما في سورة البقرة في ثلاثة مواضع هي :

١ - قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾[3] .

٢ - قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾[4]

٣ - قال تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ﴾[5] .

وسياق الآيات ينبيء عن الاهتمام بالمقدم والذي يدل عليه الاستفهام فيها .

---

١ - جامع البيان ١ / ٥٦٢ .

٢ - البحر المحيط ١ / ٥٧٤ .

٣ - البقرة جزء من الآية ٢٦ .

٤ - البقرة جزء من الآية ٢١٥ .

٥ - البقرة جزء من الآية ٢١٩ .

المطلب الثالث : النكـــرة المشـــتقة :

قال تعالى : ﴿ ولَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾[1]

قوله سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾

(أي أنزلنا إليه ، والكتاب الذي آتاه اللّه موسى عليه السلام هو التوراة «وقفينا» يعني وأردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض ، كما يقفو الرجلُ الرجلَ إذا سار في أثره من ورائه ، وأصله من القفا يقال منه . قفوت فلانا . إذا صرت خلف قفاه)[2] ومن في «من بعده» (لابتداء الغاية ، وهو ظاهر لأنّه يحكى أنّ موسى لم يمت حتى نبيء يوشع)[3] .

«بالرسل» البا متعلقة بقفينا[4] (والرسل هم : يوشع ، وشمويل ، وشمعون ، وداود ، وسليمان ، وشعياء ، وأرمياء ، وعزير ، وحزقيل ، وإلياس ، واليسع ، ويونس، وزكريا ، ويحيى ، وغيرهم)[5] .

ومعنى ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ (أي أتبعنا بعضهم بعضا على منهاج واحد وشريعة واحدة ، لأنّ كل من بعثه الله نبيا بعد موسى عليه السلام إلى زمان عيسى بن مريم، فإنّما بعثه بأمر بني إسرائيل بإقامة التوراة، والعمل بما فيها، والدعاء إلى ما فيها فلذلك قيل: ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يعني على منهاجه وشريعته ، والعمل بما كان يعمل به)[6] (وسمي أنبياء بني اسرائيل الذين من بعد موسى رسلاً

---

١ - البقرة الآية ٨٧ .
٢ - جامع البيان ١ / ٤٠٣ .
٣ - البحر المحيط ١ / ٤٦٧ .
٤ - المصدر نفسه ١ / ٤٦٧ .
٥ - مفاتيح الغيب ٣ / ١٦١ .
٦ - جامع البيان ١ / ٤٠٣ .

مع أنّهم لم يأتوا بشرع جديد ، اعتبار بأنّ اللّه لما أمرهم بإقامة التوراة وتفسيرها والتفريع منها ، فقد جعل لهم تصرفا شرعيا ، وبذلك كانوا زائدين على مطلق النبوة التي لا تعلق لها بالتشريع لا تأصيلا ولا تفريعا)[1] .

وقوله سبحانه : ﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾

﴿وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي (الحجج التي أعطاها الله عيسى ، وقيل هي آياته من إحياء وإبراء وخلق طير ، وقيل هي الإنجيل، والآية تعم جميع ذلك)[2] .

(وعيسى أصله بالعبرانيه أيشوع ومعناه السيد وقيل المبارك فعرب)[3] .

(وأضافه إلى أمه* رداً على اليهود فيما أضافوه إليه)[4] .

(وأجمل الله ذكر الرسل ، وفصّل ذكر عيسى لأنّ من قبله من الرسل جاءوا بشريعة موسى فكانوا متبعين له ، وليس كذلك عيسى ، لأنّ شرعه نسخ أكثر شرع موسى عليه السلام)[5] .

﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾

أيّدناه قوّيناه ومنه أيّدك الله أي قوّاك، وهو رجل ذو أيد وذو آد ، يراد ذو قوة[6] وروح القدس قيل الإنجيل قاله ابن زيد، وقيل: هو الاسم الأعظم الذي كان يحيى به عيسى الموتى قاله ابن عباس، وقيل جبريل قاله قتادة والسدي والضحاك والربيع[7]

(قال ابن عطية[8] ، وهذا أصح الأقوال، وقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت :

---

١ - التحرير والتنوير ١ / ٥٦٣ . ٢ - المحرر الوجيز ١ / ١٧٦ . ٣ - روح المعاني ١ / ٣١٦ .

* ورد اسم عيسى في القرآن ٢٥ مرة نسب فيها لأمه في جميعها إلا تسعة مواضع . انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ص٤٩٤ - ٤٩٥ .

٤ - البحر المحيط ١ / ٤٦٧ . ٥ - مفاتيح الغيب ٣ / ١٦١ .

٦ - انظر جامع البيان ١ / ٤٠٣ . ٧ - انظر المصدر السابق ١ / ٤٠٤ .

٨ - المحرر الوجيز ١ / ١٧٦ .

(اللهم أيده بروح القدس) وقال : (اهجهم وجبريل معك)[1] .

و«القدس» (الطهارة والبركة أو -التقديس- ومعناه التطهير ، والإضافة من إضافة الموصوف إلى الصفة للمبالغة في الاختصاص)[2] .

(وتسمية جبريل بذلك لأنّ الغالب على جسمه الروحانيه ، وكذلك سائر الملائكة أو لأنّه يحيا به الدين كما يحيا البدن بالروح، فإنّه هو المتولي لإنزال الوحي ، أو لتكوينه روحا من غير ولادة)[3] .

وقوله سبحانه : ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾

(الهمزة أصلها للاستفهام ، وهي هنا للتوبيخ والتقريع)[4] (فهو نهاية الذم لهم لأن اليهود من بني اسرائيل كانوا إذا آتاهم الرسول بخلاف ما يهوون كذبوه ، وإن تهيأ لهم قتله قتلوه)[5] .

(والهوى أكثر ما يستعمل فيما ليس بحق ، وهذه الآية من ذلك ، لأنّهم إنّما كانوا يهوون الشهوات ، وقد يستعمل في الحق ، ومنه قول عمر رضي الله عنه في قصة أسرى بدر : «فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهوَ ما قلت[6])[7] .

(وأسند الهوى إلى النفس ، ولم يسند إلى ضمير المخاطب، فكان يكون بما

---

١ - قطعتان من حديثين رواهما البخاري في كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة برقم ٣٢١٢ ، ٣٢١٣ ، ومسلم في كتاب فضائل الصحابه باب فضائل حسان بن ثابت برقم ٢٤٨٥ ، ٢٤٨٦ .

٢ - روح المعاني ١ / ٣١٦ .

٣ - البحر المحيط ١ / ٤٦٨ .

٤ - المصدر السابق ١ / ٤٦٨ .

٥ - مفاتيح الغيب ٣ / ١٦٢ .

٦ - جزء من حديث رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر ، وإباحة الغنائم برقم ١٧٦٣ .

٧ - المحرر الوجيز ١ / ١٧٧ .

لاتهوون إشعاراً بأنّ النفس يسند إليها غالبا الأفعال السيئة)[١] .

﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[٢] ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾[٣]

﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ استفعل هنا بمعنى تفعل ، والمعنى استكبرتم عن إجابته احتقاراً للرسول ، أو استبعاداً للرسالة ، وكان ذلك يتكرر منهم بتكرر مجيء الرسل إليهم[٤] .

وقوله سبحانه : ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

(ظاهره أنه معطوف على قوله : «استكبرتم» فنشأ عن الاستكبار مبادرة فريق من الرسل بالتكذيب فقط حيث لا يقدرون على قتله ، وفريق بالقتل إذا قدروا على قتله وتهيأ لهم ذلك ، ويُضمن أنّ من قتلوه فقد كذبوه، واستغنى عن التصريح بتكذيبه للعلم بذلك ، فذكر أقبح أفعالهم معه وهو قتله، وأجاز الراغب أن يكون ففريقا كذبتم معطوفا على قوله وأيّدناه، ويكون قوله أفكلما مع ما بعده فصلا بينهما على سبيل الإنكار ، والأظهر في ترتيب الكلام الأول)[٥] .

(قال الزمخشري[٦] : فإن قلت : هلاّ قيل وفريقا قتلتم ؟ قلت : هو على وجهين أن تراد حكاية الحال الماضية ، لأنّ الأمر فضيع، فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب ، وأن يراد : وفريقا تقتلونهم بعد، لأنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة)[٧] .

(مع ما في صيغة تقتلون من مراعاة الفواصل ، فاكتمل بذلك بلاغة المعنى وحسن النظم)[٨]

---

١ - البحر المحيط ١ / ٤٦٨ . ٢ - يوسف جزء من الآية ٥٣ . ٣ - المائدة جزء من الآية ٣٠ .

٤ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٦٨ . ٥ - المصدر السابق ١ / ٤٦٩ . ٦ - الكشاف ١ / ١٦٣ .

٧ - انظر حادثة سم النبي ﷺ ، الوفاء بأحوال المصطفى لابن الجوزي ، ت / مصطفى عبدالواحد (مصر : مطبعة السعادة ، ط / ١ ، ١٣٨٦هـ) ٢ / ٧٦٧ - ٧٦٨ .

٨ - التحرير والتنوير ١ / ٥٩٨ .

(وتقديم فريقا في الموضعين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم لا للقصر)[1] .

(ولما فيه من الدلالة على التفصيل فناسب أن يقدم ليدل على ذلك ، كما في قوله تعالى : ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ﴾[2] وهذا استعمال عربي كثير في لفظ فريق ، وما في معناه ، نحو طائفة إذا وقع معمولاً لفعل في مقام التقسيم نحو: ﴿يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾[3] والتفصيل راجع إلى ما في قوله «رسول» من الإجمال ، لأنّ كلما جاءكم رسول أفاد عموم الرسل وشمل هذا موسى عليه السلام ، فإنّهم وإن لم يكذبوه بصريح اللفظ لكنهم عاملوه معاملة المكذبين به ... وأمّا بقية الرسل فكذبوهم بصريح القول مثل عيسى ، وقتلوا بعض الرسل مثل أشعياء وزكريا ويحيى ابنه ، وأرمياء)[4] .

---

١ - تفسير أبي السعود ١ / ٢١١ .
٢ - الأعراف جزء من الآية ٣٠ .
٣ - آل عمران جزء من الآية ١٥٤ .
٤ - انظر التحرير والتنوير ١ / ٥٩٨ .

القسم الثاني

تقديم الجار والمجرور

١ - المجرور المعرفة .

المطلب الأول : الضمير المجرور .

أ - المخاطب ب - الغائب

المطلب الثاني : اسم الإشارة المجرور .

المطلب الثالث : الاسم الموصول المجرور .

المطلب الثاني : المحلى بأل المجرور .

٢ - المجرور النكرة .

١ - المجرور المعرفــة :

المطلب الأول : الضمير المجـرور :

أ - المخاطب :

قــال تعــالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[١]

قوله : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾

أي (ومـثـل ذلك الجـعل العـجيب جعلناكم)[٢] ، والمعنى (كـمـا هديناكم أيهـا المؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وبما جاءكم به من عند الله ، فخصصناكم بالتوفيق لقبلة إبراهيم وملته ، وفضلناكم بذلك على من سواكم من أهل الملل كذلك خصصناكم ففضلناكم على غيركم من أهل الأديان بأن جعلناكم أمة وسطا)[٣] (والوسط العدل)[٤] وقيل (الوسط الخيار والأعلى من الشيء كما تقول وسط القوم، وواسطة القلادة أنفس حجر فيها ، والأمير وسط الجيش ، ومنه قوله سبحانه : ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾[٥] أي خيرهم)[٦] .

(وقيل للخيار وسط، لأنّ الأطراف يتسارع إليها الخلل ، والأعوار ، والأوساط

١ - البقرة الآية ١٤٣ .
٢ - الكشاف ١ / ١٩٧ .
٣ - جامع البيان ٢ / ٦ .
٤ - جزء من حديث رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري في كتاب التفسير ، باب «وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» برقم ٤٤٨٧ .
٥ - القلم جزء من الآية ٢٨ .
٦ - المحرر الوجيز ١ / ٢١٩ .

محمية محوّطة ، ومنه قول الطائي :[1]

كـانت هِيَ الوَسَـطَ المَحْمِـيَّ فاكتنفت
بهـا الحَـوَادِثُ حتَّـى أصبحت طَـرَقَا)[2]

ووصفهم الله سبحانه بأنهم وسط (لتوسطهم في الدين ، فلاهم أهل غلوّ فيه ، غلوّ النصارى الذين غلوا بالترهيب ، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه ، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله ، وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به ، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه ، فوصفهم الله بذلك ، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوساطها)[3] .

قوله : ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾

(علة لجعلهم وسطا ، فإنَّ أفعال الله تعالى كلها منوطة بحكم وغايات لعلمه تعالى وحكمته وذلك عن إرادة واختيار ، لا كصدور المعلول عن العلة كما يقول بعض الفلاسفة)[4] .

وهذه الشهادة فيها أقوال :

أحدها : ماعليه الأكثر من أنّها في الآخرة ، وهي شهادة هذه الأمة للأنبياء على أممهم الذين كذبوهم[5] ، روى البخاري عن أبي سعيد الخدري قال : «قال رسول الله ﷺ : يُدعى نوح يوم القيامة فيقول : لبيك وسعديك يارب ، فيقول : هل

---

١ – البيت لأبي تمام من قصيدة يمدح بها أبادُلَف القاسم بن عيسى العجلي ومطلعها :

أما الرسوم فقد أذكرت ما سلفا ... فلا تكفنّ عن شأنيك أو يكفا

ورواية البيت في الديوان : **كانت هي الوسط الممنوع فاستلبت ... ما حولها الخيل حتى أصبحت طرفا**

انظر ديوان أبي تمام ، صـ١٩٢ .

٢ – الكشاف ١ / ١٩٧ .

٣ – جامع البيان ٢ / ٦ .

٤ – التحرير والتنوير ٢ / ٢٠ .

٥ – انظر البحر المحيط ١ / ٥٩٥ .

بلغت؟ فيقول نعم ، فيقال لأمته . هل بلّغكم ؟ فيقولون : ما أتانا نذير ، فيقول : من يشهد لك ؟ فيقول : محمد وأمته فيشهدون أنه قد بلغ ، ويكون الرسول عليكم شهيداً فذلك قوله جل ذكره ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[1] وقيل الشهادة تكون في الدنيا ، فقد روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه يقول «مَرُّوا بجنازة فأثنوا عليها خيراً ، فقال النبيّ ﷺ وجبت ، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرا ، فقال وجبت فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ما وجبت؟ قال : هذا أثنيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً ، فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض»[2] .

ولا يمنع أن يكونوا شهداء في الدنيا والآخرة باختلاف المشهود لهم أو عليهم ودلالة الحديثين ظاهرة في ذلك .

قوله : ﴿وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾

(لا خلاف أن الرسول هنا محمد ﷺ ، وفي شهادته أقوال أحدها : شهادته عليهم أنّه قد بلغهم رسالة ربه .

الثاني : شهادته عليهم بإيمانهم . الثالث : يكون حجة عليهم .

الرابع : تزكيته لهم وتعديله إياهم قاله عطاء)[3] .

---

١ - رواه البخاري في كتاب التفسير ، باب ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ برقم ٤٤٨٧ .

٢ - رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ثناء الناس على الميت برقم ١٣٦٧ .

٣ - البحر المحيط ١ / ٥٩٦ .

وعليكم بمعنى لكم ، وإيثار التعبير بقوله «عليكم» دون «لكم» إذ أن شهادته لهم لا عليهم لأنّه (لما كان الشهيد كالرقيب والمهيمن على المشهود له جيء بكلمة الاستيلاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1] . ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[2])[3] .

وأخر لفظ «على» في شهادة الأمة على الناس وقدمها في شهادة الرسول عليهم (لأنّ الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم)[4] .

قال الشهاب الخفاجي مؤيداً ما ذهب إليه الزمخشري (والمراد بالشهادة الثانية التزكية وهو ﷺ إنما يزكي أمته ، فقدم ليفيد الحصر، وهو من قصر الفاعل على المفعول)[5] .

أمّا أبوحيان فمذهبه يخالف ذلك فلا يقول بالتخصيص حتى في مواضع أقرب دلالة للتخصيص من هذا الموضع ، ويرى هنا أن التقديم للاتساع فيقول : (وتأخر حرف الجر في قوله «على الناس» عما يتعلق به جاء ذلك على الأصل ، إذ العامل أصله أن يتقدم على المعمول ، وأمّا في قوله «عليكم شهيداً» فتقدمه من باب الاتساع في الكلام للفصاحة ، ولأنّ شهيداً أشبه بالفواصل والمقاطع من قوله عليكم، فكان قوله «شهيداً» تمام الجملة ومقطعها دون عليكم ، وما ذهب إليه الزمخشري من أن تقديم «على» لأنّ الغرض فيه إثبات شهادتهم على الأمم، وتأخير «على» لاختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم، فهو مبني على مذهبه أن تقديم المفعول

---

١ - المجادلة جزء من الآية ٦ .
٢ - المائدة جزء من الآية ١١٧ .
٣ - الكشاف ١ / ١٩٨ .
٤ - المصدر نفسه ١ / ١٩٨ .
٥ - حاشية الشهاب المسماه عناية القاضي وكفاية الراضي ، للقاضي شهاب الدين الخفاجي ، ت / عبدالرازق المهدي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤١٧هـ) ٢ / ٤١٣ .

والمجرور يدل على الاختصاص ، وقد ذكرنا بطلان ذلك ، وأن ذلك دعوى لا يقوم عليها برهان)[1] .

وما ذكره أبو حيان من البطلان باطل ، والمعوّل عليه ما ذهب إليه الزمخشري ومن تابعه على ذلك كالنسفي[2] ، والبيضاوي[3] ، والألوسي[4] ، وأبي السعود[5] ، والشوكاني[6] . ويشهد لذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن عقبة بن عامر «أن النبي ﷺ خرج يوما فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر فقال : إني فرط لكم ، وأنا شهيد عليكم ... الحديث»[7] . وقول أبي حيان بالاتساع لا ينفي قول غيره بالتخصيص إذ لا تعارض والنكت لا تتزاحم .

قوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾

﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾(قال قتادة والسدي وعطاء وغيرهم : القبلة هنا بيت المقدس ، والمعنى لم نجعلها حين أمرناك بها أولاً إلا فتنة لنعلم من يتبعك من العرب الذين إنما يألفون مسجد مكه ، أو من اليهود على ما قال الضحاك من أن الأحبار قالوا للنبي ﷺ : إنّ بيت المقدس هو قبلة الأنبياء ، فإن صليت إليه اتبعناك ، فأمره الله بالصلاة إليه امتحانا فلم يؤمنوا ، وقال بعض من ذكر -السدي-[8] القبلة بيت المقدس والمعنى : وما جعلنا صرف القبلة التي كنت عليها وتحويلها ، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، وقال ابن عباس : القبلة في الآية الكعبة وكنت بمعنى أنت كقوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[9]

---

١ - البحر المحيط ١ / ٥٩٦ .
٢ - انظر تفسير النسفي ١ / ٨٨ .
٣ - انظر تفسير البيضاوي ١ / ٩٢ .
٤ - انظر روح المعاني ١ / ٤٠٤ .
٥ - انظر تفسير أبي السعود ١ / ٢٧٧ .
٦ - انظر فتح القدير ١ / ١٥١ .
٧ - رواه البخاري في كتاب الجنائز ، باب الصلاة على الشهيد برقم ١٣٤٤ .
٨ - انظر جامع البيان ٢ / ١١ .
٩ - آل عمران جزء من الآية ١١٠ .

بمعنى أنتم ، أي ما جعلناها وصرفناها إليها إلا فتنة ، وروي في ذلك أن رسول الله ﷺ لما حول إلى الكعبة أكثر في ذلك اليهود والمنافقون وارتاب بعض المؤمنين حتى نزلت الآية ، وقال ابن جريج : بلغني أن ناسا ممن كان رجعوا عن الأسلام)[1] .

﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾

﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ﴾ (أي ليعلم رسولي وأوليائي وحزبي من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه ... إذ كان رسول الله ﷺ وأولياؤه من حزبه ، وكان من شأن العرب إضافة ما فعلته أتباع الرئيس إلى الرئيس ، وما فعل بهم إليه نحو قولهم : فتح عمر بن الخطاب سواد العراق ، وجبى خراجها ، وإنّما فعل ذلك أصحابه عن سبب كان منه ذلك)[2] .

ونظيره ما روى عن النبي ﷺ أنّه قال «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ، قال : يارب كيف أعودك؟ وأنت رب العالمين ، قال أما علمت أن عبدي فلانا مرض فلم تعده ، أما علمت أنّك لوعدته لوجدتني عنده ... الحديث)[3] .

وقيل معناه : (لنعلمه علما يتعلق به الجزاء وهو أن يعلمه موجوداً حاصلاً ونحوه ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [4] .

وقيل : معناه لنميز التابع من الناكص كما قال سبحانه : ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾[5] فوضع العلم موضع التمييز ، لأنّ العلم به يقع التمييز به)[6] .

قال ابن عطية : (وهذا كله متقارب ، والقاعدة نفي استقبال العلم بعد أن لم يكن)[7] (فليس المعنى لنحدث العلم، وإنّما المعنى لنعلم ذلك موجوداً، إذ الله قد علم في القدم من يتبع الرسول واستمر العلم حتى وقع حدوثهم ، واستمر في حين

---

١ - المحرر الوجيز ١ / ٢١٩ .
٢ - جامع البيان ٢ / ١٣ .
٣ - جزء من حديث رواه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب فضل عيادة المريض برقم ٢٥٦٩ .
٤ - آل عمران جزء من الآية ١٤٢ .
٥ - الأنفال جزء من الآية ٣٧ .
٦ - الكشاف ١ / ١٩٩ .
٧ - المحرر الوجيز ١ / ٢٢٠ .

الاتباع والإنقلاب واستمر بعد ذلك)[1] .

﴿مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ (فيما أمر به من استقبال الكعبة)[2] .

﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ (يعني ممن يرتد عن دينه ، لأن القبلة لما حّولت ارتد من المسلمين قوم ونافق قوم)[3] .

والمعنى ما جعلناها إلا لنبتليهم فنرى ممن يسلم أمره ويتبع ، ممن يرجع إلى ماكان عليه من الكفر فيرتد .

(والتعبير بقوله ﴿يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ كناية عن الرجوع عما كان فيه من إيمان والرجوع على العقب أسوأ حالات الراجع في مشيه عن وجهته ، فلذلك شبه المرتد في الدين به ، وظاهر التشبيه أنه بالمتقهقر ، وهي مشية الحيوان الفازع من شيء قد قرب منه ، ويحتمل أن يكون هذا التشبيه بالذي رد ظهره ومشي أدراجه ، فإنّه عند انقلابه إنما ينقلب على عقبيه)[4] .

وفي هذا التصوير البياني الدقيق (مبالغة[5] في التباسه بالشيء الذي يوصله إلى الأمر الذي كان فيه أولاً)[6] .

---

١ - البحر المحيط ١ / ٥٩٧ .
٢ - الجامع لأحكام القرآن ٢ / ٢٠٦ .
٣ - المصدر نفسه ٢ / ٢٠٦ .
٤ - المحرر الوجيز ١ / ٢٢٠ .
٥ - ترد هذه اللفظة في كلام المفسرين ، وقد اختلف العلماء في قبول المبالغة في المعاني القرآنية ، فأنكر بعضهم أن تكون المبالغة من محاسن الكلام، ولكن الذي عليه أغلب العلماء ، أنّها واردة في كتاب الله في مواضع متعددة* والذي ينكرونه منها إنما هو الغلو فيها (ولو بطلت المبالغة كلها وعيبت لبطل التشبيه ، وعيبت الاستعارة ، إلى كثير من محاسن الكلام)* والمعاني القرآنية التي تكون الأفعال فيها صادرة من الله سبحانه تفسر فيها المبالغة على نحو خاص ، فهي من جانب لا مبالغة فيها لأنها صادرة من خالق الأفعال ، ومن جانب آخر فإنّ القارئ يجد فيها معنى المبالغة من حيث كمال الصورة ، ودقة توصيل المعنى الذي يستعصي على الفهم البشري إلا من خلال الإيضاح الذي يسلكه القرآن . انظر مفهوم المبالغةفي المعاني القرآنية ، لشلتاغ عبود ، بحث في مجلة كلية الدعوة الإسلامية في طرابلس (ليبيا : العدد الحادي عشر ، ١٤١٤هـ) صـ ٣٠٩ - ٣١٦ .

* انظر البرهان في علوم القرآن للزركشي ، ت / مصطفى عبدالقادر عطا (بيروت:دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ، ١٤٠٨هـ) ٣ / ٦٠ - ٦١

* العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لابن رشيق ، تأليف محمد محيي الدين عبدالحميد (بيروت : دار الجيل ، ط / ٤ ، ١٩٧٢) ٢ / ٥٠ .

٦ - البحر المحيط ١ / ٥٩٨ .

ومن هذا النص تتضح خطة التربية الربانية التي يأخذ الله بها هذه الجماعة الناشئة التي يريد لها أن تكون الوارثة للعقيدة ، المستخلفة في الأرض تحت راية العقيدة، إنّه يريد لها أن تخلص له، وأن تتخلص من كل رواسب الجاهلية ووشائجها إنّ البون شاسع بين من اتبع الرسول لأنّه رسول الله ، وبين من اتبعه لأنه أبقى على البيت الحرام قبلة ، فاستراحت نفوسهم إلى هذا الإبقاء تحت تأثير شعورهم بجنسهم وقومهم ومقدساتهم القديمة .. إنّها لفتة دقيقة شديدة الدقة .. إنّ العقيدة الإسلامية لا تطيق لها في القلب شريكا، ولا تقبل شعاراً غير شعارها المفرد الصريح ، إنّها لا تقبل راسباً من رواسب الجاهلية في أيّة صورة من الصور جل أم صغر[1] .

قوله : ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾

﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ (هي إن المخففة التي تلزمها اللام الفارقة ، والضمير في «كانت» لما دل عليه قوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا﴾ من الردّة ، أو التحويل أو الجعله)[2] ويجوز رجوع الضمير إلى القبلة (أي وإن كانت القبلة المتصفة بأنك كنت عليها لكبيرة ، أي تحويلها على أهل الشرك والريب قاله ابن عباس)[3] (ومعنى كبيرة أي : شاقة صعبة ، ووجه صعوبتها أنّ ذلك مخالف للعادة ، لأنّ من ألف شيئاً ثم انتقل عنه صعب عليه الانتقال)[4] .

﴿إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾(إلى سر الأحكام الشرعية المبنية على الحكم والمصالح إجمالاً أو تفصيلاً ، والمراد بهم ﴿مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾ من الثابتين على الإيمان الغير المتزلزلين المنقلبين على أعقابهم)[5] .

---

١ - انظر في ظلال القرآن ١ / ١٣٢ بتصرف .
٢ - الكشاف ١ / ١٩٩ .
٣ - فتح البيان ١ / ٣٠٢ .
٤ - البحر المحيط ١ / ٥٩٨ - ٥٩٩ .
٥ - روح المعاني ١ / ٤٠٦ .

قوله : ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾

عنى بالإيمان في هذا الموضع الصلاة ، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما وجِّه رسول الله ﷺ إلي الكعبة قالوا : كيف بمن مات من إخواننا قبل ذلك ، وهم يصلون نحو بيت المقدس ؟ فأنزل الله جل ثناؤه ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[1] .

قال القرطبي : (اتفق العلماء على أنّها نزلت فيمن مات وهو يصلي إلى بيت المقدس)[2] .

(وكني عن الصلاة بالإيمان لما كانت صادرة عنه ، وهي من شعبه العظيمة ويحتمل أن يقر الإيمان على مدلوله إذ هو يشمل التصديق في وقت الصلاة إلى بيت المقدس وفي وقت التحويل ، وذكر الإيمان ، وإن كان السؤال عن صلاة من صلى إلى بيت المقدس ، لأنّه هو العمدة والذي تصح به الأعمال ، وقد كان لهم ثابتا في حال توجههم إلى بيت المقدس وغيره ، فأخبر تعالى أنه لا يضيع إيمانكم ، فاندرج تحته متعلقاته التي لا تصح إلا به ، وكان ذكر الإيمان أولى من ذكر الصلاة لئلا يتوهم اندراج صلاة المنافقين إلى بيت المقدس ، وأتى بلفظ الخطاب وإن كان السؤال عمن مات على سبيل التغليب ، لأنّ المصلين إلى بيت المقدس لم يكونوا كلهم ماتوا)[3] .

قوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾*

(ختمُ هذه الآية بهذه الجملة ظاهر ، وهي جارية مجرى التعليل لما قبلها أي للطف رأفته وسعة رحمته نقلكم من شرع أصلح لكم وأنفع في الدين ، أو لم يجعل لها مشقة على الذين هداهم ، أو لايضيع إيمان من آمن ، وهذا الأخير أظهر)[4] .

---

١ - انظر جامع البيان ٢ / ١٦-١٧ .　　٢ - الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١٠٦ .

٣ - البحر المحيط ١ / ٦٠٠ .　　٤ - المصدر السابق ١ / ٦٠٠ - ٦٠١ .

* سيأتي الحديث عنها في باب تقديم المعاني انظر ص ٤٠١-٤٠٢ .

ب - ضمير الغائب :

قال تعالى : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]

قوله سبحانه : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ ﴾

«كيف» (اسم استفهام عن حال ، وصحبه معنى التقرير والتوبيخ ، فخرج عن حقيقة الاستفهام)[2] (وتقديره ويْحكُم كيف تكفرون بالله)[3] وقيل : (إنه استفهام في معنى التعجب ، وهذا التعجب للمؤمنين ، أي أعجبوا من هؤلاء كيف يكفرون ، وقد ثبتت حجة الله عليهم ، قاله ابن قتيبة والزجاج)[4] والإنكار بالهمزة إنكار لذات الفعل ، وبكيف إنكار لحاله ، وإنكار حاله إنكار لذاته ، لأنّ ذاته لا تخلو من حال يقع فيها ، فاستلزم إنكار الحال إنكار الذات ضرورة ، وهو أبلغ إذ يصير ذلك من باب الكناية حيث قصد إنكار الحال ، والمقصود إنكار وقوع ذات الكفر ، وهذا الخطاب فيه التفات ، لأنّ الكلام قبل كان بصورة الغيبة ألا ترى إلى قوله : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً ﴾[5] إلخ وفائدة هذا الالتفات أنّ الإنكار إذا توجه إلى المخاطب كان أبلغ من توجهه إلى الغائب ، لجواز أن لا يصله الإنكار بخلاف من كان مخاطباً فإن الإنكار عليه أردع له عن أن يقع فيما أنكر عليه ، وأتى بصيغة تكفرون مضارعا ، ولم يأت به ماضيا وإن كان الكفر قد وقع منهم ، لأن الذي أنكر أو تعجب منه الدوام على ذلك ، والمضارع هو المشعر به ، ولئلا يكون في الكلام توبيخ لمن وقع منه الكفر ممن آمن كأكثر الصحابة رضي الله عنهم[6] .

---

١ - البقرة الآية ٢٨ .

٢ - البحر المحيط ١ / ٢٧٥ .

٣ - زاد المسير ١ / ٥٧ .

٤ - المصدر نفسه ١ / ٥٧ .

٥ - البقرة جزء من الآية ٢٦ .

٦ - انظر البحر المحيط ١ / ٢٧٥ بتصرف .

وقوله : ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾

(الواو في قوله «وكنتم» للحال[1] ، (أي وقد كنتم أمواتاً ومثله ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾[2] أي قد حصرت ، ومثله ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ﴾[3] أي فقد كذبت ، ولولا إضمار «قد» لم يجز مثله في الكلام)[4] .

وقد انتصر لإضمار قد أبوحيان ، ورد رأي الزمخشري وتخريجه لهذه الآية ، إذ يرى الزمخشري أنّ الواو لم تدخل على كنتم أمواتاً وحده ، ولكن على جملة قوله «كنتم أمواتا» إلى «ترجعون» كأنه قيل : كيف تكفرون بالله وقصتكم هذه ، وحالكم أنّكم كنتم نطفا في أصلاب آبائكم فجعلكم أحياء ، ثم يميتكم بعد هذه الحياة ، ثم يحييكم بعد الموت ، ثم يحاسبكم[5] .

قال أبوحيان : (ونحن نقول إنّه على إضمار قد كما ذهب إليه أكثر الناس ، أي وقد كنتم أمواتا فأحياكم ، والجملة الحالية عندنا فعلية ، وأما أن نتكلف ونجعل تلك الجملة إسمية حتى نفر من إضمار قد فلا نذهب إلى ذلك)[6] . وتابعه الألوسي في قوله حيث قال : (ما قبل «ثم» حال من ضمير «تكفرون» بتقدير قد لا محالة خلافا لمن وهم فيه)[7] .

وفي الحياتين والموتتين أقوالٌ للمفسرين ، أصحها ما حكى عن ابن عباس وابن مسعود وقتادة من أنّ معنى قوله سبحانه «وكنتم أمواتا» أموات الذكر خمولاً في أصلاب آبائكم نطفاً لا تعرفون ولا تذكرون ، فأحياكم بإنشائكم بشراً سوياً ، ثم

---

١ - انظر الكشاف ١ / ١٢٦ .
٢ -النساء جزء من الآية ٩٠ .
٣ - يوسف جزء من الآية ٢٧ .
٤ - زاد المسير ١ / ٥٧ .
٥ - انظر الكشاف ١ / ١٢٦ .
٦ - البحر المحيط ١ / ٢٧٥ .
٧ - روح المعاني ١ / ٢١٥ .

يميتكم بقبض أرواحكم وإعادتكم رفاتا ، ثم يحييكم بعد ذلك بنفخ الأرواح فيكم لبعث الساعة وصيحة القيامة[١] .

واختاره ابن جرير وابن الجوزي[٢] وابن كثير[٣] وابن عطية وقال : (وهذا القول أولى الأقوال ، وهو الذي لا محيد للكفار عن الإقرار به في أول ترتيبه ، ثم إن قوله أولاً :« كنتم أمواتا » وإسناده آخراً الإماته إليه تبارك وتعالى مما يقوي ذلك القول ، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتا معدومين ثم للإحياء في الدنيا ثم للإماتة فيها قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر ، وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها)[٤] .

قوله سبحانه : ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

(أي إلى عذابه مرجعكم لكفركم، وقيل إلى الحياة وإلى المسأله كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ﴾[٥] فإعادتهم كابتدائهم ، فهو رجوع)[٦] و« إليه » متعلق بـ« ترجعون » (وتقديم المتعلق على عامله مفيد للقصر)[٧] حيث الرجوع إليه سبحانه لا إلى غيره والحكم حكمه والأمر يومئذ لله (وهذا القصر قصر حقيقي سيق للمخاطبين لإفادتهم ذلك ، إذ كانوا منكرين ذلك - أي البعث - وفيه تأييس لهم من نفع أصنامهم إيّاهم ، إذ كان المشركون يحاجون المسلمين ، بأنه إن كان بعث وحشر فسيجدون الألهة ينصرونهم)[٨] .

---

١ - انظر جامع البيان ١ / ١٨٧-١٨٩ .
٢ - انظر زاد المسير ١ / ٥٧ .
٣ - تفسير ابن كثير ١ / ١٠٣ .
٤ - المحرر الوجيز ١ / ١١٤ .
٥ - الأنبياء جزء من الآية ١٠٤ .
٦ - الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٧٣ .
٧ - التحرير والتنوير ١ / ٣٧٧ .
٨ - المرجع السابق ١ / ٣٧٧ .

ومما ورد في مثل هذا السياق :

١ - قوله سبحانه : ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[١] .

(ففي تقديم الجار والمجرور على عامله في قوله : «له عابدون» إفادة قصر إضافي على النصارى الذين اصطبغوا بالمعمودية لكنهم عبدوا المسيح)[٢] .

كما يفيد اختصاص العبادة له سبحانه[٣]، وكل عبادة تصرف لغيره فهي باطلة.

٢ - قوله سبحانه : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[٤] .

قال أبوحيان : (وقدم «إليه» للاعتناء بمن يكون الحشر إليه ، ولتواخي الفواصل والمعنى)[٥] .

وهذا مذهب سار عليه أبو حيان في تقديم المتعلقات ، فالتقديم لا يتعدى عنده الاهتمام والاعتناء وتناسب رؤوس الآي ، ويرفض القول بالتخصيص ، بل يرد على من قال به ، وقد حجر واسعا ، وكثيراً ما يتضمن السياق دلالات تتخطى ما التزم به أبو حيان ليدل دلالة واضحة على أنّ التقديم يأتي لغرض يتضمن ما يقول به أبو حيان ويزيد عليه ، فالآية هذه مثلا قريبة جداً من الآية السابقة ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وما قيل هناك يقال هنا ، فالتقديم للتخصيص ، والعباد يحشرون إليه سبحانه وحده دونما سواه .

---

١ - البقرة جزء من الآية ١٣٨ . وقد سبق الحديث عنها في تقديم المسند إليه المبحث الثاني في المطلب الثاني (تقديم المضمرات) صـ ١٤٥ .

٢ - التحرير والتنوير ١ / ٧٤٥ .

٣ - انظر روح المعاني ١ / ٣٩٥ .

٤ - البقرة جزء من الآية ٢٠٣ .

٥ - البحر المحيط ٢ / ١٢١ .

المطلب الثاني : اسم الإشارة المجرور :

قال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .... الآية﴾[1]

(الكاف للتشبيه وذلك اسم إشارة ، والكاف في موضع نصب، إمّا لكونه نعتا لمصدر محذوف ، وإمّا لكونه حالا ، والمعنى : وجعلناكم أمة وسطا جعلا مثل ذلك ، والإشارة بذلك ليس إلى ملفوظ به متقدم، إذ لم يتقدم في الجملة السابقة اسم يشار إليه بذلك، لكن تقدم لفظ «يهدي» وهو دال على المصدر ، وهو الهدى ، وتبين أنّ معنى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم يجعله على صراط مستقيم ، كما قال تعالى : ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2] قابل تعالى الضلال بالجعل على الصراط المستقيم، إذ ذلك الجعل هو الهداية، فكذلك معنى الهدى هنا هو ذلك الجعل ، وتبين أيضا من قوله : ﴿قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾[3] إلى آخره، أنّ الله جعل قبلتهم خيراً من قبلة اليهود والنصارى أو وسطا ، فعلى هذه التقادير اختلفت الأقاويل في المشار إليه بذلك)[4] .

وقد ذكر الرازي وأبو حيان خمسة أقوال[5] في المشار إليه :

١ - (فقيل : المعنى أنه شبه جعلهم أمة وسطا بهدايته إياهم إلى الصراط المستقيم، أي أنعمنا عليكم بجعلكم أمة وسطا مثل ما سبق إنعامنا عليكم بالهداية إلى الصراط المستقيم ، فتكون الإشارة بذلك إلى المصدر الدال عليه يهدي، أي جعلناكم أمة خياراً مثل ماهديناكم باتباع محمد ﷺ وماجاء به من الحق)[6] .

---

١ - البقرة الآية ١٤٣ . وقد سبق الحديث عن هذه الآية في المطلب الأول من هذا المبحث في ضمير المخاطب المجرور ص ٢٩٩ .

٢ - الأنعام جزء من الآية ٣٩ .

٣ - البقرة جزء من الآية ١٤٢ .

٤ - البحر المحيط ١ / ٥٩٤-٥٩٥ .

٥ - انظر مفاتيح الغيب ٤ / ٨٨ ، والبحر المحيط ١ / ٥٩٥ .

٦ - البحر المحيط ١ / ٥٩٥ .

٢ - (وقيل المعنى : إنّه شبّه جعلهم أمة وسطا بجعلهم على الصراط المستقيم أي جعناكم أمة وسطا مثل ذلك الجعل الغريب الذي فيه اختصاصكم بالهداية، لأنّه قال : ﴿يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[1] فلا تقع الهداية إلا لمن شاء الله تعالى .

٣ - وقيل : المعنى كما جعلنا قبلتكم خير القِبل جعلناكم خير الأمم)[2] .

ويرد على هذا التقدير (أنّ المحل المشبه به غير مختص بهذه الأمة، لأنّ مؤمني الأمم السابقة كانوا أيضا مهتدين إلى صراط مستقيم ، وكانت قبلة بعضهم أفضل القبل أيضا ، والجعل المشبه مختص بهم، فلا يحسن التشبيه على أنّه لا يفهم من السابق سوى أنّ التوجه إلى كل واحد القبلتين في وقته صراط مستقيم ، والأمر به في ذلك الوقت هداية ، ولا يفهم منه أنّ قبلتهم أفضل القبل ، والناسخ لا يلزم أن يكون خيراً من المنسوخ ، اللهم إلا أن يكون مراد القائل - كما جعلنا قبلتكم الكعبة التي هي أفضل القبل في الواقع جعلناكم أمة وسطا ، إلاّ أنّه على مافيه لا يحسم الإيراد)[3] .

٤ - وقيل المعنى (وكما أنّ الكعبة وسط الأرض ، كذلك جعلناكم أمة وسطا دون الأنبياء وفوق الأمم)[4] .

٥ - وقيل المعنى : (كما جعلناكم قبلة متوسطة بين المشرق والمغرب جعلنا قبلتكم وسطا)[5] .

وقال الزمخشري : (مثل ذلك الجعل العجيب جعلناكم)[6] .

---

١ - البقرة جزء من الآية ١٤٢ .
٢ - البحر المحيط ١ / ٥٩٥ .
٣ - روح المعاني ١ / ٤٠٣ .
٤ - الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١٠٤ .
٥ - البحر المحيط ١ / ٤٩٥ .
٦ - الكشاف ١ / ١٩٧ .

(والذي حدا صاحب الكشاف إلى هذا المحمل أن استعمال اسم الإشارة في هذا وأمثاله لايطرد فيه اعتبار مشار إليه مما سبق من الكلام)[1] .

قال ابن عاشور : والتحقيق عندي أن أصل «كذلك» أن يدل على تشبيه شيء بشيء ، والمشبه به ظاهر مشار إليه ، أو كالظاهر ادعاءً ، فقد يكون المشبه به المشار إليه مذكوراً مثل قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[2] إشارة إلى قوله : ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[3] . وكقول النابغة :

فألفيتُ الأمانةَ لم تَخُنْها كَذَلِكَ كَانَ نوحٌ لاَ يَخُونُ[4]

وقديكون المشبه به المشار إليه مفهوما من السياق ، فيحتمل اعتبار التشبيه ويحتمل اعتبار المفعولية المطلقة ، كقول أبي تمام :

كَذَا فَلْيَجَلَّ الخَطْبُ وَلْيَفْدَحَ الأَمْرُ

فَلَيْسَ لِعَيْنٍ لَمْ يَفِضْ دَمْعُها عُذْرُ[5]

قال التبريزي في شرحه : الإشارة للتعظيم والتهويل ، وهو في صدر القصيدة لم يسبق له ما يشبه به ، فقطع النظر فيه عن التشبيه ، واستعمل في لازم معنى التشبيه أ.هـ ، يعني أنّ الشاعر أشار إلى الحادث العظيم، وهو موت محمد بن حميد

---

١ - التحرير والتنوير ٢ / ١٦ .
٢ - هود جزء من الآية ١٠٢ .
٣ - هود جزء من الآية ١٠١ .
٤ - البيت للنابغة الذبياني من قصيدة مطلعها :
نأت بسعاد عنك نوىً شطون **فبانت والفؤاد بها رهين** ، أنظر ديوانه صـ ٧٢ .
٥ - مطلع قصيدة لأبي تمام يرثي بها محمد بن حميد الطوسي ، انظر ديوانه صـ ٣٥٥ .

الطوسي ... وقد يكون مراداً منه التنويه بالخبر، فيجعل كأنّه مما يروم المتكلم تشبيهه، ثم لا يجد إلا أن يشبهه بنفسه ، وفي هذا قطع للنظر عن التشبيه في الواقع ومثله قول أحد شعراء فزارة في الأدب :

كَـذَاكَ أُدِّبْـتُ حَتَّـى صَـارَ مِنْ خُلُقِـي

أَنِّـي رَأَيْـتُ مَـلاَكَ الشِّـيْمَةِ الأَدَبَـا[١]

أي أدبت هذا الأدب الكامن العجيب .

وقوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ من هذا القبيل ، وأوضح منه في هذا المعنى قوله تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾[٢] فإنّه لم يسبق ذكر شيء غير الذي سماه الله تعالى فتنة أخذ من فعل فتن ، والإشارة على هذا المحمل ، المشار إليه مأخوذ من كلام متأخر عن اسم الإشارة كما قَدّره الزمخشري ، لأنّه الجعل المأخوذ من جعلناكم ، وتأخير المشار إليه عن اسم الإشارة استعمال بليغ في مقام التشويق كقوله تعالى:﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ[٣] ﴾)[٤] .

ويرى أبو السعود أنّ أصل التقدير ، جعلناكم أمة وسطا جعلا كائناً مثل ذلك الجعل ، وتقديم الإشارة عنده لإفادة القصر[٥] .

وتابعه الألوسي على قوله تقديراً وتقديماً[٦] .

١ - انظر شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، ت / أحمد أمين عبدالسلام هارون (بيروت : دار الجيل ، ط / ١ ، ١٤١٤هـ) ٢ / ١١٤٦ . ونسبه لبعض الفزاريين وقبله :

أكنيه حين أناديه لأكرمه ... ولا ألقّبه والسوءة اللقبا

٢ - الأنعام جزء من الآية ٥٣ .

٣ - الكهف جزء من الآية ٧٨ .

٤ - التحرير والتنوير ٢ / ١٦ - ١٧ .

٥ - انظر تفسير أبي السعود ١ / ٢٧٥ .

٦ - انظر روح المعاني ١ / ٤٠٣ .

«وسطا» (أي خياراً ، أو عدولا مزكّين بالعلم والعمل ، وهو في الأصل اسم للمكان الذي تستوي إليه المساحة من الجوانب ، ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط ، كالجود بين الإسراف والبخل والشجاعة بين التهور والجبن ، ثم أطلق على المتصف بهما ، يستوي فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي وصف بها)[1] .

وقال الجوهري : (وكل موضع صلح فيه بين فهو وسْط ، وإن لم يصلح فيه بين فهو وَسَط بالتحريك ، وربما سكن وليس بالوجه)[2] .

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾

إنّها الأمّة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً ، فتقيم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم ، إنّها للأمة الوسط بكل معاني الوسط «أمة وسطا» في التصور والاعتقاد ... وفي التفكير والشعور ... في الارتباطات والعلاقات ... في المكان والزمان ...

وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها، إلاّ أنّها تخلت عن منهج الله الذي اختاره لها ، واتخذت لها مناهج مختلفة ليست هي التي اختارها لها ، واصطبغت بصبغات شتى ليست صبغة الله واحدة منها ! والله يريد لها أن تصطبغ بصبغته وحدها ، وأمة تلك وظيفتها ، وذلك دورها ، خليقة بأن

---

١ - تفسير البيضاوي ١ / ٩١ .

٢ - انظر الصحاح للجوهري ، مادة وسط .

تحتمل التبعة وتبذل التضحية ، فللقيادة تكاليفها ، وللقوامة تبعاتها ، ولابد أن تفتن قبل ذلك وتبتلى ليتأكد خلوصها لله وتجردها واستعدادها لحمل الأمانة[1] .

ومما تقدم فيه اسم الإشارة المجرور على متعلقة . قوله تعالى : ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[2]

فقوله : ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ﴾

(أي مثل ذلك الذي سمعت به على ذلك المنهاج «قال» الجهلة «الذين» لا علم عندهم، ولا كتاب، كعبدة الأصنام والمعطلة ونحوهم، قالوا لأهل كل دين : ليسوا على شيء ، وهذا توبيخ عظيم لهم حيث نظموا أنفسهم مع علمهم في سلك من لايعلم)[3] .

وتقديم الجار والمجرور على متعلقه «قال» (لإفادة القصر، أي قولا مثل ذلك القول بعينه لا قولاً مغايراً له)[4] .

(والمقصود تشبيه المقول بالمقول في المؤدى والمحصول ، وتشبيه القول بالقول في الصدور عن مجرد التشهي والهوى والعصبية)[5] .

---

١ - انظر في ظلال القرآن ١ / ١٣١ - ١٣٢ بتصرف .

٢ - البقرة الآية ١١٣ .

٣ - الكشاف ١ / ١٧٨ .

٤ - تفسير أبي السعود ١ / ٢٤١ .

٥ - روح المعاني ١ / ٣٦٠ .

واختلف في المراد بـ «الذين لا يعلمون»

فقيل : هم مشركو العرب قالوا لمحمد وأصحابه : لستم على شيء قاله السدي ، وقيل إنهم أمم كانوا قبل اليهود والنصارى ، كقوم نوح وهود وصالح قاله عطاء[1] وقيل : مشركو قريش ، وقال قوم : المراد اليهود[2] .

واختاره ابن جرير[3] ، ووافقه ابن كثير أنّها عامة تصلح للجميع ، وليس ثمّ دليل قاطع يعين واحداً من هذه الأقوال ، والحمل على الجميع أولى[4] .

١ - انظر جامع البيان ١ / ٤٩٦ ، وزاد المسير ١ / ١٣٣ .
٢ - انظر البحر المحيط ١ / ٥٢٢ .
٣ - انظر جامع البيان ١ / ٤٩٧ .
٤ - انظر تفسير ابن كثير ١ / ٢٣٢ .

المطلب الثالث : الاسم الموصول المجرور :

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[1]

قوله : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

« الذين » إمّا موصول بالمتقين، على أنّه صفة مجرورة مقيدة له، إن فسر التقوى بترك مالا ينبغي، مترتبة عليه ترتب التحلية على التخلية ، أو موضحة، إن فسر بما يعم فعل الحسنات وترك السيئات، لاشتماله على ما هو أصل الأعمال وأساس الحسنات من الإيمان والصلاة والصدقة ، فإنّها أمهات الأعمال النفسانية والعبادات البدنية والمالية المستتبعة لسائر الطاعات، والتجنب عن المعاصي غالبا ، قال ابن مسعود : (إنَّ أمر محمّدٍ كان بيّناً لمن رآه والذي لا إله غيره ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب)[2] وقال ﷺ « رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة »[3] .

ويحتمل أن تكون مدحاً للموصوفين بالتقوى ، وتخصيصاً للإيمان بالغيب وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة بالذكر ، إظهاراً لإنافتها عن سائر ما يدخل تحت حقيقة هذا الإسم من الحسنات[4] .

« يومنون » (معناه يصدقون ويتعدى بالباء ، وقد يتعدى باللام كما قال تعالى : ﴿ وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ ﴾[5] وكما قال : ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ ﴾[6] وبين التعديتين فرق، وذلك أنّ التعدية باللام في ضمنها تعدٍّ بالباء يفهم من المعنى)[7] .

---

١ - البقرة الآية ٣ .

٢ - الكشاف ١ / ٤٨ .

٣ - جزء من حديث لمعاذ بن جبل أخرجه أحمد في مسنده برقم ٢٢٠٧٧ ، ٥ / ٣٧٤ . والترمذي في سننه كتاب الإيمان ، باب ما جاء في حرمة الصلاة ، برقم ٢٦١٦ .

٤ - انظر الكشاف ١ / ٤٧ ، وتفسير البيضاوي ١ / ١٧ .

٥ - آل عمران جزء من الآية ٧٣ .

٦ - يونس جزء من الآية ٨٣ .

٧ - المحرر الوجيز ١ / ٨٤ .

فالإيمان في اللغة يطلق على التصديق المحض ، وقد يستعمل في القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى : ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1] وقوله سبحانه : ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[2] وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال كقوله سبحانه : ﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[3] فأمّا إذا استعمل مطلقا فالإيمان الشرعي المطلوب ، لا يكون إلا اعتقاداً وقولاً وعملا ، هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبو عبيدة، وغير واحد إجماعا : أن الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص[4] .

قال ابن جرير : (والإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله ، وتصديق الإقرار بالفعل ، وإذا كان ذلك كذلك ، فالذي هو أولى بتأويل الآية وأشبه بصفة القوم ، أن يكونوا موصوفين بالتصديق بالغيب قولاً واعتقادا وعملا ، إذ كان جل ثناؤه لم يحصرهم من معنى الإيمان على معنى دون معنى ، بل أجمل وصفهم به من غير خصوص شيء من معانيه أخرجه من صفتهم بخبر ولا عقل)[5] .

«بالغيب» (أصل الغيب : المكان المطمئن الذي يستتر فيه لنزوله عما حوله ، فسمي كل مستتر غيبا)[6] .

واختلف المفسرون في تأويل الغيب هنا وكلٌّ منهم يذكر نوعاً من أنواعه، فقيل : الوحي قاله ابن عباس ، وقيل: الله عز وجل قاله عطاء وسعيد بن جبير ، وقيل: ماغاب عن العباد من أمر الجنة والنار قاله قتادة ، وقيل غير ذلك[7]، وهذه الأقوال

---

١ - التوبة جزء من الآية ٦١ .
٢ - يوسف جزء من الآية ١٧ .
٣ - العصر جزء من الآية ٣ .
٤ - انظر تفسير ابن كثير ١ / ٦٤ - ٦٥ .
٥ - جامع البيان ١ / ١٠١ .
٦ - زاد المسير ١ / ٢٤ .
٧ - انظر جامع البيان ١ / ١٠١ ، وزاد المسير ١ / ٢٤ - ٢٥ .

لاتتعارض ، وكلٌّ ذكر فرداً من أفراد الغيب (ويدخل في الإيمان بالغيب ، الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة ، وأحوال الآخرة ، وحقائق أوصاف الله وكيفيتها وما أخبرت به الرسل من ذلك)[١] .

قوله : ﴿ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ﴾

عن ابن عباس قال : إقامة الصلاة : تمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والإقبال عليها فيها)[٢] (وعبر عن ذلك بالإقامة لأن القيام بعض أركانها)[٣] والصلاة لغة الدعاء ومنه قوله ﷺ : «إذا دعي أحدكم إلى طعام فليجب فإن كان صائما فليصلِّ وإن كان مفطراً فليطعم»[٤] (أي فليدع بالبركة والخير للمضيف)[٥].

وقال الأعشى :

تقول بِنتي وَقَد قَربْتُ مُرتَحِلا ... يَارَبِّ جَنِّب أبي الأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا

عَلَيْكِ مِثْلَ الَّذي صَلَّيْتِ فَاغْتَمِضِي ... نَوْماً فَإنّ لِجَنْبِ الْمَرْءِ مُضْطَجَعَا[٦]

والمراد بها هنا الصلوات الخمس قاله مقاتل[٧] ، (وسميت الصلاة المفروضة صلاة ، لأنّ المصلي متعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله، مع ما يسأل ربه فيها من حاجاته تعرض الداعي بدعائه ربه استنجاح حاجاته وسؤله)[٨] .

---

١ - تفسير الكريم الرحمن للسعدي ١ / ٤٢ .

٢ - جامع البيان ١ / ١٠٤ .

٣ - تفسير البيضاوي ١ / ١٨ .

٤ - أخرجه مسلم عن أبي هريرة في كتاب النكاح ، باب الأمر باجابة الداعي إلى دعوة برقم ١٤٣١ .

٥ - الفائق في غريب الحديث للزمخشري ، ت / علي محمد البجادي ، محمد ابوالفضل إبراهيم ، دار الفكر ، ط / ٣ ، ١٣٩٩هـ ، ٢ / ٣٠٩ .

٦ - وهما له من قصيدة مطلعها : **بانت سعاد وأمسى حبلها انقطعا ... واحتلت الغمر فالجدين فالفرعا**

انظر ديوانه ، ت / فوزي عطوي (بيروت : الشركة اللبنانية للكتاب ، د،ت) ص ١٢٠ .

٧ - انظر زاد المسير ١ / ٢٥ .

٨ - جامع البيان ١ / ١٠٤ .

قوله : ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

(الرزق عند أهل السنة ، ماصح الانتفاع به حلالاً كان أو حراماً ، بخلاف قول المعتزلة إنّ الحرام ليس برزق)[1] وعن ابن عباس قال «ينفقون» يؤتون الزكاة احتساباً لها[2] (والظاهر من هذا الإنفاق صرف المال في سبيل الخير من الفرض والنفل ، ومن فسره بالزكاة ذكر أفضل أنواعه والأصل فيه ، أو خصصه بها لاقترانه بما هو شقيقها)[3] حيث اقترنت الصلاة بالزكاة أو الإنفاق في القرآن بما يربو على ثلاثين موضعاً[4] .

(وإسناد الرزق إليه سبحانه للتعظيم والتحريض على الإنفاق)[5] .

وتقديم المجرور «مما» على عامله وهو ينفقون (دلالة على كونه أهم)[6] . (فيكون في التقديم إيذان بأنّهم ينفقون مع ما للرزق من المعزة على النفس كقوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ ﴾[7] مع رعى فواصل الآيات على حرف النون ، وفي الإتيان بمن التي هي للتبعيض إيماء إلى كون الإنفاق المطلوب شرعاً ، هو إنفاق بعض المال ، لأنّ الشريعة لم تكلف الناس حرجاً ، وهذا البعض يقل ويتوفر بحسب أحوال المنفقين ، فالواجب منه ماقدرت الشريعة نصبه ومقاديره من الزكاة ، ومازاد على الواجب لا ينضبط تحديده ومازاد فهو خير)[8] .

(والحكمة في الجمع بين الإيمان بالغيب وهو عقد القلب ، وبين الصلاة وهي فعل

١ - المحرر الوجيز ١ / ٨٥ .

٢ - انظر جامع البيان ١ / ١٠٤ .

٣ - تفسير البيضاوي ١ / ١٩ .

٤ - انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة ز ك و ، ص ل و ، ن ف ق .

٥ - تفسير البيضاوي ١ / ١٩ .

٦ - الكشاف ١ / ٥٠ .

٧ - الإنسان جزء من الآية ٨ .

٨ - التحرير والتنوير ١ / ٢٣٦ .

البدن ، وبين الصدقة وهو تكليف يتعلق بالمال ، أنّه ليس في التكليف قسم رابع ، إذ ماعدا هذه الأقسام فهو ممتزج بين اثنين منهما كالحج والصوم ونحوهما)[1] .

وترتيب الآية على حسب الألزم فالإيمان بالغيب لازم للمكلف دائما ، والصلاة لازمة في أكثر الأوقات ، والنفقة لازمة في بعض الأوقات ، وجعل صلات «الذين» أفعالا مضارعة ، ولم يجعل الموصول «أل» فيصله باسم الفاعل ، لأنّ المضارع فيما ذكر البيانيون مشعر بالتجدد والحدوث ، بخلاف اسم الفاعل لأنّه عندهم مشعر بالثبوت ، والأمدح في صفة المتقين تجدد الأوصاف[2] .

---

١ - زاد المسير ١ / ٢٦ .

٢ - انظر البحر المحيط ١ / ١٦٥ . بتصرف .

المطلب الرابع : المحلى بأل المجرور :

قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[1]

قوله :(﴿بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ يعني الكتب السالفة)[2] وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : (أي يصدقونك بما جئت به من الله عز وجل وما جاء به من قبلك من المرسلين ، لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاءوهم به من عند ربهم)[3] والمقصود بهذه الآية ، قيل هم مؤمنو أهل الكتاب كعبد الله بن سلام ، لأنّهم جمعوا بين الإيمان بما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على من قبله وفيهم نزلت ، واختاره ابن جرير[4] واستشهد له بقوله سبحانه : ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾[5] (والحق أنّ هذه الآية في المؤمنين كالتي قبلها ، وليس مجرد ذكر الإيمان بما أنزل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وما أنزل إلى من قبله بمقتض لجعل ذلك وصفا لمؤمني أهل الكتاب ، ولم يأت ما يوجب المخالفة لهذا ، ولا في النظم القرآني ما يقتضي ذلك ، وقد ثبت الثناء على من جمع بين الأمرين من المؤمنين في غير آية . قال تعالى : ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾[6] وقوله : ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾[7])[8] .

---

١ - البقرة الآية ٤ .
٢ - المحرر الوجيز ١ / ٨٦ .
٣ - جامع البيان ١ / ١٠٥ .
٤ - انظر المصدر السابق ١ / ١٠٢ - ١٠٣ .
٥ - آل عمران جزء من الآية ١٩٩ .
٦ - العنكبوت جزء من الآية ٤٦ .
٧ - البقرة جزء من الآية ٢٨٥ .
٨ - فتح القدير ١ / ٣٦ - ٣٧ .

قال الزمخشري : (فإن قلت : قوله «بما أنزل إليك» إن عنى به القرآن بأسره والشريعة عن آخرها فلم يكن ذلك منزلا وقت إيمانهم ، فكيف قيل أنزل بلفظ المضيّ؟ وإن أريد المقدار الذي سبق إنزاله وقت إيمانهم ، فهو إيمان ببعض المنزل ، واشتمال الإيمان على الجميع سالفه ومترقبه واجب . قلت : المراد المنزل كله وإنما عبر عنه بلفظ المضيّ ، وإن كان بعضه مترقبا ، تغليبا للموجود على ما لم يوجد ، كما يغلب المتكلم على المخاطب ، والمخاطب على الغائب فيقال : أنا وأنت فعلنا ، وأنت وزيد تفعلان ، ولأنه إذا كان بعضه نازلا وبعضه منتظر النزول جعل كأنّه كله قد نزل وانتهى نزوله ويدل عليه قوله تعالى ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾[1] ولم يسمعوا جميع الكتاب ولا كان كله منزلا)[2] .

وقوله : ﴿وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[3]

الآخرة صفة للدار بدليل قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾[4] وإنما وصفت بذلك لمصيرها آخرة لأولى كانت قبلها ، ويجوز أن تكون سميت آخرة لتأخرها عن الخلق ، كما سميت الدنيا دنيا لدنوها من الخلق[5] .

وغاير سبحانه بين الإيمان بالمنزل والإيمان بالآخرة باللفظ ، فلم يقل وبالآخرة هم يؤمنون، دفعا لكلفة التكرار[6] ، (وخص الإيقان بالآخرة لكثرة غرائب متعلقات الآخرة وما أعد فيها من الثواب والعقاب السرمديين، وتفصيل أنواع التنعيم والتعذيب، ونشأة أصحابها على خلاف النشأة الدنيوية، ورؤية الله تعالى، فالآخرة

---

١ – الأحقاف جزء من الآية ٣٠ .

٢ – الكشاف ١ / ٥١ .

٣ – سبق الحديث عن هذا الجزء من الآية في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي المطلب الثاني صـ ١٠٣-١٠٤ .

٤ – العنكبوت جزء من الآية ٦٤ .

٥ – انظر جامع البيان ١ / ١٠٥ .

٦ – انظر البحر المحيط ١ / ١٦٧ .

أغرب في الإيمان بالغيب من الكتاب المنزل ، فلذلك خص بلفظ الإيقان ، ولأنّ المنزل إلى الرسول ﷺ مشاهد أو كالمشاهد ، والآخرة غيب صرف ، فناسب تعليق اليقين بما كان غيبا صرفا)[1] .

وفي تقديم «بالآخرة» على عامله «يوقنون» (تعريض بأهل الكتاب ، وبما كانوا عليه من إثبات أمر الآخرة على خلاف حقيقته ، وأنّ قولهم ليس بصادر عن إيقان ، وأنّ اليقين ما عليه من آمن بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك)[2] وكلام الزمخشري هذا مشعر بالقصر وقد صرح به الألوسي فقال : (وتقديم المجرور للإشارة إلى أنّ ايقانهم مقصور على حقيقة الآخرة لا يتعداها إلى خلاف حقيقتها مما يزعمه اليهود مثلا حيث قالوا ﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَن كَانَ هُودًا﴾[3] ﴿لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾[4])[5] والذي يبدو من السياق أن التقديم يفيد (الاهتمام مع رعاية الفاصلة ، وفيه ثناء عليهم بأنّهم أيقنوا بأهم ما يوقن به المؤمن ، وليس التقديم بمفيد حصراً إذ لا يستقيم معنى الحصر هنا ، بأن يكون المعنى أنّهم يوقنون بالآخرة دون غيرها ، وقد تكلف صاحب الكشاف وشارحوه القول بإفادة الحصر من هذا التقديم ، ويخرج الحصر عن تعلقه بذات المحصور فيه إلى تعلقه بأحواله وهذا غير معهود في الحصر)[6] .

---

١ - البحر المحيط ١ / ١٦٧ - ١٦٨ .

٢ - الكشاف ١ / ٥١ .

٣ - البقرة جزء من الآية ١١١ .

٤ - البقرة جزء من الآية ٨٠ .

٥ - انظر روح المعاني ١ / ١٢٥ .

٦ - انظر التحرير والتنوير ١ / ٢٤٠ .

ومما تقدم فيه المحلى بأل المجرور على متعلّقه قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا .. الآية ﴾[1]

قوله سبحانه : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾

(أي وأمرناهم بالوالدين إحسانا ، وقرن الله عز وجل في هذه الآية حق الوالدين بالتوحيد ، لأن النشأة الأولى من عند الله ، والنّشء الثاني ، وهو التربية من جهة الوالدين ، ولهذا قرن تعالى الشكر لهما بشكره فقال ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾[2] والإحسان إلى الوالدين معاشرتهما بالمعروف والتواضع لهما ، وامتثال أمرهما ، والدعاء بالمغفرة بعد مماتهما وصلة أهل ودهما)[3] وتفاصيل الإحسان لا تنحصر بالعد ، بل تكون بالحد وهي كل إحسان قولي وفعلي .

« وبالولدين » (متعلق بـ« إحسانا » ويكون إحسانا مصدراً موضوعا موضع فعل الأمر، كأنّه قال وأحسنوا بالوالدين ، قالوا : والباء ترادف إلى في هذا الفعل تقول : أحسنت به وإليه بمعنى واحد ، وقد تكون على هذا التقدير على حذف مضاف : أي وأحسنوا ببر الوالدين ، المعنى وأحسنوا إلى الوالدين ببرهما ، وعلى هذين الوجهين يكون العامل في الجار والمجرور ملفوظا به)[4] وقيل في تعلقه غير ذلك، لكن المختار ما ذكر، لعدم الإضمار فيه ولا طراد مجيء المصدر في معنى فعل الأمر[5] .

---

١ – البقرة الآية ٨٣ . وسبق الحديث عن جزء منها في تقديم المسند إليه على الخبر المشتق ، انظر صـ١٤٧-١٤٨ .

٢ – لقمان جزء من الاية ١٤ .

٣ – الجامع لأحكام القرآن ٢ / ١٢ .

٤ – البحر المحيط ١ / ٤٥٢ .

٥ – انظر المصدر نفسه ١ / ٤٥٢ .

وفي تقديم «وبالوالدين» على متعلقه اعتناء بأمرهما واهتمامابه وناهيك احتفالاً بهما ، كون الله جل جلاله قرن الإحسان إليهما وشكرهما بعبادته وشكره في أربعة مواضع من كتابه غير هذا الموضع .

قال تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[1]

قال تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[2]

قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[3]

قال تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾[4]

---

١ - النساء جزء من الآية ٣٦ .

٢ - الأنعام جزء من الآية ١٥١ .

٣ - الأسراء جزء من الآية ٢٣ .

٤ - لقمان جزء من الآية ١٤ .

المجرور النكرة :

وقد يكون الاسم المجرور المتقدم على متعلقه نكرة ، وفي سورة البقرة لم يكشف البحث إلا عن موضع واحد وهو :

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]

(تفريع على الحكم الذي تقدمه وهو تحريم التبديل ، فكما تفرع عن الأمر بالعدل في الوصية وعيد المبدل لها ، وتفرع عن وعيد المبدِّل الإذن في تبديلٍ هو من المعروف وهو تبديل الوصية التي فيها جور وحيف ، بطريقة الإصلاح بين الموصى لهم وبين من ناله الحيف من تلك الوصية، بأن كان جديراً بالإيصاء إليه فتركه الموصي ، أو كان جديراً بمقدار فأجحف به الموصي)[2] .

وقوله : ﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾

«فمن خاف» (فمن توقع وعلم ، وهذا في كلامهم شائع يقولون : أخاف أن ترسل السماء ، يريدون التوقع والظن الغالب الجاري مجرى العلم)[3] .

فالخوف هنا بمعنى الظن والتوقع (لأنّ ظن المكروه خوف ، فأطلق الخوف على لازمه وهو الظن والتوقع ، إشارة إلى أنّ ما توقعه المتوقع من قبيل المكروه، والقرينة هي أنّ الجنف والإثم لا يخيفان أحداً ، ولاسيّما من ليس من أهل الوصية ، وهو المصلح بين أهلها ، ومن إطلاق الخوف في مثل هذا قول أبي محجن الثقفي :

أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لا أَذُوقَهَا[4]

---

١ - البقرة الآية ١٨٢ .　　٢ - التحرير والتنوير ٢ / ١٥٢ .　　٣ - الكشاف ١ / ٢٢٢ .

٤ - هذا عجز بيت لأبي محجن وصدره : **ولا تدفنني بالفلاة فإنّني**

انظر العقد الفريد ٨ / ٦٣ ، والشعر والشعراء لابن قتيبه ، ت / د: مفيد قميحة ، نعيم زرزور (بيروت: دار الكتب العلمية ط / ٢ ، ١٤٠٥هـ) صـ٢٧٢ ، والأغاني ، ج ١٠ / ١٩ ، وخزانة الأدب ، ٨ / ٣٩٩ .

أي أظنّ وأعلم شيئاً مكروها ولذا قال قبله:تروّي عظامي بعد موتي عروقها)[1]

«جنفا أو إثما» قال السدي : أما جنفا فخطأ في وصيته ، وأمّا إثما فعمَدٌ يعمد في وصيته الظلم[2] ، فالفرق بينهما أنّ الجنف خطأ غير متعمد ، والإثم تعمد الخطأ ، (وفي توجيه هذه الآية قولان :

أحدهما : أنّ معناها من حضر رجلا يموت فأسرف في وصيته ، أو قصر عن حق فليأمره بالعدل ، هذا قول مجاهد .

والثاني : أنّ معناها : من أوصى بجور فردّ وليّه وصيته ، أو ردّها إمام من أئمة المسلمين إلى كتاب الله وسنة نبيه ، فلا أثم عليه وهذا قول قتادة)[3] . والقول الثاني متضمن للأول .

وقدّم هنا المجرور النكرة «من موص» على متعلقه «جنفا» ولعل لهذا التقديم ارتباطاً بالآية قبلها ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[4] فالآية هذه تحذر الموصى له من التبديل وأمّا الموصي فقد أدى ما عليه وأجره على الله ، وإن كان ثمّة إثم فعلى المبدّل والمغيّر ، والآية بعدها الخوف ليس ممن يوصى إليه أو يسمع ذلك ، وإنّما الخوف من الموصي نفسه أن يتعدى أو يحيف في وصيته فقدمه اعتناء بأمره ، ولتشويق السامع وترقبه لما سيأتي بعد ذكره ، بعد ما سمع ماقيل في الموصى قبله ، ويفيد كذلك أنّ السامعين ربما يستبعدون وقوع

---

١ - التحرير والتنوير ٢ / ١٥٣ .
٢ - انظر جامع البيان ٢ / ١٢٧ .
٣ - زاد المسير ١ / ١٨٣ .
٤ - البقرة الآية ١٨١ .

الحيف من الموصي لقربه من وارثيه ، فقُدِم في الآية للاهتمام بشأنه وللتنبيه على أنه كما يقع الظلم بتبديل الوصية من الموصي له ، فإنّه يقع الخطأ جنفا وإثما من الموصي كذلك .

وقوله : ﴿ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ﴾

يريد أهل المواريث وأهل الوصايا ، ولذلك قال «بينهم» (ولم يذكرهم لأنّ المعنى يدل على أنّ الصلح إنّما يكون في الورثة والموصى لهم)[١] .

«فلا إثم عليه» (في ذلك التبديل ، لأنّه تبديل باطل إلى حق)[٢] .

هنا نكتة وهي : أنّ هذا المصلح قد أتى بطاعة عظيمة في هذا الإصلاح يستحق الثواب عليه ، فكيف يليق به أن يقال فلا إثم عليه؟

والجواب عليه من وجوه منها :

أولاً : أنّه تعالى لما ذكر إثم المبدِّل في أول الآية ، وهذا أيضا من التبديل ، بيّن مخالفته للأول ، وأنّه لا أثم عليه لأنّه رد الوصية إلى العدل .

ثانياً : لما كان المصلح ينقص الوصايا ، وذلك يصعب على الموصى له ويوهم فيه إثما أزال الشبهة وقال «فلا إثم عليه» .

ثالثاً : أنّ الإصلاح بين الجماعة يُحتاج فيه إلى الإكثار من القول ، ويخاف فيه

---

١ - معاني القرآن للفراء ١ / ١١١ .

٢ - روح المعاني ١ / ٤٥٣ .

أن يتخلله بعض مالا ينبغي من القول والفعل ، فبين تعالى أنّه لا إثم على المصلح في هذا الجنس إذا كان قصده في الإصلاح جميلاً[1] .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(تذييل أتى به للوعد بالثواب للمصلح علي إصلاحه ، وذكر المغفرة مع أنّ الإصلاح من الطاعات ، وهي إنّما تليق من فعل مالايجوز ، لتقدم ذكر الإثم الذي تتعلق به المغفرة ولذلك حسن ذكرها ، وفائدتها التنبيه على الأعلى بما دونه ، يعني أنّه تعالى غفور للآثام ، فلأن يكون رحيما بمن أطاعه من باب أولى ، ويحتمل أن يكون ذكرها وعداً للمصلح بمغفرة ما يفرط منه في الإصلاح ، إذ ربما يحتاج فيه إلى أقوال كاذبة وأفعال تركها أولى)[2] .

---

١ - انظر مفاتيح الغيب ٥ / ٥٨ .

٢ - روح المعاني ١ / ٤٥٣ .

المبحث الثاني

تقديم بعض المتعلقات على بعض

- القسم الأول : المنصوبات .

المطلب الأول : تقديم المفعول على الفاعل .

المطلب الثاني : تقديم المفعول الأول على الفاعل .

المطلب الثالث :تقديم المفعول الثاني على المفعول الأول .

المطلب الرابع : تقديم الظرف على نائب الفاعل .

- القسم الثاني : المجرورات .

مدخل .

المطلب الأول : تقديم الجار والمجرور على الفاعل .

المطلب الثاني : تقديم الجار والمجرور على المفعول به .

- القســـم الأول : المنصوبات .

المطلب الأول : تقديم المفعول على الفاعل :

تقدم المفعول على الفاعل في سورة البقرة ، فيما يربو على عشرين موضعا وتنوعت تراكيب مجيئها ، وبتنوعها تنوع حكم تقدمه من حيث الوجوب والجواز ، فإذا كان الفاعل والمفعول اسمين ظاهرين، جاز تقديم المفعول وتأخيره مالم يوقع في لبس[1] كقوله تعالى : ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾[2] وقوله سبحانه : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾[3] .

أمّا إذا اتصل بالفاعل ضمير يعود على المفعول، وجب تقدم المفعول على الفاعل حتى لا يعود الضمير على متأخر لفظا ورتبة[4] كقوله تعالى : ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾[5] .

أو كان المفعول به ضميرا متصلا، والفاعل اسم ظاهر، وجب تقديم المفعول على الفاعل كذلك[6] ، وورد هذا النوع كثيرا كما في هذه الآيات :

١ - قال تعالى : ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ﴾[7] .

٢ - قال تعالى : ﴿نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُم﴾[8] .

٣ - قال تعالى : ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾[9] .

٤ - قال تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾[10] .

---

١ - انظر أوضح المسالك ٢ / ١١٩ ، وشرح جمل الزجاجي لابن هشام ، ت/ د. علي محسن مال الله (بيروت : عالم الكتب ، ط / ٢ ، ١٤٠٦هـ) صـ ١٠٧ .

٢ - البقرة جزء من الآية ١٣٣ .

٣ - البقرة جزء من الآية ١٨٠ .

٤ - انظر أوضح المسالك ٢ / ١٢٥ ، وشرح جمل الزجاجي صـ ١٠٩ .

٥ - البقرة جزء من الآية ١٢٤ .

٦ - انظر أوضح المسالك ٢ / ١٣٤ .

٧ - البقرة جزء من الآية ٥٥ .

٨ - البقرة جزء من الآية ١٠٠ .

٩ - البقرة جزء من الآية ١١٨ .

١٠ - البقرة جزء من الآية ١٨٦ .

٥ - قال تعالى : ﴿ ومِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ﴾[١] .
٦ - قال تعالى : ﴿ مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾[٢] .
٧ - قال تعالى : ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾[٣] .
٨ - قال تعالى : ﴿ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ ﴾[٤] .
٩ - قال تعالى : ﴿ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ ﴾[٥] .
١٠ - قال تعالى : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ ﴾[٦] .
١١ - قال تعالى : ﴿ فَمَن جَاءهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ ﴾[٧] .
١٢ - قال تعالى : ﴿ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللّهُ ﴾[٨] .

وهذا تقسيم نحوي ، وأنعم به من طريق يفسح مجالا رحبا للسائر المتأمل لأسرار هذه التراكيب ، ولن يعدم طالب .

فقوله تعالى : ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ ﴾[٩] .
وقوله سبحانه : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ﴾[١٠] .

مع أنّ الفاعل المتأخر واحد وهو «الموت» إلا أنّ السرَّ هنا غيره هناك ، وهي دلالة واضحة على أثر السياق في تحديد السر البلاغي في اللغة القرآنية ، فالآية الأولى قدم يعقوب عليه السلام للاهتمام به ، إذ المراد بيان كيفية وصيته لبنيه بعد ما بين ذلك إجمالاً[١١] في

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٠٤ .
٢ - البقرة جزء من الآية ٢٠٩ .
٣ - البقرة جزء من الآية ٢١٣ .
٤ - البقرة جزء من الآية ٢٤٨ .
٥ - البقرة جزء من الآية ٢٤٨ .
٦ - البقرة جزء من الآية ٢٦٦ .
٧ - البقرة جزء من الآية ٢٧٥ .
٨ - البقرة جزء من الآية ٢٨٤ .
٩ - البقرة جزء من الآية ١٣٣ .
١٠ - البقرة جزء من الآية ١٨٠ .
١١ - انظر تفسير أبي السعود ١ / ٢٦٤ .

قولـه : ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[1] .

ويتضح الاهتمام جليا عند ما ذكره سبحانه باسمه ولم يقل «حضره» مع تقدم اسمه في الآية قبلها .

وأمّا الآية الثانية «إذا حضر أحدكم الموت» فليس ثمّة اهتمام بالمقدم، وإنّما يفيد تقديمه كمال الفاعل عند النفس وقت وروده عليها[2] ، ولعمري أيّ أمر أمكن منه ، وأشد من سكراته وأذهل ، وكفاك بها شدة طلب الحبيب المصطفى من حبيبه الإعانة «اللهم أعني على سكرات الموت»[3] .

والسكرات جمع سكرة قال الراغب وغيره : السكر حالة تعرض بين المرء وعقله ، وأكثر ما تستعمل في الشراب المسكر ، ويطلق في الغضب والعشق والألم والنعاس والغشى الناشيء عن الألم، وهو المراد هنا ، والشدة في الموت لا تدل على نقص في المرتبة ، بل هي للمؤمن إما زيادة في حسناته ، وإمّا تكفير لسيآته[4] .

(قيل لعمرو بن العاص في مرضه الذي مات فيه : كيف تجدك ؟ قال : أجدني أذوب ولا أثوب ، فلما قربت نفسه من أن تفيض ، قال له ابنه قد كنت تحب أن ترى عاقلا فطنا قد احتضر ، فتسأله عما يجد المحتضر وقد احتضرت ، وأنا أحبُّ أن تصف لي الموت ، فقال : أجد كأنّ السماء منطبقة على الأرض ، وكأنّي أتنفس من خرم إبرة)[5] .

---

١ - البقرة جزء من الآية ١٣٢ .
٢ - انظر تفسير أبي السعود ١ / ٣١٠ .
٣ - جزء من حديث عائشة رضي الله عنها رواه أحمد في مسنده برقم ٢٤٤١٠ ، ٦ / ٧٢ ، والترمذي في سننه في كتاب الجنائز ، باب ماجاء في التشديد عند الموت برقم ٩٧٨ ، وابن ماجه في كتاب الجنائز ، باب ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ برقم ١٦٢٣ .
٤ - انظر فتح الباري ١١ / ٤٤٠-٤٤١ .
٥ - بهجة المجالس وأنس المجالس لابن عبدالبر ، ت / محمد مرسي الخولي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ٢ ، ١٤٠٢هـ) ٣ / ٣٧١ .

ومن تقديم المفعول في هذه السورة قوله سبحانه :
﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾(١) .

«إِبْرَاهِيمَ» مفعول قدم على الفاعل للاهتمام به ، إذ كون الرب مبتليا معلوم ، فإنّما يهتم السامع بمن ابتلى(٢) (والتعرض لعنوان الربوبية تشريف له عليه السلام وإيذان بأنّ ذلك الإبتلاء تربية له وترشيح لأمر خطير)(٣) .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾(٤) .

(معناه أي من أي طريق وبأي سبب؟ وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان، كما يقال الآن في المدن الخربة التي يبعد أن تعمر وتسكن . فكأنّ هذا تلهف من الواقف المعتبر على مدينته التي عهد فيها أهله وأحبته)(٥) (وتقديم المفعول به على الفاعل للاعتناء بها من حيث أن الاستبعاد ناشيء من جهته لا من جهة الفاعل)(٦) .

فلمّا قال المار هذه المقالة مستبعداً لإحياء القرية التي مر عليها بالعمارة لها والسكون فيها ضرب له سبحانه المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه(٧) «فأماته الله مائة عام ثم بعثه»(٨) .

(لم يقل له كيف ، إنّما أراه في عالم الواقع كيف ، فالمشاعر والتأثيرات تكون أحيانا من العنف والعمق بحيث لا تعالج بالبرهان العقلي ، ولا حتى بالمنطق الوجداني ، ولا تعالج كذلك بالواقع العام الذي يراه العيان ... إنّما يكون العلاج بالتجربة الشخصية الذاتية المباشرة التي يمتليء بها الحس ويطمئن بها القلب دون كلام !)(٩) .

١ - البقرة جزء من الآية ١٢٤ .
٢ - انظر المحرر الوجيز ١ / ٢٠٥ .
٣ - تفسير أبي السعود ١ / ٢٥١ .
٤ - البقرة جزء من الآية ٢٥٩ .
٥ - المحرر الوجيز ١ / ٣٤٨ .
٦ - تفسير أبي السعود ١ / ٣٩١ .
٧ - انظر المحرر الوجيز ١ / ٣٤٨ .
٨ - البقرة جزء من الآية ٢٥٩ .
٩ - في ظلال القرآن ١ / ٣٠٠ .

المطلب الثاني : تقديم المفعول الأول على الفاعل .

قال تعالى : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[1]

قوله : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾

قال ابن عباس : هم أصحاب الصفة[2] (وهم نحو من أربعمائة رجل من مهاجري قريش، لم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، فكانوا في صفة المسجد، وهي سقيفة يتعلمون القرآن بالليل ويرضخون النوى بالنهار ، وكانوا يخرجون في كل سرية بعثها رسول الله ﷺ فمن كان عنده فضل أتاهم به إذا أمسى)[3] .

وقال مجاهد : هم فقراء المهاجرين من قريش أمر بالصدقة عليهم[4] .

و«للفقراء» (في موضع الخبر لمبتدأ محذوف ، وكأنّه جواب سؤال مقدر ، كأنّه قيل لمن هذه الصدقة المحثوث على فعلها؟ فقيل : للفقراء ، أي هي للفقراء ، فبين مصرف النفقة ، وقيل تتعلق اللام بفعل محذوف تقديره اعجبوا للفقراء ، أو اعمدوا للفقراء ، واجعلوا ما تنفقون للفقراء)[5] .

«الذين أحصروا» قال يونس بن حبيب : أحصر الرجل رد عن وجه يريده)[6] . ومعنى الإحصار (تصيير الرجل المحصر بمرضه أو فاقته أو جهاده عدوه ، أو غير ذلك من علله إلى حالة يحبس نفسه فيها عن التصرف ... قال قتادة «احصروا في سبيل الله» حصروا أنفسهم في سبيل الله للغزو)[7] .

١ - البقرة الآية ٢٧٣ .
٢ - الدر المنثور ١ / ٦٣٣ .
٣ - الكشاف ١ / ٣١٣ .
٤ - انظر جامع البيان ٣ / ٩٦ .
٥ - البحر المحيط ٢ / ٣٤١ .
٦ - المصدر نفسه ٢ / ٦٧ .
٧ - جامع البيان ٣ / ٩٦ .

قوله : ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ﴾

(أي تصرفا فيها إمّا لزمنهم ، وإمّا لخوفهم من العدو لقلتهم ، فقلتهم تمنعهم من الاكتساب بالجهاد ، وإنكار الكفار عليهم إسلامهم يمنعهم من التصرف في التجارة فبقوا فقراء)[1] .

قوله : ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾

أي (يحسبهم الجاهل بأمرهم وحالهم أغنياء من تعففهم عن المسألة ، وتركهم التعرض لما في أيدي الناس صبرا منهم على الباساء والضراء)[2] .

و«التعفف» تفعل ، وهو بناء مبالغة من عفّ عن الشيء إذا أمسك عنه وتنزه عن طلبه ، وبهذا المعنى فسره قتادة وغيره ، و«من» في قوله «من التعفف» لابتداء الغاية أي من تعففهم ابتدأت محسبته ، وليست لبيان الجنس لأنّ الجاهل بهم لايحسبهم أغنياء غناء تعفف ، وإنّما يحسبهم أغنياء غناء مال ، ومحسبته من التعفف ناشئة ، وهذا علي أنّهم متعففون عفة تامة عن المسألة ، وهو الذي جمهور المفسرين عليه ، لأنّهم قالوا في تفسير قوله تعالى : ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ المعنى لا يسألون البتة[3] .

ويرى أبو حيان أنّ «من» سببية أي الحامل على حسبانهم أغنياء هو تعففهم ، لأنّ عادة من كان غني مال أن يتعفف ، وقال : وكونها للسبب أظهر[4] .

وقُدِّم المفعول الأول وهو الضمير في يحسبهم على الفاعل ، للاهتمام بهم والاعتناء بشأنهم ، فهم المقصودون بالآية والحديث كله فيها إمّا عنهم أو لهم ، ويمكننا تقسيم الآية إلى ستة مقاطع ...

١ - البحر المحيط ٢ / ٣٤١ - ٣٤٢ .
٢ - جامع البيان ٣ / ٩٧ .
٣ - انظر المحرر الوجيز ١ / ٣٦٩ .
٤ - انظر البحر المحيط ٢ / ٣٤٢ .

خمسة منها في الحديث عنهم والسادس لهم :

١ - فهم الفقراء في قوله : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾

٢ - وهم الذين ﴿ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ ﴾

٣ - وهم الذين ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾

٤ - وهم الذين ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾

٥ - وهم الذين ﴿ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾

فهذه خمسة مقاطع تحدثت عن صفاتهم ، والمقطع السادس ختمت به الآية ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ وفيه حث على الإنفاق وهم أولى من ينفق عليهم ، وهذا لهم فهم أولى بالتقديم وأحرى ....

بِيْضُ الوجُـوهِ كَرِيمَـةٌ أحسابُهُم

شُمُّ الأنـوفِ من الطّـرازِ الأوّلِ[1]

قوله : ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾

اختلف المفسرون في تعيين هذه السيما التي يعرف بها هؤلاء المتعففون فقال مجاهد : هي التخشع والتواضع ، وقال السدي والربيع : هي جهد الحاجة ، وقال ابن زيد : رثاثة ثيابهم[2] .

وقال قوم وحكاه مكيّ : هي أثر السجود ، قال ابن عطية : وهذا حسن لأنّهم كانوا متفرغين متوكلين لا شغل لهم في الأغلب إلاّ الصلاة ، فكان أثر السجود عليهم أبداً[3] .

---

١ - البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه من قصيدة يمدح بها عمرو بن الحارث ومطلعها :

أسألت رَسْمَ الدّارِ أم لَمْ تسألِ ... بين الجوابي فالبُضَيع فحومَلِ ... انظر ديوانه صـ ١٧٩ .

٢ - انظر جامع البيان ٣ / ٩٨ .

٣ - انظر المحرر الوجيز ١ / ٣٦٩ .

وعقب القرطبي على ابن عطية بقوله :

(وهذه السيما التي هي أثر السجود اشترك فيها جميع الصحابة رضوان الله عليهم بإخبار الله تعالى بقوله : ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾[1] فلا فرق بينهم وبين غيرهم ، فلم يبق إلا أن تكون السيما أثر الخصاصة والحاجة ، أو يكون السجود أكثر ، فكانوا يعرفون بصفرة الوجوه من قيام الليل وصوم النهار ، والله أعلم ، وأمّا الخشوع فذلك محله القلب ويشترك فيه الغني والفقير فلم يبق إلا ما اخترناه)[2] .

وقوله : ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾

(يقال : قد ألحف السائل في مسألته إذا ألح ، فهو يلحف فيها إلحافاً)[3] .

(واشتقاق الإلحاف من اللحاف ، سمي بذلك لاشتماله على وجوه الطلب في المسألة كاشتمال اللحاف من التغطية ، أي هذا السائل يعم الناس بسؤاله فيلحفهم في ذلك)[4] .

والعلماء في معنى ﴿لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ على قولين :

فقال قوم منهم الطبري : أي لا يسألون الناس شيئاً على وجه الصدقة إلحافاً وغير إلحاف ، وذلك أنّ الله عز وجل وصفهم بأنّهم كانوا أهل تعفف ، وإنهم كانوا يعرفون بسيماهم ، فلو كانت المسألة من شأنهم صفتهم التعفف ،

---

١ - الفتح جزء من الآية ٢٩ .

٢ - الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٢٢٢ .

٣ - جامع البيان ٣ / ٩٩ .

٤ - الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٢٢٢ .

ولم يكن النبي ﷺ إلى علم إلى معرفتهم بالأدلة والعلامة حاجة ، وكانت المسألة الظاهرة تنبيء عن حالهم وأمرهم[1] .

وقال آخرون منهم الزمخشري[2] : إنّ المراد نفي الإلحاف أي أنهم يسألون غير إلحاف ، وهذا هو السابق للفهم أي يسألون غير ملحفين ، وفي هذا تنبيه على سوء حالة من يسأل الناس إلحافا[3] .

والقول الأول : أظهر وعليه جمهور المفسرين .

---

١ - انظر جامع البيان ٣ / ٩٩ .

٢ - انظر الكشاف ١ / ٣١٣ .

٣ - انظر الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٢٢٢ .

المطلب الثالث : تقديم المفعول الثاني على الأول :

قال تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ... الآية﴾[1]

قوله : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ﴾

آتى أعطى ، والضمير في «حبه» عائد على المال فالمصدر مضاف إلى المفعول ، ويحتمل أن يعود الضمير على الإيتاء أي في وقت حاجة من الناس وفاقه ، فإيتاء المال حبيب إليهم ، ويحتمل أن يعود على اسم الله تعالى من قوله ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ أي من تصدق محبة في الله وطاعاته[2] .

والأظهر أنّه عائد على المال لأنّه أقرب مذكور ، ومن قواعد النحويين أن الضمير لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل[3] .

(والمعنى أنّه يعطي المال محبا له ، أي في حالة محبته للمال واختياره وإيثاره وهذا وصف عظيم أن تكون نفس الإنسان متعلقة بشيء تعلق المحب بمحبوبه ، ثم يؤثر به غيره ابتغاء وجه الله)[4] كما جاء عن عبدالله بن مسعود قال : يؤتيه ، وهو صحيح شحيح يأمل العيش ويخشى الفقر[5] .

(وعلى في قوله «على حبه» مجاز في التمكن من حب المال، مثل ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى﴾[6] وهي في مثل هذا المقام ، للتنبيه على أبعد الأحوال من مظنة الوصف

---

١ - البقرة جزء من الآية ١٧٧ . وقد سبق الحديث عن أولها في فصل تقديم المسند في مبحث تقديم المسند المفرد ، انظر صـ ١٨١-١٨٥ .

٢ - انظر المحرر الوجيز ١ / ٣٤٣ .

٣ - انظر البحر المحيط ٢ / ٦

٤ - المصدر السابق ٢ / ٦ .

٥ - جامع البيان ٢ / ٩٥ .

٦ - البقرة جزء من الآية ٥ .

فلذلك تفيد مفاد كلمة مع ، وتدل على معنى الاحتراس كما هي في قوله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا ﴾[1] وقول زهير :

إنْ تَلْقَ يوماً على عِلاَّته هَرِما   تَلْقَ السماحةَ فِيهِ والنَّدى خُلُقا[2]

قال الأعلم في شرحه : أي فكيف به وهو على غير تلك الحالة)[3] .

وقوله : ﴿ ذَوِي الْقُرْبَىٰ ﴾

قرابات الرجل وهم أولى من أعطي من الصدقة وأفضل[4] . لما ورد في السنة عن سلمان بن عامر الضبي قال : قال رسول الله ﷺ «الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي القرابة اثنتان : صدقة وصلة»[5] .

قوله : ﴿ وَالْيَتَامَىٰ ﴾

(هم الذين لا كاسب لهم ، وقد مات أباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ)[6] قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : حفظت عن رسول الله ﷺ «لايتم بعد احتلام ، ولا صُمات يوم إلى الليل»[7] .

قوله : ﴿ وَالْمَسَاكِينَ ﴾

(وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم في قوتهم وكسوتهم وسكناهم ، فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم)[8] .

---

١ - الإنسان جزء من الآية ٨ .

٢ - البيت لزهير بن أبي سلمى من قصيدة يمدح فيها هرما وأباه وإخوته ومطلعها :

إن الخليط أجدَّ البينَ فانفرقا   وَعُلِّقَ القلبُ مِنْ أسماءَ ما عَلِقَا   انظر ديوانه صـ ٣٩ .

٣ - التحرير والتنوير ٢ / ١٣٠ .   ٤ - انظر تفسير ابن كثير ١ / ٣١٠ .

٥ - أخرجه أحمد في مسنده برقم ١٨٧٩١ ، ٤ / ٢٦٢ ، وابن ماجه في سننه في كتاب الزكاة ، باب فضل الصدقة برقم ١٨٤٢ ، والترمذي في كتاب الزكاة باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة برقم ٦٥٨ .

٦ - تفسير ابن كثير ١ / ٣١٠ .   ٧ - أخرجه أبو داود في كتاب الوصايا ، باب ما جاء متى ينقطع اليتيم ٢٨٧٣ .

٨ - تفسير ابن كثير ١ / ٣١٠ .

قوله : ﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾

وهو المجتاز بالرِّجْل ومن ثمَّ اختلفوا في صفته فقيل هو المسافر المنقطع ، وقيل هو الضيف ، والأول أعم ، وجعل ابنا للسبيل لملازمته له ، كما يقال لطير الماء ابن الماء لملازمته إياه ، وللرجل الذي أتت عليه الدهور ابن الأيام والليالي[1] .

قوله : ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾

(والسائلون هم المستطعمون ، وهو الذي تدعوه الضرورة إلى السؤال في سد خلته إذ لا تباح له المسألة إلا عند ذلك)[2] .

قوله : ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾

(أي في فك الرقاب)[3] (ويراد به العتق وفك الأسرى وإعطاء أواخر الكتابات)[4] .

وقوله : ﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ وما بعده من المعطوفات هو المفعول الأول على مذهب الجمهور ، والمال هو المفعول الثاني ، (ولمّا كان المقصود الأعظم هو إيتاء المال على حبه قدّم المفعول الثاني اعتناء به لهذا المعنى)[5] ، (أو لأنّ في المفعول الثاني مع ما عطف عليه طولا لو روعي الترتيب لفات تجاوب الأطراف في الكلام ، وهو الذي اقتضى تقديم الحال أيضا)[6] ويقصد بالحال «على حبه» وجميل أن يكون التقديم لهما جميعاً فيجتمع بذلك جمال النظم وجلال المعنى .

---

١ - انظر جامع البيان ٢ / ٩٧ .
٢ - البحر المحيط ٢ / ٧ .
٣ - زاد المسير ١ / ١٧٩ .
٤ - المحرر الوجيز ١ / ٢٤٣ .
٥ - البحر المحيط ٢ / ٧ .
٦ - تفسير أبي السعود ١ / ٣٠٧ .

المطلب الرابع : تقديم الظرف على نائب الفاعل :

قال تعالى : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ... الآية﴾[1]

سبب نزول الآية :

(عن البراء بن عازب قال : كان المسلمون إذا أفطروا يأكلون ويشربون ويمسون النساء ما لم يناموا ، فإذا ناموا لم يفعلوا شيئا من ذلك إلى مثلها (من القابلة) وإن قيس بن صرمة الأنصاري كان صائما ، فأتى أهله عند الإفطار فانطلقت امرأته تطلب شيئاً وغلبته عينه فنام ، فلما انتصف النهار من غد غشي عليه قال : وأتى عمر امرأته وقد نامت ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزل ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾ إلى قوله «من الفجر» ففرح المسلمون بذلك)[2] .

(ومناسبة هذه الآية لما قبلها من الآيات ، أنّها من تمام الأحوال التي تعرض للصائم ، ولما كان افتتاح آيات الصوم بأنّه كتب علينا كما كتب على الذين من قبلنا ، اقتضى عموم التشبيه في الكتابة ، وفي العدد ، وفي الشرائط ، وسائر تكاليف الصوم ، وكان أهل الكتاب قد أمروا بترك الأكل والشرب والجماع في صيامهم بعد أن يناموا ، وقيل بعد العشاء وكان المسلمون كذلك فلما جرى لعمر وقيس ما ذكرناه في سبب النزول ، أباح الله لهم ذلك من أول الليل ألى طلوع الفجر ، لطفا بهم ، وناسب أيضا قوله تعالى في آخر آية الصوم : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾[3] وهذا من التيسير)[4] .

---

١ - البقرة جزء من الآية ١٨٧ . وسيأتي الحديث على جزء آخر منها في تقديم بعض المعاني على بعض ، انظر صـ ٤٣٦ .

٢ - اسباب النزول للواحدي صـ ٤٥ .

٣ - البقرة جزء من الآية ١٨٥ .

٤ - البحر المحيط ٢ / ٥٥ .

قوله : ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾

قرأ الجمهور أحل مبنياً للمفعول وحذف الفاعل للعلم به[١] . أي أحل الله[٢] ، والمراد بالليلة الجنس لا الواحدة[٣] .

(وليلة الصيام الليلة التي يعقبها صيام اليوم الموالي لها ، جريا على استعمال العرب في إضافة الليلة لليوم الموالي لها ، إلاّ ليلة عرفة فإن المراد بها الليلة التي بعد يوم عرفة)[٤] .

(وأضيفت الليلة إلى الصيام على سبيل الاتساع ، لأنّ الإضافة تكون لأدنى ملابسة ، ولما كان الصيام ينوى في الليلة ولا يتحقق إلا بصوم جزء منها صحت الإضافة)[٥] .

وقوله : ﴿الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ﴾

عن ابن عباس قال : الرفث الجماع ولكن الله كريم يكني)[٦] .

وكنى بلفظ الرفث الدال على القبح بخلاف ماكنى في آيات أخر كقوله : ﴿وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾[٧] وقوله : ﴿فَلَمَّا تَغَشَّاهَا﴾[٨] وقوله : ﴿أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾[٩] ﴿دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾[١٠] ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ﴾[١١] ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾[١٢] ﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ﴾[١٣] استهجاناً لما وجد منهم قبل الإباحة ، كما سماه اختيانا لأنفسهم[١٤] ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ﴾[١٥] .

---

١ - البحر المحيط ١ / ٥٥ . ٢ - الكشاف ١ / ٢٢٨ . ٣ - انظر البحر المحيط ١ / ٥٥ .
٤ - التحرير والتنوير ٢ / ١٨٢ . ٥ - البحر المحيط ١ / ٥٥ . ٦ - جامع البيان ٢ / ١٦١ .
٧ - النساء جزء من الآية ٢١ . ٨ - الأعراف جزء من الآية ١٨٩ . ٩ - النساء جزء من الآية ٤٣ .
١٠ - النساء جزء من الآية ٢٣ . ١١ - البقرة جزء من الآية ٢٢٣ . ١٢ - البقرة جزء من الآية ٢٣٧ .
١٣ - النساء جزء من الآية ٢٤ . ١٤ - انظر الكشاف ١ / ٢٢٨ . ١٥ - البقرة جزء من الآية ١٨٧ .

وعدى الرفث بإلى لتضمينه معنى الإفضاء[1] ، وإلاّ فأصل تعديته بالباء[2] . (وأضاف النساء إلى المخاطبين لأجل الاختصاص ، إذ لا يحل الافضاء إلا لمن اختصت بالمفضي إما بتزويج أو ملك)[3] .

(وتقديم الظرف على القائم مقام الفاعل للتشويق ... فإنّ ما حقه التقديم إذا أخر تبقى النفس مترقبة إليه ، فيتمكن وقت وروده فضل تمكن)[4] . لا سيَّما وقد سبق ذلك ما يستحث النفس على جلائه ، فالفعل «أحل» وما فيه من دلالة الإباحة بعد الحضر ، والنفس بطبعها تهوى اليسر وتتطلبه ، والضمير «لكم» فهم المعنيون بذلك لا غيرهم ، وهذا مما يدفعهم لمعرفة ما يأتي بعده فالحكم يخصهم ، فإذا قدم ما حقه التأخير وهي مرحلة ثالثة من مراحل التشويق تجعلهم في حالة ترقب وتأهب لما سيلقى على أسماعهم .

---

١ - انظر الكشاف ١ / ٢٢٨ .

٢- انظر البحر المحيط ٢ / ٥٥ .

٣ - المصدر السابق ٢ / ٥٥ .

٤ - تفسير أبي السعود ١ / ٣١٧ .

القسم الثاني

المجـــــرورات

مدخـــــل .

المطلـب الأول : تقديم الجـار والمجـرور على الفاعـل .

المطلب الثاني : تقديم الجار والمجرور على المفعول .

- القسم الثاني : المجرورات .

مدخل

يقصد بالمجرورات هنا الأسماء الظاهرة ، أو الضمائر المجرورة بحروف الجر ، ولم يقتصر مؤلفو النحو العربي على هذا الاسم بل استخدموا مصطلحات أخرى للدلالة على حروف الجر منها :

«حروف الخفض»[١]   «حروف الإضافة»[٢]   «حروف الصفات»[٣]

ويعود تعدد المصطلحات ، إلى اختلاف الاعتبار الذي نظر به إلى تلك الحروف وقد عامل النحاة الجار والمجرور معاملة الظرف، وأجروه مجراه في حرية دخوله وسط التراكيب وموقعه فيها ، قال الرضي : (وإنّما جاز تقديم الخبر ظرفا لتوسعهم في الظروف مالا يتوسع في غيرها ، لأنّ كل شيء من المحدثات فلابد أن يكون في زمان أو مكان فصارت مع كل شيء كقريبة ، ولم تكن أجنبية منه ، فدخلت حيث لا يدخل غيرها كالمحارم يدخلون حيث لا يدخل الأجنبي ، وأجرى الجار مجراه لمناسبة بينهما إذ كل ظرف في التقديرجار ومجرور ، والجار محتاج إلى الفعل أو معناه كاحتياج الظرف)[٤].

وقال ابن جني (والظرف مما يتسع الأمر فيه ولا تضيق مساحة التعذر له)[٥] .

وقال الزمخشري : للظرف شأن ، وهو تنزلها من الأشياء منزلة أنفسها لوقوعها

١ - انظر الجمل في النحو صـ ٦٠ .

٢ - انظر المفصل في علم العربية ص ٢٨٣ ، وهمع الهوامع ، ٢ / ١٩ .

٣ - انظر همع الهوامع ٢ / ١٩ .

٤ - شرح الرضى على الكافية ، لرضي الدين الاستر اباذي ، تصحيح يوسف حسن عمر (بنغازي : منشورات جامعة قاريونس ، ط / ٢ ، ١٩٩٦م) ١ / ٢٨٩ - ٢٩٠ .

٥ - الخصائص ٢ / ٣٩٨ .

فيها وأنّها لا تنفك عنها ، فلذلك يتسع فيها مالا يتسع في غيرها[1] .

وما قاله ابن جني والزمخشري في الظروف ينطبق تماما على الجار والمجرور، وقد صرح به الرضى* وهو الذي يعنينا هنا ، ومن صور التوسع فيه الفصل بالجار والمجرور بين حرف العطف والمعطوف ، بل إنّ العكبري جعل الفصل به كلافصل قال في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[2] (« وقرا » معطوف على « أكنة » ولا يعد الفصل بين حرف العطف والمعطوف بالظرف فصلا ، لأنّ الظرف أحد المفاعيل ، فيجوز تقديمه وتأخيره)[3] .

ومما لا يستساغ في هذا الباب الفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف أو الجار والمجرور ، قال ابن يعيش : (الفصل بين المضاف والمضاف إليه قبيح لأنّهما كالشيء الواحد ، فالمضاف إليه من تمام المضاف يقوم مقام التنوين ويعاقبه ، فكما لا يحسن الفصل بين التنوين والمنون ، كذلك لا يحسن الفصل بينهما ، وقد فصل بينهما بالظرف في الشعر ضرورة .... وأما الفصل بغيره فلم يرد به بيت والقياس يدفعه)[4] ونرى ابن جني أكثر صراحة حين قال (والفصل بين المضاف والمضاف إليه بالظرف وحرف الجر قبيح كثير ، لكنه من ضرورة الشاعر)[5] .

هذا الفصل للظرف والجار والمجرور في هذه الصورة على قبحه ، إلا أنّ له وجوداً بل وكثرة ، فكيف الحال معهما في بقية التراكيب ، إنّ ظاهرة الفصل هذه كثيرة الشيوع في العربية ، فهي محرم لكل تركيب لا يحظر عليها دخولاً ، ولها حق

---

١ - انظر الكشاف ٢ / ٦٧ ، والبحر المحيط ٤ / ٢٣٢ .

* قال ابن الحاجب « وماوقع ظرفا فالأكثر أنه مقدر بجملة » قال الرضى « أي ظرفا أو جاراً أو مجرورا ، ولم يذكره لجريه مجراه في جميع أحكامه حتى سماه بعضهم ظرفا اصطلاحا » انظر شرح الرضى على الكافية ١ / ٢٤٣ .

٢ - الأنعام جزء من الآية ٢٥ .

٣ - إملاء مامنّ به الرحمن ١ / ٢٣٨ .

٤ - شرح المفصل ٣ / ١٩ - ٢٢ .

٥ - الخصائص ٢ / ٤٠٤ .

اختيار القرب من هذا أو ذاك ، فأنت تجدها تارة متقدمة وأخرى متأخرة ، ولبلاغة السياق أثر في التقديم والتأخير ، وظاهرة تقدمه في القران حقيقة بالتأمل والدراسة ، وقد وقف الباحث متأملاً ومستقرئاً لصور تقدم الجار والمجرور في سورة البقرة فكان نتيجة ذلك ما يلي :-

١ - تقديم الجار والمجرور على المبتدأ :

قال تعالى : ﴿ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ﴾(١)

وقال سبحانه : ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾(٢)

٢ - تقديم الجار والمجرور على الخبر :

قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾(٣)

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ﴾(٤)

قال النحاس ﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾ ابتداء وخبر و﴿ وَصَدٌّ ﴾ ابتداء ﴿ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ خفض بعن ﴿ وَكُفْرٌ بِهِ ﴾ عطف على صد ﴿ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ عطف على سبيل الله ﴿ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ ﴾ عطف على صد، وخبر الابتداء ﴿ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ ﴾(٥)

٣ - تقديم الجار والمجرور على خبر كان :

قال تعالى : ﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً ﴾(٦)

٤ - تقديم الجار والمجرور على خبر إنّ :

قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾(٧)

وقال سبحانه : ﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾(٨)

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٥ .
٢ - البقرة جزء من الآية ٢٢٨ .
٣ - البقرة جزء من الآية ٦١ .
٤ - البقرة جزء من الآية ٢١٧ .
٥ - اعراب القرآن ١ / ٣٠٨ .
٦ - البقرة جزء من الآية ١٨٤ .
٧ - البقرة جزء من الآية ٢٠٨ .
٨ - البقرة جزء من الآية ١٣٠ .

٥ - تقديم الجار والمجرور على الفاعل :

قال تعالى : ﴿ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾[١]

وقال سبحانه : ﴿ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾[٢]

٦ - تقديم الجار والمجرور على نائب الفاعل :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾[٣]

وقال سبحانه : ﴿ وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾[٤]

٧ - تقديم الجار والمجرور على المفعول به :

قال تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾[٥]

وقال سبحانه : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾[٦]

٨ - تقديم الجار والمجرور على المفعول الأول :

قال تعالى : ﴿ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ ﴾[٧]

وقال سبحانه : ﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ﴾[٨]

٩ - تقديم الجار والمجرور على المفعول الثاني :

قال تعالى : ﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾[٩]

وقال سبحانه : ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ﴾[١٠]

١٠ - تقديم الجار والمجرور على المفعول الأول والثاني :

قال تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ﴾[١١]

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٨٤ .

٢ - البقرة جزء من الآية ٦٠ .

٣ - البقرة جزء من الآية ١٨٣ .

٤ - البقرة جزء من الآية ١٢٣ .

٥ - البقرة جزء من الآية ٥٩ .

٦ - البقرة جزء من الآية ٦٠ .

٧ - البقرة جزء من الآية ١٧٧ .

٨ - البقرة جزء من الآية ٢٦٠ .

٩ - البقرة جزء من الآية ١٢٤ .

١٠ - البقرة جزء من الآية ٢٥ .

١١ - البقرة جزء من الآية ٢٢ .

١١ - تقديم الجار والمجرور على المفعول المطلق :

قال تعالى : ﴿وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً﴾[1]

وقال سبحانه : ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[2]

١٢ - تقديم الجار والمجرور على المفعول لأجله :

قال تعالى : ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾[3]

١٣ - تقديم الجار والمجرور على الحال :

قال تعالى : ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[4]

وقال سبحانه : ﴿وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا﴾[5]

١٤ - تقديم الجار والمجرور على الصفة :

قال تعالى : ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾[6]

وقال سبحانه : ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾[7]

١٥ - تقديم الجار والمجرور على المعطوف :

قال تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾[8]

وقال سبحانه : ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾[9]

وقال عز شأنه : ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ﴾[10]

هذا ما جاد به الاستقراء لهذه السورة ، ولست بمدع حصراً لهذه الصور من خلال ما تقدم ، وذلك نظراً للكم الهائل الذي تحويه سورة البقرة من المجرورات فقد أتى الحرف جاراً للظاهر والمضمر في ألف ومائتين وسبعين موضعاً ، وتفصيل هذا العدد

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٣٧ .
٢ - البقرة جزء من الآية ٢٤٥ .
٣ - البقرة جزء من الآية ١٩ .
٤ - البقرة جزء من الآية ٦٠ .
٥ - البقرة جزء من الآية ٢٥ .
٦ - البقرة جزء من الآية ٤٩ .
٧ - البقرة جزء من الآية ٨٩ .
٨ - البقرة جزء من الآية ١٥٧ .
٩ - البقرة جزء من الآية ١٢٥ .
١٠ - البقرة جزء من الآية ٢٣٣ .

ونصيب كل حرف ما يلي :

الحـــرف	إلى[1]	البا ء[2]	على[3]	عن[4]	في[5]	الكاف[6]	اللام[7]	من[8]
عدد المواضع	٤٦	٤٢٤	١٤٦	٣٠	١٢٦	٢٣	٢٠٥	٢٧٠

وبعد هذا البيان لصور التقديم أعرض لمطلبين بالتحليل والدراسة يمثل أحدهما تقدم الجار والمجرور على المرفوعات ، ويمثل الآخر : تقدمه على المنصوبات وقد ورد كثيراً في هذه السورة .

واقتصاري في هذا القسم على هذين المطلبين يرجع إلى شح في المادة المكتوبة حوله ، فلم أرَ للعلماء من خلال ما قرأت - كلاماً ولا تعليقا حول أسرار تقدمه على المتعلقات ، ولم يحتفوا به احتفاءهم بغيره كتقديم المسند إليه أو المسند - ويأتي جاراً ومجروراً - أو تقديمه على متعلقه ، وكثيراً ما يكتفون بظاهرة التوسع في المجرورات ، ولا يبحثون في أسرار تقدمها ، لأنّها كما يظهر لي إن كان الفصل بها بين حرف العطف والمعطوف كلا فصل كما قال العكبري[9] ، فمن باب أولى أن يكون التقدم عندهم كلا تقدم هذا أولاً .

وثانياً : خشية التكلف في أشياء البحث في غنى عنها ، فاكتفيت بما كثر وروده في هذه السورة ، والكلام صريح مُعينٌ على الكتابة فيه ، وأعوذ بالله من فتنة القول كما أعوذ به من فتنة العمل .

---

١ - انظر معجم حروف المعاني في القرآن الكريم ١ / ٣٢٢ - ٣٢٣ .

٢ - انظر المرجع السابق ٢ / ٤٥٤ - ٤٥٨ .

٣ - انظر المرجع نفسه ٢ / ٦٣٩ - ٦٤١ .

٤ - انظر المرجع نفسه ٢ / ٦٦٩ .

٥ - انظر المرجع نفسه ٢ / ٧٥٤ - ٧٥٦ .

٦ - انظر المرجع نفسه ٢ / ٧٩٦ .

٧ - انظر المرجع نفسه ٢ / ٨٢١ - ٨٢٥ .

٨ - انظر المرجع نفسه ٢ / ١٠٤٣ - ١٠٤٨ .

٩ - انظر إملاء ما منّ به الرحمن ١ / ٢٣٨ .

المطلب الأول : تقديم الجاروالمجرور على الفاعل :

قال تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [1]

قوله : ﴿ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾

« فانفجرت » (الفاء للعطف على جملة محذوفة التقدير « فضرب فانفجرت » كقوله تعالى : ﴿ أن اضْرِب بِّعَصَاكَ البحرَ فَانفَلَق ﴾[2] أي فضرب فانفلق ، ويدل على هذا المحذوف وجود الانفجار مرتبا على ضربه ، إذ لو كان ينفجر دون ضرب لما كان للأمر فائدة ولكان تركه عصياناً ، وهو لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)[3] .

« منه » (متعلق بقوله فانفجرت ، ومن هنا لابتداء الغاية ، والضمير عائد على الحجر المضروب ، فانفجار الماء كان من الحجر)[4] .

وتقدم الجار والمجرور « منه » على الفاعل « اثنتا عشرة » لغرابة الحدث فليس غريبا أن تنبع العيون من الأرض وتنفجر ، لكن أن تنفجر من حجر أمامهم لا اتصال له بالأرض ومتى ما أرادوا وبقدر حاجتهم، وانقطاعه عند الاستغناء عنه فهو الغريب والعجيب ، وهكذا خوارق السماء ومعجزات الأنبياء خروج عن المألوف ، كي تذعن النفوس لها وتجيب الداعي (لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها ، والسماء بشواظها ورجومها ، فأمّا الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء ، وأما السماء فأنزل لهم منها المنّ والسلوى : عسلاً وطيراً ، ولكن البنية النفسية المفككة والجبّلة الهابطة

---

١ - البقرة جزء من الآية ٦٠ .

٢ - الشعراء جزء من الآية ٦٣ .

٣ - البحر المحيط ١ / ٣٩٠ .

٤ - المصدر نفسه ١ / ٣٩٠ .

المتداعية ، أبت عليهم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أخرجوا من مصر ، ومن أجلها ضربوا في الصحراء ، لقد أخرجهم الله على يدي نبيهم موسى عليه السلام من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة ، وليرفعهم من المهانة والضعة . وللحرية ثمن ، وللعزة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية ، ولكنهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن ، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف ، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية)[1] . فكان جزاؤهم ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ﴾[2] فهم ليسوا أهلا للعظائم والأمور التي ندبوا لها .

قوله : ﴿اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (كان هذا العدد دون غيره لكونهم كانوا إثنى عشر سبطا ، بينهم تضاغن وتنافس ، فأجرى الله لكل سبط منهم عينا يرده لا يشركه فيه أحد من السبط الآخر)[3] .

ومن شواهد هذا المطلب قوله سبحانه : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[4] .

فقوله : ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾

الضمير في «منه» يعود إلى الحجارة ، ومن لابتداء الغاية ، وما قيل في الآية السابقة يقال هنا فتقديم الجار والمجرور «منه» على الفاعل (الأنهار – الماء) لغرابة

---

١ – في ظلال القرآن ١ / ٨٠ .

٢ – البقرة جزء من الآية ٦١ .

٣ – البحر المحيط ١ / ٣٩١ .

٤ – البقرة الآية ٧٤ .

أن يقع ذلك منها وكيف تستجيب لما هو خلاف العادة ، ولذلك مثل بها ، بينما قلوبهم مجدبة قاسية ، وهذه (الحجارة التي يقيس قلوبهم إليها ، فإذا قلوبهم منها أجدب وأقسى .. هي حجارة لهم بها سابق عهد ، فقد رأوا الحجر تنفجر منه اثنتا عشرة عينا ، ورأوا الجبل يندك حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقا ! لكن قلوبهم لا تلين ولا تندى ، ولا تنبض بخشية ولا تقوى ، قلوب قاسية مجدبة كافرة)[1] .

قال بعض أهل اللطائف : خلق الله الحجارة وأودعها صلابة يفرق بها أجزاء كثيرة مما صلب من الجوامد ، وخلق الأشجار رطبة الغصون ليست لها قوة الأحجار فتؤثر فيها تفريقاً بأجزائها ، ولا تفجير العيون ماءها بل الأحجار تؤثر فيها ، فلما أيدت بقوة النبوة انفلقت بها البحار وتفرقت بها أجزاء الأحجار وسالت بها الأنهار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾[2])[3] .

ومنه قوله سبحانه : ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[4]

قوله : ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ (أي اجتمعت عليه فمات عليها قبل الإنابة والتوبة منها وأصل الإحاطة بالشيء : الإحداق به بمنزلة الحائط الذي تحاط به الدار فتحدق به ومنه قول الله جل ثناؤه ﴿نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾[5] فتأويل الآية إذا : من أشرك بالله واقترف ذنوباً جمّة ، فمات عليها قبل الإنابة والتوبة ، فأولئك

---

١ - في ظلال القرآن ١ / ٨٠ .

٢ - ال عمران جزء من الآية ١٣ .

٣ - البحر المحيط ١ / ٣٩١ .

٤ - البقرة الآية ٧٤ .

٥ - الكهف جزأ من الآية ٢٩ .

أصحاب النار هم فيها مخلدون أبداً)[1] .

(عن ابن عباس ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ قال : يحيط كفره بماله من حسنة .

وعن مجاهد قال : ما أوجب الله فيه النار .

وعن عطاء قال : الشرك)[2] .

وفي ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ (أبلغ استعارة، وذلك أن الإنسان إذا ارتكب ذنباً، واستمر عليه استجرّه إلى إتيان ما هو أعظم منه فلا يزال يرتقي ، حتى يطبع على قلبه ، فلا يمكنه أن يخرج عن تعاطيه)[3] . و«به» جار ومجرور متعلق بأحاطت والباء للإلصاق ، والإلصاق هنا مجاز أشبه بالحقيقة ، والضمير يعود على مرتكب الخطيئة، وتقديم الجار والمجرور على الفاعل «خطيئته» للاعتناء به، فهو السبب وماكان للخطيئة أن تحيط به حتى تهلكه لولا أنه داوم عليها ، وأصر على ارتكابها حتى وصل إلى هذه النتيجة المخزية (إن الذي يجترح الخطيئة إنما يجترحها عادة وهو يلتذها ويستسيغها ، ويحسبها كسبا له - على معنى من المعاني- ولو أنها كانت كريهة في حسه ما اجترحها ، ولو كان يحس أنّها خسارة ما أقدم عليها متحمسا ، وما تركها تملأ عليه نفسه ، وتحيط بعالمه ، لأنّه خليق لو كرهها وأحس ما فيها من خسارة أن يهرب من ظلها حتى لو اندفع لارتكابها ، وأن يستغفر منها ، ويلوذ إلى كنف غير كنفها ، وفي هذه الحالة لا تحيط به ولا تملأ عليه عالمه ، ولا تغلق عليه منافذ التوبة والتكفير .. وفي التعبير : ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾ تجسيم لهذا المعنى، وهذه خاصية من خواص التعبير القرآني ، وسمة واضحة من سماته ، تجعل له وقعا

---

١ - جامع البيان ١ / ٣٨٦ .

٢ - انظر المصدر نفسه ١ / ٣٨٦ - ٣٨٧ .

٣ - بصائر ذوي التمييز ٢ / ١٢٦ .

في الحس يختلف عن وقع المعاني الذهنية المجردة ، والتعبيرات الذهنية التي لا ظل لها ولا حركة ، وأي تعبير ذهني عن اللجاجة في الخطيئة ما كان ليشع مثل هذا الظل الذي يصور المجترح الآثم ، حبيس خطيئته يعيش في إطارها ، ويتنفس في جوها ، ويحيا معها ولها)[١] .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[٢]

قوله سبحانه : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾

« بها » متعلق بأوصى[٣] ، (والضمير في « بها » عائد على كلمته التي هي « أسلمت لرب العالمين » وقيل على الملة المتقدمة ، والأول أصوب لأنه أقرب مذكور)[٤] واقتصر عليه ابن جرير الطبري في تفسيره قال : « ووصى بها » (ووصى بهذه الكلمة ، أعني بالكلمة قوله « أسلمت لرب العالمين » وهي الإسلام الذي أمر به نبيه ﷺ)[٥] .

وتقديم الجار والمجرور « بها » على الفاعل ، للاهتمام بالموصى به والاعتناء بشأنه ، وهي هي الوصية التي كررها يعقوب في آخر لحظة من لحظات حياته وكانت شغله الشاغل الذي لم يصرفه الموت وسكراته عنها ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي ﴾[٦] .

---

١ - في ظلال القرآن ١ / ٨٦ .
٢ - البقرة الآية ١٣٢ .
٣ - البحر المحيط ١ / ٥٧٠ .
٤ - المحرر الوجيز ١ / ٢١٣ .
٥ - جامع البيان ١ / ٥٦٠ .
٦ - البقرة جزء من الآية ١٣٣ .

ومنه قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾[1]

قوله سبحانه : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ ﴾

(الواو عاطفة وقال فعل ماض و«لهم» متعلقان بـ«قال» ونبيهّم فاعل)[2] والضمير المجرور يعود على بني إسرائيل ، والقول هنا وإن كان صادراً من نبيّهم إلا أنّ الباعث لهذا القول ، هو مطالب بني إسرائيل المتقدمة بعد ما نالهتم ذلة وغلبة عدو ، طلبوا من نبي لهم الإذن في الجهاد ، وأن يؤمر عليهم ملكا يقوم بأمر القتال[3] فقُدِّمَ الجار والمجرور على الفاعل .

والملاحظ في المواضع المتقدمة كلها أنّ الباعث على تقديم الجار والمجرور هو الاهتمام به وإن اختلف موجبه ، ولذا نرى أبا السعود يكتفي به عند حديثه على قوله تعالى : ﴿ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾[4] قال (وتقديم الجار والمجرور على الفاعل للاعتناء به)[5] ولم يزد على ذلك قولا ، وتابعه الألوسي [6].

هذا وقد وردت مواضع أخرى في سورة البقرة تقدم الجار والمجرور فيها على الفاعل وهي :

قال تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾[7]

وقوله سبحانه : ﴿ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ ﴾[8]

وقوله سبحانه : ﴿ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴾[9]

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٤٨ .

٢ - إعراب القرآن للدرويش ١ / ٣٦٧ .

٣ - انظر المحرر الوجيز ١ / ٣٣٠ .

٤ - البقرة جزء من الآية ٢٨٤ .

٥ - تفسير أبي السعود ١ / ٤٢١ .

٦ - انظر روح المعاني للألوسي ٢ / ٦٣ .

٧ - البقرة جزء من الآية ٣٨ .

٨ - البقرة جزء من الآية ٩٣ .

٩ - البقرة جزء من الآية ٩٩ .

قال تعالى : ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾(1)

وقوله سبحانه : ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ﴾(2)

وقوله سبحانه : ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا﴾(3)

وقوله سبحانه : ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾(4)

وقوله سبحانه : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾(5)

هذا ما استطعت حصره* من خلال استقراء حروف الجر ومواقعها في التركيب اللغوي في سورة البقرة ، وخصوصاً ما كان متعلّق الحرف متقدما ، أما إذا تأخر المتعلّق عن الحرف فليس بابه هنا وقد سبق بحثه في تقديم المتعلّق على عامله .

---

1 - البقرة جزء من الآية ١٢٠ .

2 - البقرة جزء من الآية ١٣١ .

3 - البقرة جزء من الآية ١٤٨ .

4 - البقرة جزء من الآية ١٦٦ .

5 - البقرة جزء من الآية ١٨٧ .

* من تقدم الجار والمجرور على الفاعل .

المطلب الثاني : تقديم الجاروالمجرور على المفعول به .

الجار والمجرور كما تقدم يتوسع فيه مالا يتوسع مع غيره - عدا الظرف - ويقلُّ أو يزداد هذا التوسع تبعا للتراكيب ويشهد لذلك تقديمه على المفعول به في سورة البقرة ، فقد أتى موازيا لثلاثة أضعاف تقدمه على الفاعل ، والسبب فيما يبدو لي يعزى للتركيب اللغوي ، فليس ثمّة فاصل بين الفعل والفاعل في التركيب السائد للُّغة مما قلّل فرص تدخل الجار والمجرور ، أمّا المفعول فبينه وبين عامله منزلة يحتلها الفاعل فهو في المنزلة الثانية لعامله ، وكلما ابتعدت المعمولات عن عاملها فإنّها تتيح للجار والمجرور فرصا أكثر للتدخل ، وقد ورد في سورة البقرة أربعون موضعا أو تزيد ، تقدم الجار والمجرور فيها على المفعول به ، أعرض لشواهد منها وأسأله التوفيق والسداد .

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (١)

قوله : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

«جاعل» خبر إنّ وله معنيان الأول : بمعنى خالق ويتعدى إلى مفعول واحد ، والثاني . بمعنى مصيّر فيتعدى إلى مفعولين(٢) .

---

١ - البقرة الآية ٣٠ .

٢ - انظر إملاء ما من به الرحمن ١ / ٢٨ .

وقد اقتصر ابن عطية على الأول ونسبه للطبري .

(قال ابن عطية : «جاعل» في هذه الآية بمعنى خالق ، ذكره الطبري[1] عن أبي روق ويقضي بذلك تقديمها إلى مفعول واحد)[2] .

ورجحه أبو حيان بقوله (وكلا القولين سائغ إلاّ أن الأول عندي أجود لأنهم ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فظاهر هذا أنّه مقابل لقوله ﴿جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ فلو كان الجعل الأول على معنى التصيير لذكره ثانياً فكان «أتجعل خليفة من يفسد فيها» وإذا لم يأت كذلك كان معنى الخلق أرجح ، ولا احتياج إلى تقدير خليفة لدلالة ما قبله عليه لأنه إضمار ، وكلام بغير إضمار أحسن من كلام بإضمار)[3] .

﴿فِي الأَرْضِ﴾ قيل الأرض كلها ، وقيل أرض مكة ، والأول أظهر وهو قول الجمهور[4] ، والقول الثاني ورد فيه حديث مرسل[5] عن عبدالرحمن بن سابط وفي سنده ضعف[6] .

﴿خَلِيفَةً﴾

قال الراغب الأصفهاني : خلف فلان فلاناً ، قام بالأمر عنه إما معه وإما بعده..

---

١ - انظر جامع البيان ١ / ١٩٩ .
٢ - المحرر الوجيز ١ / ١١٦ .
٣ - البحر المحيط ١ / ٢٨٨ .
٤ - انظر مفاتيح الغيب ٢ / ١٥٢ . والبحر المحيط ١ / ٢٨٨ .
٥ - الحديث المرسل : هو ما رواه التابعي عن النبي ﷺ ، وحكمه في الأصل ضعيف لفقده شرط الاتصال وللجهل بحال الراوي المحذوف ، انظر الباعث الحثيث لابن كثير (الرياض : دار الهدى ، د.ت) صـ ٢١ ، ونزهة النظر شرح نخبة الفكر لابن حجر (دمشق : مكتبة الغزالي ، ط / ٣ ، ١٤١٣هـ) صـ ٦٦ ، وتدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي ، ت / عبدالوهاب عبداللطيف ، مكتبة الرياض الحديثة ، د.ت ، ١ / ١٩٦ ، وجامع التحصيل في أحكام المراسيل لأبي سعيد العَلاَئي ، ت / حمدي عبدالمجيد السلفي (بيروت : عالم الكتب ، ط / ٢ ، ١٤٠٧هـ) .
٦ - تفسير ابن كثير ١ / ١٠٧ .

والخلافة النيابة عن الغير إمّا لغيبة المنوب عنه ، وإما لموته ، وإمّا لعجزه ، وإمّا لتشريف المستخلف)[1] .

ومعنى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (أي قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الأَرْضِ﴾[2] وقال : ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾[3] ... وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين ، وعزاه القرطبي[4] إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل ، وفي ذلك نظر، بل الخلاف في ذلك كثير حكاه الرازي في تفسيره[5] وغيره[6] ، والظاهر أنّه لم يرد آدم عينا ، إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ فإنهم أرادوا إنّ من هذا الجنس من يفعل ذلك ، وكأنّهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية .. أو فهموا من الخليفة أنّه الذي يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم)[7] .

ويرد إشكال هنا حول دلالة الاستخلاف . هل هو خلافة الله في الأرض ؟ أم أنّه استخلاف الناس بعضهم بعضا ؟ ولحل هذا الإشكال ، وتحريراً للمسألة أعرض لرأي الفريقين والترجيح بينها وأسأله التوفيق والسداد .

قال ابن جرير : عن ابن عباس وابن مسعود : أنّ الله جل ثناؤه قال للملائكة ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ قالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال يكون له

---

١ - المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، ت / محمد سيد كيلاني (مصر : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الأخيرة ، ١٣٨١هـ) صـ ١٥٥ - ١٥٦ .

٢ - فاطر جزء من الآية ٣٩ .

٣ - النمل جزء من الآية ٦٢ .

٤ - انظر الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٨٢ .

٥ - انظر مفاتيح الغيب ٢ / ١٥٢ .

٦ - البحر المحيط ١ / ٢٨٨ .

٧ - تفسير ابن كثير ١ / ١٠٦ .

ذرية يفسدون في الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا ، فيكون تأويل الآية على هذه الرواية : إنّي جاعل في الأرض خليفة مني يخلفني في الحكم بين خلقي ، وذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله ، والحكم بالعدل بين خلقه ، وأما الإفساد وسفك الدماء بغير حقها فمن خلفائه[1] .

وقال أبو حيان : (والأنبياء هم خلائف الله في أرضه ، واقتصر على آدم لأنّه أبو الخلائق ، كما اقتصر على مضر وتميم وقيس والمراد القبيلة)[2] .

وقال الراغب[3] بعد أن ذكر النيابة عن الغير لتشريف المستخلف في معرض تفسيره للخلافة يقول : وعلى هذا استخلف الله أولياءه في الأرض قال تعالى ﴿هُوَ الَّذي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ﴾[4] وقال سبحانه : ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ﴾[5] .

وقال الفيومي : (قال بعضهم ولا يقال «خليفة الله» بالإضافة إلاّ لآدم وداود لورود النصّ بذلك ، وقيل يجوز وهو القياس لأنّ الله تعالى جعله «خليفة» كما جعله سلطانا وقد سمع «سلطان الله» و«جنود الله» و«حزب الله» و«خيل الله» والإضافة تكون بأدنى ملابسة ، وعدم السماع لا يقتضي عدم الاطراد مع وجود القياس ، ولأنه نكرةٌ تدخله اللام للتعريف فيدخله ما يعاقبها ، وهو الإضافة كسائر أسماء الأجناس)[6] .

فهذه النقول تفيد أنّ الإنسان يكون خليفة الله في أرضه ، وهذه الخلافة تشريفا للمستخلف من الأنبياء ، ومن سار على هديهم من الأئمة والأولياء ويشهد لهذا

---

١ - انظر جامع البيان ١ / ٢٠٠ .
٢ - البحر المحيط ٢ / ٢٨٨ .
٣ - انظر المفردات في غريب القرآن صـ ١٥٦ .
٤ - فاطر جزء من الآية ٣٩ .
٥ - هود جزء من الآية ٥٧ .
٦ - المصباح المنير مادة خلف .

المعنى ما أخرجه أحمد عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا رأيتم الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فائتوها فإن فيها خليفة الله المهدي»[1] .

وأخرج أيضا حديث حذيفة بن اليمان ومنه «كان أصحاب رسول الله ﷺ يسألونه عن الخير وأسأله عن الشر ، فقلت : يارسول الله هل بعد الخير شر كما كان قبله شر؟ قال : نعم قلت : فما العصمة منه ؟ قال : السيف قلت : ثم ماذا ؟ قال : «ثم تكون هدنة على دخن» قلت : ثم ماذا؟ قال : «ثم تكون دعاة الضلالة» قال : «فإن رأيت يومئذ خليفة الله في الأرض فالزمه وإن نهك جسمك وأخذ مالك ، فإن لم تره فاهرب في الأرض ولو أن تموت وأنت عاضٌ بجذل شجرة ..... الحديث)[2] .

وما رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال : ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة ، إلا كانت له بطانتان ، بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه ، وبطانة تأمره بالشر وتحضُّه عليه ، فالمعصوم من عصم الله تعالى»[3] .

قال ابن حجر : قوله : «ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة» وفي رواية صفوان بن سليم «ما بعث الله من نبي ولا بعده من خليفة» والرواية التي في الباب تفسر المراد بهذا ، وأن المراد ببعث الخليفة استخلافه)[4] .

وثمة رأي آخر يرفض هذا الرأي ولا يجيزه ، وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال : المراد بالخليفة : أنّ آدم عليه السلام خلف من كان قبله من الخلق ، والخلف فيه مناسبة كما كان أبو بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ ، لأنّه خلفه على

---

١ - مسند الإمام أحمد برقم ٢٢٤٥٠ ، ٥ / ٣٢٧ . ٢ - المصدر نفسه برقم ٢٣٤٨٧ ، ٥ / ٤٧٠ .

٣ - رواه البخاري في كتاب الأحكام ، باب بطانة الإمام وأهل مشورته برقم ٧١٩٨ .

٤ - فتح الباري ١٣ / ٢٣٥ .

أمته بعد موته ، فالمقصود بها استخلاف الناس بعضهم بعضا ، والله لا يجوز له خليفة ولهذا لما قالوا لأبي بكر : يا خليفة الله قال : لست بخليفة الله ، ولكني خليفة رسول الله ﷺ حسبي ذلك ، والخليفة إنّما يكون عند عدم المستخلف بموت أو غيبة ، ويكون لحاجة المستخلف إلى الاستخلاف وسمي خليفة ، لأنّه خلف عن الغزو، وهو قائم خلفه وكل هذه المعاني منتفية في حق الله تعالى وهو منزه عنها . ولا يجوز أن يكون أحد خلفا منه ، ولا يقوم مقامه ، لأنّه لا سمي له ولا كفء له ، فمن جعل له خليفة فهو مشرك به[1] .

وما ذهب إليه شيخ الإسلام على جلالة قدره رحمه الله في محل نظر (لأنّ الذين أجازوا «الخلافة عن الله» لم يجيزوها على أساس موت المستخلف أو غيبته أو عجزه ، وإنما أجازوها على معنى آخر، وهو ما أشار إليه الراغب من أنّ الخلافة كما تكون بعد المستخلف لغيبته أو لموته أو لعجزه ، كذلك تكون معه لتشريف المستخلف، وعلى هذا فما ذهب إليه ابن تيمية من المنع صحيح بالنسبة للمعاني التي ذكرها ، وما ذكره غيره من الجواز إنّما يتأتى على المعنى الآخر الذي هو التشريف ، والذي أعقبه الراغب بقوله «وعلى ذلك استخلف الله أولياءه في الأرض» أما ما استشهد به ابن تيمية من قول أبي بكر رضي الله عنه فيمكن أن يحمل على التواضع ، لأنّ أبا بكر لم ينكر على قائل ذلك ولم يقل له بأنّ هذا شرك، وإنّما نفى ذلك واستكثره بدليل قوله «حسبي ذلك»)[2] .

---

١ - انظر الفتاوى لابن تيمية ، جمع محمد بن عبدالرحمن بن قاسم ، نسخة مصورة عما طبع في مطبعة الحكومة بمكة المكرمة ، ١٣٨٩هـ ، ٣٥ / ٤٢ - ٤٥ .

٢ - الخلافة في الأرض ، د/ أحمد حسن فرحات (الكويت : دار الأرقم ، ط / ١ ، ١٤٠٦هـ) صـ ١٥ .

والقول الأول هو الراجح وتعضده الأدلة ، فالإنسان خليفة الله في أرضه مع اعتقاد فقرنا إليه وغناه عنا (وحاجة العبد إلى ربه لذاته لا لعلة أوجبت تلك الحاجة، كما أنّ غنى الرب سبحانه لذاته ، لا لأمر أوجب غناه ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

وَالفَقرُ لِيْ وَصْفُ ذَاتِ لاَزِمٌ أبَدا   كِمَا الغِنَى أبَدا وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي[١]

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات لا بعلة ، وكل ما يذكر ويقرر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة ، لا علل لذلك إذ ما بالذات لا يعلل ، فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته)[٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾[٣]

وهذه الخلافة : (عبادة طوعية وتسبيح له وتقديس وإصلاح وإعمار لهذه الأرض ، ولا يطعن فيه ويضعفه ما يلاحظه الإنسان من فساد ، فهو أمر تقتضيه طبيعة الصراع بين الخير والشر ، وقد تضمنت الخلافة نفسها علاج مثل هذا الفساد)[٤] .

وهي خلافة شرعية خاصة بالمؤمنين الذين يقيمون كتاب الله وسنة نبيه ﷺ بين الناس بالعدل لا يمارون فيهما ولا يحابون ! .

---

١ - انظر ديوان ابن تيمية ، جمعه محمد عبدالرحيم (بيروت : دار الجيل ، ط / ١ ، ١٤١٤هـ) صـ ٧٤ .

٢ - طريق الهجرتين وباب السعادتين ، لابن القيم (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤٠٢هـ) صـ ٨ .

٣ - فاطر الآية ١٥ .

٤ - الخلافة في الأرض صـ ٢١ .

وعوداً على بدء

في قوله سبحانه : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾

تقدم الجار والمجرور «في الأرض» على المفعول به «خليفة» .

قال أبو السعود : (والظرف[1] متعلق بجاعل قدم على المفعول الصريح لما مر من التشويق إلى ما أخر)[2] .

وهذا قول حسن ، وأظهر منه وأقرب أنّ التقديم للاهتمام بالمقدم نفسه وبعمارتها والاستخلاف فيها ، ورجوع الضمير على الأرض وتكراره في قوله : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ موح بوقع ذلك على الملائكة ، وأنّه أعجب من استخلاف آدم عندهم وأهم ، فلم يَعنهم المستخلف بقدر ما عناهم مكان الاستخلاف ، ويشهد لهذا ويقويه صيغة السؤال الصادر من الملائكة وكيف تقدم فيه الضمير المجرور العائد على الأرض «فيها» على المفعول به «من يفسد فيها» .

ومن شواهد هذا المطلب قوله سبحانه : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[3]

قوله : ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ﴾

عن السدي قال : لما أتى موسى البحر كناه أبا خالد ، وضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، فدخلت بنو إسرائيل ، وكان في البحر اثنا عشر طريقا في كل طريق سبط)[4] .

---

١ - ويقصد به الجار والمجرور ويرد كثيراً في تفسيره .

٢ - تفسير أبي السعود ١ / ١٤١ .

٣ - البقرة الآية ٥٠ .

٤ - جامع البيان ١ / ٢٧٥ .

و«بكم» متعلق بفرقنا والباء معناها السبب : أي بسبب دخولكم ، وقيل معناها اللام : أي فرقنا لكم البحر : أي لأجلكم ومعناها راجع للسبب[1] .

ومعنى «الباء» له صلة وثيقة بدلالة التقديم ، فهم السبب والباعث على فرق البحر لإنجائهم من فرعون وقومه ، فلا ضير أن يقدموا وفيه بيان الاهتمام بهم وإتمام المنة عليهم .

ومنه قوله تعالى : ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[2]

قال ابن جرير : اختلف أهل التأويل في تأويل هذه الآية ، فقال بعضهم : هذه الآية هي أول آية نزلت في أمر المسلمين بقتال أهل الشرك ، وقالوا : أمر فيها المسلمون بقتال من قاتلهم من المشركين ، والكفّ عمّن كفّ عنهم ثم نسخت بقوله ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[3] .

وقال آخرون : بل ذلك أمر من الله تعالى ذكره للمسلمين بقتال الكفار لم ينسخ، وإنما الاعتداء الذي نهاهم الله عنه ، هو نهيه عن قتل النساء والذراري ، قالوا : والنهي عن قتلهم ثابت حكمه اليوم فلا شيء نسخ من حكم هذه الآية ، وهذا القول أولى وأصوب ، لأنّ دعوى المدعي نسخ آية يحتمل أن تكون غير منسوخة بغير دلالة على صحة دعواهم تحكم ، والتحكم لا يعجز عنه أحد[4] .

---

١ - انظر البحر المحيط ١ / ٣٥٥ .

٢ - البقرة الآية ١٩٠ .

٣ - التوبة جزء من الآية ٥ .

٤ - انظر جامع البيان ١ / ١٨٩ - ١٩٠ .

وقوله «في سبيل الله» متعلق بقوله «وقاتلوا» (وهو ظرف مجازي لأنّه لما وقع القتال بسبب نصرة الدين صار كأنّه وقع فيه ، وهو على حذف مضاف التقدير في نصرة دين الله ... وتقديمه على المفعول الصريح «الذين يقاتلوكم» لأنّه الأهم ، وهو أن يكون القتال بسبب إظهار شريعة الإسلام ألا ترى الاقتصار عليه في قوله : ﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1])[2] .

(إنّه القتال لله ، لا لأي هدف آخر من الأهداف التي عرفتها البشرية في حروبها الطويلة ، القتال في سبيل الله ، لا في سبيل الأمجاد والاستعلاء في الأرض ، ولا في سبيل المغانم والمكاسب ، ولا في سبيل الأسواق والخامات ، ولا في سبيل تسويد طبقة على طبقة أو جنس على جنس ، إنّما هو القتال لتلك الأهداف المحددة التي من أجلها شرع الجهاد في الإسلام ، القتال لإعلاء كلمة الله في الأرض ، وإقرار منهجه في الحياة وحماية المؤمنين به أن يفتنوا عن دينهم ، إو أن يجرفهم الضلال والفساد وماعدا هذه فهي حرب غير مشروعة في حكم الإسلام ، وليس لمن يخوضها أجر عند الله ولا مقام)[3] .

هذا وقد وردت مواضع كثيرة في سورة البقرة تقدم فيها الجار والمجرور على المفعول به منها :

قوله سبحانه : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ﴾[5]

---

١ - البقرة الآية ٢٤٤ .

٢ - البحر المحيط ٢ / ٧٣ .

٣ - في ظلال القرآن ١ / ١٨٧ .

٤ - البقرة جزء من الآية ٣٧ .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾[1]

وقوله تعالى : ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾[2]

وقوله تعالى : ﴿ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ﴾[3]

وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾[4]

وقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[5]

وقوله تعالى : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾[6]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ ﴾[7]

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾[8]

وقوله تعالى : ﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا ﴾[9]

وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾[10]

---

١ - البقرة جزء من الآية ٥٩ .
٢ - البقرة جزء من الآية ٦٠ .
٣ - البقرة جزء من الآية ٢٥ .
٤ - البقرة جزء من الآية ١٠٥ .
٥ - البقرة جزء من الآية ١٨٥ .
٦ - البقرة جزء من الآية ٥٧ .
٧ - البقرة جزء من الآية ١٧٣ .
٨ - البقرة جزء من الآية ٢٢ .
٩ - البقرة جزء من الآية ٢٥٠ .
١٠ - البقرة جزء من الآية ٢٨٦ .

الفصل الرابع

تقديم بعض المعاني على بعض

- مدخـــــل .

- المبحث الأول : تقـــديم المفـــرد .

- المبحـــث الثاني : تقـديم الجمـــل .

مدخــــل

المطلــب الأول : من أسباب تقديم بعض المعاني على بعض .

المطلب الثاني : تداخل أسباب تقديم بعض المعاني على بعض بأسباب تقديم المتعلقات عند بعض المتأخرين .

المطلب الثالث : التقديم والتأخير الخفي .

المطلب الأول : من أسباب تقديم بعض المعاني على بعض .

تقديم بعض المعاني على بعض من أوسع أبواب التقديم، وتجد فيه من المرونة مالا تجده في غيره ، ولذا تعددت أسباب التقديم فيه وكثرت ولا غرو فالمعاني تتكاثر بتكاثر الألفاظ والتراكيب ، وقد ذكر الزركشي خمسة وعشرين سببا .

قال : (النوع الأول : ماقدم والمعنى عليه ، ومقتضياته كثيرة قد يسر الله منها خمسا وعشرين)[1] .

وقال السيوطي : (وأمّا تفاصيل أسباب التقديم وأسراره فقد ظهر لي منها في الكتاب العزيز عشرة أنواع)[2] وهذه الأنواع التي ذكرها هي بعض ما ذكره الزركشي واختصار لها ، وسأذكر جملة من هذه الأسباب مستشهداً لها بآيات من سورة البقرة ولن آتي على جميع ما ذكره الزركشي فقد كانت شواهده من القرآن كله.

١ - التقديم للسبق بالزمان :

قال تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[3] (قدم الملائكة والكتب على الرسل ، وإن كان الإيمان بوجود الملائكة وصدق الكتب لا يحصل إلا بواسطة الرسل ، لأنّ ذلك اعتبر فيه الترتيب الوجودي لأن الملك يوجد أولاً ، ثم يحصل بوساطة

---

١ - البرهان في علوم القرآن ، ٣ / ٢٧٩ .

٢ - الإتقان للسيوطي ٢ / ١٨ .

٣ - البقرة جزء من الآية ١٧٧ .

تبليغه نزول الكتب، ثم يصل ذلك الكتاب إلى الرسول)[1].فروعي الترتيب الزمني.

وأظهر من هذه الآية قوله سبحانه : ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾[2] .

٢ - التقديم للسبق بالإيجاد :

قال تعالى : ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[3]

وذلك لأنّ الموت تقدم في الوجود، إذ الإنسان قبل نفخ الروح فيه كان ميتا لعدم الروح[4] .

٣ - التقدم بالشرف وهو أقسام منها :

أ - التقدم لشرف الحرية كقوله تعالى ﴿الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ﴾[5] .

ب - التقدم للشرف بالفضيلة كقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[6] قدم الليل على النهار ، والسر على العلانية ، لأفضلية الإنفاق في الليل ، ولأفضليته في السر دون العلن ، ولما قدم الليل قدم السر لأنّه به أنسب والعلانية بالنهار أظهر[7] .

٤ - التقدم بالعلة والسببية :

كقوله تعالى : ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[8] فقدم العليم على الحكيم لأنّ الإتقان ناشيء عن العلم ، وكذا أكثر ماورد في القرآن[9] ونظيره ﴿عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[10]

---

١ - البحر المحيط ٢ / ٥ .

٢ - البقرة جزء من الآية ١٣٦ .

٣ - البقرة جزء من الآية ٢٨ .

٤ - انظر البرهان للزركشي ٣ / ٢٨٤ - ٢٨٥ .

٥ - البقرة جزء من الآية ١٧٨ .

٦ - البقرة جزء من الآية ٢٧٤ .

٧ - انظر البرهان للزركشي ٣ / ٢٩٣ - ٢٩٥ .

٨ - البقرة جزء من الآية ٣٢ .

٩ - انظر البرهان ٣ / ٢٨٩ .

١٠ - البقرة جزء من الآية ٢٠٩ .

٥ – التقدم بالمرتبة :

كتقديم «سميع» على «عليم» في قوله : ﴿إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[١] (فإنه يقتضي التخويف والتهديد ، فبدأ بالسميع لتعلقه بالأصوات ، وإنّ من سمع حسك فقد يكون أقرب إليك في العادة ممن يعلم ، وإن كان علم الله تعلق بما ظهر وما بطن)[٢] .

وكقوله ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣] (فإنّ المغفرة سلامة ، والرحمة غنيمة والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة)[٤] .

٦ – التقديم للانتقال : وهو قسمان .

أ – الانتقال من الأقرب إلى الأبعد كقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[٥] . حيث قدم ذكر المخاطبين على من قبلهم ، وقدم الأرض على السماء لقصد الترقي .

ب – الانتقال من الأدنى إلى الأعلى كقوله تعالى : ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾[٦][٧] . فالسنة هي النعاس ، والنعاس سابق للنوم .

٧ – تقديم الوسيلة على الطلب :

كقوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٨] . ففي هذه الآية تقدم قبل الطلب «ربنا تقبل منا» من العمل

---

١ – البقرة جزء من الآية ١٢٧ .

٢ – البرهان للزركشي ٣ / ٢٩١ .

٣ – البقرة جزء من الآية ٢١٨ .

٤ – البرهان للزركشي ٣ / ٢٩١ .

٥ – البقرة الآيات ٢١،٢٢ .

٦ – البقرة جزء من الآية ٢٥٥ .

٧ – انظر البرهان للزركشي ٣ / ٣١١ – ٣١٢ .

٨ – البقرة جزء من الآية ١٢٧ .

وهو رفع القواعد من البيت ما يساعد على حصول المدعو به وقبوله (لأن تقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح لحصول الطلب ، وأسرع لوقوع الإجابة)[١] .

٨ - تقدم السبب على المسبب :

قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٢] .

فالتوبة سبب الطهارة[٣] .

٩ - التقدم لقصد الترتيب [٤]

كقوله تعالى : ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾[٥] فقد فهم الرسول ﷺ من ذلك التقديم البدء بالصفا فقال عليه السلام «أبدأ بما بدأ الله به»[٦] .

١٠ - سبق ما يقتضي تقديمه :

كقوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ﴾[٧] قدم القبض لأنّ قبله ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا﴾[٨] وكان هذا بسطا فلا يناسب تلاوة البسط، فقدم القبض لهذا ، وللترغيب في الإنفاق ، لأنّ الممتنع منه سببه خوف القلة

١ - المثل السائر ٢ / ٢٥٢ .

٢ - البقرة جزء من الآية ٢٢٢ .

٣ - انظر نتائج الفكر صـ ٢٦٨ - ٢٦٩ .

٤ - البرهان للزركشي ٣ / ٣١٧ .

٥ - البقرة جزء من الآية ١٥٨ .

٦ - جزء من حديث رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبدالله في كتاب الحج ، في باب حجة النبي ﷺ برقم ١٢١٨ .

٧ - البقرة جزء من الآية ٢٤٥ .

٨ - البقرة جزء من الآية ٢٤٥ .

فبين أنّ هذا لا ينجيه ، فإنّ القبض مقدر ولابد[1] .

هذه عشرة أسباب اخترتها من برهان الزركشي وغيره ، واستشهدت بآيات من سورة البقرة ، ويقيني أن كل آية لك أن تفرع عنها أكثر من سبب للتقديم ، ناهيك عن معان أخر لآيات أخر ، ولله در ابن الأثير حين قال : (وأمّا الضرب الثاني[2] الذي يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك ، فإنّه مما لا يحصره حد ، ولا ينتهي إليه شرح ، وقد أشرنا إلى نبذة منه في هذا الكتاب ، ليستدل بها على أشباهها ونظائرها)[3] .

---

١ – انظر البرهان للزركشي ٣ / ٣٠٤ – ٣٠٦ .

٢ – سبق للمؤلف أن جعل التقديم والتأخير على ضربين الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعاني ولو أخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى ، والثاني يختص بدرجة التقدم في الذكر ، لاختصاصه بما يوجب له ذلك ، ولو أخر لما تغير المعنى ، وهذا الضرب هو الذي يعنينا في هذا الفصل ، انظر حاشية المثل السائر ٢ / ٢٥٢ .

٣ – المثل السائر ٢ / ٢٥٢ .

المطلب الثاني : تداخل أسباب تقديم بعض المعاني على بعض بأسباب تقديم المتعلقات عند بعض المتأخرين .

ثمة تداخل في هذه الأسباب وقعت عند بعض المحدثين ، فهم يذكرون أسباباً في تقديم بعض المتعلقات على بعض[1] كان الأولى أن تذكر في تقديم بعض المعاني على بعض ، ومما يجلّي هذا التداخل تلك الأمثلة التي مثلوا بها ، وهي لا تدخل تحت مسمى المتعلقات والتي هي (المفعول به ، المفعول لأجله ، والمفعول معه ، والحال ، والتمييز ، والظرف ، والجار والمجرور)[2] .

وبين يديّ ثلاثة كتب لمؤلفين أجلاء وقع فيها هذا التداخل لم أقصد إلى اختيارها ، وقد أفدت منها في مواضع من بحثي ، وأبدأ بأجلِّ هذه الكتب فائدة ، وأكثرها نفعا ، إذ هو مرجع لكثير من الباحثين المعاصرين ممن كتبوا في علم المعاني.

١ - خصائص التراكيب للدكتور محمد محمد ابو موسى :

ذكر في كتابه هذا ستة أسباب لتقديم بعض المتعلقات على بعض[3] . وهذه الستة اثنان منها فقط يصلحان لذلك ، وأمّا بقيتها فهي مما يدخل تحت تقديم بعض المعاني على بعض ، ويلحظ ذلك في أثناء كلامه وكأنّه يستدرك على نفسه كقوله «ومما هو ناظر إلى منازل المعاني في ترتيبها)[4] والحديث عن تقديم المتعلقات .

---

١ - سبق الحديث عنها في مدخل الفصل الثالث ، انظر صـ ٢٥٩-٢٦٠ .

٢ - مـن بلاغة النظـم العربي ، ١ / ٢٦٩ .

٣ - انظر خصائص التراكيب صـ ٢٩٣ - ٢٩٨ .

٤ - خصائص التراكيب صـ ٢٩٥ .

ويقول (وقد يقع الترتيب على وفق تدرج أحوال النفس وما يصحب ذلك من التصاعد في الإحساس ، فنرى ترتيب المعاني في الأسلوب تتصاعد مع هذا الشعور وترقى معه)[1] ولن أقف مع كل سبب من الأسباب الأربعة الباقية مناقشا لها فالحديث يطول وليس هو محور بحثنا ، ولكني أعرض لسبب واحد وأبين رأيي فيه والبقية تدخل تحته تبعا على اختلاف في مواقع الجمل والتراكيب .

قال الدكتور محمد : (وقد تلحظ السببية في ترتيب المتعلقات فيقدم السبب على المسبب وذلك كما في قوله : ﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴾[2] قال ابن الأثير[3] : «قدم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس ، وإن كانوا أشرف محلا ، لأنّ حياة الأرض سبب لحياة الأنعام والناس ، فلما كانت بهذه المثابة جعلت مقدمة في الذكر ، ولما كانت الأنعام من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها في الذكر على الناس ، لأنّ حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم ، فقدم سقى ماهو سبب نمائهم ومعاشهم على سقيهم)[4] .

هذا السبب الخامس من الأسباب التي ذكرها لتقديم بعض المتعلقات على بعض ولمناقشته يحسن بي أن أصدر فيها عن قراءة لابن الاثير نفسه فقد نقل شيخنا الجليل عنه .

---

١ - خصائص التراكيب صـ ٢٩٧ .

٢ - الفرقان الآيات ٤٨ ، ٤٩ .

٣ - انظر المثل السائر ٢ / ٢٥٢ - ٢٥٣ .

٤ - خصائص التراكيب صـ ٢٩٧ .

أولاً : ابن الأثير لم يتحدث عن تقديم بعض المتعلقات، على بعض وإنّما وردت إشارات سريعة عنه في معرض حديثه عن التقديم ولم تعد هذه الإشارات قوله :

أ- بعد حديثه عن تقديم الخبر على المبتدأ قال : (وكذلك يجري الأمر في الحال والاستثناء[1] .

ب - بعد مناقشته للزمخشري حول إفادة التقديم للتخصيص في تقديم المفعول على عامله في قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2] قال : (وعلى نحو منه ورد قوله تعالى : ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ﴾[3] وتقدير الكلام فأوجس موسى في نفسه خيفة ، وإنّما قدم المفعول به على الفاعل ، وفصل بين الفعل والفاعل بالمفعول وبحرف الجر قصداً لتحسين النظم)[4] .

ج - قوله (وأمّا تقديم الحال فقولك «جاء راكبا زيد» وهذا بخلاف قولك «جاء زيد راكبا» إذ يحتمل أن يكون ضاحكا أو ماشيا أو غير ذلك ، وأما الاستثناء فجار هذا المجرى ، نحو قولك «ما قام إلا زيداً أحد» أو «ما قام أحد إلا زيداً» والكلام على ذلك كالكلام على ما سبق)[5] .

---

١ - المثل السائر ٢ / ٢٤٠ .

٢ - الفاتحة الآية ٥ .

٣ - طه الآيات ٦٧ ، ٦٨ .

٤ - المثل السائر ٢ / ٢٤١ - ٢٤٢ .

٥ - المصدر نفسه ٢ / ٢٤٨ .

وهذه المواضع لا يعوّل عليها ، فليس فيها ما يكوّن لدى القاريء فكرة مستقلة عن تقديم بعض المتعلقات على بعض ، بل إنّ ابن الاثير نفسه لم يعمد إلى بحثها في مبحث مستقل ، وإنّما أتت متفرقة في أثناء مبحث التقديم والتأخير ، وهذا المبحث على جلالة قدر صاحبه وتميزه في فنه إلا أن افكاره في هذا المبحث تبدو متوفرة سريعة الانتقال ، خاصة في الضرب الأول وهو «ما يختص بدلالة الألفاظ على المعاني، ولو أُخِّر المقدّم أو قدم المؤخر لتغير المعنى»[1] فأنت تقرأ فيه عن تقديم المتعلق على عامله[2] ، ثم فجأة تجدك تقرأ في تقديم الخبر على المبتدأ[3] ، ثم تعاود القراءة في تقديم المتعلق على العامل[4] ، ثم مرة ثانية عن تقديم الخبر على المبتدأ[5] يتخلل ذلك إشارات سريعة جداً عن تقديم بعض المتعلقات على بعض وهي ما أثبتها آنفا .

ثانياً : تحدث ابن الأثير عن الآية التي نقلها عنه د / محمد أبوموسى في الضرب الثاني ، وهو ما يختص بدرجة التقدم في الذكر ، لاختصاصه بما يوجب له ذلك ولو أخر لما تغيّر المعنى)[6] ووصف هذا الضرب بقوله «إنّه مما لا يحصره حد ولا ينتهي إليه شرح ، وقد أشرنا إلى نبذة منه في هذا الكتاب ليستدل بها على أشباهها ونظائرها»[7] .

---

١ - المثل السائر ٢ / ٢٣٩ .

٢ - نفس المصدر ٢ / ٢٣٩ .

٣ - نفس المصدر ٢ / ٢٤٠ .

٤ - نفس المصدر ٢ / ٢٤٢ .

٥ - نفس المصدر ٢ / ٢٤٢ .

٦ - نفس المصدر ٢ / ٢٣٩ .

٧ - نفس المصدر ٢ / ٢٥٢ .

ثم ذكر ستة أسباب لتقديم بعض المعاني على بعض واستشهد لها بآيات من القرآن ولم يتعرض لتقديم المتعلقات .

ومما قاله في الضرب الثاني (فمن ذلك تقديم السبب على المسبب كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] فإنّه إنّما قدم العبادة على الاستعانة لأنّ تقديم القربة والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح لحصول الطلب ، وأسرع لوقوع الإجابة ، ولو قال : إياك نستعين ، وإياك نعبد ، لكان جائزاً ، إلاّ أنّه لا يسد ذلك المسد ولا يقع ذلك الموقع ، وهذا لا يخفى على المنصف من أرباب هذه الصناعة ، وعلى نحو منه جاء قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ۝ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾[2])[3] . وقد نقل الدكتور أبو موسى هذه الآية مع تعليق ابن الأثير عليها .

ثالثاً : استشهد ابن الأثير لتقديم السبب على المسبب بقوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[4] وقد سبق أن تحدث عن هذه الآية في الضرب الأول وناقش الزمخشري[5] ورد قوله في أنّ التقديم للاختصاص فقال : (فإنّه لم يقدم المفعول فيه على الفعل للاختصاص، وإنّما قدم لمكان نظم الكلام لأنّه لو قال: نعبدك ونستعينك،

---

١ - الفاتحة الآية ٥ .

٢ - الفرقان الآيات ٤٨ ، ٤٩ .

٣ - المثل السائر ٢ / ٢٥٢ .

٤ - الفاتحة الآية ٥ .

٥ - سبق الحديث عن هذه القضية في صـ ٢٥٥-٢٥٨ .

لم يكن له من الحسن ما لقوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1] ويتضح هنا أنّ حديثه منصب على تقديم المتعلق وفيه نرى الضمير يتقدم ويتأخر دون الأفعال .

أمّا في الضرب الثاني فالحديث في الآية نفسها منصب على تقديم العبادة على الاستعانة ، فهو تقديم معنى على معنى ولا تدخل تحت المتعلقات بحال .. فنعبد ونستعين فعلا مضارع يُتعلَق بهما ولا تتعلق .. ثم قال بعد ذلك - كما مر آنفا - (وعلى نحو منه جاء قوله تعالى : ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ....﴾)[2] .

رابعاً : نقل الدكتور محمد أبو موسى كما صرح بذلك[3] من العلوي ، والعلوي في كتابه الطراز ، المفاهيم البلاغية مشوشة مضطربة في ذهنه ، والدليل على ذلك أنّه يناقض نفسه ، فما يقرره في موضع ينقضه في موضع آخر ، كما أنّ معرفته بالحدود والفواصل التي تفصل بين الفنون البلاغية تكاد تكون معدومة ، وقد تجلى ذلك في مباحث عدة[4] .

---

١ - المثل السائر ٢ / ٢٤١ .

٢ - المصدر نفسه ٢ / ٢٥٢ .

٣ - انظر خصائص التراكيب صـ ٢٩٣ .

٤ - انظر من مباحث البلاغة والنقد بين ابن الأثير والعلوي للدكتور / نزيه عبدالحميد فراج (القاهرة : مكتبة وهبة ، ط / ١ ، ١٤١٧هـ) صـ ١٢ - ١٣ . وقد فصّل المؤلف ما أجملته عن العلوي .

٢ - البلاغة فنونها وأفنانها للدكتور / فضل حسن عباس .

ومبحث التقديم عنده لم يعمد إلى تقسيمه كتقسيم الدكتور أبي موسى وإن كان عنوانه يحتمل ذلك قال :

المبحث الثالث : تقديم متعلقات الفعل[١] .

وتحدث فيه عن تقديم المتعلقات على العامل مصرحاً بذلك وأما تقديم المتعلقات بعضها على بعض فلم يدرس هذا القسم كسابقه ونقل عن الزركشي[٢] خمسة أسباب للتقديم وهي :

١ - أن يكون في التأخير إخلال ببيان المعنى كقوله تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾[٣] فإنّه لو أخر قوله ﴿مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ فلا يفهم أنه منهم .

٢ - لعظمه والاهتمام به كقوله تعالى : ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾[٤] وقوله سبحانه : ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[٥] .

---

١ - البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) صـ ٢٣٤ .

٢ - انظر البرهان ٣ / ٢٧٤ - ٢٧٧ .

٣ - غافر جزء من الآية ٢٨ .

٤ - البقرة جزء من الآية ٤٣ .

٥ - التغابن جزء من الآية ١٢ .

٣ - أن يكون الخاطر ملتفتا إليه والهمة معقودة به كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾[١] بتقديم الجار على المفعول الأول .

٤ - أن يكون التقديم لإرادة التبكيت والتعجيب من حال المذكور كتقديم المفعول الثاني على الأول في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾[٢] .

٥ - الاختصاص كقوله تعالى : ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٣]

فهذه الأسباب الخمسة ثلاثة منها - الأول والثالث والرابع - يصح دخولها تحت مبحث تقدم المعمولات بعضها على بعض ، وأما الخامس فقد تقدم المعمول فيه على عامله ، ولو تجاوزنا عن الخامس لدخوله في معمولات الفعل ، وهو لم يصرح بالتقسيم ، لكن يبقى السبب الثاني محل نظر فتقديم إقامة الصلاة على إيتاء الزكاة ، وطاعة الله على طاعة الرسول في باب المعاني فما وجه دخولها هنا ؟.

٣ - بلاغة التراكيب دراسة في علم المعاني للدكتور / توفيق الفيل .

وصرح فيه بالقسمين[٤] ونقل عن الدكتور محمد أبي موسى وأفاد منه[٥] ووقع

---

١ - الأنعام جزء من الآية ١٠٠ .

٢ - الأنعام جزء من الآية ١٠٠ .

٣ - النحل جزء من الآية ١١٤ .

٤ - انظر بلاغة التراكيب ، دراسة في علم المعاني ، د. توفيق الفيل (القاهرة : مكتبة الأدب ، د.ت) ص ١٣٣ .

٥ - انظر المرجع السابق ١٣٤ - ١٣٦ .

عنده مـا وقع عند أبي مـوسى مـن تداخل في الأسـبـاب ، ولسـت أدري فلعل مـفـهـوم المتعلقات يتسع عند الدكتور أبي موسى لتدخل تحته الشواهد التي أثبتها ، بيد أنّي لم أر في شروح التلخيص شيئاً من هذه الأسباب التي ذكرها بعض المتـأخرين في تقديم متعلقات الفعل بعضها على بعض ، وإنما الموجود في الشروح ما سبق كتابته في مدخل الفصل الثالث ،وليس ثمة بأس في أن يزيد المتأخر على المتقدم ويضيف ولا أحد يمنع ذلك لو أن الشواهد التي ذكروها ساعدت على ما ذهبوا إليـه وكانت داخلة تحت مسمى المتعلقات .

المطلب الثالث : التقديم والتأخير الخفي .

وقـد أغـفلت في هذا الفـصل الحديث عمـا ظنّه البـعض مـقـدما تـلاوة وهو في الأصل مؤخر أو العكس ، أو ما اصطلح على تسميته بالتقديم والتأخير الخفي ، وقد اختلف العلماء في وجود هذا النوع من التقديم والتأخير في القرآن اختلافا كبيراً فبينما نرى الحارث المحاسبي يتوسع فيه ويكثر من ذكره ، نرى أبا حيان ينفيـه أشد النفي وينكره أشد الإنكار كما سيأتي ، ولعل الذي دفع بعض العلماء إلى القول بوجود هذا النوع من التقديم والتأخير هو للبس في فهم بعض معاني الآيات ، أو أنهم يستشكلون المعنى فيلجأون إلى دعوى التقديم والتأخير .

هذا وأعرض لبعض الآيات لهذا النوع من سورة البقرة مع التعليق عليها :

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾[1]

١ - قال البغوي : (هذا أول القصة وإن كانت مؤخرة في التلاوة)[2]

وقال أبو حيان معقبا على البغوي وغيره[3] ممن قال بذلك ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا﴾ معطوف على قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ﴾[4] ويجوز أن يكون الترتيب وجودهما ونزولهما على حسب تلاوتهما ، فيكون الله تعالى قد أمرهم بذبح البقرة فذبحوها وهم لا يعلمون بما له تعالى فيها من السر ، ثم وقع بعد ذلك أمر القتيل ، فأظهر لهم ما كان أخفاه عنهم من الحكمة بقوله اضربوه ببعضها ولا شيء يضطرنا إلى اعتقاد تقدم قتل القتيل)[5] .

وقال أيضا (وإنما حمل من حمل على خلاف الظاهر، اعتبار ما رووا من القصص الذي لا يصح إذلم يرد به كتاب ولا سنة ، ومتى أمكن حمل الشيء على ظاهره كان أولى ، إذ العدول عن الظاهر إلى غير الظاهر إنّما يكون لمرجح ولا مرجح ، بل تظهر الحكمة البالغة في تكليفهم أولا بذبح البقرة هل يمتثلون ذلك أم لا ؟ وامتثال التكاليف التي لا يظهر فيها ببادىء الرأي حكمة أعظم من امتثال ما تظهر فيه

---

١ - البقرة جزء من الآية ٧٢ .

٢ - معالم التنزيل للبغوي ، ت / خالد عبدالرحمن العك ، مروان سوار (بيروت : دار المعرفة ، ط / ١ ، ١٤٠٦هـ) ١ / ٨٤ .

٣ - كابن الجوزي في زاد المسير ١ / ١٠٠ ، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ١ / ٣٠٩ .

٤ - البقرة جزء من الآية ٦٧ .

٥ - البحر المحيط ١ / ٤٢٣ .

حكمة، لأنّها طواعية صرف وعبودية واستسلام خالص بخلاف ما تظهر له حكمة ، فإنّ في العقل داعية إلى امتثاله وحضا على العمل به)[1] .

وقال : (والتقديم والتأخير ذكر أصحابنا أنّه من الضرائر فينبغي أن ينزه القرآن عنه)[2] .

٢ - قال أبو حيان : وذكر بعض من جمع في التفسير أن هذه الآية ﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[3] مؤخرة في التلاوة مقدمة في المعنى ، والخطاب للنبي ﷺ قال : والتقدير ﴿ فَإِن زَلَلْتُم ﴾[4] آخر الآية سل يامحمد بني إسرائيل كم آتيانهم من آية بينة : فما اعتبروا ولا أذعنوا إليها هل ينظرون إلاّ أن يأتيهم الله أي : أنّهم لايؤمنون حتى يأتيهم الله انتهى ، ولا حاجة إلى ادعاء التقديم والتأخير ، بل هذه الآية على ترتبها آخذ بعضها بعنق بعض متلاحمة التركيب واقعة مواقعها ... فدعوى التقديم والتأخير المختص بضرورة الأشعار ، وبنظم ذوي الانحصار ، منزه عنها كلام الواحد القهار[5] .

٣ - قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾[6] .

قال أبو حيان (ودعوى التقديم والتأخير في الآية على ما قاله بعضهم من أنّ

---

١ - البحر المحيط ١ / ٤٢٣ - ٤٢٤ .
٢ - المصدر نفسه ١ / ٤٢٤ .
٣ - البقرة جزء من الآية ٢١١ .
٤ - البقرة جزء من الآية ٢٠٩ .
٥ - انظر البحر المحيط ٢ / ١٣٧ - ١٣٨ .
٦ - البقرة جزء من الآية ٢٦٥

المعنى أصابها وابل ، فإن لم يصبها وابل فطل فأتت اكلها ضعفين ، حتى يجعل إيتاؤها الأكل ضعفين على الحالين من الوابل والطل ، ولاحاجة إليها ، والتقديم والتأخير من ضرورات الشعر فينزه القرآن عن ذلك)[1] .

٤ - قال تعالى : ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[2] .

قال الحارث المحاسبي : فيها تقديم وتأخير والتقدير (نأت منها بخير)[3] .

قال أبو حيان : وحكى عن ابن عباس أن في الآية تقديماً وتأخيراً ... وهذه الحكاية لا تصح عن ذلك الحبر إذ هي محيلة لنظم القرآن[4] .

ويقول في مواضع أخرى في تفسيره لسورة البقرة حول هذا النوع من التقديم (ولا يذهب إلى ماذكره ولا تقديم ولا تأخير في القرآن ، لأنّ التقديم والتأخير عندنا من باب الضرورات وتنزه كتاب الله عنه)[5] . (ولاحاجة تدعو إلى أنّ في الكلام تقديما وتأخيراً كما ذهب إليه بعضهم وأن التقدير[6] «ونحن نسبح بحمدك ونقدس بحمدك» فاعترض (بحمدك) بين المعطوف والمعطوف عليه ، لأنّ التقديم والتأخير مما يختص بالضرورة ، فلا يحمل كلام الله عليه)[7] .

(وهذا الوجه متكلف جداً من حيث التركيب ومن حيث المدلول أما من حيث التركيب فزعم قائله أنّ ذلك على التقديم والتأخير وهذا لا يكون عندنا إلا في الضرائر)[8] .

---

١ - البحر المحيط ٢ / ٣٢٥ .
٢ - البقرة جزء من الآية ١٠٦ .
٣ - العقل وفهم القرآن للحارث المحاسبي ، ت / حسين القوتلي (بيروت : دار الفكر ، ط/ ٢ ، ١٣٩٨هـ) صـ ٤٨٤ .
٤ - انظر البحر المحيط ١ / ٥١٤ .
٥ - المصدر نفسه ٢ / ١٢٩ .
٦ - في قوله تعالى : ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ البقرة جزء من الآية ٣٠ .
٧ - البحر المحيط ١ / ٢٩١ .
٨ - المصدر نفسه ١ / ٥٨٨ .

فأبو حيان لم يكن يرضى بهذا النوع فكان يعقب في تفسيره على كل موضع ذكر أن فيه تقديماً وتأخيراً من هذا القبيل ويرده لأنه عنده من قبيل الضرورات والقرآن منزه عن ذلك .

وما ذهب إليه أبو حيان في هذا السياق هو الأرجح ، لأن القول بالتقديم والتأخير في مثل هذه المعاني ملجيء إلى التأويل المتكلف الذي ربّما حمّل النص القرآني مالا يحتمله ، وصرفه عن ظاهرة الذي لا يصح صرفه عنه إلاّ بمرجح لا يعارض نصاً قطعي الثبوت من القرآن ، ولا يخرج على ما ذهب إليه سلف الأمة الذين ثبتت خيريتهم ، ودقّ فهمهم لمعاني القرآن وأسراره .

المبحث الأول

تقديم المفرد[1]

- القسم الأول : المفرد المعرفة .

- القسم الثاني : المفرد النكرة .

---

١ - والمقصود به ما ليس جملة ولا شبه جملة .

القسم الأول

المفرد المعرفة

- النوع الأول : المرفوع .

المطلب الأول : العلم .

المطلب الثاني : المضاف .

- النوع الثاني : المنصوب .

المطلب الأول : الضمير .

المطلب الثاني : الموصول .

المطلب الثالث :المحلى بأل .

- النوع الثالث : المجرور .

المطلب الأول : العلم .

المطلب الثاني : الموصول .

المطلب الثالث :المحلى بأل .

المطلب الثالث :المضاف .

- النوع الأول : المفرد المرفوع .

المطلب الأول : العــلم .

كان القدح المعلى في هذا المطلب لصفات الباري جلا جلاله (وهي أعلام باعتبار دلالتها على الذات ، وأوصاف باعتبار ما دلت عليه من المعاني ، وهي بالاعتبار الأول مترادفة لدلالتها على مسمى واحد وهو الله - عز وجل - وبالاعتبار الثاني متباينة لدلالة كل واحد منهما على معناه الخاص في الحيّ ، العليم ، القدير السميع ، البصير ، الرحمن ، الرحيم ، العزيز ، الحكيم ، كلها أسماء لمسمى واحد وهو الله سبحانه وتعالى - لكن معنى الحي غير معنى العليم ، ومعنى العليم غير معنى القدير وهكذا .

وإنما قلنا بأنّها أعلام وأوصاف لدلالة القرآن عليه كما في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[1] وقوله : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾[2] .

فإنّ الآية الثانية دلت على أنّ الرحيم هو المتصف بالرحمة ، ولإجماع أهل اللغة والعرف أنّه لا يقال : عليم إلا لمن له علم ولا سميع إلا لمن له سمع ، ولا بصير إلا لمن له بصر وهذا أمر أبين من أن يحتاج إلى دليل)[3] .

وتصنيف الباحث لصفات الباري سبحانه تحت هذا المبحث من متطلبات البحث وهو من باب التجاوز ، وإلا فالأصل في ذكر أسماء الرب وصفاته الاقتصار على

---

١ - يونس جزء من الآية ١٠٧ .

٢ - الكهف جزء من الآية ٥٨ .

٣ - القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، للشيخ / محمد بن صالح العثيمين (الرياض : مطبعة سفير ، ط / ١ ، ١٤١٢هـ) صـ ٩ - ١٠ .

الكلمات السمعية القرآنية والنبوية ، وما جرأ الباحث على هذا التصنيف، إلا سابقة للسلف حين تكلم بعضهم في تقسيم الصفات إلى ذاتية وفعلية ، وتقسيم آخر باعتبار آخر إلى خبرية وعقلية ، وقولهم في صفات الأفعال ، الصفات الاختيارية وهلم جراً .

وقد ختمت أربع وثلاثون آية في سورة البقرة بصفتين متعاقبتين من صفاته سبحانه ، سأعرض لشواهد منها وأتلمس شيئاً من أسرار تقديم بعضها على بعض ، وهو المستعان سبحانه .

قال تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾[1]

قوله : ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

«العليم» (فعيل للمبالغة والتكبير في المعلومات في خلق الله)[2] .

و«الحكيم» ذو الحكمة ويكون صفة ذات له سبحانه[3] .

(وقيل معناه المحكم ويجيء الحكيم على هذا من صفات الفعل ، صرف عن مُفْعِل إلى فعيل ، كما صرف عن مُسْمِع إلى سميع ومُؤلم إلى أليم قاله ابن الأنباري ، وقال قوم «الحكيم» المانع من الفساد ، ومنه سُمِّيت حكمة اللِّجام ، لأنّها تمنع الفرس من الجري والذهاب في غير قصد قال جرير :

أَبَني حَنِيفَةَ أحكِمُوا سُفَهَاءَكُم ... إنّي أخَافُ عَليكمُ أن أغْضَبَا[4]

أي امنعوهم من الفساد)[5] .

---

١ - البقرة الآية ٣٢ . ٢ - الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٩٨ . ٣ - انظر البحر المحيط ١ / ٢٩٨ .

٤ - قاله جرير مخاطباً بني حنيفة وبعده :

أبني حنيفة إنني إن أهجكم ... أدَعِ اليمَامَةَ لاَ تُوَارِي أرنَبَا ... انظر ديوانه صـ ٤٧ .

٥ - الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٩٨ .

(وتعقيب العليم بالحكيم من إتباع الوصف بأخص منه ، فإنّ مفهوم الحكمة زائد على مفهوم العلم ، لأنّ الحكمة كمال في العلم ، فهو كقولهم خطيب مصقع وشاعر مفلق)[1] .

وقدم سبحانه الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة لمناسبة ما تقدم من قوله ﴿ وَعَلَّمَ ﴾[2] ﴿ أَنْبِئُونِي ﴾[3] ﴿ لا عِلْمَ لَنَا ﴾[4] (فالذي ظهرت به المزية لآدم والفضيلة هو العلم ، فناسب ذكره متصلا به ، ولأنّ الحكمة إنّما هي آثار العلم وناشئة عنه ، ولذلك أكثر ما جاء في القرآن تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة)[5] .

وقال تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[6]

قوله : ﴿ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

«التوّاب» (من أسمائه تعالى وهو الكثير القبول لتوبة العبد ، أو الكثير الإعانة عليها)[7] . (وورد في القرآن معرفا ومنكرا واسما وفعلا ، وقد يطلق على العبد أيضا توّاب قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[8])[9] .

(وفرق بين إطلاقه على الله تعالى وعلى العبد ، وذلك لاختلاف صلتيهما ألا ترى «فتاب عليه» «وتوبوا إلى الله» فالتوبة من الله على العبد هي العطف

---

١ - التحرير والتنوير ١ / ٤١٦ .
٢ - البقرة جزء من الآية ٣١ .
٣ - البقرة جزء من الآية ٣١ .
٤ - البقرة جزء من الآية ٣٢ .
٥ - البحر المحيط ١ / ٢٩٨ .
٦ - البقرة الآية ٣٧ .
٧ - البحر المحيط ١ / ٣٢٠ .
٨ - البقرة جزء من الآية ٢٢٢ .
٩ - الجامع لأحكام القرآن ١ / ٢٢٢ .

والتفضل عليه ، ومن العبد هي الرجوع إلى طاعته تعالى لطلب ثواب أو خشية عقاب أو رفع درجات)[١] .

(ولما كانت المعاصي متكررة من عباده جاء بصيغة المبالغة ، ليقابل الخطايا الكثيرة بالتوبة الواسعة)[٢] (وفي الجملة الأسمية ما يقوي رجاء المذنبين ، ويجبر كسر قلوب الخاطئين حيث افتتحها بـ« أنّ » وأتى بضمير الفصل وعرف المسند وأتى به من صيغ المبالغة إشارة إلى قبوله التوبة كلما تاب العبد ، وجمع بين وصفي كونه توابا وكونه رحيما إشارة إلى مزيد الفضل)[٣] .(وقدم التواب لمناسبة قوله « فتاب عليه » ولحسن ختم الفاصلة بقوله «الرحيم»)[٤] .

وتعقيب التواب بالرحيم (لأن الرحيم جار مجرى العلة للتوّاب ، إذ قبوله التوبة عن عباده ضرب من الرحمة بهم ، وإلا لكانت التوبة لا تقتضي إلا نفع التائب نفسه بعدم العودة للذنب حتى تترتب عليه الآثام ، وأمّا الإثم المترتب فكان من العدل أن يتحقق عقابه ، لكن الرحمة سبقت العدل هنا بوعد من الله)[٥] .

(وفي قوله تعالى :﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ تأكيد فائدته أن التوبة على العبد إنما هي نعمة من الله ، لامن العبد وحده لئلا يعجب التائب ، بل الواجب عليه شكر الله تعالى في توبته عليه)[٦] .

---

١ - البحر المحيط ١ / ٣٢٠ .

٢ - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي ، ت / الدكتور محمد حسن جبل وطارق أحمد محمد (مصر : دار الصحابة للتراث ، ط / ١ ، ١٤١٦هـ) ١ / ٤١١ .

٣ - روح المعاني ١ / ٢٣٩ .

٤ - البحر المحيط ١ / ٣٢٠ .

٥ - التحرير والتنوير ١ / ٤٣٩ .

٦ - المحرر الوجيز ١ / ١٣١ .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ﴾[١] (فعُلم أنه ما لم يتب الله على العبد لا يتوب العبد، فابتداء التوبة من الله تعالى بالحق وتمامها على العبد بالقبول)[٢] .

وقال تعالى : ﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾[٣]

قوله سبحانه :﴿ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

«العزيز» الغالب ، أو المنيع الذي لا يرام ، قاله المفضل بن سلمة ، أو الذي لا يعجزه شيء قاله ابن كيسان ، أو الذي لا مثل له قاله ابن عباس)[٤] . وقد جاء ذكر «العزيز» في القرآن في مائة موضع[٥] (ويلاحظ في الآيات الكريمة التي ورد فيها اسم العزيز أنّه في الغالب يقترن اسم العزيز باسم الحكيم ، وذلك لأنّ معنى العزيز يفيد الغلبة والقوة والامتناع ، ولما كانت هذه الغلبة القوية تحتاج إلى أن يضبطها الحق والعدل والحكمة ، ناسب أن يقترن الوصف بالعزة بالوصف بالحكمة بيانا لذلك)[٦] .

(وهاتان الصفتان في الآية متناسبتان لما قبلهما ، لأنّ إرسال رسول متصف بالأوصاف التي سألها «إبراهيم» لا تصدر إلا عمّن اتصف بالعزة ، وهي الغلبة ، أو القوة ، أو عدم النظير ، وبالحكمة التي هي إصابة مواقع الفعل فيضع الرسالة في أشرف خلقه وأكرمهم عليه : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[٧] وتقدمت صفة

---

١ – التوبة جزء من الآية ١١٨ .

٢ – موسوعة له الأسماء الحسنى للدكتور أحمد الشرباصي (بيروت :دار الجيل ، ط/ ٢ ، ١٤٠٨هـ) ١ / ٣٨٥ .

٣ – البقرة الآية ١٢٩ .

٤ – البحر المحيط ١ / ٥٦٤ .

٥ – انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٤٥٩ – ٤٦١ .

٦ – موسوعة له الأسماء الحسنى ١ / ٧١ .

٧ – الأنعام جزء من الآية ١٢٤ .

العزيز على الحكيم لأنّها من صفات الذات والحكيم من صفات الأفعال ، ولكون الحكيم فاصلة كالفواصل قبلها)[1] .

وقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[2]

قوله سبحانه :﴿ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

(الرءوف الرحيم صفتان مشبهتان مشتقة أولاهما من الرأفة، والثانية من الرحمة والرأفة مفسرة بالرحمة في إطلاق كلام الجمهور من أهل اللغة ، وعليه درج الزجاج وخص المحققون من أهل اللغة الرأفة بمعنى رحمة خاصة ، فقال أبو عمرو بن العلاء : الرأفة أكثر من الرحمة أي أقوى أي هي رحمة قوية ، وهو معنى قول الجوهري الرأفة أشد من الرحمة ، وقال في المجمل الرأفة أخص من الرحمة ولا تكاد تقع في الكراهية ، والرحمة تقع في الكراهية للمصلحة)[3] .

(إذاً فالرأفة عبارة عن نوع من الرحمة خاص ، فهي نعمةٌ مُلِذَّة من جميع الوجوه ، والرحمة قد تكون مؤلمة في الحال ويكون في عقباها لذة ، ولذلك قال : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾[4] ولم يقل رحمة ، فإنّ ضرب العصاة على عصيانهم رحمة لهم لا رأفة ، فإنّ صفة الرأفة إذا انسدلت على مخلوق لم يلحقه مكروه ، فلذلك تقول لمن أصابه بلاءٌ في الدنيا وفي ضمنه خير في الأخرى ، إنّ الله رحمه بهذا البلاء ، وتقول لمن أصابه عافيه في الدنيا في ضمنها خير في الأخرى واتصلت له العافية أولاً وآخراً وظاهراً وباطنا : إن الله رأف به ، وقال الأقليشي :

---

١ - البحر المحيط ١ / ٥٦٤ .

٢ - البقرة جزء من الآية ١٤٣ .

٣ - التحر والتنوير ٢ / ٢٥ .

٤ - النور جزء من الآية ٢ .

فتأمل هذه التفرقة بين الرأفة والرحمة ولذلك جاءا معا فقال :

﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1]

ويفرق الرازي بين اسم الرءوف واسم الرحيم بقوله : (واعلم أنّه تعالى قدم الرؤوف على الرحيم والرأفة على الرحمة في آيات ، وأينما ذكر الله تعالى هذين الوصفين فإنه يقدم الرؤوف على الرحيم ، وهذا يقتضي وقوع الفرق بينهما ، فلابد من بيان الفرق بين الوصفين ثم بيان سبب التقديم .

أمّا الفرق فهو أنّ الرحيم في الشاهد إنّما يحصل لمعنى في المرحوم من فاقه وضعف وحاجه ، والرأفة تطلق عندما تحصل الرحمة ، والمعنى في الفاعل من شفقة منه على المرحوم ، إذا عرفت هذا فنقول : منشأ الرأفة كمال حال الفاعل في إيصال الإحسان ، ومنشأ الرحمة كمال المرحوم في الاحتياج للإحسان ، وتأثير حال الفاعل في إيجاد الفعل أقوى من احتياج المفعول إليه ، فلهذا المعنى قدم ذكر الرأفة على ذكر الرحمة[2]) .

ومن شواهد هذا المطلب من غير صفات الباري سبحانه قوله تعالى : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾[3] .

قوله «وإسماعيل» عطف على «إبراهيم» (وفي تأخيره عن المفعول المتأخر عنه رتبة إشارة إلى أن مدخليته في رفع البناء والعمل دون مدخلية إبراهيم عليه السلام وقد ورد أنّه كان يناوله الحجارة)[4] .

---

١ - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى ١ / ١٧٣ .

٢ - موسوعة له الأسماء الحسنى ١ / ٣٩٨ .

٣ - البقرة جزء من الآية ١٢٧ .

٤ - روح المعاني ١ / ٣٨٢ .

المطلب الثاني : المضـــاف :

قـــال تعــالى : ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[1]

أي وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف ، أي بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار بحسب قدرته في يساره ، وتوسطه وإقتاره كما قـال تعـالى : ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا﴾[2] قال الضحاك : إذا طلق الرجل امرأته وهي ترضع له ولدا ، فتراضيا على أن ترضع حولين كاملين ، فعلى الوالد رزق المرضع والكسوة بالمعروف ، على قدر الميسرة[3] .

قال الزمخشري : (فإن قلت لم قيل «المولود له» دون الوالد؟ قلت : ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهم ،لأنّ الأولاد للاباء ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات ، وأنشد للمأمون بن الرشيد[4] :

فإنّما أمهاتُ الناسِ أوعيةٌ ... مُسْتَوْدَعَاتٌ وَلِلآبَاءِ أَبْنَاءُ)[5]

ولطيفة أخرى في قوله ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ﴾ (وهو أنّه لما كلف بمؤن المرضعة

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٣٣ .

٢ - الطلاق جزء من الآية ٧ .

٣ - انظر جامع البيان ٢ / ٤٩٥ - ٤٩٦ .

٤ - قاله المأمون حين كتب إليه أخوه الأمين يوبخه على الخلافة بغير استحقاق وفي آخره : ابن الأمة ما الأمة ، فأجابه بذلك وأزرى به إذ أوقع به العيب ورماه به وقبل هذا البيت :

لا تزرين بفتى من أن يكون له ... أم من الروم أو سوداء عجماء

انظر حاشية الكشاف ١ / ٢٧٦ ، ولم اعثر لهما على مصدر .

٥ - الكشاف ١ / ٢٧٥ - ٢٧٦ .

لولده من الرزق والكسوة ناسب أن يسلى بأنّ ذلك الولد هو وُلِدَ لك لا لأمه ، وأنّك الذي تنتفع به في التناصر وتكثير العشيرة ، وأنّ عليه الطواعية كما كان عليك لأجله كلفة الرزق والكسوة لمرضعته)[١] .

وقوله : ﴿ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ ﴾

(الرزق في هذا الحكم الطعام الكافي ، وفي هذا دليل على وجوب نفقة الولد على الوالد لضعفه وعجزه ، وسماه الله سبحانه للأم ، لأن الغذاء يصل إليه بواسطتها في الرضاع كما قال تعالى : ﴿وَإِن كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ﴾[٢] لأنّ الغذاء لا يصل إلا بسببها)[٣] .

و(جاء الرزق مقدما على الكسوة لأنه الأهم في بقاء الحياة والمتكرر في كل يوم)[٤] .

١ - البحر المحيط ٢ / ٢٢٤ .

٢ - الطلاق جزء من الآية ٦ .

٣ - الجامع لأحكام القرآن ٣ / ١٠٨ .

٤ - البحر المحيط ٢ / ٢٢٦ .

- النوع الثاني : المفرد المنصوب .

المطلب الأول : الضمير :

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[1]

قوله سبحانه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾

(قال علقمة : إنّ كل شيء نزل فيه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ فهي مكي و ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فهو مدني)[2] .

قال القرطبي (وهذا يرده أنّ هذه السورة والنساء مدنيتان وفيهما يا أيها الناس، وأما قوله في ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ فصحيح)[3] .

(واختلف من المراد بالناس هنا على قولين : أحدهما : الكفار الذين لم يعبدوه يدل عليه قوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ ﴾[4] .

الثاني : أنّه عام في جميع الناس ، فيكون خطابه للمؤمنين باستدامة العبادة ، وللكافرين بابتدائها ، وهذا حسن)[5] .

قوله سبحانه : ﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ﴾

(معناه وحدوه وخصوه بالعبادة ، وذكر تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته ، إذ كانت العرب مقرة بأنّ الله خلقها فذكر ذلك حجة عليهم)[6] .

---

١ - البقرة الآية ٢١ .   ٢ - الكشاف ١ / ٩٥ .

٣ - الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٥٧ .

٤ - البقرة جزء من الآية ٢٣ ، ودلالتها أن هذه الآية أتت في سياق تحدي المشركين فالخطاب لهم .

٥ - الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٥٧ .

٦ - المحرر الوجيز ١ / ١٠٥ .

قوله سبحانه : ﴿ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم ﴾

(معطوف على الضمير المنصوب في «خلقكم» والمعطوف متقدم في الزمان على المعطوف عليه ، وبدأ به وإن كان متأخراً في الزمان ، لأنّ علم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره ، إذ أقرب الأشياء إليه نفسه ، ولأنهم المواجهون بالأمر بالعبادة ، فتنبيههم أولاً على أحوال أنفسهم آكد وأهم)[1] .

---

١ - البحر المحيط ١ / ٢٣٣ .

المطلب الثاني : المحلى بأل :

قال تعالى: ﴿وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾[1]

سبب نزول الآية :

(عن ابن عباس رضي الله عنه قال : لما نزلت ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] و ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[3] انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل الشيء من طعامه ، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل ﴿وَيَسأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم ، وشرابهم بشرابهم)[4] .

قوله سبحانه : ﴿قُلْ إِصْلاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾

(أي مداخلتهم على وجه الإصلاح لهم ولأموالهم خير من مجانبتهم)[5] و﴿إِصْلاحٌ لَّهُمْ﴾ مبتدأ ووصفه ، ووصف الإصلاح بـ«لهم» دون الإضافة إذ لم يقل إصلاحهم لئلا يتوهم قصره على إصلاح ذواتهم .... وإنّما المقصود هنا جميع

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٢٠ .

٢ - الإسراء جزء من الآية ٣٤ .

٣ - النساء الآية ١٠ .

٤ - جامع البيان ٢ / ٣٧٠ .

٥ - الكشاف ١ / ٢٦٠ .

الإصلاح لا خصوص إصلاح ذواتهم ، فيشمل إصلاح ذواتهم وهو في الدرجة الأولى ويتضمن ذلك إصلاح عقائدهم وأخلاقهم بالتعليم الصحيح والآداب الإسلامية ، ويتضمن إصلاح أمزجتهم بالمحافظة عليهم من المهلكات وبمداواتهم ، ودفع الأضرار عنهم بكفاية مؤنهم من الطعام واللباس والمسكن بحسب معتاد أمثالهم دون تقتير ولا سرف ، ويشمل إصلاح أموالهم بتنميتها وتعهدها وحفظها ، ولقد أبدع هذا التعبير ، فإنه لو قيل إصلاحهم لتوهم قصره على ذواتهم ، فيحتاج في دلالة الآية على إصلاح الأموال إلى القياس ولو قيل : قل تدبيرهم خير لتبادر إلى تدبير المال فاحتج في دلالتها على إصلاح ذواتهم إلى فحوى الخطاب)[1] .

قوله سبحانه : ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾

(التفات من غيبة إلى خطاب ، لأن قبله «ويسألونك» فالواو ضمير للغائب وحكمة هذا الالتفات ما في الإقبال بالخطاب على المخاطب ، ليتهيأ لسماع ما يلقى إليه وقبوله والتحرز فيه ، فالواو ضمير الكفلاء ، وهم ضمير اليتامى والمعنى : أنّهم إخوانكم في الدين فينبغي أن تنظروا لهم كما تنظرون لإخوانكم من النسب ، من الشفقة والتلطف والإصلاح لذواتهم وأموالهم)[2] .

والمخالطة مفاعلة من الخلط وهو الامتزاج ، وتشمل هذه المخالطة المطعم والمشرب، والمال بتنميته ، والعشرة بالمصاهرة[3] .

---

١ - التحرير والتنوير ٢ / ٣٥٦ .
٢ - البحر المحيط ٢ / ١٧١ .
٣ - انظر المصدر نفسه ٢ / ١٧١ .

وقوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾

(أي لا يخفى على الله من داخلهم بافساد وإصلاح فيجازيه على حسب مداخلته، فاحذروه ولا تتحروا غير الإصلاح)[1] .

وفي تقديم المفسد مزيد تهديد وتأكيد للوعيد ، وفيه اهتمام بإدخال الروع عليه[2] لأنّ النفس تضعف أمام بهرج المال وزينته ، وشهوة الطمع تملي على صاحبها شبهًا يستحل به أكل مال اليتيم ، ولا عاصم من ذلك إلا مراقبة من يعلم السر وأخفى .

---

١ - الكشاف ١ / ٢٦٠ .

٢ - انظر تفسير أبي السعود ١ / ٣٤٣ ، وروح المعاني ١ / ٥١١ .

المطلب الثالث : المضـاف :

قـال تعـالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ....﴾[1]

قـوله سـبحـانه : ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾

نلحظ في ألفاظ الآية تقديم الأحق بالصدقة «ذوي القربى» فالفقير القريب أولى بالصدقة من غيره ، للجمع فيها بين الصلة والصدقة ، فعن سلمان بن عامر الضبي ذكـر أن النبي ﷺ قال : «إن الصدقة على المسكين صدقة ، وإنّها على ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة»[2] .

وعن حكيم بن حزام أن رجلا سأل النبي ﷺ عن الصدقات أيّها أفضل ؟ قال : «على ذي الرحم الكاشح»[3] .

---

١ - البقرة جزء من الآية ١٧٧ . وسبق الحديث عنها في موضعين : ا - انظر فصل تقديم المسند صـ١٨١-١٨٥ .
٢ - انظر فصل تقديم المتعلقات صـ ٣٤٣-٣٤٥ .

٢ - أخرجه الترمذي في كتاب الزكاة ، باب ما جاء في الصدقة على ذي القرابة برقم ٦٥٨ ، وابن ماجه في كتاب الزكـاة ، باب فضـل الصـدقة برقم ١٨٤٤ ، والنسـائي في كتاب الزكاة ، باب الصدقة على الأقارب برقم ٢٣٦٣ ، وأحمد في مسنده برقم ١٦٢٣٣ ، ٤ / ٢٣ ، والدارمي في كتاب الزكاة ، باب الصدقة على القرابة برقم ١٦٨١ .

٣ - أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم ١٥٣٢٦ ، ج٣ / ٤٩٢ ، والدارمي في كتاب الزكاة ، باب الصدقة على القرابة برقم ١٦٧٩ .

(ولأنّ القرابة من أوكد الوجوه في صرف المال إليها ، ولذلك يستحق بها الإرث فلذلك قدّم ثم أتبع اليتامى* لأنّه منقطع الحيلة من كل الوجوه لصغره ، ثم أتبع بالمساكين لأنّ الحاجة قد تشتد بهم ، ثم بابن السبيل لأنّه قد تشتد حاجته في الرجوع إلى أهله ، ثم بالسائلين وفي الرقاب لأنّ حاجتهما دون حاجة من تقدم ذكره .

قال الراغب : اختير هذا الترتيب لما كان أولى من يتفقد الإنسان لمعروفه أقاربه فكان تقديمه أولى ، ثم عقبه باليتامى ، والناس في المكاسب ثلاثة معيل غير معول ، ومعول غير معيل ، ومعول معيل ، واليتيم معول غير معيل ، فمواساته بعد الأقارب أولى ، ثم ذكر المساكين الذين لا مال لهم حاضراً ولا غائبا ، ثم ذكر ابن السبيل الذي يكون له مال غائب ثم ذكر السائلين الذين منهم صادق وكاذب ، ثم ذكر الرقاب الذين لهم أرباب يعولونهم ، فكل واحد ممن أخر ذكره أقل فقراً ممن قدم ذكره عليه)[1] .

---

* المقصود بالحديث هنا هو تقديم المضاف إليه «ذوي القربى» ودخل فيه الحديث عن تقديم المفرد المحلى بأل كاليتامى والمساكين على غيره لانتظام ألفاظ الآية وكراهية الباحث تجزيئتها .

١ - البحر المحيط ٢ / ٨ .

- النوع الثالث : المفرد المجرور .

المطلب الأول : العلـم :

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ (١)

سبب النزول :

(قال ابن عباس : إنّ حبرا من أحبار اليهود من «فدك» يقال له : عبدالله ابن صوريا ، حاج رسول الله ﷺ ، فسأله عن أشياء ، فلما اتجهت الحجة عليه قال : أي ملك يأتيك من السماء ؟ قال جبريل ولم يبعث الله نبيا إلاّ هو وليه ، قال ذاك عدونا من الملائكة ، ولو كان ميكائيل مكانه لآمنا بك ، إن جبريل ينزل بالعذاب والقتال والشدة وإنّه عادانا مراراً كثيرة ... فلهذا نتخذه عدوا فأنزل الله هذه الآية) (٢) .

وهذه الآية تقدم العلم في موضعين منها :

الأول : تقدم لفظ الجلالة على الملائكة والرسل .

الثاني : تقدم جبريل عليه السلام على ميكائيل عليه السلام .

وسنأتي على سبب التقديم فيهما من خلال تحليل الآية .

قوله سبحانه : ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾

العداوة من العبد هي صدور المعاصي منه لله والبغض لأوليائه ، والعداوة من الله للعبد هي مجازاته على مخالفته(٣) .

«وملائكته ورسله» (أكد بقوله وملائكته أمر جبريل ، إذ اليهود قد أخبرت أنّه

---

١ - البقرة جزء من الآية ٩٨ .
٢ - أسباب النزول للواحدي صـ ٢٨ .
٣ - انظر البحر المحيط ١ / ٤٨٩ - ٤٩٠ ، وفتح القدير ١ / ١١٧ .

عـدوهم من الملائكة ، لكونه يأتي بالهلاك والعذاب ، فـرد عليهم في الآية السـابقة بأنّه أتى بأصل الخيور كلها ، وهو القرآن الجامع لتلك الصفات الشريفة من موافقته لكتـبهم وكونه هدى وبشرى ، فكانت تجب محبتـه ، وردّ عليهم في هذه الآية بأنّه قرنه باسمه تعالى مندرجا تحت عموم ملائكته ثم ثانيا تحت عموم رسله ، لأنّ الرسل تشـمل الملائكة وغيـرهم ممن أرسل من بني آدم ، ثم ثالثـا بالتنصـيص على ذكـره مجرداً مع من يدعون أنّهم يحبونه وهو ميكال ، فـصار مذكوراً في هذه الآية ثلاث مرار ، كل ذلك رد على اليهود وذم لهم وتنويه بجبريل)[1] .

وقد جاء الترتيب في قوله ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ﴾ في غاية الحسن (فـابتدئ بذكر الله ، ثم بذكر الوسائط التي بينه وبين الرسل ، ثم بذكـر الوسـائط التي بين الملائكة وبين المرسل إليهم ، فهـذا ترتيب بحسب الوحي ، ولا يدل تقـديم الملائكة في الذكر على تفضيلهم على رسل بني آدم[2] ، لأن التـرتيب الذي ذكـرناه هو ترتيب بالنسبة إلى الوسائط لا بالنسبة إلى التفضيل)[3] .

---

١ - البحر المحيط ١ / ٤٩٠ .

٢ - بسط البحث في هذه المسألة شيخ الإسلام ابن تيمية في فتاواه وانتهى فيه إلى أنّ صالحي البشر أفضل باعتبار كمال النهاية ، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة ونالوا الزلفى وسكنوا الدرجات العلا ، وحياهم الرحمن وتجلى لهم وقامت الملائكة في خدمتهم بإذن ربهم ، والملائكة أفضل باعتبار البداية فإن الملائكة الآن في الرفيق الأعلى متزهون عما يلابسه بنو آدم مستغرقون في عبادة الرب ولا ريب أن هذه الأحوال أكمل من أحوال البشر . قال ابن القيّم . وبهذا التفصيل يتبين سر التفضيل وتتفق أدله الفريقين ويصالح كل منهم على حقه ، انظر الفتاوى ج ٤ / ٣٥٠ - ٣٩٢ ، ج ١١ / ٩٤ - ٩٦ ، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ، ج ٢ / ٣٩٨ - ٤١٨ ، وعالم الملائكة الأبرار للدكتور عمر سليمان الأشقر (الكويت : مكتبة الفلاح ، ط / ٣ ، ١٤٠٣هـ) صـ ٨٣ - ٨٩ .

٣ - البحر المحيط ١ / ٤٩٠ .

(وقال الكرماني : قدم الملائكة على الرسل كما قدم الله على الجميع لأنّ عداوة الرسل بسبب نزول الكتب ، ونزولها بتنزيل الملائكة وتنزيلهم لها بأمر الله ، فذكر الله ومن بعده على هذا الترتيب)[1] .

ويلحظ أنّ أبا حيان نظر للتقديم من زاوية التسلسل في ايصال الوحي من الخالق إلى المخلوق ، والكرماني نظر إليه من زاوية ترقي العدواة والسبب فيها من المخلوق إلى الخالق ، وكلاهما مما يحتمله النص القرآني .

وقوله : ﴿وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ﴾

(أفردهما بالذكر لفضلهما كأنهما من جنس آخر ، وهو مما ذكر أنّ التغاير في الوصف ينزل منزلة التغاير في الذات)[2] .

(وقيل : خصا بالذكر ، لأنّ اليهود ذكروهما ونزلت الآية بسببهما ، فلو لم يذكرا لكان لليهود تعلق بأن يقولوا لم نعاد الله ، ولا جميع ملائكته ، وقيل خصا بالذكر دفعا لإشكال أنّ الموجب للكفر عداوة جميع الملائكة لا واحد منهم فكأنّه قيل : أو واحد منهم)[3] .

وقدم جبريل عليه السلام على ميكال لأفضليته وهو المشهور[4] ولم يرد دليل من آية أو حديث صحيح[5] ينص على هذه الأفضلية ، وإنما هي دلائل يستأنس بها ومنها :

أولاً : احتفاء المولى سبحانه به وتقديمه في القرآن .

ثانياً : عطفه على ضمير الجلالة وذكره باسمه الصريح من بين الملائكة ، ومن ثم

---

١ - فتح البيان ١ / ٢٣١ .
٢ - الكشاف ١ / ١٧٠ .
٣ - البحر المحيط ١ / ٤٩٠ .
٤ - انظر روح المعاني ١ / ٣٣٣ .
٥ - ورد حديث عند الطبراني لكن بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ «ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبرائيل» . انظر المعجم الكبير للطبراني ، في ترجمة عطاء عن ابن عباس برقم ١١٣٦١ ، قال عنه الألباني : موضوع . انظر سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة لمحمد ناصر الألباني (الرياض : مكتبة المعارف ، ط / ١ ، ١٤١٢هـ) ١ / ٦٣٨-٦٣٩ .

عطف بصالح المؤمنين والملائكة .

قال تعالى : ﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾(١) .

ثالثا : تخصيصه بالوحي وتحميله هذه الأمانة ، ولا أعظم ولا أشرف منها ، ووصفه بالأمين .

قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾(٢) .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾(٣) .

فقوله : ﴿ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ أي له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة وقوله « مطاع ثم » أي وجاهة وهو مسموع القول مطاع في الملأ الأعلى وقوله « أمين » صفة لجبريل بالأمانة ، وهذا عظيم جداً أنّ الرب عز وجل يزكي عبده ورسوله الملكي جبريل(٤) .

وهذا السبب من أقوى الأسباب التي تدعو للقول بأفضليته .

قال أبو حيان : (وقالوا جبريل أفضل من ميكال ، لأنّه قدم في الذكر ، ولأنه ينزل بالوحي والعلم وهو مادة الأرواح ، وميكال ينزل بالخصب والأمطار وهي مادة الأبدان وغذاء الأرواح أشرف من غذاء الأشباح)(٥) .

---

١ - التحريم جزء من الآية ٤ .
٢ - الشعراء الآيات ١٩٢ - ١٩٥ .
٣ - التكوير الآيات ١٩ - ٢١ .
٤ - انظر تفسير ابن كثير ٤ / ٧٥٤ .
٥ - البحر المحيط ١ / ٤٩٠ .

المطلب الثاني : المحلــى بــأل :

يكثـر المحلى بأل المجرور في سورة البقـرة ، وكثرته أتاحت للباحث مواضع[1] عدة تقدم فيها المحلى بأل المجرور على محلى مثله، أو على مضاف، أو على نكرة، أو غيرها ، وأعرض مواضع أبين عن سر التقديم فيها وتعليق العلماء عليها وهو المستعان سبحانه .

قال تعالى: ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾[2]

قال السهيلي : (ومن فوائد هذه الآية أن يسأل عن قوله ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾ لم قدم الشهر الحرام ؟ ولم يقل يسألونك عن قتال الشهر الحرام ، وهم لم يسألوا عن الشهر إلا من أجل القتال فيه ، فكان الاهتمام بالقتال والتقديم له أولى في الظاهر ، والجواب أن يقال : إنّ هذا السؤال لم يقع إلا بعد وقوع القتال في الشهر ، وتشنيع الكفرة عليهم انتهاك حرمة الشهر ، فاغتمامهم واهتمامهم بالسؤال إنّما وقع من أجل حرمة الشهر ، فلذلك قدِّم في الذكر ، وفيها سؤال آخر وهو أنّه أعاد ذكر القتال بلفظ الظاهر ، وكان القياس أن يعيد بلفظ المضمر فيقول : قل هو كبير ، كما لو سئل إنسان عن رجل في الدار لقال : «هو فلان» أو «هو طويل أو قصير» بلفظ المضمر ، ويقبح أن يقوله بلفظ الظاهر ، لأنّ المضمر إذا عرف المعنى أوجز وأولى .

والجواب أن يقال في إعادة لفظ الظاهر هنا فائدة ، وهي عموم الحكم ، ولو جاء بلفظ المضمر فيقول «هو كبير» لاختص الحكم بذلك القتال الواقع في القصة وليس

---

١ – ومنها الآيات : ٤٥، ٨٣، ١٥٣، ١٥٥، ١٦٤، ١٧٧، ١٨٠، ٢١٧، ٢٤٧، ٢٧٤، ٢٦٨ .

٢ – البقرة جزء من الآية ٢١٧ .

الأمر كـذلـك ، وإنّمـا هو عـام في كل قتـال وقع في شـهر حرام ، ونظيـر هذه المسـألة قـولـه ﷺ وقد قيـل له : أنتوضـأ بماء البحر فقال : «هو الطهور ماؤه»[1] ولـم يـقـل نعم توضـئوا منه ، لئلا يتـوهم أنّ الحكم مـخصـوص بالسـائل ، فلمـا أخبـر عنه أنّه الطهور ماؤه استمر الحكم فيه على العموم ولم يتوهم قصره على السبب)[2] .

فالتقديم إذا للاهتمام بالشهر الحرام ، والسؤال لأجل الشهر أيقع فيه قتال ؟ لا لأجل القتال هل يقع في الشهر ؟ لأنّه وقع وانتهى .

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾[3]

قوله سبحانه : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾

حيث جاء الترتيب اعتناء بالأوكد في البر والإحسان ، فقدم الوالدين ولا يخفى تقدمهما على أحد في الإحسان ، ثم بذي القربى لورود النصوص بالحث على صلة الرحم وتأكيد ذلك ، ولمشاركة الوالدين في القرابة وكونهما منشأ لهما ، روى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «إنّ الرحم شِجْنة[4] من الرحمن فقال الله من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته»[5] .

١ - أخرجه الترمذي في كتاب الطهارة ، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور برقم ٦٩ .

٢ - نتائج الفكر صـ ٣١٢ - ٣١٣ .

٣ - البقرة جزء من الآية ٨٣ .

٤ - قوله «الرحم شِجْنة» بكسر المعجمة وسكون الجيم بعدها نون ، وجاء بضم أوله وفتحه رواية ولغة ، وأصل الشجنة عروق الشجر المشتبكة ، والشجن بالتحريك واحد الشّجون وهي طرق الأودية ومنه قولهم «الحديث ذو شجون أي يدخل بعضه في بعض ، وقوله «من الرحمن» أي أخذ اسمها من هذا الاسم . انظر فتح الباري ١٠ / ٥١٢ .

٥ - رواه البخاري في كتاب الآداب ، باب من وصل وصله الله برقم ٥٩٨٨ .

وروى أيضا عن أبي هريرة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقـول : «من سـره أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه»[1] .

ثم باليتامى لأنّهم لا قدرة لهم على الإكتساب وقد ورد «أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرج بينهما شيئاً»[2] ثم بالمساكين وتأخرت درجة المساكين لأنّه يمكنه أن يتعهد نفسه بالاستخدام ويصلح معيشته بخلاف اليتامى فإنهم لصغرهم لا ينتفع بهم وهم محتاجون إلى من ينفعهم[3] .

ومن المواضع التي قُدِّم فيها الوالدان في هذه السورة قوله سبحانه : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾[4]

فقوله : ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ (خصهما بالذكر لأنهما مظنة النسيان من الموصى ، لأنّهم كانوا يورثون الأولاد ، أو يوصون لسادة القبيلة ، وقدم الوالدين على أنّهما أرجح في التبدية بالوصية ، وكانوا قد يوصون بإيثار بعض أولادهم على بعض أو يوصون بكيفية توزيع أموالهم على أولادهم)[5] .

---

١ – رواه البخاري في كتاب الآداب ، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم برقم ٥٩٨٦ .

٢ – رواه البخاري في كتاب الآداب ، باب فضل من يعول يتيما برقم ٦٠٠٥ .

٣ – انظر البحر المحيط ١ / ٤٥٢ – ٤٥٣ .

٤ – البقرة الآية ١٨٠ .

٥ – التحرير والتنوير ٢ / ١٤٨ .

وقـال تعـالى : ﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾[1]

قوله سبحانه : ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾

أي العلم المتعلق بالملك والسياسة وتدبير الحرب «والجسم» قيل بطول القامة فإنّه كان أطول من غيره برأسه ومنكبيه حتى أنّ الرجل القائم كان يمد يده فينال رأسه ، وقيل بالجمال وقيل بالقوة[2] .

(وفي تقديم البسطة في العلم على البسطة في الجسم إيماء إلى أنّ الفضائل النفسانية أعلى وأشرف من الفضائل الجسمانية ، بل يكاد لا يكون بينهما نسبة لاسيما ضخامة الجسم ولهذا حمل بعضهم البسطة فيه هنا على الجمال أو القوة ، لا على المقدار كطول القامة)[3] .

قال المتنبي :

الـرَأيُ قَبْـلَ شَـجَاعَةِ الشُـجْعَانِ

هُــوَ أوَّلٌ وَهِــي الْمَحَـلُّ الثَّــانِي

---

١ – البقرة جزء من الآية ٢٤٧ .

٢ – انظر تفسير أبي السعود ١ / ٣٧٢ .

٣ – روح المعاني ١ / ٨٥٨ .

٤ – مطلع قصيدة يمدح بها سيف الدولة ، انظر ديوان المتنبي ص ٤١٤ .

المطلب الثالث : المضـــاف :

قـال تعـالى : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1]

قوله سبحانه : ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾

أصل الختم الطبع ومنه ختمت الكتاب إذا طبعته[2] . أي طبع عليـهـا بطابع فلايدخلها الإيمان ولا ينفذ فيها ، فلا يعون ما ينفعهم ولا يسمعون ما يفيدهم (قال مجاهد : نبئت أنّ الذنوب على القلب تحف به من نواحيه حتى تلتقي عليه ، فالتقاؤها عليه الطبع ، والطبع الختم ... وقال بعضهم : إنّما معنى قوله ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ إخبار من الله جل ثناؤه عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا إليه من الحق ، كما يقال إنّ فلانا لأصم عن هذا الكلام ، إذا امتنع من سماعه ورفع نفسه عن تفهمه تكبرا)[3] .

قـال ابن جرير : وهذا لا يصح لأنّ الله تعالى قد أخبر أنّه هو الذي ختم على قلوبهم وأسماعهم[4] .

قال ابن كثير :(وقد أطنب الزمخشري في تقدير ماردّه ابن جرير، وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدا وما جرأه على ذلك إلا اعتزاله، لأنّ الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق إليها قبيح عنده يتعالى الله عنه في اعتقاده ، ولو فـهم قوله تعالى : ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾[5] وقـولـه : ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[6] وما أشبه ذلك

---

١ - البقرة الآية ٧ .

٢ - انظر جامع البيان ١ / ١١٢ .

٣ - المصدر نفسه ١ / ١١٢ .

٤ - المصدر نفسه ١ / ١١٢ - ١١٣ .

٥ - الصف جزء من الآية ٥ .

٦ - الأنعام الآية ١١٠ .

من الآيات الدالة على أنّه تعالى إنّما ختم على قلوبهم ، وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم في الباطل وتركهم الحق ، وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح ، فلو أحاط علما بهذا لما قال ما قال)[1] .

قال القرطبي : (والأمة مجمعة على أنّ الله تعالى قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم كما قال سبحانه : ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[2])[3]

(وكرر حرف الجر بقوله ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ دلالة على أنّ الختم ختمان ، أو على التوكيد إن كان الختم واحداً ، فيكون أدل على شدة الختم)[4] .

وقوله : ﴿وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾

(أي غشاء وغطاء وأكنّة تمنعها عن النظر الذي ينفعهم ، وهذه طرق العلم والخير قد سُدت عليهم ، فلا مطمع فيهم ولا خير يرجى عندهم)[5] وعبر عن السمع بالختم (لأن السمع كالقلب يدرك ما يدركه من جميع الجهات ، فناسب أن يقرن معه بالختم الذي يمنع من جميعها ، وإن اختص وقوعه بجانب إلا أنّه لا يتعين ، ولما كان إدراك البصر لا يكون عادة إلا بالمحاذاة والمقابلة جعل المانع ما يمنع منها وهو الغشاوة ، لأنّه في الغالب كذلك كغاشية السرج)[6] .

ونكر «غشاوة» للإشارة إلى أنّ المراد نوع مخالف للأنواع المفهومة ، أي نوع غريب من الغشاوة لا يتعارفه الناس بحيث يغطي مالا يغطيه شيء من الغشاوات ،

---

١ - تفسير ابن كثير ١ / ٧٢ .

٢ - النساء جزء من الآية ١٥٥ .

٣ - الجامع لأحكام القرآن ١ / ١٣١ .

٤ - البحر المحيط ١ / ١٧٦ .

٥ - تيسير الكريم الرحمن ١ / ٤٦ .

٦ - روح المعاني ١ / ١٣٨ .

وهو غطاء التعامي عن آيات الله تعالى ، يقول ابن يعقوب ، وإنما قلنا التعامي للإشارة إلى أنّهم يعرفون حقيقة الآيات ، ويظهرون خلاف ذلك ، فالحاصل منهم التعامي لا العمى الذي هو عدم ظهور الآيات لهم أصلاً[١] .

وقيل إن التنوين للتعظيم أي وعلى أبصارهم غشاوة عظيمة[٢] (وقدم سبحانه الختم على القلوب هنا لأنّ الآية تقرير لعدم الإيمان فناسب تقديم القلوب ، لأنّها محل الإيمان والسمع والأبصار طرق وآلات له ، وهذا بخلاف قوله تعالى «وختم الله على سمعه وقلبه» فإنّه مسوق لعدم المبالاة بالمواعظ ولذا جاءت الفاصلة «أفلا تذكرون» فكان المناسب هنا تقديم السمع)[٣] .

وقيل قدم لأنه أشرف[٤] منها وبحياته تحيا ، وبموته تموت كما ورد في حديث النعمان «في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله وهي القلب»[٥] وتقديم السمع للاشتراك بينه وبين القلوب في الختم (أو لأنّ جنايتهم من حيث السمع الذي به تتلقى الأحكام الشرعية ، وبه يتحقق الإنذار أعظم منها من حيث البصر الذي به تشاهد الأحوال الدالة على التوحيد ، فبيانها أحق بالتقديم)[٦] .

---

١ - انظر شروح التلخيص (مواهب الفتاح ، عروس الأفراح) ١ / ٣٤٨ .

٢ - انظر روح المعاني ١ / ١٣٩ .

٣ - المصدر نفسه ١ / ١٣٧ .

٤ - البحر المحيط ١ / ١٧٧ .

٥ - رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب فضل من استبرأ لدينه برقم ٥٢ ، ومسلم في كتاب البيوع ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات برقم ١٥٩٩ .

٦ - تفسير أبي السعود ١ / ٦٧ .

القسم الثاني

المفـــرد النكـــــرة

- النوع الأول : المرفـــــوع .

المطلـب الأول : المفرد النكرة مبتدأ .

المطلب الثاني : المفرد النكرة فاعـل .

- النوع الثاني : المنصـــوب .

المطلـب الأول : المفرد النكرة مفعول به ثاني .

المطلب الثاني : المفـــرد النكـــرة حـــال .

- النوع الأول : المرفوع .

المطلب الأول : المفرد النكرة مبتدأ :

قال تعالى : ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾[1]

الطلاق في الجاهلية وأول الإسلام هو أن يطلق الرجل زوجته بلا نهاية ، فكان إذا أراد مضارتها طلقها ، فإذا شارفت انقضاء عدتها راجعها ، ثم طلقها وصنع بها مثل ذلك أبداً وفيه ما فيه من الضرر والضرار ، فلما كان كذلك قصر اللّه الطلاق على ثلاث طلقات ، وأباح الرجعة في المرة الأولى والثانية وأبانه بالكلية في الثالثة[2] .

روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان الناس ، والرجل يطلق امرأته ما شاء أن يطلقها ، وهي امرأته إذا ارتجعها وهي في العدة ، وإن طلقها مائة مرة أو أكثر ، حتى قال رجل لامرأته والله لا أطلقك فتبيني مني ولا آويك أبدا ، قالت : وكيف ذاك ؟ قال : أطلقك ، فكلما همّت عدتك أن تنقضي راجعتك ، فذهبت المرأة حتى دخلت على عائشة فأخبرتها ، فسكتت عائشة حتى جاء النبي ﷺ فأخبرته ، فسكت النبي ﷺ حتى نزل القرآن : ﴿ الطَّلاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾[3] .

وقوله : ﴿ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ ﴾

(أى إذا طلقها واحدة أو اثنتين ، فأنت مخير فيها مادامت عدتها باقية بين أن

١ - البقرة جزء من الآية ٢٢٩ .

٢ - انظر تفسير ابن كثير ١ / ٤٠٧ .

٣ - رواه الترمذي في كتاب الطلاق في باب .... وذكر هذا الحديث برقم ١١٩٢ .

تردها إليك ناويا الإصلاح بها والإحسان إليها ، وبين أن تتركها حتى تنقضي عدتها فتبين منك وتطلق سراحها محسنا إليها ، لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضار بها)[١] .

(وفي تقديم الإمساك على التسريح إيماء إلى أنه الأهم المرغب فيه في نظر الشرع)[٢] . لأنّه يحرص على التحام الأسر وتماسكها ، ولما للتفكك من عواقب على الزوج والأولاد ، ففي هذه الحالة التي يعيشها الزوج مع زوجته وقد سبق له طلقتان لم تصدر منه في الغالب إلا وقد سئم هذه الحياة وملّ هذه العشرة .. مع ذلك كله «فإمساك بمعروف» والتعبير فإمساك نلحظ فيه عمقا في الدلالة ، دلالة تتعدى مرحلة الإبقاء إذ هو بقاء مقرون بحرص عليها* ، لتبقى لها عزتها وترعى لها كرامتها وتعطى كامل حقوقها ، فهي أثمن من أن تبتذل وتهمل ، فإن لم يكن كذلك «فتسريح بإحسان» .

ومن شواهد هذا المطلب قوله سبحانه : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[٣]

قوله سبحانه : ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾

(قال ابن عباس : يعني ما ينقص من الدين عند من يشربها)[٤] .

---

١ - تفسير ابن كثير ١ / ٤٠٧ .

٢ - التحرير والتنوير ٢ / ٤٠٧ .

٣ - البقرة جزء من الآية ٢١٩ .

٤ - جامع البيان ٢ / ٣٥٩ .

* قال ابن منظور : عن اللحياني : ومَسَاك ومِساك ومَسَكه وإمساك ، كل ذلك من البخل والتمسك بما لديه ضنّا به . انظر لسان العرب مادة مسك .

قال ابن جرير : والذي هو أولى بتأويل الآية ، الأثم الكبير الذي ذكر الله جل ثناؤه أنه في الخمر والميسر ، فالخمر ما قاله السدي : (زوال عقل شارب الخمر إذا سكر من شربه إياها حتى يعزب عنه معرفة ربه ، وذلك أعظم الآثام ، وذلك معنى قول ابن عباس ، وأمّا في الميسر فما فيه من الشغل به عن ذكر الله وعن الصلاة ، ووقوع العداوة والبغضاء بين المتياسرين بسببه)[1] .

وقوله : ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾

(منافع الخمر أثمانها قبل تحريمها ، وما يصلون إليه بشربها من اللذة .

قال الأعشـــى :

لَنَا مِنْ ضُحَاهَا خُبْثُ نَفْسٍ وكَأبَةٌ
وَذِكْرَى هُمُومٍ مَا تُغَكُّ أذَاتُهَا

وَعِنْدَ العِشَاءِ طِيْبُ نَفْسٍ وَلَذَّةٌ
وَمَالٌ كَثِيْرٌ عِدَّةٌ نَشَوَاتُهَا[2]

وقال حسان :

فَنشْرَبُهَا فَتَتْركُنَا مُلُوكًا
وَأُسْدًا مَا يُنَهْنِهُنا اللِّقَاءُ[3]

---

١ - جامع البيان ٢ / ٣٥٩ .

٢ - قالها الأعشى في قصيدة يهجو بها شيبان بن شهاب الجحدري ومطلعها :

أجدَّ بِتَيَّا هَجْرُهَا وَشَتَاتَهَا — وحبَّ بها لو تستطاع طياتها

انظر ديوان ، صـ ٣١ .

٣ - قاله حسان يمدح المصطفى ﷺ ومطلعها :

عَفَت ذاتُ الأصابعِ فالجَواءُ — إلى عَـذْرَاءَ مَنْزِلُهَا خَلاءُ

انظر ديوان حسان بن ثابت صـ ٨ .

وأما منافع الميسر فما يصيبون فيه من أنصباء الجزور)[1] .

(وفي تقديم بيان إثمه ووصفه بالكبر ، وتأخير ذكر منافعه مع تخصيصها بالناس من الدلالة على غلبة الأول مالا يخفى على ما نطق به قوله تعالى ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ أي المفاسد المترتبة على تعاطيها أعظم من الفوائد المترتبة عليه)[2] .

فمهما حصلت من منافع دنيوية عاجلة من ربح مادي أو لذة متوهمة ، إلا أنها قطرة في موج خضم من الحرمان الدنيوي والأخروي ، بدءاً بالتفكك الأسري المريع وانتهاء بحرمانه من خمر الجنة ، وأعظم بها من خسارة ، روى البخاري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنّ رسول الله ﷺ قال : «من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرمها في الآخرة»[3] .

---

١ - جامع البيان ٢ / ٣٥٩ - ٣٦٠ .

٢ - تفسير أبي السعود ١ / ٣٤١ .

٣ - رواه البخاري في كتاب الأشربة ، باب قوله تعالى : «إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ...» برقم ٥٥٧٥ .

المطلب الثاني : المفرد النكرة فاعلاً :

قال تعالى : ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾[1]

(الأخذ الأصل فيه حوز المشي وتحصيله ، وذلك تارة يكون بالتناول كقولك أخذنا المال ، وتارة بالقهر كقوله تعالى : ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾)[2] .

(والمعنى لا يقهره شيء ولا يغلبه ، وفي المثل النوم سلطان)[3] (والسنة : النعاس في قول الجميع ، والنعاس ما كان من العين فإذا صار في القلب صار نوما قال عدي بن الرقاع يصف امرأة بفتور النظر :

وسنان أقصدَه النُّعاسُ فرنَّقت

في عَينه سِنَةٌ وليس بنائم[4]

وفرق المفضل بينهما فقال : السنه من الرأس ، والنعاس في العين ، والنوم في القلب)[5] .

قال ابن جرير : ﴿لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ لا يغيره ما يغير غيره ، ولا يزيله عما لم يزل عليه تنقل الأحوال ، وتصريف الليالي والأيام بل هو الدائم على حال ، والقيوم على جميع الأنام ، لو نام كان مغلوبا مقهوراً ، لأنّ النوم غالب النائم قاهره ،

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٥٥ .

٢ - بصائر ذوي التمييز ٢ / ١٠٤ .

٣ - البحر المحيط ٢ / ٢٨٨ .

٤ - قاله عدي بن الرقاع في قصيدة يمدح بها الوليد بن عبدالملك ومطلعها :

أَلْمِمْ عَلَى طَلَلٍ عَفَا مُتَقَادِمِ   بَيْنَ الذُّوَيْبِ وَبَيْنَ غَيْبِ النَّاعِمِ

انظر ديوان عدي بن الرقاع ، ت / الدكتور نوري القيسي ، والدكتور حاتم الضامن ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٧هـ ، صـ ١٢٢ .

٥ - الجامع لأحكام القرآن ٣ / ١٧٧ .

ولو وسن كانت السموات والأرض وما فيها دكا ، لأنّ قيام جميع ذلك بتدبيره وقدرته والنوم شاغل المدبر عن التدبير ، والنعاس يمانع المقدّر عن التقدير بوسنه)[1] .

وكررت لا في قوله ﴿وَلَا نَوْمٌ﴾ (لانتفاء السنة والنوم على كل حال إذ لو أسقطت (لا) لاحتمل انتفاؤهما بقيد الاجتماع ، تقول ما قام زيد وعمرو ، بل أحدهما ولا يقال : ماقام زيد ولا عمر بل أحدهما)[2] .

قال الزركشي : وتقديم السِنة على النوم ، لأنّ العادة في البشر أن تأخذ العبد السنة قبل النوم ، فجاءت العبارة على حسب هذه العادة ، ذكره السهيلي[3] وذكر معه وجها آخر ، وهو أنّها وردت في معرض التمدح والثناء ، وافتقاد السِّنة أبلغ في التنزيه فبديء بالأفضل ، لأنّه إذا استحالت عليه السنة فأحرى أن يستحيل عليه النوم)[4] .

ورد بعضهم ذلك وحجته أن من الأحياء لا تعتريه السِنة ، فإذا نام نام نوما عميقا ، وهذا على افتراض صحته ووجوده، فإنه في حكم الشاذ والشاذ لا حكم له .

---

١ - جامع البيان ٣ / ٧ .

٢ - البحر المحيط ٢ / ٢٨٨ .

٣ - ما ذكره الزركشي نسبة إلى السهيلي ليس موجوداً في آثاره ولعله مما فقد من مسائله . انظر البحث البلاغي عند السهيلي رسالة ماجستير مقدمة من / صالح الشثري لقسم البلاغة والنقد في جامعة الإمام عام ١٤١٦هـ ، مخطوط صـ ١٥٦ .

٤ - البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٨١ .

- النوع الثاني : المنصـــوب .

المطلب الأول : المفرد النكرة مفعول به ثان .

قال تعالى : ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[١]

قوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾

﴿وَاللَّهُ يَعِدُكُم﴾ (الوعد في كلام العرب : إذا أطلق فهو في الخير وإذا قيد فقد يقيد تارة بالخير وتارة بالشر ، ومنه قوله تعالى : ﴿النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[٢] ومنه هذه الآية وفيها تقييد وعد الشيطان بالفقر ، وتقييد وعد الله سبحانه بالمغفرة والفضل)[٣] .

﴿مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً﴾ (أي ستراً لذنوبكم مكافأة للبذل «وفضلا» زيادة على مقتضى ثواب البذل ، وقيل : وفضلا أن يخلف عليكم أفضل مما أنفقتم أو وثواباعليه في الآخرة)[٤] .

وقدمت «فضلا» وهي من منافع الآخرة ، لأهميتها عند المصدق بها لما يتبع هذه المغفرة من سعادة وهناء ، وقيل : المغفرة والفضل كلاهما في الآخرة ، وتقديم الأول حينئذ لتقدم التخلية على التحلية ، ولكون رفع المفاسد أولى من جلب المصالح[٥] .

(وفي تنكير مغفرة ووصفها بقوله«منه» دلالة على كمال هذه المغفرة وتعظيم شأنها والمعنى مغفرة أي مغفرة)[٦] .

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٦٨ .
٢ - الحج جزء من الآية ٧٢ .
٣ - فتح القدير ١ / ٢٨٩ .
٤ - البحر المحيط ٢ / ٣٣٣ .
٥ - انظر روح المعاني ٢ / ٤٠ .
٦ - مفاتيح الغيب ١ / ٤٠ .

ومن شواهد هذا المطلب قوله سبحانه :

﴿ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى ﴾(١)

المن ذكر النعمة على معنى التعديد لها والتقريع بها ، والأذى : السب والتشكي وهو أعم من المن ، لأن المن جزء من الأذى ، لكنه نص على المن وقدم لكثرة وقوعه من المتصدق ، فهو أوسع مجالاً من الأذى ، وتتعدد صوره ، فمن المن أن يقول قد أحسنت إليك ونعشتك وشبهه ، أو يتحدث بما أعطي فيبلغ ذلك المُعطى فيؤذيه ، ومن الأذى أن يسب المعطي أو يشتكي منه(٢) .

(وتوسيط كلمة «لا» للدلالة على شمول النفي لاتباع كل واحد منها)(٣) .

(وعن الضحاك : قوله : ﴿لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى﴾ قال : أن لا ينفق الرجل ماله خير من أن ينفقه ثم يتبعه منا وأذى)(٤) .

١ - البقرة جزء من الآية ٢٦٢ .

٢ - انظر البحر المحيط ٢ / ٣١٨ - ٣١٩ ، والمحرر الوجيز ١ / ٣٥٧ .

٣ - تفسير أبي السعود ١ / ٣٩٩ .

٤ - جامع البيان ٣ / ٦٣ .

المطلب الثاني : المفرد النكرة حالاً :

قال تعالى : ﴿ بَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾[1]

(أي أرسل النبيين مبشرين بثواب من أطاع ومنذرين بعقاب من عصى)[2] وجملتهم مائة وأربعة وعشرون ألفا ، والرسل منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر ، والمذكورون في القرآن ثمانية عشر ، وأول الرسل آدم ، وقيل نوح لحديث الشفاعة ، فإن الناس يقولون له : أنت إوّل الرسل[3] .

﴿ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ (نصب على الحال)[4] .

(وقدّم البشارة لأنها أبهج للنفس ، وأقبل لما يلقى النبي ، وفيها اطمئنان المكلف والوعد بثواب ما يفعله من الطاعة ومنه ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[5])[6] .

وفي هذا التقديم ملحظ تربوي جميل سار عليه الأنبياء والمصلحون من أتباعهم ، وهو أن الداعية عليه أن يكون هادياً ومحببا لما يدعو لا منفرا ، فيظهر محاسن المدعو ويثني عليه بما هو أهله ، لتتهيأ نفسه ثم الدخول معه في دعوة أو توجيه أو نقد بناء (أخرج النسائي في سننه عن عائشة قولها في جارتها زينب : ولم أر امرأة قطّ خيراً في الدين من زينب ، واتقى لله وأصدق حديثا ، وأوصل للرحم ،

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢١٣ .

٢ - البحر المحيط ٢ / ١٤٤ .

٣ - انظر الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٢٣ .

٤ - المصدر نفسه ٣ / ٢٣ .

٥ - مريم الآية ٩٧ .

٦ - البحر المحيط ٢ / ١٤٤

وأعظم صدقة ، وأشد ابتذالاً لنفسها في العمل الذي تتصدق به وتتقرب به إلى الله عز وجل ماعدا سَورة من حَدٍّ كانت فيها تسرع فيها الفيئة)[1] أمّا الأشخاص الذين أكل الحسد قلوبهم فلا يحوي قاموسهم اللغوي غير السب والتجريح والتشهير والحكم على النيات وإيقان الظنون فينشرون المعايب ويضخمون المثالب ويطمسون المحاسن ، فبعداً لهم وسحقا من منفرين مهوشين .

ومن شواهد هذا المطلب قوله سبحانه :

﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ﴾[2]

﴿ وَلَا تَسْأَمُوا ﴾ لا تملوا[3] .

﴿ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا ﴾ حالان من الضمير وقدم الصغير اهتماماً به وانتقالا من الأدنى إلى الأعلى[4] .

والإنسان في غناه وحاجة الغير له يقرض ولا يهتم باثبات ذلك القرض إن كان قليلا ، وربما احتاجه على قلته ، والأيام قلّب فيتذكره مع نسيان المقترض له فيقع خصام بسببه ويضيع حق ، فقدمه سبحانه على الدين الكبير تأكيداً له وحفظا للحقوق .

(ونبه بذكر الأجل على صفة الدين ومقداره لأن الأجل بعض أوصافه)[5] .

---

١ - أخرجه النسائي في كتاب عشرة النساء ، باب حب الرجل بعض نسائه أكثر من بعض ، برقم ٨٨٩٢ .
٢ - البقرة جزء من الآية ٢٨٢ .
٣ - جامع البيان ٣ / ١٢٦ .
٤ - انظر الجامع لأحكام القرآن ٣ / ٢٥٩ ، والبحر المحيط ٢ / ٣٦٣ .
٥ - البحر المحيط ٢ / ٣٦٣

المبحث الثاني

تقديم الجمل

- القسم الأول : تقديم الجملة الاسمية .

المطلب الأول : تقديم الجملة المطلقة .

المطلب الثاني : تقديم الجملة المقيدة .

- القسم الثاني : تقديم الجملة الفعلية .

- القسم الأول : تقديم الجملة الاسمية .

يستخدم مصطلح «الجملة الاسمية» في التراث النحوي للإشارة إلى أنواع متعددة من الجملة العربية ، تجتمع معا في أنّه يتصدرها الاسم مع وقوعه ركنا اسناديا فيها ، ومقتضى هذا التصورالذي يشيع بين النحاة أنّه لا عبرة في التصدر بالعناصر غير الإسنادية التي لا تقع ركنا من أركان الجملة ، سواء أكانت أسماء أم أفعالا أم حروفا ، فلا مانع من إطلاقنا وصف الاسمية على جملة تقدمها «إن» أو «كان» أو غيرها من النواسخ كقوله سبحانه : ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1] .

ومن ناحية أخرى يمكن أن يتقدم الاسم في الجملة دون أن تعد اسمية عند النحاة، وذلك إذا لم يقع الاسم طرفا إسناديا فيها ، فالجمل في نحو قول الله تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ﴾[2] وقوله سبحانه : ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾[3] ليست اسمية مع تصدر الأسماء فيها ، إذ التصدر هنا ظاهري لا يعتد به ، فإن التصدر الحقيقي مشروط بوقوع المتصدر طرفا إسناديا في الجملة[4] .

وتتكون الجملة الاسمية من طرفين أساسين هما المسند إليه ، والمسند وقد لاحظ النحاة أن من أهم سمات الجملة الاسمية صلاحيتها للنسخ ومن ثم قسموها إلى

---

١ - البقرة جزء من الآية ٣٨ .

٢ - القمر جزء من الآية ٧ .

٣ - الانشقاق الآية ١ .

٤ - انظر المدخل إلى دراسة النحو العربي ، للدكتور / على أبو المكارم (مصر : دار الوفاء للطباعة ، ط / ١ ، ١٤٠٢هـ) ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

قسمين : جملة غير منسوخة ، وأخرى دخلها النسخ ويمكن أن يصطلح على الجملة الأولى «بالجملة المطلقة» للإشارة إلى أنّ العملية الإسنادية فيها تؤدي وظيفتها دون قيود عليها كما يمكن أن يصطلح على الثانية «بالجملة المقيدة» للدلالة على أنّ ثمة قيداً قد أحدث تأثيراً لفظيا ومعنويا في العلاقة الإسنادية ، فليس النسخ في جوهره سوى تغيير بالتحديد أي التقييد لبعض العلاقات والروابط القائمة بين أطرافها[1] .

المطلب الأول : تقديم الجملة المطلقة :

قال تعالى : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾[2]

أي (نساؤكم لباس لكم وأنتم لباس لهن)[3]

(واللباس أصله في الثياب ثم شبّه التباس الرجل بالمرأة وامتزاجهما وتلازمهما بذلك)[4] .

(فإن قيل كيف يكون نساؤنا لباسا لنا ، ونحن لهن لباسا ، واللباس إنما هو مالبس ؟ قيل لذلك وجهان من المعاني : أحدهما أن يكون كل واحد منهما جعل لصاحبه لباسا لتخرجهما عند النوم واجتماعهما في ثوب واحد ، وانضمام جسد كل واحد منهما لصاحبه بمنزلة ما يلبسه على جسده من ثيابه ، فقيل لكل واحد منهما لباس لصاحبه ، كما قال نابغة بني جعدة :

---

١ - انظر المرجع السابق صـ ٢٤١ - ٢٤٢ .

٢ - البقرة جزء من الآية ١٨٧ .

٣ - جامع البيان ٢ / ١٦٢ .

٤ - المحرر الوجيز ١ / ٢٥٧ .

إذا مَا الضَّجِيعُ ثَنَى عِطْفَهَا   تَداعَتْ فَكَانَتْ عَليهِ لِبَاسَا[1]

ويروى تثنت[2] ، فكنى عن اجتماعهما متجردين في فراش واحد باللباس .... والوجه الآخر أن يكون جعل كل واحد منهما لصاحبه لباسا ، لأنّه سكن له كما قال جل ثناؤه : ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً﴾[3] يعني بذلك سكنا تسكنون فيه ، وكذلك زوجة الرجل سكنه يسكن إليها كما قال تعالى : ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[4] فيكون كل واحد منهما لباسا لصاحبه بمعنى سكونه إليه)[5] .

وهذا التركيب من تشبيه المفرد المطلق بمثله ، أي هن كاللباس لكم وأنتم كاللباس لهن ، ووجه الشبه بين الرجل والمرأة واللباس ، إمّا أن يكون حسيا كالوجه الأول في كلام الطبري السابق ، وإمّا أن يكون عقليا كالوجه الثاني[6] .

وليس ثمة تقييد لوجه الشبه بل هو مطلق ، يقول الدسوقي : (ومن تشبيه المفرد بالمفرد بلا تقييد قوله تعالى ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ أي كاللباس لكم ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ أي كاللباس لهن، ووجه الشبه بين اللباس والرجل والمرأة أنّ كلا منهما يلاصق صاحبه ويشتمل عليه عند المعانقة والمضاجعة ، كما يلاصق اللباس صاحبه ويشتمل عليه ، وقيل كون كل منهما يستر صاحبه بالتزوج عما يكره من الفواحش كما يستر الثوب العورة ، وحيث اعتبر في الوجه كونه اشتمالا أو سترا عما لا ينبغي استقل به اللباس ، لأنّ كل لباس موصوف بكونه بحيث يشتمل ويستتر به غير توقف على

---

١ - البيت للنابغة الجعدي من قصيدة مطلعها :

لبست أناسا فأفنيتهم   وأفنيت بعد أناس أناسا

انظر ديوان النابغة الجعدي (دمشق : المكتب الإسلامي ، ط / ١ ، ١٣٨٤هـ) صـ ٨١

٢ - وهي المثبتة في ديوانه صـ ٨١ .

٣ - الفرقان جزء من الآية ٤٧ .

٤ - الأعراف جزء من الآية ١٨٩ .

٥ - جامع البيان ٢ / ١٦٢ - ١٦٣ .

٦ - انظر خصائص التشبيه في سورة البقرة صـ ٣٠٧ .

كونه للرجال ولا على كونه للنساء ، فما أفاده المجرور وهو كونه للنساء أو للرجال لا يتوقف عليه الوجه ، ومالا يتوقف عليه الوجه لا يعد في التقييد ، إذ لا دخل في التشبيه إلا لما يتوقف عليه ويؤخذ باعتباره ، فلهذا قلنا إنّه من تشبيه المفرد بالمفرد بلا تقييد)[١].

وعدّه ابن قتيبه من الاستعارة ويتسع عنده هذا المصطلح حتى يشمل الكناية ، المجاز المرسل ، المجاز العقلي ، المشاكلة ، التشبيه البليغ[٢] .

فهو يقول في باب الاستعارة : ومنه قوله تعالى : ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ لأنّ الرجل والمرأة يتجردان ويجتمعان في ثوب واحد ويتضامّان فيكون كل واحد منهما للآخر بمنزلة اللباس ، وكنى عن الجسم باللباس لأنه تشتمل عليه . والعرب تقول : قومٌ لطاف الأزر ، أي خماص البطون ، لأن الأزر تلاث عليها ، ويقولون : فدى لك إزاري ، يريدون : بدني ، فتضع الإزار موضع النفس ، ويقولون للعفاف : إزار لأنّ العفيف كأنّه استتر لما عفّ[٣] .

(وقدّم ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ﴾ على قوله ﴿وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ لظهور احتياج الرجل إلى المرأة وقلة صبره عنها ، والرجل هو البادئ بطلب ذلك الفعل ولا تكاد تطلب ذلك الفعل ابتداء لغلبة الحياء عليهن حتى إن بعضهن تستر وجهها عند المواقعة حتى لاتنظر إلى زوجها حياء وقت ذلك الفعل)[٤] لاسيما في أيام الزواج الأولى . وللبيئة أثر فاعل في وجود ذلك أو عدمه كما قرر ذلك ابن خلدون[٥] .

١ - انظر : مواهب الفتاح في شروح التلخيص ٣ / ٤١٨ .

٢ - انظر خصائص التشبيه في سورة البقرة صـ ٣٠٥ .

٣ - انظر تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ، ت / أحمد صقر ، المكتبة العلمية ، د.ت ، صـ١٤١-١٤٣ .

٤ - البحر المحيط ٢ / ٥٦ .

٥ - انظر مقدمة ابن خلدون ، لابن خلدون (بيروت :دار العودة ، ١٩٨٨) صـ ٩٨ - ٩٩ .

المطلب الثاني : تقديم الجملة المقيدة :

قال تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1]

قوله : ﴿ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

ورد هذا التركيب ختاماً لست آيات في سورة البقرة خمس آيات بقوله سبحانه «ولا خوف» وهذه الآية «فلا خوف عليهم» وهي بالفاء دون غيرها لأنها رابطة لجواب الشرط من (وكل جواب يمتنع جعله شرطا فإنّ الفاء تجب فيه)[2]

وهذه الجملة لا تصلح أن تكون شرطا فهي ناقصة ومن ثمّ ربطت بالفاء والفاء مسببة ورابطة ، فكأنها جاءت لجبر ذلك النقص وبقية المواضع لم يأت أيٌّ منها جوابا للشرط .

والملاحظ في هذا التركيب أنّه في جميع أي القرآن يأتي في سياق الجزاء والمثوبة للإيمان قولاً واعتقاداً وعملا ، فانتفاء الخوف والحزن جزاء ومثوبة للقول والعمل قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[3] .

وانتفاء الخوف والحزن جزاء ومثوبة للاعتقاد والعمل قال تعالى : ﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[4]

---

١ - البقرة الآية ٣٨ .

٢ - أوضح المسالك ٤ / ٢٠٩ .

٣ - الأحقاف الآية ١٣ .

٤ - البقرة الآية ٣٨ .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[1]

وقوله عز شأنه : ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2]

ومعنى أسلم وجهه أي « أخلص دينه »[3] وهو محسن أي « في عمله »[4] .

وقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[5]

وانتفاء الخوف والحزن جزاء ومثوبة للعمل قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[6]

وقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[7]

قال الزمخشري : فإن قلت : أي فرق بين قوله « لهم أجرهم » وقوله فيما بعد « فلهم أجرهم » قلت الموصول لم يضمن ههنا معنى الشرط وضمنه ثمة ، والفرق

---

١ - البقرة الآية ٦٢ .
٢ - البقرة الآية ١١٢ .
٣ - تفسير ابن كثير ١ / ٢٣١ .
٤ - تفسير البيضاوي ١ / ٨٢ .
٥ - البقرة الآية ٢٧٧ .
٦ - البقرة الآية ٢٦٢ .
٧ - البقرة الآية ٢٧٤ .

بينهمـا من جهـة المعنى أنّ الفـاء فـيـهـا دلالـة على أن الإنفـاق به استـحق الأجـر ، وطرحها عار عن تللك الدلالة)[1] .

وتوحـد الجـزاء في هذا التـركـيب في جـمـيع آي القـرآن مع اخـتـلاف الآيات في اشتـمالها على القول والاعتقـاد ، أو الاعتقـاد والعمل ، أو العـمل وحده دلالة ظاهرة وقـاطعة على (الـوحدة بين الشـعـور والسلوك بين العـقـيـدة والعـمـل ، بين الإيمان القلبي والإحسـان العـمـلي ... بذلك تستحيل العـقـيدة منهـجاً للحيـاة كلها ، وبذلك تتوحد الشـخـصيـة الإنسـانيـة بكل نشـاطها واتجاهاتها ، وبذلك يسـتحق المؤمن هذا العطاء كله ، ﴿فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

الأجر المضمون لا يضـيـع عند ربهم .. والأمن الموفور لا يسـاوره خوف ، والسـرور الفائض لا يمسه حزن .. وتلك هي القاعدة العامة التي يستوي عندها الناس جميعا ، فلا محسوبية عند الله سبحانه ولا محاباة)[2] .

وكلام العلماء حول هذا التركيب ﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ واحـد وكثيراً ما نجد في كتب المفسرين في المواضع الأخرى «سبق تفسيره» اكتفاء منهم بتفسيره في الآية «٣٨» من سورة البقرة ، وقد أدرجتها تحت مطلب واحد ينتظمها جميعاً لتوحد الدلالة في هذا التركيب .

---

١ - الكشاف ١ / ٣٠٧ .

٢ - في ظلال القرآن ١ / ١٠٤ .

﴿فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ (أي فيما يستقبلونه من أمر الآخرة ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على ما فاتهم من أمور الدنيا)[1] .

(وعبر عن نفي الخوف بالخبر الاسمي لإفادة نفي جنس الخوف نفيا قارا ، لدلالة الجملة الاسمية على الدوام والثبات)[2] .

(والعدول عن لاخوف لهم أو عندهم إلى ﴿لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ للإشارة إلى أنّهم قد بلغت حالهم إلى حيث لا ينبغي أن يخاف أحد عليهم)[3] .

(وقدم عدم الخوف على عدم الحزن لأنّ انتفاء الخوف فيما هو آت آكد من انتفاء الحزن على ما فات ، ولذلك أبرزت جملته مصدرة بالنكرة التي هي أوغل في باب النفي ، وأبرزت الثانية مصدرة بالمعرفة في قوله ﴿وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾)[4] .

---

١ - تفسير ابن كثير ١ / ١٢٤ .

٢ - التحرير والتنوير ١ / ٥٤٠ .

٣ - روح المعاني ١ / ١٤١ .

٤ - البحر المحيط ١ / ٣٢٣ .

- القسم الثاني : تقديم الجملة الفعلية .

يعرف النحاة الجملة الفعلية بأنها (الجملة المصدرة بفعل)[1] ولا يؤثر على مسماها دخول الأدوات عليها كأدوات الجزم أو النصب أو غيرها ، ويمكن تقسيم الفعل إلى أقسام ثلاثة :

١ - التقسيم الوظيفي .

٢ - التقسيم الزمني أو الدلالي .

٣ - تقسيم يراعى فيه هيئة الفعل .

أولاً : التقسيم الوظيفي : وهو مااصطلح النحاة على تسميته باللازم والمتعدي، فاللازم هو (مالا يفتقر وجوده إلى محل غير الفاعل نحو : قام وذهب ، ألا ترى أن القيام لا يتجاوز الفاعل وكذلك الذهاب)[2] .

والمتعدي هو (ما يفتقر وجوده إلى محل غير الفاعل)[3] (أي الذي يحتاج لإفادة معنى تام إلى غير الفاعل وهو المفعول به)[4] (نحو ضرب وقتل ، ألا ترى أن الضرب والقتل يقتضيان مضروبا ومقتولا)[5] .

ويميّز بين هذين النوعين من الأفعال بعلامتين :

الأولى : أنّ الفعل المتعدي يجوز أن يصاغ منه اسم مفعول تام دون حاجة إلى

---

١ - مغني اللبيب ٢ / ٣٧٦ .

٢ - شرح المفصل ٧ / ٦٢ .

٣ - المصدر نفسه ٧ / ٦٢ .

٤ - الجملة الفعلية ، للدكتور / علي أبو المكارم (مصر : مكتبة الشباب ، د.ت) صـ ٥٣ .

٥ - شرح المفصل ٧ / ٦٢ .

ظرف أو جار ومجرور ، مثل : الباب مفتوح ، والطعام مأكول ، أمّا إذا كان في حاجة إلى ظرف أو جار ومجرور نحو النجاح مفروح به ، ومحمد مجلوس عنده ، فإنه لايكون متعديا بل لازما .

والثانية أن الفعل المتعدي يجوز أن يتصل به «ضمير» يعود على غير مصدر ذلك الفعل :

بأن يتصل به ضمير غير المصدر : نحو: خالد أكرمته .

أو ضمير مصدر غير ذلك الفعل . نحو : العلم فهمه زيد .

أما إذا اتصل به ضمير المصدر وحده ، فليس دليلا على تعدي الفعل إذ يجوز كونه لازما[1] .

ثانياً : التقسيم الزمني أو الدلالي وهو ثلاثة أقسام :

(الماضي ، المضارع ، الأمر)

ثالثا : التقسيم المراعى فيه هيئة الفعل :

وينقسم إلى صحيح وهو ماخلت أصوله من أحرف العلة وهي (الألف والواو والياء) نحو كتب ، جلس .

ومعتل وهو ماكان أحد أصوله حرف عله نحو : وجد ، قام ، سعى[2] .

وهذه التقسيمات يمكن لفعل من الأفعال أن يشتمل على نوع من كل قسم مما سبق نحو : يذهب فهذا الفعل : لازم ، ومضارع ، وصحيح ، ونحو صام هذا الفعل: متعدٍّ وماض ومعتل ، وهلم جرا .

---

١ - انظر شرح كتاب الحدود في النحو للفاكهي ، ت / الدكتور: المتولي رمضان الدميري (مصر: مكتبة وهبه ، ط / ٢ ، ١٤١٤هـ) صـ ١٧٧ .

٢ - انظر شذا العرف في فن الصرف ، للشيخ / أحمد الحملاوي (المدينة المنورة : دار احياء التراث الإسلامي ، ط / ٥ ، ١٤١١هـ) صـ ٢٧ .

وقد حوت سورة البقرة أفعالاً تشتمل هذه الأنواع كلها ، بيد أنّ الباحث لم يلحظ أنّ ثمة أثر يخلف تغيّر الفعل من ماض أو مضارع أو أمر ، وليس ثمة دلالة يوفرها نوع دون آخر في تقديم بعضها على بعض ، لذا أغفلت عمداً هذه التقاسيم في عرض الشواهد «لتقديم الجملة الفعلية» دون مراعاة لنوع الفعل المتقدم ، وسيلحظ القارئ في الشواهد المختارة تداخل الأنواع وعدم فصل بعضها عن بعض .

١ - قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[١]

رتبت هذه الآية على هذا النحو من الترتيب ، لأنّ الأعمال إمّا قلبية وأعظمها اعتقاد حقيقة التوحيد والإيمان بالغيب وبدونه لا حظ يرجى من عمل ، أو بدنية وأصلها الصلاة ، لأنّها الفارقة بين الكفر والإسلام وهي عمود الدين ومعراج الموحدين والأم التي يتشعب منها سائر الخيرات والمبرات ، ولهذا قال ﷺ «وجعلت قرة عيني في الصلاة»[٢] ، أو مالية وهي الإنفاق لوجه الله تعالى وهي التي إذا وجدت علم الثبات على الإيمان ، وهذه الثلاثة متفاوتة الرتب فرتب سبحانه ذلك مقدما الأهم فالأهم والألزم فالألزم ، لأنّ الإيمان لازم للمكلف في كل آن ، والصلاة في أكثر الأوقات ، والنفقة في بعض الحالات[٣] .

١ - البقرة الآية ٣ . وسبق الحديث عن الآية في فصل تقديم المتعلقات انظر صـ ٣١٩-٣٢٢ .

٢ - جزء من حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم ١٢٣٠١ ، ٣ / ١٥٧ ، والنسائي في سننه في كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء ، برقم ٨٨٨٧ .

٣ - انظر البحر المحيط ١ / ١٦٥ ، وروح المعاني ١ / ١٢٢ .

٢ - قال تعالى : ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾[١]

هذه الآية في معرض ذكر منافقي أهل الكتاب وحالهم ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا﴾[٢] فأظهروا لهم الإيمان قولاً بألسنتهم ماليس في قلوبهم[٣] ، فقال سبحانه ﴿أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (وهذا توبيخ من الله لهم : أي إذا كان علم الله محيطا بجميع أفعالهم ، وهم عالمون بذلك ، فكيف يسوغ لهم أن ينافقوا ويتظاهروا للمؤمنين بما يعلم الله منهم خلافه)[٤] .

(وقدم سبحانه الإسرار على الإعلان للإيذان بافتضاحهم ، ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر ، والمبالغة في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات، كأن علمه بما يسرونه أقدم منه بما يعلنونه مع كونهما في الحقيقة على السوية ، فإنّ علمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صورها ، بل وجود كل شيء في نفسه علم بالنسبة إليه تعالى ، وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة والكامنة ، ونظيره قوله سبحانه : ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾[٥] حيث قدم الإخفاء على الإبداء ... ويجوز أن يكون ذلك باعتبار أنّ مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ مامن شيء يعلن إلا وهو قبل ذلك مضمر في القلب يتعلق به الإسرار غالبا ، فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية)[٦] .

(وعكس الأمر في قوله سبحانه : ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾[٧] قدم الإبداء على الإخفاء لأنّ الأصل فيما تتعلق المحاسبة به هو الامور البادية دون الخافية)[٨] .

---

١ - البقرة الآية ٧٧ .
٢ - البقرة جزء من الآية ٧٦ .
٣ - انظر تيسير الكريم الرحمن ١ / ٩٩ .
٤ - البحر المحيط ١ / ٤٤١ .
٥ - آل عمران جزء من الآية ٢٩ .
٦ - تفسير أبي السعود ١ / ١٩٩ .
٧ - البقرة جزء من الآية ٢٨٤ .
٨ - تفسير أبي السعود ١ / ١٩٨ - ١٩٩ .

٣ - قال تعالى : ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[١]

(أي سمعنا قولك وأطعنا أمرك ، ولا يراد مجرد السماع بل القبول والإجابة)[٢] .

(وجيء بلفظ الماضي دون المضارع ليدلوا على رسوخ ذلك ، لأنهم أرادوا إنشاء القبول والرضا)[٣] .

و(قدم سمعنا على وأطعنا ، لأنّ التكليف طريقه السمع والطاعة بعده)[٤] (وتقديم ذكر السمع والطاعة على طلب الغفران ، لما أن تقديم الوسيلة على المسئول أوعى إلى الإجابة والقبول)[٥] .

٤ - قال تعالى : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[٦]

قوله : ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾

عن سعيد بن جبير قال : اذكروني بطاعتي اذكركم بمغفرتي)[٧] .

قوله : ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾

أي اشكروا لي ما أنعمت به عليكم ، ولا تجحدوا إحساني إليكم ونعمائي عليكم[٨] . والذكر كما يكون باللسان حمداً و تسبيحاً فإنّه يكون بالقلب تفكراً وبالجوارح عملا بالمأمور به وتركا للمنهي عنه ، وليس ثمة شيء يعم الأوقات والأحوال كالذكر[٩] .

---

١ - البقرة جزء من الآية ٢٨٥ .
٢ - البحر المحيط ٢ / ٣٨٠ .
٣ - التحرير والتنوير ٣ / ١٣٤ .
٤ - البحر المحيط ٢ / ٣٨٠ .
٥ - تفسير أبي السعود ١ / ٤٢٧ .
٦ - البقرة الآية ١٥٢ .
٧ - جامع البيان ٢ / ٣٧ .
٨ - انظر المصدر نفسه ٢ / ٣٧ .
٩ - انظر الوابل الصيّب من الكلم الطيب ، لابن القيم ، ت / إبراهيم العجوز (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) صـ ٥٩ .

(وقـدم الذكـر على الشكر لأن في الذكـر اشـتـغـالاً بذاته تعـالى وفي الشكر اشتغالاً بنعمته والاشتغال بذاته تعالى أولى من الاشتغال بنعمته)[1] . ولأنّ الذكر رأس الشكر ، فما شكر الله تعالى من لم يذكره ، روي أنّ موسى عليه السلام قال : رب قد أنعمت عليّ كثيراً ، فدلني على أن أشكرك كثيراً ، قال : اذكرني كثيراً ، فإذا ذكرتني كثيراً فقد شكرتني كثيراً ، وإذا نسيتني فقد كفرتني)[2] .

قال أبو حيان : (وهنا ثلاث جمل : جملة الأمر بالذكر ، وجملة الأمر بالشكر ، وجملة النهي عن الكفران ، فبديء أولاً بجملة الذكر لأنّه أريد به الثناء والمدح العام والحمد له تعالى ، وذكر له جواب مترتب عليه ، وثنّى بجملة الشكر لأنّه ثناء على شيء خاص وقد اندرج تحت الأول فهو بمنزلة التوكيد فلم يحتج إلى جواب ، وختم بجملة النهي لأنّه لما أمر بالشكر لم يكن اللفظ ليدل على عموم الأزمان ، ولا يمكن التكليف باستحضار الشكر في كل زمان ، فقد يذهل الإنسان عن ذلك في كثير من الأوقات ، ونهى عن الكفران لأنّ النهي يقتضي الامتناع من المنهي عنه في كل الأزمان ، وذلك ممكن لأنه من باب التروك)[3] .

---

١ - روح المعاني ١ / ٤١٧ .

٢ - أخرجه المنذري من طريق أبي هريرة مختصرا في كتاب الذكر والدعاء برقم ٢٢٢٤ .

٣ - البحر المحيط ١ / ٦٢١ .

- الخاتمـــة .

اللهم لك الحمد انتهاء كما حمدناك ابتداء ، فالحمد ثم الحمد لك أولاً وآخراً والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه ... وبعد ...

فأكرم بأوقات انقضت ومضت ، وساعات تصرمت قضيتها في التنقيب عن ملح ، وأسرار بلاغية ، في نصٍّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، كان التنقيب في رحلة تجاوزت مدة السير فيها عامين ، وقفت خلالها بمرابع قوم أجلاء كرماء ، لم يردوا لي مطلبا رغم نهمي ، ولم يستثقلوني رغم تطفلي ، فكنت آخذ منهم وأدع ، واستمع إليهم وأحاورهم ، فكانت الحصيلة هذه الدراسة التي كشفت فيها عن ملامح ظاهرة لغوية جديرة بالدرس والمناقشة ، وقد استعرضت خلال هذه الدراسة جملة من القضايا أبانت .. روعة البيان القرآني وإعجازه ، وشجاعة العربية ، وأهمية التقديم والتأخير ، وأوضحت أنّ الجملة العربية نوعان ، اسمية وفعلية ، ويدخل ما ذكره العلماء من انواع الجمل ضمنا تحت هذين النوعين ، ولكل نوع منهما دلالات يتسم بها ، فالاسمية تتسم بدلالتها على الثبات، وقد تحف بها قرائن أخرى تُستفاد من سياق الكلام فتُفيد الدوام والاستمرار حينئذ ، على حين أن الفعلية تدل على التجدد وكل منهما تحسن في مقام لا تحسن فيه الأخرى ، وأنّ بنية الجملة العربية تقوم على دعامتين رئيستين فيهما هما المسند إليه وهو المحكوم عليه ، والمسند وهو المحكوم به ، ويأتي غيرها في الجملة العربية

من التوابع والمفاعيل مكملات لها لتؤدي وظائف نحوية وتثير قيما بلاغية ، ويزداد تأثيرها في المعنى وتتضح بلاغتها في حال العدول عن الأصل من خلال إسلوب التقديم (والعدول يمثل نوعاً من الخروج عن اللغة النفعية إلى اللغة الإبداعية ، ومن هنا وجّه البلاغيون اهتماما خاصا لهذا المبحث ، ورصدوا كثيراً من التعبيرات التي توفرت فيها هذه الظاهرة ، وما يمكن أن تفيد منه الدلالة ، أو بمعنى أصح يمكن أن تتغير به الدلالة تغيّراً يوجب لها المزية والفضيلة)(١) .

وعرضت أمثلة لهذا العدول من خلال فصول البحث الأربعة .

وقد تبّين نتائج عدة خلال هذا البحث لعل من أبرزها ما يلي :

أولاً : أنّ دراسة النظم القرآني تقع في القمة من حيث القيمة في الدراسات البلاغية فهي تكشف عن بعض دلائل إعجازه البلاغي ، كما تثري وعينا باللغة ، وبالبلاغة معا .

ثانياً : أنّ الأسلوب القرآني أجلُّ من أن يحكم بقاعدة مطردة ، فقد رأينا ما للسياق من تحديد لدلالة الاختصاص أو عدمه ، فالتركيب بذاته لا يفيد التخصيص وإنما يستفاد من بعض مواقعه معنى التخصيص بالقرائن .

---

١ – البلاغة والاسلوبية ، للدكتور / محمد عبدالمطلب (مصر : الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، ط / ١ ، ١٩٩٤م) صـ٣٢٩ .

ثالثاً : تنوع اهتمامات المفسرين في النكت البلاغية ، ففي ظاهرة التقديم والتأخير نرى أبا السعود لايكاد يغفل عن تقديم المتعلقات ، وأبا حيان والألوسي يهتمان بتقديم المعاني ، وابن عاشور يهتم بالمسند إليه والمسند وهكذا دواليك ولكل منزع في الكشف عن أسرار البلاغة في هذا الكتاب العزيز .

رابعاً : تعتبر ظاهرة التقديم والتأخير من أهم الظواهر اللغوية التي أكسبت اللغة مرونتها وطواعيتها ، فهو يسمح للمتكلم أن يتحرك بحرية متخطيا الرتب المحفوظة ، والعدول عن هذه الرتب يمثل نوعا من الخروج عن اللغة النفعية إلى اللغة الإبداعية ، واللغة النفعية إذا دخلت في عالم الأدب اكتسبت خاصية جديدة تفرضها عليها طبيعة الأدب ، إذ لم يعد المراد إيصال المعنى ، وإنما الإيصال والامتاع معا ، بحيث تصبح اللغة وسيلة من وسائل الجمال .

خامساً : إنّ تراث العربية واحد ، وجهود العلماء تتكامل ولا تتفاضل ، والوعي بعبقرية هذه اللغة وإدراك أسرارها لا يمكن الوقوف عليه إلا من خلال رؤية شاملة تعتدُّ بكل جهد تناول الدرس اللغوي ، وتجاوز بالبحث فيه حدود الصحة والخطأ إلى تلمس القيم الجمالية والكشف عنها .

هذه بعض النتائج التي كشفت عنها هذه الدراسة .

وأختم الخاتمة بتوصية أرجو أن أرى لها صدى إن عاجلاً أو آجلاً وهي :

أن تكوّن لجنة من المهتمين ببلاغة القرآن لرصد هذه الظواهر اللغوية من خلال القرآن الكريم ، والبحث في أسرارها البلاغية وتقديمها بصورة موسوعة قرآنية تضم بين دفتيها دراسة تطبيقية على جميع سور القرآن الكريم .

هذا ما وفقني إلهي إليه ، أسأل اللّه أن ينفع به ، وأن يغفر لي زللي ، وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين وصلى اللّه وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ...

(فهرس الآيـــات)

الآيـــة	رقمها	الصفحة
﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾	٣٨	٤٣٩،١٠٥
﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾	٣٨	٣٦١،١٠٥
﴿ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾	٣٨	٤٣٥
﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾	٣٩	١٢٣،١١٥
﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾	٤٠	٢٦٤
﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾	٤٣	٣٨٧
﴿ وَفِي ذَٰلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾	٤٩	٣٥٤
﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ ﴾	٥٠	٣٧٠
﴿ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً ﴾	٥٥	٢٧٦
﴿ فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ ﴾	٥٥	٣٣٤
﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴾	٥٧	٣٧٣،٢٧٣
﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ ﴾	٥٩	١٢٢
﴿ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾	٥٩	٣٧٣،٣٥٣
﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ﴾	٦٠	٣٥٦،١٦٩
﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾	٦٠	٣٧٣،٣٥٣
﴿ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾	٦٠	٣٥٣
﴿ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾	٦٠	٣٥٤
﴿ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾	٦١	٣٥٧
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ﴾	٦١	٣٥٢
﴿ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾	٦١	١٣١
﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ ﴾	٦٢	٤٤٠ ، ١٠٦

الآيــــة	رقمها	الصفحة
﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾	٢٠٣	٣١١
﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾	٢٠٤	٣٣٥ ، ٢٣٢
﴿ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾	٢٠٥	٩٠ ، ٨١
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً ﴾	٢٠٨	٩٧
﴿ وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾	٢٠٨	٩٣
﴿ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾	٢٠٨	٣٥٢
﴿ إِن زَلَلْتُم ﴾	٢٠٩	٣٩١
﴿ مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾	٢٠٩	٣٣٥
﴿ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾	٢٠٩	٣٧٧ ، ٨١
﴿ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ ﴾	٢١٠	٢٧٤
﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾	٢١١	٣٩١
﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾	٢١٢	٨٨ ، ٨٠
﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾	٢١٣	٤٣٢
﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾	٢١٣	٣٣٥
﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾	٢١٣	٢٤٣،٨٨،٨١
﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ ﴾	٢١٤	٢٤٣
﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾	٢١٥	٢٩٢ ، ٢٨٠
﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾	٢١٥	٢٨١
﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾	٢١٦	٨٠
﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ ﴾	٢١٧	٤١٦
﴿ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ﴾	٢١٧	٣٥٢

الآيـــة	رقمها	الصفحة
﴿ فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ ﴾	٢٤	٣٤٧
﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾	٢٨	١٢٨
﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ ﴾	٣٤	٢٣٤
﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾	٣٦	٣٢٨
﴿ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾	٤٣	٣٤٧
﴿ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم ﴾	٦٦	١٩٨
﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ ﴾	٨٢	٢٦
﴿ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾	٩٠	٣٠٩
﴿ فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ ﴾	٩٣	٢٠٠
﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾	١٢٥	٢٠
﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾	١٤٥	١٥١
﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾	١٥٥	٤٢١
﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾	١٦٤	٢٠
المائدة		
﴿ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾	٨	٩٨
﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾	١٨	٢١٠
﴿ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا ﴾	٢٤	٢٧٣
﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي ﴾	٢٥	٢٧٣
﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾	٢٦	٢٧٣
﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾	٣٠	٢٩٦
﴿ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾	٣٧	١٥٣

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ ﴾	٧١	٤٥
﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾	٩٨	٣٦
﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ﴾	١٠١	٢٧٧ ، ٣١٤
﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ﴾	١٠٢	١٤٦ ، ٣١٤
يوسف		
﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾	١٧	٣٢٠
﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ ﴾	٢٧	٣٠٩
﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾	٤٣	١٧٠
﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾	٥٣	٢٩٦
﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾	٧٨	١٤٦
﴿ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾	٨٠	١٤
﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﴾	١٠٠	١٧٢
﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾	١٠٣	١٨٩
الرعـــد		
﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾	٣	٣٢
﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾	٩	١٢٨
ابراهيم		
﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾	٥	٢٧٠
﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴾	٢١	١٨٨
﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾	٣٤	١٠١
الحجر		
﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾	٩٤	١٤
﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾	٩٧	٢٤٨

الآيـــة	رقمها	الصفحة
﴿ ونَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾	٤٧	١٧٦
﴿ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾	٦٢	٤٧
﴿ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا ﴾	٦٣	٤٧
﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ ﴾	١٠١	١٠٨
﴿ لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ ﴾	١٠٢	١٠٨
﴿ لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ ﴾	١٠٣	١٠٨
﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ ﴾	١٠٤	٣١٠
الحج		
﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾	٣٨	٨٥
﴿ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾	٧٢	٤٣ ، ٨٩
النور		
﴿ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾	٢	٤٠١
﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ ﴾	١٩	٩٥
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾	٢١	٩٧
الفرقان		
﴿ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴾	٤٧	٤٣٧
﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴾	٤٨	٣٨٢ ، ٣٨٥
﴿ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾	٤٩	٣٨٢ ، ٣٨٥
الشعراء		
﴿ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴾	٣٥	١٩٩
﴿ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ ﴾	٦٣	٣٥٦

الآيـــة	رقمها	الصفحة
الحجـرات		
﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾	٧	١٥٩
﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾	١٧	١٨٧
الذاريات		
﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾	٣١	٢٨٧
الطـور		
﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ﴾	٣٨	١٧٤
القمـر		
﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ ﴾	٧	٦٠ ، ٤٣٥
﴿ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴾	٤٨	٢٤٦
الرحمن		
﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾	٢٦	٢٥١
﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾	٢٧	٢٥١
الواقعة		
﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴾	٨	٢٨٧
﴿ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾	٩	٢٨٧
﴿ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ ﴾	١٩	٢١
المجادلة		
﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾	٦	٣٠٢
الحشر		
﴿ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾	٢	١٧٦

الآيـــــة	رقمها	الصفحة
﴿الَّذي علَّمَ بِالْقَلَمِ﴾	٤	٣٠
﴿علَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾	٥	٣٠
الزلزلة		
﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾	٥	١٧٥
العاديات		
﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾	٨	١٦٩
التكاثر		
﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾	١	٤١
العصر		
﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾	٢	١٢٨
﴿إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾	٣	٣٢٠
الكوثر		
﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾	١	١٥
المسد		
﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾	١	١٥

(فهرس الأحاديث)

(فهرس الأبيات الشعرية)

الصفحة	الشـــاعر	عجـــز البيت
٣٢١	الأعشى	نَوْمـاً فَـإنّ لجَنْب الْمَـرء مُـضْطَجَعَـا
٣٢١	الأعشى	يَارَبِّ جَنِّب أَبي الأَوْصَـابَ وَالْوجَعَـا
١٧٦	متمم بن نويرة	لطُولْ اجْتمَاعٍ لَـمْ نَبِـتْ لَيْلَـةً مَعَـا
٢١٣	خبيب بن عدي	عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَـانَ فِيْ اللّهِ مَـصْرَعِي
		الفـاء
٣٠٠	أبو تمام	بهـا الحَـوَادِثُ حتَّـى أصبحت طَـرَفَـا
		القـاف
١٩٨	غير منسوب	على النَّفْسِ مَنْ قَـتْلِ بحـدِّ فـرَاقِ
٦٠	النضر بن جؤية	لكنْ يَمُـرُّ عَلَيْـهَـا وَهُـو مُنْطَلِقُ
١٩٥	يزيد بن مفرغ الحميري	نَجَـوْت وَهَذَا تَحْـملينَ طَلِيْقُ
٣٢٩	أبو محجن الثقفي	أخَـافُ إذَا مَـا مـتُّ أنْ لاَ أذُوقَهَـا
٣٤٤	زهير بن أبي سلمى	يَلْقَ السمَـاحةَ فِيـه والنَّدى خُلُقَـا
		اللام
٩٢	أمية بن أبي الصلت	ثُمّ يُلْقَى في السِّجْنِ وَالأغْـلاَلِ
٤٧	أمرؤ القيس	وَمَسْنُونَةٌ زرقٌ كـأنْيَـابِ أغْـوَالِ
٣٧	لبيد بن ربيعة	واحـفظوا المجـد بأطراف الأسل
١٧٦	جرير	وَنَحْنُ لَكُم يَومَ القِيَـامَـة أفضَلُ
١٨٣	السمو أل بن عاديا	وليس سـواءً عَـالِـمُ وَجَهُـولُ
٣٤٠	حسان بن ثابت	شُـمُّ الأنـوف من الطّـرَازِ الأوَّلِ
٤٣	عمر بن أبي ربيعة	وصَـالٌ على طُول الصُّدودِ يَدُوْمُ
١٧٧	الراعي النميري	جُـدَاً تعَـاوَرَهُ الرِّيَـاحُ وَبِيـلاَ
٩٥	امرؤ القيس	إذا هي نصـتـه ولابمعطّلي
		الميم
٤٢٨	عدي بن الرقاع	في عينه سنة وليس بنائم

(فهرس الأعلام)

المراجـــع

١ - الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (بيروت : دار المعرفة ، ط / ٤ ، ١٣٩٨هـ) .

٢ - أثر النحاة في البحث البلاغي ، للدكتور عبدالقادر حسين (قطر : دار قطري بن الفجاءة ، ط / ٢ ، د،ت) .

٣ - أحكام القرآن لابن العربي ، ت / محمد عبدالقادر عطا (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، د.ت) .

٤ - إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٣هـ) .

٥ - أدب الكاتب لابن قتيبه ت/ علي فاعور (بيروت: دار الكتب العلمية ط١ ، ١٤٠٨هـ) .

٦ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم لأبي السعود ، ت/ عبدالقادر أحمد عطا ، مطبعة السعادة ، د.ت .

٧ - إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل للألباني (بيروت : المكتب الإسلامي ط/ ٢ ، ١٤٠٥هـ) .

٨ - الأزهية في علم الحروف للهروي ت / عبد المعين الملوحي ، (دمشق : مطبوعات مجمع اللغة العربية ، ١٤١٣هـ) .

٩ - أساس البلاغة للزمخشري (بيروت : دار صادر ، ط/ ١ ، ١٤١٢هـ) .

١٠ - الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية عبدالعزيز بن محمد السلمان (مطابع الإشعاع ، ط / ١٣ ، ١٤٠٠هـ) .

١١ - أسباب نزول القرآن للواحدي ، ت/ أحمد صقر (جدة: دار القبلة ، ط / ٢ ، ١٤٠٤هـ) .

١٢ - الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للقرطبي ، ت / الدكتور محمد حسن جبل وطارق أحمد محمد (مصر : دار الصحابة للتراث ، ط / ١ ، ١٤١٦هـ) .

١٣ - الأشباه والنظائر في النحو للسيوطي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ، ١٤٠٥هـ) .

١٤ - الأصول للدكتور تمام حسان (بغداد : دار الشؤون الثقافية العامة ، د،ت) .

١٥ - أصول التفسير ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ت/فريال علوان (بيروت : دار الفكر اللبناني ، ط / ١ ، ١٩٩٢م) .

١٦ - الأصول في النحو ، لابن السراج ، ت / د. عبدالحسين الفتلي ، (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط / ١ ، ١٤٠٥هـ) .

١٧ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي (القاهرة : مكتبة ابن تيمية ، ١٤١٣هـ) .

١٨ - الإعجاز البلاغي للدكتور/ محمد محمد ابو موسى (مصر : مكتبة وهبة ، ط / ١ ، ١٤٠٥هـ) صـ ١٨١ .

١٩ - الإعجاز في دراسات السابقين ، عبدالكريم الخطيب (بيروت : دار الفكر ، ط / ١ ، ١٩٧٤م) .

٢٠ - إعجاز القرآن للباقلاني (بيروت : عالم الكتب ، ط / ١ ، ١٤٠٨هـ) .

٢١ - إعراب الجمل وأشباه الجمل للدكتور / فخرالدين قباوة (بيروت : دار الآفاق الجديد، ط/ ٣ ، ١٤٠١هـ) .

٢٢ - إعراب القرآن للنحاس ، ت/ الدكتور: زهير غازي زاهد (بيروت : عالم الكتب، ط/ ٣ ، ١٤٠٩هـ) .

٢٣ - إعراب القرآن لمحيي الدين الدرويش (دمشق : اليمامة ، دار ابن كثير ، ١٤٠٨هـ) .

٢٤ - الأعلام لخير الدين الزركلي (بيروت : دار العلوم للملايين ، ط / ٣) .

٢٥ - الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، ت/عبدالكريم الغرباوي (بيروت مؤسسة جمال ، د.ت) .

٢٦ - ألفية بن مالك في النحو والصرف لابن مالك (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ١، ١٤٠٥هـ) .

٢٧ - امتاع العقول بروضة الاصول لعبد القادر بن شيبة الحمد ، ط / ١ ، ١٣٨١هـ) .

٢٨ - إملاء ما من به الرحمن للعكبري (بيروت دار الكتب العلمية ط / ١ ، ١٣٩٩هـ) .

٢٩ - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، لابن هشام (بيروت دار الفكر، د، ت) .

٣٠ - الإيضاح في علل النحو للزجاجي ، ت/ الدكتور مازن المبارك (بيروت : دار النفائس ، ط/ ٥ ، ١٤٠٦هـ) .

٣١ - الباعث الحثيث لابن كثير (الرياض : دار الهدى ، د.ت) .

٣٢ - البحث البلاغي عند السهيلي رسالة ماجستير مقدمة من / صالح الشتري لقسم البلاغة والنقد في جامعة الإمام عام ١٤١٦هـ ، مخطوط .

٣٣ - البحر المحيط لأبي حيان ، ت /عادل عبدالموجود ، علي محمد معوض (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/الأولى ،١٤١٣هـ) .

٣٤ - بدائع التفسير الجامع لتفسير ابن القيم ، جمعه يسري السيد محمد (الدمام : دار ابن الجوزي ، ط/ الأولى ١٤١٤هـ) .

٣٥ - بدائع الفوائد لابن القيم ، (بيروت : دار الكتاب العربي ، د.ت) .

٣٦ - البداية والنهاية لابن كثير ، ت / د. أحمد أبو ملحم ، د. علي نجيب عطوي ، فواز السيّد ، مهدي ناصر الدين ، علي عبدالساتر (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ٣ ، ١٤٠٧هـ) .

٣٧ - البرهان في علوم القرآن للزركشي ، ت / مصطفى عبدالقادر عطا (بيروت:دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ، ١٤٠٨هـ) .

٣٨ - بصائر ذوي التمييز للفيروز أبادي ، ت/محمد علي النجار (بيروت : المكتبة العلمية ، د.ت) .

٣٩ - بلاغة التراكيب دراسة في علم المعاني ، للدكتور / توفيق الفيل (القاهرة : مكتبة الآداب ، د،ت) .

٤٠ - البلاغة فنونها وأفنانها (علم المعاني) للدكتور / فضل حسن عباس (الأردن : دار الفرقان، ط/ ٢ ، ١٤٠٩هـ)

٤١ - البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري للدكتور / محمد ابو موسى (مصر : دار الفكر العربي ، د،ت) .

٤٢ - البلاغة والاسلوبية ، للدكتور / محمد عبدالمطلب (مصر : الشركة المصرية العالمية للنشر ، لونجمان ، ط / ١ ، ١٩٩٤م) .

٤٣ - البلبل في أصول الفقه لابن عبدالقوي الطوفي (الرياض : مكتبة الامام الشافعي ، ط/ ٢ ، ١٤١٤هـ) .

٤٤ - بهجة المجالس وأنس المجالس لأبن عبدالبر ، ت / محمد مرسي الخولي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ٢ ، ١٤٠٢هـ) .

٤٥ - البيان العربي للدكتور بدوي طبانه (جدة: دار المنارة ، الرياض: دار الرفاعي ط / ٧ ، ١٤٠٨هـ) .

٤٦ - تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) .

٤٧ - تأويل مشكل القرآن لابن قتيبه ، ت/أحمد صقر ، المكتبة العلمية ، د،ت .

٤٨ - تأملات في سورة البقرة للدكتورحسن محمد باجودة (مصر:دار مصر للطباعة ، ط١، ١٤١٠هـ) .

٤٩ - التبيان في آداب حملة القرآن للنووي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٩٣م) .

٥٠ - التحرير والتنوير ، لمحمد الطاهر ابن عاشور ، نسخة مصورة عن الدار التونسية للنشر .

٥١ - تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمبار كفوري (بيروت : دا ر الكتب العلمية ، ط الأولى ، ١٤١٠هـ) .

٥٢ - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي ، ت / عبدالوهاب عبداللطيف ، مكتبة الرياض الحديثة ، د.ت .

٥٣ - الترغيب والترهيب من الحديث الشريف للمنذري ، ت/ محيي الدين مستو، سمير أحمد العطار، يوسف علي بديوي (دمشق : بيروت ، دار ابن كثير ، ط/ ٢ ، ١٤١٧هـ) .

٥٤ - تفسير البيضاوي المسمى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) بيروت ، دار الكتب العلمية ، ط/ الأولى ، ١٤٠٨هـ .

٥٥ - تفسير الجلالين ، لجلال الدين المحلي ، وجلال الدين السيوطي ، راجعه أحمد محمد شاكر ، وعلي محمد شاكر (مصر : دار المعارف ، د.ت) .

٥٦ - تفسير ابن كثير،ت/حسين بن إبراهيم زهران (بيروت:دار الكتب العلمية ،ط١، ١٤٠٦هـ) .

٥٧ - تفسير المنار ، لمحمد رشيد رضا ، دار الفكر ط / ٢ ، د،ت .

٥٨ - تفسير النسفي ، ت الشيخ زكريا عميرات (بيروت:دار الكتب العلمية ، ط الأولى ، ١٤١٥هـ) .

٥٩ - التلخيص في علوم البلاغة للقزويني، ت/ عبدالرحمن البرقوقي (بيروت: دار الكتاب العربي، د،ت) .

٦٠ - تيسير الكريم الرحمن للسعدي ، ت / محمد زهري النجار (الرياض : مكتبة الخلفاء ، ط / ١ ، ١٤٠٨هـ) .

٦١ - ثلاث رسائل في اعجاز القرآن للرماني والخطابي والجرجاني ، ت / محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام (مصر : دار المعارف ، د،ت) .

٦٢ - الجاحظ في حياته وأدبه وفكره ، للدكتور / جميل جبر (بيروت : الشركة العالمية للكتاب ، د،ت) .

٦٣ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن لابن جرير الطبري (مصر:مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، د،ت) .

٦٤ - جامع التحصيل في أحكام المراسيل لأبي سعيد العَلائي ، ت / حمدي عبدالمجيد السلفي (بيروت : عالم الكتب ، ط / ٢ ، ١٤٠٧هـ) .

٦٥ - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٤١٣هـ) .

٦٦ - الجامع الصحيح لأبي عيسى الترمذي ، ت/أحمد محمد شاكر ، دار إحياء التراث ، د.ت .

٦٧ - الجمل في النحو لأبي القاسم الزجاجي ، ت / د. علي توفيق الحمد (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط الخامسة ، ١٤١٧هـ)

٦٨ - الجملة الفعلية ، للدكتور / علي أبو المكارم (مصر : مكتبة الشباب ، د.ت) .

٦٩ - جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ، ت/ علي فاعور (بيروت : دار الكتب العلمية ط/ ١ ، ١٤٠٦هـ) .

٧٠ - الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي ، ت / فخر الدين قباوة ، محمد نديم فاضل ، (بيروت : دار الكتب العلمية ط / ١ ، ١٤١٣هـ) .

٧١ - الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية ، مطابع المجد التجارية ، د،ت .

٧٢ - حاشية الروض المربع شرح زاد المستنقع لعبد الرحمن بن قاسم ط/ ٥ ، ١٤١٣هـ .

٧٣ - حاشية الشهاب المسماة عناية القاضي وكفاية الراضي ، للقاضي شهاب الدين الخفاجي ، ت/عبدالرازق المهدي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤١٧هـ) .

٧٤ - الحذف والتقديم والتأخير في ديوان النابغة الذبياني ، لابتسام أحمد حمدان (دمشق : دار طلاس ، ط / ١ ، ١٩٩٢م) .

٧٥ - حروف الجر دلالتها وعلاقاتها ، إبراهيم الشمسان (جدة : دار المدني ط/ ١، ١٤٠٧هـ) .

٧٦ - حروف الجر في العربية بين المصطلح والوظيفة ، للدكتورة / نور الهدى لوشن ، بنغازي : منشورات جامعة قاريونس ، ط / ١ ، ١٩٩٥م .

٧٧ - حروف المعاني ، للدكتور / عبدالحي حسن جمال ، الطائف : مكتبة المعارف ط / ١ ، ١٣٩١هـ .

٧٨ - حلية الأولياء لأبي نعيم مصر ، مطبعة السعادة ط / ١ ، ١٤١٢هـ .

٧٩ - حياة الصحابة للكاندهلوي ، دار التراث العربي ، ط / ٢ ، ١٤٠٢هـ .

٨٠ - خزانة الأدب لعبدالقادر البغدادي ، ت / عبدالسلام هارون (القاهرة : مكتبة الخانجي ، ط / ٣ ، ١٤٠٩هـ) .

٨١ - الخصائص لابن جني ، ت / محمد علي النجار ، نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية .

٨٢ - خصائص التراكيب ، للدكتور / محمد أبو موسى (القاهرة : مكتبة وهبه ، ط / ٣ ، د.ت)

٨٣ - خصائص التشبيه في سورة البقرة ، د/ إبراهيم داود (مصر : مطبعة الأمانة ، ط/ ١ ، ١٤٠٦هـ) .

٨٤ - الخلافة في الأرض ، د/ أحمد حسن فرحات (الكويت : دار الأرقم ، ط/ ١ ، ١٤٠٦هـ) .

٨٥ - دراسات قرآنية ، لمحمد قطب (بيروت : دار الشروق ، د ، ت) .

٨٦ - دراسات لاسلوب القرآن العظيم لمحمد عبدالخالق عظيمة (مصر: مطبعة السعادة ، ط/ ١ ، ١٣٩٣هـ .

٨٧ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور ، للسيوطي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤١١هـ .

٨٨ - دقائق التفسير الجامع لتفسير ابن تيمية ، ت / الدكتور محمد السيد الجليد (دمشق : مؤسسة علوم القرآن ، ط / ٢ ، ١٤٠٤هـ)

٨٩ - دلالات التراكيب د. محمد محمد أبو موسى (مصر : مكتبة وهبة ، ط الثانية،١٤٠٨هـ) .

٩٠ - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة ، للبيهقي ، ت/عبدالمعطي قلعجي (بيروت دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ، ١٤٠٥هـ) .

٩١ - دلائل الاعجاز للجرجاني ، ت/ محمود محمد شاكر (القاهرة : مكتبة الخانجي، ط/ ٢ ، ١٤١٠هـ) .

٩٢ - ديوان الأقيشر الأسدي ، جمع وتحقيق د/خليل الدويهي (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط/ ١ ، ١٤١١هـ) .

٩٣ - ديوان الاعشى الكبير ، شرح مهدي محمد ناصر الدين ، (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ٢ ، ١٤١٣هـ) .

٩٤ - ديوان امريء القيس ، ت/ مصطفي عبدالشافي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١، ١٤٠٣هـ) .

٩٥ - ديوان أمية بن أبي الصلت ، جمع وتحقيق الدكتور/ عبدالحفيظ السطلي (دمشق : المطبعة التعاونية ، ١٩٧٤) .

٩٦ - ديوان جرير (بيروت:دار صادر ، د.ت) .

٩٧ - ديوان حسان بن ثابت ، شرح عبدأ . مهنّا (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ، ١٤٠٦هـ) .

٩٨ - ديوان ذي الرمة ، ت/عبدالقدوس ابوصالح (بيروت: مؤسسة الإيمان ، ط / ٢ ، ١٤٠٢هـ) .

٩٩ - ديوان الراعي ، شرح د / واضح الصمد (بيروت : دار الجيل ط / ١ ، ١٤١٦هـ) .

١٠٠ - ديوان رؤبة بن العجاج ، ت/ وليم الورد (بيروت : دار الآفاق الجديدة، ط/ ١، ١٩٧٩م) .

١٠١ - ديوان زهير بن أبي سلمى (بيروت : دار صادر ، د.ت) .

١٠٢ - ديوان سقط الزند لأبي العلاء المعري ، شرح : أحمد شمس الدين ، بيروت دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ، ١٤١٠ هـ .

١٠٣ - ديوان طرفة بن العبد(بيروت : دار صادر ، د.ت) .

١٠٤ - ديوان عدي بن الرقاع ، ت / الدكتور نوري القيسي ، والدكتور حاتم الضامن ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، ١٤٠٧هـ .

١٠٥ - ديوانا عروه بن الورد والسمو أل (بيروت : دار صادر د.ت) .

١٠٦ - ديوان عنتره (بيروت : دار صادر ، د.ت) .

١٠٧ - ديوان الفرزدق شرحه على فاعور (بيروت : دار الكتب العلمية ،ط / ١ ، ١٤٠٧ هـ) .

١٠٨ - ديوان قيس بن الخطيم ت / ناصر الدين الأسد ، بيروت ، دار صادر ط/ ٢ ، ١٣٨٧ هـ .

١٠٩ - ديوان كثيّر عزة ، شرحه مجيد طراد (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط/ ١ ، ١٤١٣هـ) .

١١٠ - ديوان الكميت ، جمع الدكتور / داود سلوم (بيروت : عالم الطباعة ، ط٢ ، ١٤١٧هـ) .

١١١ - ديوان لبيد بن ربيعة ، شرح الطوسي ، ت / الدكتور حنا نصر الحتي (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط / ١، ١٤١٤هـ) .

١١٢ – ديوان المتنبي (بيروت : دار صادر ، د.ت) .

١١٣ – ديوان النابغة الجعدي (دمشق : المكتب الإسلامي ، ط / ١ ، ١٣٨٤هـ) .

١١٤ – ديوان النابغة الذبياني بشرح عباس عبدالساتر (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١، ١٤٠٥هـ) .

١١٥ – ديوان يزيد بن مفرغ الحميري ، جمع عبدالقدوس صالح (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط/ ٢ ، ١٤٠٢هـ) .

١١٦ – ديوان إبي تمام . ت/شاهين عطية (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) .

١١٧ – ديوان أبي النجم العجلي ، جمع علاء الدين آغا (الرياض : مطبوعات النادي الأدبي ، ١٤٠١هـ) .

١١٨ – ديوان ابن تيمية ، جمعه محمد عبدالرحيم (بيروت : دار الجيل ، ط / ١ ، ١٤١٤هـ) .

١١٩ – ديوان ابن المعتز (بيروت : دار صادر ، د.ت) .

١٢٠ – روح المعاني للالوسي ، ت/علي عبدالباري عطية (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/الأولى ، ١٤١٥هـ) .

١٢١ – رصف المباني في شرح المعاني للمالقي ، ت / د. أحمد محمد الخراط ، (دمشق : دار القلم ط / ٢ ، ١٤٠٥هـ) .

١٢٢ – زاد المسير لابن الجوزي بيروت المكتب الاسلامي ط / ٣ ، د. ت ، ١ / ٣٥

١٢٣ – سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة لمحمد ناصر الألباني (الرياض : مكتبة المعارف ، ط / ١ ، ١٤١٢هـ) .

١٢٤ – سنن الدارمي ، ت/محمد عبدالعزيز الخالدي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ، ١٤١٧هـ) .

١٢٥ – السنن الكبرى للنسائي ، ت/الدكتور عبدالغفار البنداري ، وسيد كسروي حسن (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ، ١٤١١هـ) .

١٢٦ – سنن أبي داود ، ت/عزّت عبيد الدعاس ، وعادل السيد (بيروت : دار الحديث ، ط/ ١ ، ١٣٨٨هـ) .

١٢٧ – سنن ابن ماجه ، ت/محمد فؤاد عبدالباقي (القاهرة : دار الحديث ، د.ت) .

١٢٨ - سير أعلام النبلاء للذهبي ، ت / شعيب الأرنؤوط (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط / ١٠ ، ١٤١٤هـ) .

١٢٩ - السيرة النبوية لابن كثير ، ت/ د. مصطفى عبدالواحد (بيروت : دار المعرفة ، ١٤٠٢هـ) .

١٣٠ - شذا العرف في فن الصرف ، للشيخ / أحمد الحملاوي (المدينة المنورة : دار احياء التراث الإسلامي ، ط / ٥ ، ١٤١١هـ) .

١٣١ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، لابن العماد (بيروت : دار الكتب العلمية ، د،ت) .

١٣٢ - شرح جمل الزجاجي لابن هشام ، ت/ د. علي محسن مال الله (بيروت : عالم الكتب ، ط / ٢ ، ١٤٠٦هـ) .

١٣٣ - شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ، ت / أحمد أمين عبدالسلام هارون (بيروت : دار الجيل ، ط / ١ ، ١٤١٤هـ) .

١٣٤ - شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة شرحه عبد أ. علي مهنا (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ، ١٤٠٦هـ) .

١٣٥ - شرح الرضى على الكافية ، لرضي الدين الأستر اباذي ، تصحيح يوسف حسن عمر (بنغازي : منشورات جامعة قاريونس ، ط / ٢ ، ١٩٩٦م) .

١٣٦ - شرح السنة للبغوي ت/ زهير الشاويش وشعيب الأرناط (بيروت : المكتب الإسلامي ، ط / ٢ ، ١٤٠٣هـ) .

١٣٧ - شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب لابن هشام (بيروت : المكتبة العصرية، ١٩٩٢) .

١٣٨ - شرح شواهد المغني للسيوطي تعليق محمد الشنقيطي ، القسم الثاني .

١٣٩ - شرح صحيح مسلم للنووي ، مؤسسة قرطبة ، ط / ٢ ، ١٤١٤هـ .

١٤٠ - شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان للسيوطي (مصر : مطبعة دار إحياء الكتب العربية) .

١٤١ - شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز ، ت / د. عبدالله التركي ، شعيب الأرنؤوط (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط / ٢ ، ١٤١٣هـ) .

١٤٢ - شرح العقيدة الواسطية للشيخ محمد بن عثيمين ، تخريج سعد بن فواز الصميل (الدمام : دار ابن الجوزي، ط / ٢ ، ١٤١٥هـ) .

١٤٣ - شرح كتاب الحدود في النحو للفاكهي ، ت / الدكتور: المتولي رمضان الدميري (مصر: مكتبة وهبه ، ط / ٢ ، ١٤١٤هـ) .

١٤٤ - شرح المفصل لابن يعيش النحوي ، (بيروت ، د. ت) .

١٤٥ - الشرط في القرآن على نهج اللسانيات الوصفية ، للدكتور / عبدالسلام المسدي ، والدكتور/ محمد الهادي الطرابلسي (ليبيا : الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٥م) .

١٤٦ - شروح التلخيص :

أ - مختصر السعد على تلخيص المفتاح للتفتازاني .

ب - مواهب الفتاح في شرح وتلخيص المفتاح للمغربي

ج - عروس الأفراس في شرح تلخيص المفتاح للسبكي .

د - الإيضاح للقزويني .

هـ - حاشية الدسوقي على شرح تلخيص السعد .

بيروت دار الكتب العلمية ، د.ت .

١٤٧ - الشعر والشعراء لابن قتيبه ، ت / د: مفيد قميحة ، نعيم زرزور (بيروت: دار الكتب العلمية ، ط / ٢ ، ١٤٠٥هـ) .

١٤٨ - الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ت / الدكتور عمر فاروق الطّباع ، (بيروت : مكتبة المعارف ، ط/ ١ ، ١٤١٤هـ) .

١٤٩ - الصحاح للجوهري ، ت/ أحمد عبدالغفور عطّار (بيروت : دار العلم للملايين ، ط/ ٣ ، ١٤٠٤هـ) .

١٥٠ - صفوة الآثار والمفاهيم من تفسير القرآن العظيم ، للشيخ / عبدالرحمن الدوسري (الكويت : دار الأرقم ، ط / ١ ، ١٤٠٢هـ) .

١٥١ - الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري ، ت / علي محمد البجاوي ، محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت : المكتبة العصرية ، ١٤٠٦هـ) .

١٥٢ - طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ، ت/ محمد أبو الفضل إبراهيم (مصر : دار المعارف ، ط / ٢ ، د.ت) .

١٥٣ - الطـراز ، يحـيى بن حـمزة العلـوي ، ت / محـمد عبدالسلام شاهين (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط١ ، ١٤٠٥هـ) .

١٥٤ - طريق الهجرتين وباب السعادتين ، لابن القيم (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤٠٢هـ) .

١٥٥ - الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي، ترجمة/ عبدالصبور شاهين (دمشق: دار الفكر، ١٤٠٢هـ) .

١٥٦ - عـالم الملائكـة الأبرار للدكـتور عمر سليمان الأشقر (الكويت : مكتبة الفلاح ، ط / ٣ ، ١٤٠٣هـ) .

١٥٧ - العبر في خبر من غبر، ت/ محمد السيد بن بسيوني زغلول (بيروت : دار الكتب العلمية، ط / ١ ، ١٤٠٥هـ) .

١٥٨ - العقد الفريد لابن عبد ربه ، ت / الدكتور : عبدالمجيد الترحيني (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ١٤٠٤هـ) .

١٥٩ - العقل وفهم القرآن للحارث المحاسبي ، ت / حسين القوتلي (بيروت : دار الفكر ، ط/ ٢، ١٣٩٨هـ) .

١٦٠ - العقيدة في الله ، لعمر بن سليمان الأشقر(الكويت : مكتبة الفلاح ، ط/ ٥ ، ١٩٨٥) .

١٦١ - علوم البلاغة ، أحمد مصطفى المراغي (بيروت : دار القلم ، د.ت) .

١٦٢ - العمدة في صناعة الشعر ونقده ، لابن رشيق ، تأليف محمد محيي الدين عبدالحميد (بيروت : دار الجيل ، ط / ٤ ، ١٩٧٢) .

١٦٣ - العين للخليل بن أحمد ، ت/ مهدي المخزومي ، د. إبراهيم السامرائي ، دار مكتبة الهلال ، د.ت) .

١٦٤ - غرائب القرآن ورغائب الفرقان لنظام الدين النيسابوري ، ت/ ابراهيم عطوة عوض (مصر : مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ط / ١ ، ١٣٨١هـ) .

١٦٥ - الفائق في غريب الحديث للزمخشري ، ت / علي محمد البجاوي ، محمد ابوالفضل إبراهيم ، دار الفكر ، ط / ٣ ، ١٣٩٩هـ .

١٦٦ - الفتاوى لابن تيمية ، جمع محمد بن عبدالرحمن بن قاسم ، نسخة مصورة عما طبع في مطبعة الحكومة بمكة المكرمة ، ١٣٨٩هـ .

١٦٧ - فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ، ت / عبدالعزيز بن باز (بيروت : دار الكتب العلمية . ط / ١ ، ١٤١٠هـ) .

١٦٨ - فتح البيان في مقاصد القرآن لـ صديق بن حسن القنوجي ، مراجعة عبدالله بن ابراهيم الانصاري (بيروت : المكتبة السعودية ،١٤١٢هـ) .

١٦٩ - فتح القدير، للشوكاني (بيروت : دار الفكر ، د . ت) .

١٧٠ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل شيخ ، ت محمد حامد الفقي (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) .

١٧١ - الفهرست لابن النديم ، ت/ الدكتوز علي يوسف طويل (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ، ١٤١٦هـ) صـ٢٩٤ .

١٧٢ - فوات الوفيات للكتبي ، ت/د. احسان عباس (بيروت : دار صادر ، د،ت) .

١٧٣ - في إعجاز القرآن دراسة تحليلية لسورة الانفال ، للدكتور/ أحمد مختار البزرة (دمشق : دار المأمون للتراث ، ط / ١ ، ١٤٠٨هـ) .

١٧٤ - في ظلال القرآن ، لسيد قطب (بيروت : دار الشروق ، ط / ١٣ ، ١٤٠٧هـ) .

١٧٥ - القاموس المحيط للفيروز ابادي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ١، ١٤١٥هـ) .

١٧٦ - القواعد الأساسية للغة العربية لأحمد الهاشمي (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) .

١٧٧ - القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى ، للشيخ / محمد بن صالح العثيمين (الرياض : مطبعة سفير ، ط / ١ ، ١٤١٢هـ) .

١٧٨ - الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، لابن قدامه (بيروت: المكتب الإسلامي ، ط/ ٢، ١٣٩٩هـ) .

١٧٩ - الكافية في النحو لابن الحاجب ، ت/ الدكتور: طارق نجم عبدالله (جدة :دار الوفاء ، ط/الأولى ، ١٤٠٧هـ) .

١٨٠ - الكامل في اللغة والأدب للمبردت نعيم زرزور ، تغاريد بيضون ، (بيروت: دار الكتب العلمية ، ط/ ١، ١٤٠٧ هـ .

١٨١ - الكتاب لسيبويه، ت/عبدالسلام هارون (بيروت: دار الكتب العلمية، ط/ ٣، ١٤٠٨هـ) .

١٨٢ - كتاب التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزيء الكلبي ، ت / محمد عبدالمنعم التونسي ، وابراهيم عطوة عوض (القاهرة : أم القرى ، د.ت) .

١٨٣ - كتاب اللامات للزجاجي ، ت/ مازن المبارك (دمشق : دار الفكر ، ط/ ٢ ، ١٤٠٥هـ) .

١٨٤ - الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار ، لابن أبي شيبة ، ت/محمد عبدالسلام شاهين (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ، ١٤١٦هـ) .

١٨٥ - الكشاف للزمخشري ، ت محمد عبدالسلام شاهين (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/الأولي ١٤١٥هـ) .

١٨٦ - كشف السر عن حروف الجر للدكتور / ناصر حسين علي (دمشق : المطبعة التعاونية ط/ ١ ، ١٤١٥هـ) .

١٨٧ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة (بيروت : دار الكتب العلمية، ١٤١٣هـ

١٨٨ - كفاحي لهتلر(بيروت : دار الكتب الشعبية ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٥م) .

١٨٩ - لسان العرب ، لابن منظور (بيروت : دار صادر ، د.ت) .

١٩٠ - اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور تمام حسان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ط/ ٢، ١٩٧٩ .

١٩١ - اللمع في العربية ، لابن جني ، ت حامد المؤمن ، بيروت : عالم الكتب ط/ ٢ ، ١٤٠٥هـ.

١٩٢ - لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضيّة ، للسفاريني (دمشق : مؤسسة الخافقين ، ط / ٢ ، ١٤٠٢هـ) .

١٩٣ - مباحث في اعجاز القرآن ، د. مصطفي مسلم (جدة : دار المنارة ، ط / ١ ، ١٤٠٨هـ) .

١٩٤ - المثل السائر لابن الأثير ، ت / الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوي طبانة (الرياض : دار الرفاعي ، ط الثانية ١٤٠٣ هـ) .

١٩٥ - مجلة كلية الدعوة الإسلامية في طرابلس (ليبيا : العدد الحادي عشر ، ١٤١٤هـ) .

١٩٦ - المحتسب لابن جني ، ت/ علي النجدي ناصف ، د/عبدالحليم النجار ، د/ عبدالفتاح اسماعيل شلبي (استامبول : دار سزكين ، ط / ٢ ، ١٤٠٦هـ) .

١٩٧ - المحرر الوجيز لابن عطية ت عبدالسلام عبدالشافي محمد(بيروت : دار الكتب العلمية ، ط / ١ ، ١٤١٣هـ) .

١٩٨ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (بيروت : دار الكتاب العربي ، ط٣ ، ١٤٠٢هـ) .

١٩٩ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، لابن القيم ، ت/ محمد المعتصم بالله البغدادي (بيروت : دار الكتاب العربي ط / ١ ، ١٤١٠هـ) .

٢٠٠ - المدخل إلى دراسة النحو العربي ، للدكتور / على أبو المكارم (مصر : دار الوفاء للطباعة، ط / ١ ، ١٤٠٢هـ) .

٢٠١ - المدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى لأبي النصر السمرقندي المعروف بالحدادي ، ت/ صفوان عدنان داوودي (بيروت : دار القلم ، ط / ١ ، ١٤٠٨هـ) .

٢٠٢ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي ، ت محمد أحمد جاد المولى وعلي البجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم (بيروت :دار الجيل ، د.ت) .

٢٠٣ - مسند الإمام أحمد بن حنبل لأحمد بن حنبل ، ترقيم محمد عبدالسلام الشافي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ، ١٤١٣هـ) .

٢٠٤ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ ١ ،١٤١٤هـ) .

٢٠٥ - معالم التنزيل للبغوي ، ت / خالد عبدالرحمن العك ، مروان سوار (بيروت : دار المعرفة ، ط / ١ ، ١٤٠٦هـ) .

٢٠٦ - معالم السنن للخطابي في هامش سنن أبي داود ت/ عزت الدعاس وعادل السيد (بيروت : دار الحديث ط / ١ ، ١٣٨٩) .

٢٠٧ - معالم المنهج البلاغي عند عبدالقاهر الجرجاني ، للدكتور / محمد بركات حمدي أبوعلي (عمان : دار الفكر ، ط / ١ ، ١٤٠٥هـ) .

٢٠٨ - معاني القرآن للفراء ، ت / محمد علي النجار ، نسخة مصورة عن طبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة .

٢٠٩ - معاهد التنصيص على شواهد التلخيص للعباسي ، ت محمد محيي الدين عبدالحميد (بيروت عالم الكتب ١٣٦٧هـ) .

٢١٠ - معترك الأقران في اعجاز القرآن للسيوطي ، ت / أحمد شمس الدين (بيروت : دار الكتب العلمية ط/ ١ ، ١٤٠٨هـ) .

٢١١ - المعجزة الكبرى القرآن ، لمحمد ابو زهرة (مصر : دار الفكر العربي ، د.ت) صـ ٧٥ .

٢١٢ - معجم الأدوات النحوية للدكتور / محمد التونجي (دمشق : دار الفكر، ط / ٦ ، ١٤٠٠هـ) .

٢١٣ - معجم البلاغة العربية للدكتور بدوي طبانة (جدة : دار المنار ، ط الثالثة ، ١٤٠٨هـ) .

٢١٤ - معجم حروف المعاني ، للدكتور/ أحمد جميل شامي ، بيروت : مؤسسة عز الدين ط/ ١ ، ١٤١٣هـ .

٢١٥ - معجم حروف المعاني في القرآن ، لمحمد حسن الشريف (بيروت : مؤسسة الرسالة ، ط / ١ ، ١٤١٧هـ) .

٢١٦ - معجم القواعد العربية لعبدالغني الدقر (دمشق : دار القلم ، ط / ٢ ، ١٤١٤هـ) .

٢١٧ - المعجم الكبير للطبراني ، ت/حمدي عبدالمجيد السلفي ، مكتبة ابن تيمية ، ط/ ١ ، ١٤٠٠هـ .

٢١٨ - المعجم المفصل في الإعراب ، لطاهر يوسف الخطيب (بيروت : دار الكتب العلمية، ط/ ١، ١٤١٢هـ) .

٢١٩ - المعجم المفصل في علوم اللغة ، للدكتور محمد التونجي ، والاستاذ راجي الأسمر(بيروت : دار الكتب العلمية ، ط/ الأولى ، ١٤١٤هـ) .

٢٢٠ - المعجم المفصل في النحو العربي للدكتورة عزيزة فوّال بابتي (بيروت : دار الكتب العلمية ، ط ١ ١٤١٣هـ) .

٢٢١ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ، أخرجه بعض المستشرقين (لندن ، مكتبة بريل ، ١٩٣٦، نسخة مصورة) .

٢٢٢ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، لمحمد فؤاد عبدالباقي (بيروت : دار الفكر ، د.ت) .

٢٢٣ - معجم المؤلفين لعمر رضا كحّالة (بيروت : دار إحياء التراث العربي ، د.ت) .

٢٢٤ - المعجم الوجيز ، إخراج مجمع اللغة العربية (بيروت : المركز العربي للثقافة والعلوم ، ط/ ١ ، د.ت) .

٢٢٥ - المعجم الوسيط، للدكتور/ إبراهيم أنيس، والدكتور/ عبدالحليم منتصر، وعطية الصوالحي، ومحمد خلف الله أحمد (القاهرة : مطبوعات مجمع اللغة العربية ، ط/ ٢ ، ١٣٩٢هـ) .

٢٢٦ - مغني اللبيب لابن هشام ، ت/ محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار احياء التراث العربي، د.ت .

٢٢٧ - المغني لابن قدامة (الرياض : مكتبة الرياض الحديثة ، ١٤٠١هـ) .

٢٢٨ - مفاتيح الغيب للرازي (بيروت:دار الكتب العلمية ، ط١، ١٤١١هـ) .

٢٢٩ - مفتاح العلوم للسكاكي ، ت/ نعيم زرزور (بيروت : دار الكتب العلمية ط / ٢ ، ١٤٠٧هـ) .

٢٣٠ - المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، ت / محمد سيّد كيلاني (بيروت دار المعرفة ، د،ت) .

٢٣١ - المفصل في علم العربية للزمخشري (بيروت: دار الجيل ، د.ت) .

٢٣٢ - المفضليات للمفضل الضبي ت / أحمد محمد شاكر ، عبدالسلام هارون ، (القاهرة : دار المعارف ط/ ٧ ، د،ت) .

٢٣٣ - مقدمة ابن خلدون ، لابن خلدون (بيروت :دار العودة ، ١٩٨٨) .

٢٣٤ - الملل والنحل للشهرستاني ، ت / محمد سيد كيلاني (بيروت : دار المعرفة ، د،ت) .

٢٣٥ - مناهج بلاغية للدكتور أحمد مطلوب (الكويت : وكالة المطبوعات ، ط/ ١، ١٩٧٣) .

٢٣٦ - من أسرار حروف الجر في الذكر الحكيم ، للدكتور/ محمد الأمين الخضري ، (القاهرة : مكتبة وهبة ط/ ١ ، ١٤٠٩هـ) .

٢٣٧ - من بلاغة النظم العربي للدكتور/ عبدالعزيز عبدالمعطي عرفة (بيروت : عالم الكتب ، ط٢، ١٤٠٥هـ) .

٢٣٨ - من مباحث البلاغة والنقد بين ابن الأثير والعلوي للدكتور / نزيه عبدالحميد فراج (القاهرة : مكتبة وهبة ، ط / ١ ، ١٤١٧هـ) .

٢٣٩ - من هدي سورة البقرة ، لحنان لحام (الرياض : دار الهدى ، ط / ١ ، ١٤٠٩) .

٢٤٠ - موسوعة له الأسماء الحسنى للدكتور أحمد الشرباصي (بيروت :دار الجيل ، ط/ ٢ ، ١٤٠٨هـ) .

٢٤١ - الموطأ لمالك بن أنس ، ت/ محمد فؤاد عبدالباقي (القاهرة : دار الحديث ، ط/ ٢ ، ١٤١٣هـ) .

٢٤٢ - ميزان الاعتدال في نقد الرجال للذهبي ، ت / علي محمد البجاوي (بيروت : دار المعرفة ، د.ت) .

٢٤٣ - نتائج الفكر في النحو للسهيلي ، ت / الدكتور محمد إبراهيم البنّا (الرياض : دار الرياض ، د.ت) .

٢٤٤ - النحو الوافي لعباس حسن (مصر : دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، د.ت) .

٢٤٥ - نزهة النظر شرح نخبة الفكر لابن حجر (دمشق: مكتبة الغزالي، ط / ٣ ، ١٤١٣هـ) .

٢٤٦ - النشر في القراءات العشر لابن الجزري ، مراجعة / علي محمد الضبّاع ، دار الكتاب العربي ، د.ت .

٢٤٧ - نظرية اللغة في النقد العربي للدكتور عبدالحكيم راضي (مصر : مكتبة الخانجي د.ت) .

٢٤٨ - النظم القرآني في سورة البقرة ، رسالة دكتوراه مقدمة من حسين أحمد علي الدراويش ، الجامعة الأردنية ١٩٨٦ ، مخطوط .

٢٤٩ - نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لأبي الحسن البقاعي (القاهرة : دار الكتاب الإسلامي، ط٢ ، ١٤١٣هـ) .

٢٥٠ - النفاق آثاره ومناهجه للشيخ عبدالرحمن الدوسري (الكويت : مكتبة دار الأرقم ، ط/ ٢ ، ١٤٠٢هـ .

٢٥١ - همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية للسيوطي ، تصحيح محمد بدر الدين النعساني (بيروت : دار المعرفة ، د.ت) .

٢٥٢ - الوابل الصيّب من الكلم الطيب ، لابن القيم ، ت / إبراهيم العجوز (بيروت : دار الكتب العلمية ، د.ت) .

٢٥٣ - الوفاء بأحوال المصطفى ، لابن الجوزي ، ت/ مصطفى عبدالواحد (مصر : مطبعة السعادة، ط / ١ ، ١٣٨٦هـ) .

٢٥٤ - وفيات الأعيان ، وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان ، ت / د. إحسان عباس (بيروت : دار صادر ، د.ت) .

(فهرس الموضوعات)